

مكتبة مصر

تاريخ
الدين
العربي

الكتاب

مكتبة مصر
مصر - بيروت

تاريخ الجنس العربي

في

مختلف الأقطار والأدوار والأقطار

تأليف

محمد عيسى درويش

المجلد السادس

العروبة الصريحة في الاسلام
تحت راية النبي صلى الله عليه وسلم

الطبعة الاولى

١٣٨١ - ١٩٦٢

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

المطبعة القصصية للطباعة والنشر

مبنى البستان - تلفون ٧٢٠٦٢٤

موجز مشتمل هذا الجزء (١)

المقدمة مع بحث في مصادر تاريخ دور العروبة الصريحة
في الاسلام

تمهيدات

الفصل الأول : نشأة النبي وحياته قبل البعثة

الفصل الثاني : البعثة النبوية وسيرة النبي بعدها في مكة

الفصل الثالث : سيرة النبي في المدينة

خاتمة في الرسالة المحمدية والدستور القرآني في شؤون الحياة

العروبة الصريحة في الاسلام
تحت راية النبي صلى الله عليه وسلم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

نحمد الله تعالى على توفيقه وتيسيره طبع الاجزاء الخمسة السابقة من هذه السلسلة التي توخينا جمع تاريخ الجنس العربي في مختلف الأطوار والأدوار والأقطار في حلقاتها واحدة بعد أخرى .

ومن الحق أن نذكر ونشكر في هذا المقام الاستاذ شريف الأنصاري صاحب المكتبة والمطبعة العصرية الذي ساعد على تحقيق الفكرة وطبع الأجزاء الخمسة وما يزال يواصل استعداداه وتشجيعه على اتمام السلسلة .

ولقد نبهنا في المقدمة التي كتبناها للكتاب في الجزء الأول إلى أن الجنس العربي مر في ثلاثة اطوار أو أدوار . الاول ما قبل العروبة الصريحة أي الطور الذي لم تكن العربية الفصحى او القريية اليها لغته واسم العرب مطلقاً عليه اطلاقاً شاملاً أو قريباً من الشمول . واعتبرنا الموجات التي خرجت من جزيرة العرب في هذا الطور واستعمرت الاقطار المجاورة لها من شمالها وجنوبها من متناول مباحث هذا الدور حيث كانت وظلت مشاركة في اللغة والعقائد والافكار على ما بسطناه في تلك المقدمة . وقد كسرنا على تاريخ هذا الدور الأجزاء الأربعة الاولى .

وسمينا الطور او الدور الثاني باسم العروبة الصريحة قبل الاسلام لأن اللغة العربية الصريحة غدت لغة هذا الجنس في الجزيرة العربية ولغة من خرج منها إلى الاقطار المجاورة فيه كما غدا اسم العرب يطلق عليه جزئياً ثم شاملاً . وقد عقدنا له الجزء الخامس .

وسمينا الدور الثالث بدور العروبة الصريحة بعد الاسلام . وهذا الجزء هو اول الاجزاء التي عقدناها على هذا الدور . وستتناول فيه تاريخ الحقبة التي كانت تحت راية النبي العربي العظيم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم .

ونرجو اذا فصح الله في العمر وادام علينا نعمة العافية ان تتبعه بجزء ثان يتناول تاريخ
الحقبة التي كانت تحت راية الخلفاء الراشدين وبثالث تحت راية الامويين في بلاد الشام
والاندلس ورابع تحت راية العباسيين وبخامس يتناول تاريخ دول الجزيرة العربية منذ
القرن الثالث الهجري الذي خرجت فيه من نطاق سلطان العباسيين المباشر فيكون عدد
اجزاء السلسلة التي عنوانها بتاريخ الجنس العربي عشرة يضاف اليها الاجزاء الثلاثة من كتابنا
الذي عنوانه بعنوان العرب والعروبة في حقبة التغلب التركي الذي كان ضمن منهج الكتاب
الاصلي وجردناه وطبعناه لحدته والذي أرخنا فيه سيرة الارومات والاسر العربية الاصلية
التي برزت في مجال الحكم والسلطان في بلاد الشام والعراق ووادي النيل وبقيصة شمال
افريقية في الحقبة المذكورة التي بدأت بأواخر القرن الثالث الهجري وامتدت الى القرن
الرابع عشر كما شرحنا فيه حركة القبائل العربية التي ظلت تتموج في هذه الحقبة في هذه
البلاد وتغذي مدنها وقراها وباديتهما بالدم العربي فتساعد على حفظ الصبغة العربية فيها قوية
نامية امام تيار الزحف التركي الذي استمر وصار له في هذه البلاد السيادة والسلطان ، وقد
جمعنا في اجزاء هذه الكتب التي بلغ عدد صفحاتها نحو الالفين حلقات مفككة وحبات مشورة
من تاريخ العرب السياسي والاجتماعي والقومي في حقبة طويلة امتدت اكثر من عشرة
قرون من تاريخهم وختمناها بشرح المراحل التي توطدت بها السيادة العربية الخالصة عوداً على
بدء في كل قطر من اقطار هذه البلاد فلأئنا كما نرجو الفراغ الذي يبدو في
هذه الحقبة التي كانت السيادة فيها على هذه البلاد للعناصر التركية ومن نشأ في ظلها
من عناصر كردية وشركسية والباية فبلغ عدد الاجزاء بها ثلاثة عشر . وكنا قد خصصنا
الاجزاء التاسع والحادي عشر والثاني عشر للموضوع في سلسلة الكتاب . وقد جمعنا دور العرب
الصريحة قبل الاسلام في جزء واحد وهو الخامس وكنا قد خصصنا له الجزئين الخامس
والسادس في السلسلة . وبذلك نقص عدد الاجزاء عن ما كنا ذكرناه في الجزء الاول واحد

مصادر تاريخ دور العروبة الصريحة في الاسلام

ومصادر تاريخ هذا الدور ومادته متوفرة جداً بما لا يقاس عليه مما كان من ذلك في
الدورين السابقين له على ما شرحناه في الاجزاء الخمسة . لان وسائل التدوين والرغبة فيه عمت
وساعت وامكن حفظ كثير مما دون وسجل بكثرة ما نسخ من المدونات وانتشر .

ومن هذه المصادر ما لا يرقى اليه اي شك وما هو صادق كل الصدق ونعني به القرآن

الكويم الذي حفظه الله تعالى كما بلغه رسوله وربّه حفظاً عظيماً مثل فيه المعجزة الربانية التي

جاءت مصداقاً لاية سورة الحجر هذه : (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ٩)

وفيه صور قوية مشرقة عن سيرة النبي العربي العظيم الذي كان رائد هذا الدور من تاريخ
الجنس العربي وحامل مشعل الهداية الربانية للعالمين في الوقت نفسه ، وعن الاسس الجديدة
الرائعة الروحية والسياسية والاجتماعية والاخلاقية والفكرية والانسانية التي قام عليها هذا
الدور وامتاز بها عن الدورين السابقين .

ويأتي بعده احاديث النبي صلى الله عليه وسلم واصحابه رضوان الله عليهم حيث تحتوي
مادة تاريخية غير يسيرة ولو كان نطاقها ضيقاً لأنه منحصر في حقبة قصيرة من هذا الدور
ونعني بها سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين . وإن كانت من ناحية ثانية
احتوت كثيراً بما له صلة بالخطوط والاسس المذكورة التي قام عليها هذا الدور .

وهي إلى هذا لم تسلم كما سلم القرآن . فقد كان النبي عليه السلام ينهى عن كتابة شيء
عنه غير القرآن وسار خلفاؤه الراشدون على سنته تفادياً من الاختلاط واللبس بين القرآن
وبين كلام النبي الذي ليس قرآناً^١ فلم يكذبون من احاديث النبي شيء في حياته وفي
عهد الخلفاء الراشدين الذي امتد إلى السنة الاربعين للهجرة باستثناء شيء قليل حيث روي ان
عبد الله بن عمرو بن العاص كان يدون في حياة النبي بعض الاحاديث في صحيفة عرفت بالصادقة^٢
وان عروة بن الزبير كان يدون بعض الاحاديث التي كان يتلقاها من ام المؤمنين عائشة وهي
عمته . وكان على صلة وثيقة بها^٣ وقد ظلت الاحاديث محفوظة في الصدور ومتداولة على
اللسنة قرابة مائة عام ثم بدىء بتدوينها رسمياً إن صح التعبير وفي نطاق ضيق في زمن عمر بن
عبد العزيز الخليفة الاموي (٩٩ - ١٠١ هـ) وبأمره^٤ ثم اتسع هذا النطاق حتى بلغ ذروته

(١) قواعد التحديث للقاسمي ص ٥٥

(٢) كتاب السنة للباعلي ص ٧٣

(٣) مقدمة ابن هشام ج ١ ص ٥

(٤) كتاب السنة ص ١١٩-١٢١ وقواعد التحديث ص ٥٥

في القرون الثاني والثالث والرابع حيث صارت الاحاديث المدونة تعد بمئات الالوف بعد ان كانت تعد بالعشرات ثم بالمئات ثم بالالوف بعد ان كانت تعد بالعشرات ثم بالمئات ثم بالالوف القليلة^١ ولقد كان اصحاب رسول الله وتابعوهم أي رجال القرن الاول للهجرة قد تفرقوا في الاقطار فصاروا يروون الاحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وكبار اصحابه . ولقد نجم قرن الخلاف على الحكم والسلطان في الثلث الاول من القرن الاول ثم اخذ يتفام وينشأ نتيجة له فرق وطوائف وشيع واحزاب متنافسة متناحرة . ثم تبع ذلك او نجم عنه خلاف في تأويل كثير من نصوص القرآن وتطور واتسع حتى شمل كثيراً من المعاني والمبادئ . وانقسم المختلفون بدورهم شيئاً وفاقاً وطوائف متناحرة متناكرة . واندمج في هؤلاء واولئك شعوبيون حاقدون على العرب والاسلام وحاولوا زيادة الخلاف والتناحر شدة ولهيأ . وعمد كثير من المختلفين الى تأييد ارائهم واهوائهم بأحاديث نبوية وصحابة . وكان ذلك قبل جمع الحديث بنطاق واسع وتدوينه فشاع على اللسان وتداولته الأجيال ودون فيما دون عند جمع الحديث في القرن الثاني للهجرة مع ان كثيراً منه يتحمل التوقف ويبعث على الشك ويتناقض مع نصوص القرآن والثابت من الحديث والمتواتر من الروايات والوقائع ثم مع الحق والعقل والمنطق بل وقد ثبت لمحوري الحديث وعلمانه كذب كثير منه فأدى ذلك إلى تشويه حوادث سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين والسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار الذين سجل الله تعالى في القرآن رضاه عنهم

(١) جاء في كتاب قواعد التحديث للقاسمي (ص ٦٠) انه روي عن البخاري انه قال (احفظ مئة الف حديث من الصحيح ومثي الف من غيره والبخاري توفي في اواسط القرن الثالث الهجري (٢٥٦ هـ) ومن الجدير بالذكر انه لم يدون في كتابه من الصحيح الذي ثبت عنده حسب منهجه الا نحو سبعة الاف حديث نصها تقريباً مكرر ! وما ذكره القاسمي في كتابه ومصطفى السباعي في كتابه المذكور آنفا ان اول من بدأ يجمع الحديث بأمر عمر بن عبد العزيز الزهري بن شهاب وابو بكر الحزمي وهما من رجال القرنين الاول والثاني وكان النطاق ضيقاً ثم اتسع على يد الربيع بن صبح وسعيد بن ابي عروب و ابن جريج وابن اسحق والامام مالك وحامد وسفيان الثوري والامام الاوزاعي وسفيان بن عيينه واليث بن سعد وهم من رجال القرن الثاني ثم الامام احمد والبخاري ومسلم والنسائي والترمذي وابن ماجه وهم من رجال القرن الثالث .

ورضاؤهم عنه ١ ، وبلبلة الأفكار فيها . فضلاً عما أدى اليه من بلبلة الأفكار في أسس الشريعة الإسلامية ومبادئها وأهدافها وتلقيناتها بما قرره القرآن الكريم وأوضحته وفسرته السنة النبوية قولاً وعملاً .

وهكذا اختلط السبين من الحديث بالغث والضعيف بالصحيح والصادق بالموضوع حين التدوين وكان ذلك من الكوارث على الإسلام والأمة الإسلامية وتاريخ العرب والإسلام معاً .

ومن هنا تظهر عظمة تلك المعجزة الربانية التي حفظت القرآن من كل تبديل وتغيير وتحريف وزيادة ونقص مجعاً عليه في رسم واحد ونص واحد ومصحف واحد وترتيب واحد في مشارق الأرض ومغاربها محتفظاً بكل إشرافه وسنائه وروحانيته والفاظه وحروفه وأسلوب ترتيبه وتلاوته التي تلاها رسول الله صلى الله عليه وسلم وبترتيبه الذي رتبه آيات في سور وسور في مصحف مما لم يتيسر لأي كتاب ساهوي ولا لأي نبي . وقد ظل مرجع كل خلاف وحكماء في كل نزاع بين المسلمين على اختلاف فرقهم وأهوائهم والقول الفصل في كل مذهب وعند كل نخلة من مذاهبهم ونحلهم منذ وفاة النبي صلى الله عليه وسلم إلى اليوم وإلى ما شاء الله لهذا الكون ان يدوم . ويكفي لتبيين عظمة المعجزة الربانية ان يذكر المرء ما كان من فتن وخلاف وشقاق وحروب وتنافس في سبيل الحكم والسلطان منذ صدر الإسلام الأول وما كان من اجتراء اصحاب الأهواء في ذلك العهد وبعده على رسول الله (ص) والكذب عليه في وضع الاحاديث المتضمنة تأييد فئة على فئة ورأي على رأي ودعوة على دعوة وما كان من وضع الاحاديث والروايات لصرف آيات القرآن الى غير وجهها الحق بسبيل ذلك وما كان من استعلاء قوم على قوم وشيعة على شيعة استعلاء القوة والسلطان مع اشتداد العداء والتجريح واشتداد تيار الاحاديث المفتراة . وكان ممن صار له السلطان القوي الواسع المديدقات كانت تقيم دعوتها على صرف تلك الآيات الى هواها وتأويلها بغير وجهها الحق ؛ وان يذكر ان هذا كان في وقت لم يكن القرآن فيه مطبوعاً ولا مصوراً ولم يكن من المستحيل فيه ان يجروا الذين اجتروا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وصرخوا الآيات القرآنية إلى غير

(١) آية التوبة ١٠٠ (وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ
وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ)

وجبها الحق على كتاب الله تعالى فيغيروا ويبدلوا ويزيدوا وينقصوا شيئاً سائغاً على المسلمين مؤيداً لاهوائهم وينشروه في مصاحف عديدة وفي وقت كانت الكتابة العربية فيه سقيمة ولم يكن قد اخترع النقط والشكل وكان التشابه بين الحروف كثيراً واحتمال اللبس قوياً .

نقول هذا ونحن نعرف ان هناك بعض روايات تروى عن بعض آيات وكلمات وحروف تختلف عليها في القرآن وان بعض المستشرقين والمبشرين يقولوا بعض الاقوال في صدد ذلك . غير ان هذا وذاك لا يمس جوهرأ وليس من شأنه ان ينقض شيئاً ما من المعجزة الربانية العظمى . وهو من الضالة والقلة إلى درجة لا تكون شيئاً بالنسبة للمجموع كما انه لا يثبت على النقد والتعويض . وهناك مستشرقون منصفون زيفوا بقوة الاقوال الصادرة عن الهوى والحقد والتعصب ^١ .

ونعود الى الكلام عن الحديث فنقول ان الله قيض رجالا نبهاء مخلصين غيورين بذلوا جهودهم في تنقية الحديث وصفوه مراتب منها الصحيح المتواتر والصحيح والحسن والمرسل والمنقطع والضعيف والموضوع ووضعوا قواعد وضوابط لذلك . غير ان جل اهتمامهم ان لم يكن كله كان منصرفاً الى تعديل الرواة وتبريهم اكثر من المتون مع انه ليس من المستحيل ان 'يغتر بظاهر حال الراوي فيدون عنه ما ليس صحيحاً . مما به اليه ابن خلدون وقال في صده ^٢ (لو ان الاحاديث انتقدت من جهة متونها كما انتقدت من جهة سندها ورواتها لقضت المتون على كثير من الاسانيد بالنقض) ومع ان علماء الحديث وضعوا بعض القواعد بالنسبة للمتون فجعلوا صحة الحديث منوطة بصدق رواته وعدم تناقض نصه مع النصوص القرآنية ولا مع المشهور المتواتر من الاحاديث والسنن النبوية فإن كثيراً منهم لم يلتزمها كما انهم اختلفوا في تطبيقها اختلافاً غير يسير فظلت الاحاديث الضعيفة والمنقطعة والمرسلة والموضوعة والمتناقضة مع القرآن اختلفا تدون مع الاحاديث الصحيحة والمتواترة ويستند اليها اصحاب الاهواء والبدع والمآرب والطموح الى الحكم والسلطان في دعاويهم ودعوتهم .

على ان ذلك كله لا يعني بطبيعة الحال طرح الحديث كمصدر من مصادر تاريخ هذا الدور وبخاصة تاريخ الحقبة التي رويت عنها اي عهد النبي صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين . فهناك احاديث كثيرة تعد بالآلاف تتسم بالصدق والتوافق مع المبادئ والخطوط والصور

(١) انظر كتاب حياة محمد لحسين هيكمل طبعة ثانية ص ٢٥ - ٣٩ وكتابنا القرآن المجيد ص ٥٢ - ١١٥

(٢) حياة محمد لحسين هيكمل ص ٥٠

القرآنية ثم مع الحق والعقل وطبائع الامور يصح ان يكون عليها معول كبير في تاريخ هذه الحقبة فضلاً عن مساعدتها اعظم مساعدة على تعيين الاحاديث الضعيفة والمفتراة التي يسوقها ارباب الاهواء بسبيل تأييد اهوائهم السياسية وغير السياسية ودحضها .

ويأتي بعد القرآن والحديث كمصدر من مصادر تاريخ هذا الدور وما بعده روايات الرواة التي كانت تمنع كالحديث واوياً عن راو وإن لم تنل تمحيصاً مثله . غير ان معظم الروايات التي تروي احداث سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين والدولة الاموية الشامية بل والشطر الاول من تاريخ الدولة الاموية والأندلسية والدولة العباسية ظلت محفوظة في الصدور ومتداولة على الألسن إلى القرن الثاني للهجرة .

وقد قلنا معظم الروايات لأن هناك روايات تفيد ان عروة بن الزبير كتب بعض احاديث واخبار عن الصدر الاسلامي الأول . وكانت وفاته نحو سنة ٩٢ هـ وان إبان بن عثمان بن عفان فعل مثله وكانت وفاته نحو سنة ١٠٥ هـ . وقد ضاع ما كتبه وإن كان بعض المؤرخين الذين وصلت إلينا كتبهم رويوا بعضه معزواً إليها . ولقد كثروا المدونون نوعاً ما في القرن الثاني ثم في أوائل القرن الثالث فدونا كثيراً من روايات السيرة والخلفاء الراشدين والدولة الأموية وعصر الجاهلية . معنعة من راو الى راو الى ان تصل الى صحابي او تابعي . ومن هؤلاء وهب بن منبه اليميني المتوفى نحو سنة ١١٠ هـ وشرحبيل بن سعد المتوفى نحو سنة ١٢٣ هـ وابن شهاب الزهري المتوفى سنة ١٢٤ هـ وعاصم بن عمر بن قتادة المتوفى نحو سنة ١٢٠ هـ وعبد الله بن ابي بكر بن حزم المتوفى نحو سنة ١٣٥ هـ وموسى بن عقبة المتوفى سنة ١٥٠ هـ ومحمد بن اسحق المتوفى نحو سنة ١٥٢ هـ وزيد البكاء المتوفى نحو سنة ١٨٣ هـ والواقدي المتوفى نحو سنة ٢٠٧ هـ وابن هشام المتوفى نحو سنة ٢٢٥ هـ وابن سعد المتوفى نحو سنة ٢٣٠ هـ .

غير انه لم يصل إلينا من هذه المدونات كاملة إلا مغازي الواقدي على شك في امره وطبقات ابن سعد وكتاب ابن هشام الذي استوعب اكثر ما كتبه ابن اسحق . وقد أدرك الطبري واليعقوبي والدينوري وغيرهم من مؤرخي القرنين الثالث والرابع شيئاً مما كتبه الكتاب الاولون وحفظوه لنا ^١ . ويمكن ان يضاف الى هذه القائمة البلاذري المتوفى سنة ٢٧٩ الذي وصل إلينا كتابه القيم المسمى بفتوح البلدان . وابن قتيبة الدينوري المتوفى

(١) انظر مقدمة ناشري سيرة ابن هشام مطبعة مصطفى الحلبي ج ١ ص ٥ - و . والطبري عاش في اواخر القرن الثالث واول القرن الرابع واليعقوبي عاش الى اواخر القرن الثالث والدينوري توفي في

سنة ٢٧٦ الذي وحل الينا كتابه المسمى بالامامة والسياسة والذي دون فيه تاريخ الخلفاء الراشدين . ويمكن ان يضاف اليها أيضا اسمان عظيمان هما الامام ابو يوسف المتوفى في أواخر القرن الثاني والذي وحل الينا كتابه القيم (الخراج) والامام ابو عبيد القاسم بن سلام المتوفى سنة ٢٢٤ والذي وحل الينا كتابه القيم (الاموال) حيث احتوى كتاباهما كثيراً من روايات السيرة النبوية والخلفاء الراشدين أيضاً .

ولقد لعبت الطبيعة البشرية دوراً في ما دونته المدونون القدماء أو رواه الرواة من روايات حيث يلمس الناظر فيه كثيراً من المبالغات والمفارقات واخيل والتدليس والاختلاط والتعدد في الاحداث والاسماء والوقائع والازمنة والامكنة وبجاجة في ما يعود الى ما قبل البعثة وروى او دون مقدمة للسيرة النبوية كما لعبت الاهواء الناجمة عن الخلاف والشقاق والمنافسات في الصدر الاسلامي الاول ثم في زمن الدولة الاموية والشرط الاول من الدولة العباسية دوراً أيضاً حيث يلمس الناظر آثار الحزبية والهوى وقصد التشويش والتشويه والتسوية والتفاخر والتباهي الخ ومنها ما روي ودون عن هوى ومنها ما روي وكتب كتنقل امين . ولقد صنع ابن هشام وابن سعد والبلاذري وابن قتيبة والطبري من الذين وصلت الينا كتبهم والذين رويوا كثيراً من تاريخ ما قبل البعثة ثم من سيرة النبي وخلفائه الراشدين والدولة الاموية خيراً كثيراً في اثباتهم روايات عديدة في موضوع واحد كتنقله امينين مع تنبيه بعضهم احياناً الى عدم تصديقهم لبعضها او شكهم في بعضها ومع سكوتهم عن بعضها فكان لنا من ذلك مادة تاريخية هامة منها كانت مشوشة فإن في الامكان استخلاص حقائق كثيرة منها وتمييز غثها من سمينها وكذبها من صادقها بالمقارنة والتحصيص . وقد فعل شيئاً من ذلك في صدد ما روي من خلاف اصحاب رسول الله على الخلافة وما وجه اليهم من مطاعن علماء مخلصون مثل ابن العربي في كتابه العواصم من القواصم وابن تيمية في كتابه منهاج السنة ومختصره المنتقى وابن كثير في كتابه البداية والنهاية فوضعوا الامور في نصابها الحق ودافعوا عن الرعي الاول من المسلمين الذين سجل الله في القرآن رضاه عنهم ورضاهم عنه ما نحل اليهم والصق بهم من اقوال وتهم فخدموا تاريخ الاسلام والعرب اجل خدمة .

أما تاريخ القرن الثالث الهجري وما بعده فصار على ما يظهر يدون من قبل كتاب معاصرين او قريبين من العصر الذي وقعت فيه الاحداث . وجرى هؤلاء أو كثير منهم على سنة حميدة حيث كانوا يبدؤون مدوناتهم بأحداث ما قبل القرن الذي يجيئون فيه ويدونون احداثه بشيء من اليجاز وبأسلوب قد يختلف عن اسلوب من سبق من حيث

البحث والسرد والتمحيص ثم يدونون احداث القرن الذي يحويه بتفصيل واسهاب فحفظوا بذلك سلسلة الاحداث التاريخية في ذلك الوقت الذي كانت الكتب عرضة للضياع فيه وقد ضاع فعلا شيء كثير منها وكان من المحتمل ضياع ما احتوته من مادة تاريخية لولا هذه السنة الحميدة التي جرى عليها كثير من مؤرخي المشرق والمغرب العربيين مثل اليعقوبي والطبري وابن الاثير وابن خلدون وابن كثير وابن اياس وابو الفداء وابن عذارى والمسعودي وابن عبد ربه وغيرهم وغيرهم فبأوا لنا مادة تاريخية وافرة متصلة الحلقات لتاريخ هذه الحقبة الطويلة .

وإذا كان من الحق أن الناظر في هذه المدونات يلمس فيها أيضاً اثر الطبيعة البشرية والاهواء معاً بما يراه فيها من مفارقات ومبالغات وخيال وتناقض وتعدد في الاسماء والوقائع والازمنة والامكنة وقصد التسوية والتشويه والانتقاص والتفاخر والتباهي الخ فان من الممكن مع ذلك استخلاص حقائق كثيرة منها وتمييز غثها من سمينها وكاذبها من صادقها بالمقارنة والتمحيص .

وعلى كل حال فالمادة التاريخية لهذا الدور متوافرة توافراً عظيماً . والمدونات التي احتوتها كثيرة ومتعددة ومتنوعة في حجومها وأساليبها وأهدافها بما لا يقاس عليه الامر بالنسبة للدورين السابقين على ما نبهنا اليه قبل . وبشيء من الحرص والتحفظ والاناة والتمحيص والمقارنة يمكن كتابة تاريخ هذا الدور متسلسلا بدون انقطاع وثغرات وبشيء من الوثوق والطمأنينة .

ونريد ان نشير الى مسألة هامة في هذا الصدد وهي نصوص الكتب وأخطب الطويلة المعزوة الى النبي وخلفائه واصحابه وقواد الفتح والولاة في هذا الدور والتي وردت في الكتب القديمة التي وصلت الينا مثل ميرة ابن هشام وطبقات ابن سعد والامامة والسياسة لابن قتيبة وتاريخ الطبري والعقد الفريد والبلاذري واليعقوبي وغيرهم . فليس هناك ما يمكن ان يدل على ان هؤلاء المؤلفين قد اطلعوا على اصول هذه النصوص ومخطوطاتها الاولى .

غير ان هناك روايات عديدة تفيد انهم سمعوا نصوص بعضها من أناس أخبروهم انهم رأوا مخطوطاتها الاصلية ، مثل ما ذكره ابن سعد حيث قال : ان محمداً بن عمر الاسامي أخبره ان شيخاً من أهل دومة الجندل أخبره ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب لأكيدر

(١) ملك دومة (١) كتاباً واته جاءه بالكتاب فقرأه واخذ منه نسخة ثم أورد نصه (١) ومثل ما ذكره البلاذري حيث قال ان بعض اهل مصر اخبره انه رأى كتاب رسول الله الى اهل مينا بعينه في جلد احمر دارس الخط فنسخه وأملى عليه نسخة ثم أورد نصه كذلك (٢) . ومثل ما ذكره البلاذري عن محمد بن سعد قال ان ابا عبد الله الواقدي اخبره انه قرأ كتاب خالد بن الوليد لأهل الشام (٣) . ومثل ما ذكره البلاذري قال حدثني الحسين قال حدثني يحيى بن آدم قال اخذت نسخة كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لأهل نجران من كتاب رجل عن الحسن بن صالح رحمه الله (٤) .

حيث يسوغ القول ازاء ذلك ان النصوص المروية لا يعقل أن تكون جميعها مصنوعة ولا سيما هناك نصوص متصلة بأحداث بالغة حد اليقين في حقيقتها التاريخية . وكل ما يمكن أن يكون هو احتمال أن لا يكون جميع ما روي منها قد روي بحروفه كما صدر من أصحابه كلاماً مدوناً وان منه ما قد يكون ترديداً مقارباً لذلك متفقاً معه روحاً وجوهراً واحتمال دخول تحريف عليه منه ما قد يكون مقصوداً لأغراض متنوعة ومنه ما قد يكون نتيجة طول امد الحفظ وكثرة التداول .

هذا ولقد كتبت كتب كثيرة جداً في تاريخ هذا الدور في عصرنا الحاضر مختلفة في حجوما واساليبها واهدافها ومتناولها . وفيها كثير من الكتب القيمة الممحصاة الوافية . غير أن ذلك لم يجعلنا نعدل عن اتمام حلقات سلسلتنا بالنسبة لهذا الدور لأن أحداً من الكاتبتين لم يقصد إلى ما قصدنا اليه من جمع حلقات تاريخ الجنس العربي في مختلف الاطوار والأدوار والاقطار في سلسلة واحدة وربط عابر تاريخ هذا الجنس منذ اقدم الازمنة التاريخية المعروفة بجاضره وهذا فضلا عن اننا اصطنعنا اسلوباً خاصاً في عرض احداث تاريخ هذا الدور ومزاياه التي خلدها بها الجنس العربي خلود التقديس . واعتمدنا بقدر الامكان وبما يسمح به منهج الكتاب للتنبيه إلى ما أدخله أصحاب الاهواء والاغراض والشعوبيون وأعداء العرب والاسلام من شوائب وزيادات وأكاذيب كثيرة لأغراض حزبية ومياسية ودعائية وتخريبية وتصحيح الاخطاء التي وقع فيها المستشرقون في سياق تاريخ حقبة النبي وخلفائه

(١) طبقات ابن سعد ج ٢ ص ٥٤

(٢) فتوح البلدان ص ٦٦-٦٧

(٣) فتوح البلدان ص ١٢٩

(٤) ايضاً ص ١٧٠ اكتفينا بالروايات الاربعة ولو اردنا ان نستقصي لمثلنا على امثلة عديدة اخرى .

الراشدين نتيجة لعدم فهمهم الروايات والنصوص العربية أو لتحريفهم لها عن مقاصدها بقصد تشويه هذا التاريخ أو تهوين شأنه وخطره مما نرجو أن يكون مفيداً لناشئنا وخدمة نافعة لتاريخ جنسنا .

ولقد كان القرآن الكريم مصدراً هاماً لهذا الجزء بنوع خاص . لأن كل فصل من فصوله يمثل موقفاً متصلاً بالسيرة النبوية سواء أكان موقفاً للنبي إزاء المؤمنين والمشركين وأهل الكتاب في العهد المكي والمدني أم موقفاً إزاء النبي ودعوته وأصحابه من هؤلاء ، أو يحتوي صورة من الصور المتصلة بالسيرة من جدال وحجاج وسؤال وجواب وإنذار ووعد وإزمات وتشريع وجهاد الخ الخ . وما دام أن القرآن هو المصدر الأوحى الذي يرى من كل مظنة وشبهة فمن الحق أن يكون هو أقوى المصادر للسيرة النبوية وأوسعها .

ولقد اهتمنا لتفصيل هذه السيرة بعض الشيء . لأن صاحبها صلوات الله وسلامه عليه قد غدا مؤثلاً مجد العرب والاسلام الأعظم الذي صار مجداً إنسانياً عالمياً خالداً خلد به الجنس العربي خلود التقديس ، وهي حافلة بالنشاط العظيم الذي قام به ذلك المجد الباذخ وبالصور المشرفة التي تمثل أروع المثل العليا فوجب أن يلم بها الناشئ العربي ليدرك سر ذلك المجد الخالد . والله ولي التوفيق .

دمشق الشام ١٢ رجب ١٣٨١ و ١٩ - ١٢ - ١٩٦١

المؤلف

تمهيدات

- ١ - الظروف الخطيرة التي انبثق فيها الاسلام
- ٢ - حكمة اختصاص الحجاز ببعثة النبي محمد صلى الله عليه وسلم
- ٣ - محتوى واهداف الرسالة المحمدية
- ٤ - شأن الجنس العربي ومسؤوليته في الرسالة المحمدية
- ٥ - اهتمام القرآن لليهودية والنصرانية واهلها وصلة ذلك بالرسالة المحمدية

الظروف الخطيرة التي انبثقت فيها الاسلام

إن الدور الثالث من تاريخ الجنس العربي أي دور العروبة الصريحة في ظل الاسلام والذي ما يزال ممتداً إلى الآن وإلى ما شاء الله يبدأ من البعثة النبوية المحمدية على صاحبها افضل الصلاة والسلام .

وتمتاز مآثر الجنس العربي ومظاهر نشاطه وحركاته في هذا الدور بميزات عظيمة عما قبله، لأنه ظهر تحت راية الاسلام الذي انبثق من هذه البعثة المباركة .

ولقد انطوت الرسالة الاسلامية التي اختص الله بها محمداً العربي واللغة العربية في دور العروبة الصريحة للجنس العربي على اهداف بعيدة المدى من نواحي وحدة الفكر والطابع والمطمح والشمول والكيان العام والتنظيم الاجتماعي والسياسي والاقتصادي والمعاشي والسلوكي وشمول ذلك للانسانية كلها في كل زمن ومكان مما لم تنطو عليه اية رسالة نبوية سابقة . كما امدته بقوى معنوية عظيمة وطدت له قدسية وخلوداً وانتشاراً لا يقاس عليه شيء من ادواره السابقة بل بما لا يقاس عليه اي دور من ادوار التاريخ لأمة من امم الارض .

وإذا ما لحظ ما كان عليه الجنس العربي من حالة سياسية واجتماعية وفكرية ودينية سواء في موطنه الاصلي جزيرة العرب ام في مواطنه الثانية بلاد الشام والعراق ووادي النيل بدت عظمة آثار هذه الرسالة وبركانها وقوتها وروعها .

فقد انهار السلطان العربي في جنوب الجزيرة وبعد ان كان قوياً شاملاً زاهر المآثر والمظاهر عشرات القرون وانتهى امره إلى سيادة الفرس بعد محاولة ابن ذي يزن على ما شرحناه في الجزء السابق . ولم تكن الحال في شمال الجزيرة مرضية او مستقرة حيث كان السلطان فيه موزعاً وضيق المجال والاثار . ففي المدن حكومات مدن محلية قبلية ليس لها ذلك الشأن والنشاط الذي كان للدول العربية في جنوب الجزيرة والمواطن العربية الثانية .

وفي البادية حكومات مشايخ وزعماء محلية وبدوية خيفة المدى والنشاط بدائية المطامح والمطالب والرغبات . وكان هذا الشمال إلى هذا عرضة لمطامع المتغلبين من فرس ورومان ومجالاً لدسائسهم وتحريكاتهم واثرتهم للمنافسات بين قبائله وبين الغسانيين واللخمين الذين كانوا يتنازعون السلطان في العالم العربي الشمالي على ما شرحناه كذلك في الجزء السابق . وما ذكرناه في هذا الجزء من مظاهر النشاط السيامي الثقافي والاجتماعي والروحي في الحجاز خاجة وفي عرب الشمال عامة إنما كان في دور تطوري من جهة ولم يكن له بعد من الأثر ما يسبغ على هذه البقاع قوة واستقراراً من جهة أخرى .

وفي خارج الجزيرة انهار السلطان العربي الذي بدا قوياً في حقبة من الزمن في دور العروبة الضاربة والذي كان يمثله دول الأنباط وتدمر وبصرى الشام والحيرة . وقد امتد سلطان الفرس على بلاد العراق وسلطان الروم على بلاد الشام ومصر قبيل البعثة النبوية بعد أن ازدهر سلطان الجنس العربي في كل من هذه الأقطار عشرات القرون قوياً باهر الآثار والمظاهر على ما شرحناه في الجزء السابق وما قبله .

ولقد كان العداء الذي أثاره الفرس والرومان بين الملوك الغسانيين واللخمين يؤدي إلى حروب دامية يشترك فيها قبائل العراق والشام فيها ضد بعضهم . وقد أدى هذا إلى إثارة الضغائن والثارات بين هذه القبائل في مجالها ومداعها البدوي فلم تكد الحروب تنقطع بينها أيضاً . وهذا بالاضافة إلى ما كان من حروب ومنازعات قبلية محلية كانت لا تفتأ تنشب بين قبائل الجزيرة واطرافها لأسباب متنوعة وتوثر الاحقاد والثارات بينها مما شرحناه كذلك في الجزء السابق .

وكانت الحالة الدينية في الجزيرة العربية والمواطن العربية الثانية أي وادي النيل والهلل الحبيب سيئة منهارة . فقد كان الكتابيون - أي اليهود والنصارى فيها في خلاف ونزاع ومثاق وعداء زقتال فيما بينهم من جهة وبين كل منهم والآخر من جهة ثانية على ما شرحناه في الجزئين السابقين وأيدته آيات قرآنية عديدة سجلت واقع امرهم من هذه الناحية ثم من ناحية ما استشرى فيهم من فساد خلقي واجتماعي وانحراف جوهرى عن المبادئ الاصلية للديانتين ^١ .

(١) إقرأ هذه الآيات على سبيل المثال لا الحصر في حدود مثقال وانحراف أهل الكتاب العربي والخلقي : سورة البقرة ٢٤ و ٨٤-٨٥ و ١١٣ و ٧٨٤ وآل عمران ٧١ و ٧٨ و ١٨٧ والنساء ٥١-٥٢ و ١٦١-١٦٢ والمائدة ١٣ و ١٤ و ٦١ و ٦٢ و ٧٦ و ٨٠ والتوبة ٣٤ و ٣٥ والكورى ١٤ و ٦٣ و ٦٤

وكانت جمهرة سكان الجزيرة قد وصلوا إلى طور الاعتقاد بالاله الاكبر الذي خلق السماوات والارض وما فيها والذي بيده ملكوت كل شيء المؤثر المباشر في نفع الخلق وضررهم غير انهم كانوا في الوقت نفسه يخلطون ذلك باشرار شركاء مع الله في العبادة والاتجاه والدعاء يتخذونهم شفعاء لدى الله وكانوا إلى هذا على تقاليد غير متسقة مع العقل والحق في حقوقهم وعاداتهم الدينية والاجتماعية والاسرورية والاقتصادية . وكان فريق منهم في حيرة وبلبلة من امره : حذف عن الشرك ورموزه المادية الوثنية وعن كثير مما عليه قومهم من عادات وتقاليد لبعده ذلك عن الحق والعقل . وحذف عن اليهودية والنصرانية لما طرأ عليها من تحريف وانحراف وسوء تأويل تعكس به صفاء مبادئ الديانتين ولما قام بين اهلها من خلاف . وسفاق . وصار يتمنى الله على ان يفيض الأمة العربية من يديها إلى الحق ويخلصها من ضلالها وحيرتها وبلبلتها ويقسم بأنه إذا جاء نذير عربي بكتاب عربي ليكون اهدي من الأمم الاخرى بما فيها اليهود والنصارى على ما شرحناه في الجزء السابق .

ففي هذه الظروف العصبية بالنسبة للجنس العربي من كل ناحية بعث الله تعالى محمداً صلى الله عليه وسلم مبشراً ونذيراً للعالمين جميعاً ورحمة لهم وانزل عليه القرآن ليخرج الناس من الظلمات إلى النور . وارشح الذين يتبعونه لقيادة العالم وهدايته وليكونوا شهداء على الناس وخير امة اخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويدعون إلى الخير . ووعدهم بالتسكين والاستخلاف في الارض وظهور دينهم الذي ارتضاه لهم على الدين كله ونهاهم عن الانحراف عن سبيل الله الحق والتفرق شيعاً كما فعل الذين أوتوا الكتاب من قبلهم على ما قررته آيات عديدة من القرآن نورد منها ما يلي على سبيل المثال :

١- وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ .

آل عمران ١٠٤ - ١٠٥

٢- كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ

مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ .

آل عمران ١١٠

٣ — وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكَُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ .

سورة الانعام ١٥٣

٤ — أَلَمْ يَكُنْ أَوَّلُ مَا خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ طِينٍ ثُمَّ أَعَادَهُ إِلَىٰ آلِهِ لِيَرْىَ أَهْلَهُ الْقَوْمَ يَعْبُدُونَهُ أَذْنًا بَلِ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ .

سورة ابراهيم ١

٥ — وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرْثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ . إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ . وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ .

سورة الانبياء ١٠٥ - ١٠٧

٦ — وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا أُسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ .

سورة النور ٥٥

٧ — يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا . وَدَاعِيًا إِلَىٰ اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا . وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا .

سورة الاحزاب ٤٥ - ٤٧

٨- وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ
النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ .

سورة سبأ ٢٨

٩- هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ
كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا .

سورة الفتح ١١

حكمة اختصاص الحجاز

ببعثة النبي محمد عليه السلام

ولعل من الجدير بالتأمل والتنبيه اختصاص الحجاز بالرسالة الاسلامية وظهورها فيها حيث كانت هي البقعة الوحيدة تقريبا من جزيرة العرب ومواطنهم الثانية التي نجت من نفوذ الاجانب أي الرومان والفرس الذين كانوا احجاب السلطان في جنوب الجزيرة وشرقها وفي بلاد الشام والعراق ومصر وبقية شمال افريقية .

ولقد كان انبساط سلطان الدولتين على مهاجر بلاد العرب وما نشب نتيجة لتخريبها بين ملوك العرب الغسانيين في الشام والخميين في العراق من حروب ودماء وغزوة الاحباش لليمن وقضائهم على آخر ملك عربي مستقل فيها وطموحهم الى بسط سلطانهم على الحجاز وارتدادهم عنها ذا تأثير كبير على العرب أدى إلى ازدياد انجذابهم نحو الحجاز المستقل واتساع نطاق الحطب الذي كان يقوم فيها واشتراك العرب على اختلاف نحلهم ومنازلهم فيه وتوطيد مدينة الاشهر الحرم المقدسة لتيسير هذا الاشتراك في ظلها على ما شرحناه في الجزء السابق فيمكن ذلك كله بالاضافة إلى عوامل دينية وفكرية أخرى تأثرت بها بيئة النبي صلى الله عليه وسلم مما شرحناه كذلك في الجزء المذكور من اسباب نجاح الدعوة المحمدية في الجزيرة في المرحلة الاولى وقيام الوحدة القومية والدينية فيها تحت راية النبي صلى الله عليه وسلم وسلطان الاسلام بدلاً من الحياة القبلية المفككة المتناحرة وتعدد النحل والآلهة والاتجاهات على ما سوف يأتي شرحه .

محتوى واهداف الرسالة المحمدية

ولقد جاءت الرسالة المحمدية ديناً ونظاماً كامليين فانطوت على الدعوة إلى الله وحده المتصف بجميع صفات الكمال والمآزى عن كل نقص ومماثلة وتقرير ربوبيته للعالمين جميعاً واستغنائه وتنزهه عن الشريك والولد بأي معنى كان وسواء أكان ذلك تأويلاً أم وسيلة أم

شفاعة ، وعلى ما من شأنه القضاء على ما طرأ على الديانتين السماويتين السابقتين الممارستين من سوء تأويل وانحراف وانقسام وتباثر ، وعلى ما من شأنه تحرير الانسانية من الخضوع لاية قوة خفية وظاهرة غير الله ، وعلى ما من شأنه ان يفتح لها آفاق الحياة على مصراعيها في نطاق اسمى المبادئ وأكرم الاخلاق وافضل المناهج والخطط الاجتماعية والسياسية والفردية والانسانية واشدها مرونة للنهوض الى ذرى الكمال في كل مجال من مجالات الحياة وتوجيهها نحو احسن السبل واشرفها وانزهها وأعدلها وأتمها صفاء وسناء . شاملة للناس جميعهم على اختلاف أجناسهم واللوانهم ونحدهم ليكونوا تحت رايته اخوة متساوين في الحقوق والواجبات على اختلاف مناحيها . وليقوم في ظلها عالم واحد ونظام واحد ودين واحد ولغة واحدة وبكلمة واحدة مجتمع انساني واحد . يتولى الأمر فيه الصالحون الاكفاء الحريصون على مصلحته العامة . لا طاعة فيه لسلطان بمعصية وضرر ولا مسند لحاكم فيه إلا كتاب الله وسنة رسوله ومصلحة العباد والبلاد المتسقة معها . ولا مكان فيه لظالم جبر وطاقية مسيطر . والشورى فيه — وهي تعبير عما يقال له الديموقراطية — صفة أساسية لأهله . والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أي الأمر بكل ما فيه خير وصالح ونفع والنهي عن كل ما فيه شر وفساد وضرر والدعوة الى الخير والسلام والتواد والتراحم من واجبات كل فئة فيه ، وصفة اساسية او خصائص ذاتية لاهله نتيجة لسلامتهم وانماهم . لا يسمح باستقطاب الثروة في جانب والفقر في جانب . يؤخذ فيه من الغنى للفقير ويمنع فيه القوي من ظلم الضعيف . ويساعد فيه القادر العاجز ، ويتواصون جميعا بالصبر والرحمة والتعاون والتعاطف . ويستمتعون جميعا بكل طيب حلال من طيبات الحياة الدنيا وزينتها بدون تقريط ولا إفراط في ظل سلام شامل دعت اليه ووطدت معناه مقرر ان الله تعالى انما خلق الناس ليتعارفوا ويتفاهموا ويتعاونوا ويتعاشوا لا ليتخالفوا ويتنازعوا . قابلة للانطباق في كل زمن ومكان والاستجابة الى مختلف مطالب البشر المادية والروحية . مخاطبة في ذلك كله العقل والقلب معاً . وموفقة في ذلك كله بين سعادة الدنيا والآخرة بأسلوب لا تعقيد فيه ولا التواء نافذ الى اعماق النفس مع الأمر بالدعوة الى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي احسن وعدم الأكراد والأجبار . وموسعة صدرها لمن أراد الاحتفاظ بدينه وعقيدته إذا واد المسامين وسامحهم ولم يتأمر عليهم وعلى دينهم . وآمرة بمعاملة هؤلاء بالقسط والبر . وبعدم القتال إلا للدفاع ودفع العدوان وتأمين حرية الدعوة وارغام الظالمين . ومصدقة لما بين يديها من الرسالات التوحيدية التي جاء بها انبياء الجنس العربي ونجاعة ابراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام ومتممة لها . وجاء كتابها القرآن مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيئنا عليه ليبين لأهل الكتاب كثيراً مما كانوا يخفون ويحل لهم

كثيراً مما كانوا يختلفون فيه ويضع الامور في كل ذلك في نصابها الحق . وكل ذلك يتم بقوة الحافظ الديني الذي يحرك المسلم اذا كان صادق الاسلام تورعاً ورغبة في تنفيذ حكم الله وقضائه الحكيم العادل لنيل رضوانه وتقادي غضبه وتحقيق سعادة الدنيا والآخرة معا التي وعده الله بها . فكمثل بهذه الرسالة المجد العربي شرفاً باهر النور والسناء ، وكانت الطور النهائي لتلك الميزة العظمى التي امتاز بها الجنس العربي — وهو ظهور الأنبياء المتصلين بالله ووحيه والداعين اليه والمبلغين عنه — لأنها احتوت من المبادئ والأسس والحلول الجذرية ما يكفل حاجة البشر ويحل مشاكلهم الروحية والمادية في كل زمن ومكان إذا ما رجعوا اليها .

شأن الجنس العربي ومسؤوليته في الرسالة المحمدية

ولقد كان تمام المجد العربي الذي كمل بالرسالة المحمدية ان حملت هذه الرسالة الجنس العربي الذي بلغ الذروة في العروبة الصريحة في هذا الظرف في آيات صريحة مهمة القيام بشورها في مشارق الارض ومغاربها وبين جميع البشر على اختلاف ألوانهم وأجناسهم وأديانهم مما لم يسبق له مثيل كما وطدت شأنه في المجتمع الجديد الذي رشح الاسلام ليكون دينه الذي يظهره الله على الدين كله ليتمكن من القيام بمهمته بحق ديني مقدس حتى لا يثير تجبها ولا امتناعاً من غيرهم من ناحية ومع تقرير كون ذلك ليس اعلاء عنصرياً ولا من قبيل جعل الشعوب الاخرى عبيداً ومستغنيين كما انحرف اليه بنو اسرائيل وكون اكرم الناس عند الله اتقاهم حتى لا يثير من ناحية ثانية في نفس الجنس العربي غروراً ولا رغبة في الاستعلاء والاستغلال ازاء اخوانه في الدين .

ولقد بذل السيد الرسول صلوات الله وسلامه عليه جهده فقام بمهمته أفضل قيام وأقواء . وكان من اهم ما اهتم له جمع العرب الذين كان لهم شرف الاختصاص برسالته في المرحلة الاولى تحت لواء واحد والقضاء على الحياة القبلية الضيقة التي كان جمهورهم يحيونها وتبشيتهم روحياً

(١) الايات القرآنية المؤيدة لذلك اكثر من ان تحصى . ولا يشفي في هذا المقام ايراد بعضها . ونفسد بوبناها في كتابنا الدستور القرآني في شؤون الحياة وشرحنا ما فيها من المبادئ والنظم والشريعات والتثقيفات الراجعة الخالدة من سياسية واقتصادية واجتماعية واخلاقية وتبشيرية وجهادية وقضائية مع نظرة القرآن الى الحياة الدنيا فليرجع اليه من شاء ليجد فيه الشاهد المؤيد لكل ما ذكرناه . وقد الحقنا بهذا الجزء القواعد المستخلصة منها بعنوان الدستور القرآني .

واجتماعياً وسياسياً وتنظيماً للقيام بالهمة العظمى الشاملة التي انيطت بهم وهي نشر الرسالة
المحمدية وتبوء مكان الشاهد العدل الوسط بين البشر مما احتوت تلقينه آيات عديدة منها هذه
الآيات التي انطوى فيها دلائل حاسمة في هذا الباب :

١- وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ
وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ...

سورة البقرة ١٤٣

٢- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُوا إِلَّا وَأَنتُمْ
مُسْلِمُونَ . وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ
عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ
عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ
لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ . وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ
وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ
تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ
عَظِيمٌ .

سورة آل عمران ١٠٤-١٠٥

٣- كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ
عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ
مِّنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ .

آل عمران ١١٠

٤ - لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ .

الانبياء ١٠

٥ - وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ أُجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ .

الحج - ٧٨

٦ - فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ .
وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ^(١) .

الزخرف ٤٣ - ٤٤

ولقد كان من وسائل التوطيد هذه الشأنية توطيد اللغة العربية التي كانت بلغت ذروة فصاحتها لتكون لغة هذا الدين ولغة معتنقيه وبالتالي لغة الانسانية التي جعل الله تعالى هذا الدين ديناً لها ووعد باظهاره على غيره من الاديان على ما جاء في آيات سورة التوبة التي أوردناها قبل .
فاللغة العربية لغة القرآن : والقرآن مستند الدين ومنبع اسسه وقواعده ومبادئه وتلقياته وتشريعاته . ولا يمكن العمل به إلا اذا فهم على وجهه الصحيح بمعرفة لغته معرفة تامة . وهو بعد ركن من أركان الصلاة التي يجب على المسلم اقامتها خمس مرات في كل يوم . ولا تتم الا بتلاوته بأدائه العربي وألفاظه العربية . والاحاديث النبوية مستند للدين ومنبع لأسسه وقواعده ومبادئه وتلقياته وتشريعاته كذلك بعد القرآن . وفيها كثير مما يفسر القرآناً ويوضحه . ولا يمكن الانتفاع بها في هذا وذلك وكلاهما امران خطيران الا اذا فهمت على

(١) الخطاب في جميع الايات موجه للمسلمين حقاً . غير ان الذين خطبوا بها لأول مرة هم العرب . وما فيها ينصرف اليهم في الدرجة الاولى . ويؤيد ذلك آيات سور الانبياء والعج والزخرف التي تلهم بقوة ان المقصودين فيها هم العرب .

وجبها الصحيح بمعرفة لغتها العربية معرفة تامة . وهذا وذاك يوجبان تعلم اللغة العربية على كل مسلم ومسلمة مهما كان جنسها . وهذا مما يساعد على نشر هذه اللغة في الاصقاع التي ينتشر فيها الاسلام بل ويجعلها لغتها .

واللغة ليست ألفاظا للتفاهم فقط تصوت بها افواه الناس كما تصوت العجائوات بأصواتها بل هي مجموعة عواطف وميول وتقاليد وعادات وتاريخ الامة الناطقة بها . فانتشار اللغة العربية هو انتشار لسلطان العرب الروحي والثقافي والادبي والاجتماعي معا .

ولقد كان لها ذلك فعلا حينما انتشر الاسلام في اصقاع الارض في القرون الثلاثة الاولى للهجرة . فالمواطن العربية الثانية اي وادي النيل وبلاد الصومال وبلاد الشام والعراق ثم المواطن التي ظلت طويلا تحت الحكم العربي اي شمال افريقية اصطفت نهائيا بصبغة العروبة الصريحة الخالدة بتأثير تدفق العرب المسلمين عليها وانتشار الاسلام فيها . والامم التي دانت بالاسلام ثم تخلصت من حكم العرب كالفرس والترك والافغان والبلوج والسند اطراف الهند والصين الغربية او التي دانت بالاسلام ولم تخضع لحكم العرب كأندوسيا والقازانيين والبشناق وأواسط افريقية وأواسط الهند والصين الخ غدا نصف لغتها على التقريب عربيا . والقرآن يتلى فيها بألفاظه وأدائه العربيين والاحاديث النبوية تحفظ وتتل في ألفاظها وأدائها العربيين كذلك . والصلاة والطقوس والادعية والاوارد والتسابيح تقام باللغة العربية . واصوات خطباء المنابر ومدرسي المساجد ومعلمي الدين وعلمائه ومؤذني المآذن تعلو باللغة العربية . وقد شهدنا بادرة جديدة تدل على مقدار عظمة هذا التوطيد في الدعوة القوية التي تنتشر في الباكستان الى جعل اللغة العربية لغتها الرسمية ثم لغة الامم والدول الاسلامية جمعا . والباكستان هي أكبر دولة اسلامية او الدولة الثانية الكبرى ، ثم في الرغبة الملحة التي تعلنها الدول والشعوب الاسلامية في افريقية وغيرها في تعلم اللغة العربية وبعثاتها التي ترسلها الى مصر والبعثات التي تطلبها من مصر في مسيل ذلك .

ولقد كان من وسائل التوطيد كذلك استقبال الكعبة العربية . وهو ركن من اركان الصلاة . ومعنى هذا ايجاب توجه المسلم خمس مرات كل يوم نحو الكعبة في جميع انحاء الارض التي ينزل فيها المسلمون . وفي هذا ما فيه من ربط قلوب المسلمين على اختلاف اجناسهم وألوانهم وبلادهم بهذا البيت العربي ومجزيرة العرب التي هو فيها . والذي يتبعن في

الآيات القرآنية الواردة في هذا الموضوع يتبين هذا المعنى الذي نوهنا به ١ .

ومثل هذا يقال في الحج الذي هو ركن من أركان الاسلام الواجب على المستطيعين من المسلمين حيث تغدو بلاد الحجاز مزدحم اقلام حجاج المسلمين عربهم وعجمهم ابيضهم واسودهم واحفرهم واسمرهم يأتون من كل حوب ليشهدوا منافع لهم . وهي المنافع الاجتماعية الكبرى من تعارف وتألف وتأمر بالمعروف وتناه عن المنكر ودعوة الى الخير وتعاون على المرحمة والحق والصبر ونظر في صالح المسلمين . وارتباط المسلمين بركن من أركان دينهم لهم فيه منافع عظيمة مثل هذه يؤدونه في البلد العربي الذي كان مهبط وحي نبيهم العربي يديم من دون ريب النفوذ الروحي لاهل هذا البلد ثم للجنس العربي الذي هذا البلد من مواطنه وهذا النبي منه على سائر المسلمين في مشارق الارض ومغاربها بطبيعة الحال .

والمأمل في تاريخ الاسلام يجد ان العزة والقوة والحيوية انما كانت تتحقق بمعناها النافذ في اي قطر امتد اليه حينما يكون العرب هم اصحاب السلطان وحمة رايته او حينما تكون العروبة طابع اصحاب السلطان وحمة رايته ويجد بالتالي مصداق التوجيه القرآني المنطوي في جملة (وكذلك جعلناكم امة وسطا لتكونوا شهداء على الناس) ثم في جملة (وانه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون) التي حملت العرب مسؤولية نشر الرسالة الاسلامية .

وتنبه الى الفرق بين انتشار الاسلام وبين ما تعنيه كلمات العزة والقوة والحيوية الاسلامية . فالاسلام ظل ينتشر عبر القرون بدون توقف وفي ظروف قوة سلطان المسلمين وضعفه على السواء نتيجة لعناصر الاستجابة القوية فيه غير انه لم يكن له العزة والحيوية والقوة التي كانت له حينما يكون العرب هم اصحاب السلطان وحمة الراية . مما فيه تأكيد لمهمة مسؤولية الجنس العربي العظمى .

اهتمام القرآن لليهودية والنصرانية واهلها

وصلة ذلك بالرسالة المحمدية



ولقد كان للنصرانية في الدرجة الاولى لليهودية في الدرجة الثانية حيز كبير في جزيرة

(١) افرأ مثلاً آيات سورة البقرة ١٢٥ — ١٢٩ و ١٤٢ — ١٥٢ وسورة آل عمران ٩٥ — ٩٧

وسورة الحج ٢٠ — ٣٧

العرب ومواطن العرب الثانية . وهما الديانتان السابائيتان اللتان تتحدان مع الديانة الاسلامية في المنبع والجوهر فاخصصها القرآن بعناية خاصة وجاء الى معتقبيها بحلول لما تعقد من عقائدهم وتبليبل من افكارهم حيث كان اليهود قد شوهوا عموم رسالة موسى فجعلوها خاصة بهم وضيقوا رحمة الله الواسعة وربوبيته الشاملة للعالمين فجعلوه اله اسرائيل وحرفوا كتبهم ليجعلوا من انفسهم شعب الله المختار الذي يكون له سائر الشعوب عبيداً ومستغلا والذي لا يكون مسؤولاً عن اي شيء يجترحه في حق هذه الشعوب من عدوان على مال وعرض ودم كما قررت ذلك احدى آيات سورة آل عمران تسجيلا لواقع امرهم وهي :

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ٧٥) ، وحيث كنوا الى هذا يقذفون في المسيح وامه عليها السلام قذفا شنيعا ويعادون النصارى عداوة شديداً وتقوم بين الفريقين مذابح مروعة اثناء تصاول الفرس والروم في بلاد الشام فهتف القرآن الله رب العالمين جميعا وان رحمته وسعت كل شيء وان الله انما جعل الناس شعوبا وقبائل ليتعارفوا فيتفاهموا ويتعاونوا ويتعايشوا على قدم المساواة لانهم من نفس واحدة ولا يفضل احد على احد عند الله الا بالتقوى ولا تكسب نفس الا عليها ولا يحل لاحد دم غيره او عرضه او ماله ، وان المسيح عليه السلام رسول قد خلت من قبله الرسل وامه صديقة وان الله ايده بروح القدس وجعله آية للناس ورحمة وان ولادته قد تمت بمعجزة في نطاق قدرة الله القادر على كل شيء .

ولقد كان النصارى بدورهم في بلبله عجيبة من الاراء والعقائد . منهم من يعتقد بالوهمية المسيح الكاملة وناسوته الكاملة في الوقت نفسه وهم الذين عرفوا بأصحاب عقيدة المشيئين . ومنهم من كان يعتقد ان المسيح قد صار مزيجاً من طبعتي اللاهوت والناسوت فلم يكن لهاً كاملاً ولا ناسوتاً كاملاً وصار ذا مشيئة واحدة وهم الذين عرفوا بأصحاب عقيدة المشيئة الواحدة . ومنهم من كان يعتقد بأن المسيح كان هيكلأ أو آلهة حل فيه روح القدس ولا يجوز ان تسمى امه ام الاله وهم النساطرة . ومنهم من كان يعتقد بالوهمية مريم فضلاً عن الوهمية المسيح ويعبدها . ومنهم من كان يعتقد بنبوة المسيح كسائر الأنبياء ومعجزة ولادته ومنهم من كان يعتقد انه ولد من مريم ويوسف النجار ولادة طبيعية وان الله اصطفاه نبياً وأرسله الى بني إسرائيل ومنهم من كان يعتقد بصلبه ومنهم من لا يعتقد . وكانوا نتيجة لذلك شيعاً واحزاباً يقاتل بعضهم بعضاً ويضطهد بعضهم بعضاً على ما شرحناه في الجزئين

السابقين فينتف بهم القرآن .

(إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) و (مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) و (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أُلْقِيَتْهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهَوْا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا)

وان معجزة ولادته كمعجزة ولادة يحيى التي يعرفونها - وقد ذكرت هذه في النجيل لوقا - والتي لم يترتب عليها ان يكون إلها او جزءاً من إله . وذكر ما قاله عيسى من القول الحق المتطابق مع ما سجلته الاناجيل من اقواله في آية الزخرف هذه :

(وَمَآ جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ إِنَّمَا جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلَفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا . إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ٦٣ - ٦٤)

وفي آية المائدة هذه :

(لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ بْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ بْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ٧٢)

وفي آيات المائدة هذه :

(وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ
إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ
إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ
أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ . مَا قُلْتُ هُمْ إِلَآ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي
وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مِمَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ
الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝ ١١٦-١١٧)

ثم هتف بهؤلاء وأولئك معاً :

١- يا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ
إِلَّا اللَّهَ وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ .

سورة آل عمران ٦٤

٢- إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ
إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ
سَرِيعُ الْحِسَابِ . فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ
لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدْ أَهْتَدُوا وَإِنْ
تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ .

سورة آل عمران ١٩ - ٢٠

٣- يا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنْتُمْ

تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ . قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ . يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ

المائدة ١٥ - ١٦

٤ - وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ .

سورة الاعراف ١٥٦ - ١٥٧

وقد هيا القرآن بذلك السبيل الى انضواء ابناء الديانتين الى الراية الاسلامية التي حملها محمد العربي صلى الله عليه وسلم ليتسنى بذلك توحيد جبهة قوية لا يقف امامها شيء في نشر الرسالة الاسلامية وجعلها تظهر على الدين كله .

ولقد استجاب كثير من هؤلاء وأولئك للهدف لأنهم رأوا في ما جاء في القرآن حقاً وصدقاً وحلاً لمشاكلهم ومطرأ عليهم من انحراف وانقسام وما ارتكسوا فيه من سوء تاويل على ما سجلته آيات عديدة من القرآن بأسلوب رائع نافذ كما ترى في الايات التالية :

١ - وَإِنْ مِنْ أَمَلٍ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنْ بِهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا
أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشَتُّونَ آيَاتِ اللَّهِ ثُمَّ قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ
أُجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ . إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ .

سورة مراء آل ١٩٩

٢ - لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ
إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ
بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا .

سورة النساء ١٦٢

٣ - وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةَ لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى
ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قِسْيسِينَ وَرُهْبَانَا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ . وَإِذَا سَمِعُوا مَا
أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنْ الْحَقِّ
يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ .

سورة المائدة ٨٢ - ٨٣

٤ - أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكْمًا وَهُوَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ الْكِتَابَ
مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنْزَلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ
فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ .

سورة الانعام ١١٤

٥ - وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ .

سورة الرعد ٣٦

٦ — قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا . وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبَّنَا إِنَّا كُنَّا وَعَدُ رَبَّنَا لَمَفْعُولًا . وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا .

سورة الاسراء ١٠٧ - ١٠٩

٧ — الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ . وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبَّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ .

سورة القصص ٥٢ - ٥٣

٨ — وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ .

سورة العنكبوت ٤٧

وان كان حقاً قد بقي كثير من هؤلاء واولئك متنكرين للاسلام والقرآن فان مرد ذلك الى الأتانية الضيقة والمآرب الخاصة التي جعلتهم سادرين في تعصبهم وتنكرهم على ما قررته آيات عديدة كانت من دون ريب تسجيلاً لواقع امرهم كما ترى في الآيات التالية :

١ — وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ بِمَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاؤُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ .

سورة البقرة ٨٩ - ٩٠

٢- وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْتَصُوا
وَأَصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

سورة البقرة ١٠٩

٣- أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ
اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ، ثُمَّ تَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ .

سورة آل عمران ٢٣

٤- كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ
حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ . أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ
أَنَّهُمْ عَلَيْهِمْ لعنةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ .

سورة آل عمران ٨٦-٨٧

٥- وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُم وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا
أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ . يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ
تَشْهَدُونَ . يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُبْسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ
وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ .

آل عمران ٦٩-٧١

٦- قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ
تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ .

سورة آل عمران ٩٩

٧- اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ بْنِ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ . يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ . هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَآكُؤْنَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ .

سورة التوبة ٣٠ - ٣٤

ومع ذلك فإن سكر المتنكرين لم يمنع دعوة القرآن الذي حفظه الله بكل سنائه وصفائه وإشراقه ونفوذه من أن تكون وتظل قوية كاسحة . تجدد فيها الإنسانية حلولاً لمختلف مشاكلها لأنها دعوة الحق الذي يتضاءل أمامه كل باطل وعناد ومكابرة وتمحل . ودليل ذلك ما كان من انتصارها وانتشارها الكاسحين في جزيرة العرب في عهد النبي صلى الله عليه وسلم وخلفائه . وما كان من انتصارها وانتشارها الكاسحين كذلك في كل مكان وصلت إليه اعلامها في مشارق الأرض ومغاربها حيث انتشرت في البقعة الشاسعة الهائلة الممتدة من افند والصين شرقاً الى ساحل الاطلانطي ثم بلاد الأندلس وجزر البحر الأبيض وسواحل ايطالية غرباً ومن جبال الاورال والقفقاس وبحر قزوين شمالاً الى اواسط افريقية جنوباً في زمن الخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين وما كان من انتشارها في ابان ضعف السلطان العربي والاسلامي بمثل المقياس الواسع ان لم يكن أوسع مما كان من ذلك في ابان قوة هذا السلطان في مختلف انحاء الأرض^١ وما يزال وبما فيه الدليل القاطع على انها لما انتشرت بقوة ما فيها من الحق والسناء والصفاء والبساطة وحسب . وبقاء شرائذم ضئيلة ضعيفة على نصرانيتها ويهوديتها الى اليوم في مختلف انحاء البلاد الشاسعة الواسعة التي ساد فيها السلطان الاسلامي سيادة قوية شاملة خلال القرون الاربعة عشر دليل قاطع آخر على ذلك .

(١) افرا كتاب الدعوة الى الاسلام تاليف ارنولد توماس وترجمة الدكتور حسن ابراهيم وعبد المجيد عابدين

الفصل الاول

نشأة النبي صلى الله عليه وسلم
ومبانيه قبل البعثة

الفصل الأول

نشأة النبي صلى الله عليه وسلم

وحياته قبل البعثة

إن النبي العربي حلوات الله عليه رائد هذا الدور وهو الوحيد بين الأنبياء الذي لم تكن شخصيته التاريخية موضع شك من أي كان . كما أن القرآن العربي الكريم الذي كان الأساس الأعظم الذي قام عليه هذا الدور هو الوحيد بين الكتب المقدسة الذي تداوله الناس منذ عهد النبي صلى الله عليه وسلم كما بلغه عن الله بألفاظه وحروفه وآياته وسوره .

ولقد دوت سيرة النبي صلى الله عليه وسلم في عهد مبكر نوعاً ما أي في القرن الثاني للهجرة كما دوت أحاديث كثيرة مروية عن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضوان الله عليهم وتابعيهم في القرن الاول للهجرة . ومع أن هذه المدونات لم تصل إلينا فإنه وصل إلينا كثير مما روي فيها في كتب دوت في القرنين الثاني والثالث للهجرة .

وفضلاً عن ذلك فقد تضمن القرآن المدون والمرتب في زمن النبي صلى الله عليه وسلم صوراً كثيرة عن سيرة النبي صلى الله عليه وسلم قبل البعثة وبعدها منها الصريح الواضح ومنها ما هو دون ذلك ولكنه ينطوي على ملامح غير خفية من السيرة^١ .

وهكذا صار في اليد مصادر عديدة لهذه السيرة منها ما هو صادق كل الصدق وهو ما احتواه القرآن من صور وأحداث ومشاهد ودلالات وقرائن . ومنها ما فيه أخبار

(١) المؤلف كتاب عنوانه سيرة الرسول في جزئين تضمن صوراً كثيرة جداً من السيرة النبوية قبل

البعثة وبعدها وفي عهدها المكي والمدني .

كثير منها جدير بالثقة والاعتماد لتواتره واتساقه مع المضامين والملمهات القرآنية . ومنها ما يمكن أن يكون مشوباً ببعض الشوائب بسبب تداوله على الألسنة بدون تدوين مدة ما وبسبب ما كان من فتن في صدر الاسلام ، مما يتحمل التحفظ ولكنه لا يخلو من حقائق يمكن استخلاصها منه بالتمحيص والمقارنة .

والمستفاد من هذه المصادر أن النبي صلى الله عليه وسلم ينتسب إلى أسرة قرشية تمتد إلى الزعيم العربي قصي بن كلاب الذي ذكرنا بروزه وزعامته ومآثره المروية في الجزء السابق . فهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب . وأمه قرشية من بني زهرة واسمها آمنة بنت وهب^١ . وقد ولد في مكة للسنة الأولى من عام الفيل الذي وقعت فيه غزوة الأحزاب لمكة على ما شرحناه في الجزء السابق . وتصادف سنة ولادته لسنة ٥٧٠ ميلادية على ما حسبه الحاسبون^٢ .

استطراد وتعليق على تشكيك بعض المستشرقين في عروبة النبي وقرشيته واسمه

ولقد حوّم المستشرقون حول اسم النبي صلى الله عليه وسلم وقرشيته وعروبتيه استناداً إلى بعض الروايات التي ليس فيها سند صحيح كما حرموا حوله .

فلقد ورد في بعض كتب السيرة المتأخرة رواية تفيد أنه كان للنبي صلى الله عليه وسلم في طفولته اسم آخر غير محمد وهو قثم أو قثامة فتمسكوا بها مع أنها لم ترد في كتب السيرة القديمة المعتبرة ووصل بهم الزعم إلى أن اسم محمد قد اقتتل افتعالاً وأقبحهم على القرآن إقصاماً^٣ . والزعم متهافت لا يكاد يستحق تعليقاً حتى على فرض صحة تسمية النبي صلى الله عليه وسلم بقثم أو قثامة . فاسم محمد هو المتواتر المشهور الذي لم يختلف فيه أحد ولا يتحمل شكاً ولا مرأى . والقرآن قد أملي ورتب من قبل النبي صلى الله عليه وسلم . وقد ورد اسم محمد فيه أكثر من مرة^٤ وسميت به إحدى السور . والزعم يقتضي أن يكون النبي صلى الله

(١) ابن هشام . ج ١ ص ١٦٤ مطبعة مصطفى الحلبي .

(٢) نفس المصدر ص ١٦٧

(٣) انظر الجزء الاول من الترجمة التركية لكتاب تاريخ الاسلام لكانتانيي ص ٣٥٢ وبعدها .

(٤) في آية سورة آل عمران ١٤٤ وآية سورة محمد ٢ وآية سورة الفتح ٢٠

عليه وسلم هو الذي بدل اسم قثم أو قثامة الذي كان يسمى به في صباه وشبابه وبعد بعثته باسم محمد في القرآن بعد أن ذكر فيه الاسم الأول . وهذا هراء لا يصح في عقل ومنطق .

ولقد ورد في بعض الروايات أن عبد المطلب الجد الأقرب للنبي صلى الله عليه وسلم نشأ وترعرع في يثرب عند اخواله . وأن عمه المطلب حمله وأتى به إلى مكة . وقال لمن سأل عنه إنه عبد له . ولقد ورد في بعض الروايات كذلك أن لوالد النبي صلى الله عليه وسلم اخوالا في يثرب كما كان لأبيه عبد المطلب . وأنه كان يقضي كثيراً من اوقاته في زيارتهم حتى إنه مات في طريقه اليهم في إحدى هذه الزيارات . كما ورد في بعض الروايات أن والده النبي صلى الله عليه وسلم أخذت ابنها وهو طفل إلى يثرب لتزيره اخوال أبيه فيها وماتت في طريق عودتها من هذه الزيارة . ولقد ندرت تسمية (عبد الله) عند العرب . ولقد قيل عن هذه التسمية إن العرب يسمون بها حيناً يريدون أن يبقى الاسم الأعلى مجزئاً . أو أنهم يطلقونها على صاحب الشخصية المجهولة . وأزاء هذه الروايات والأقوال أطلق المستشرقون حياهم العنان يستشفون ما وراءها من معانٍ ومعازٍ ومجبولات^١ لا سيما وفي يثرب جاليات اسرائيلية . والنبوات السماوية إنما عرفت في هذا القليل من البشر خاجة . وتساءلوا مشككين عما إذا كانت احالة عروبة النبي صلى الله عليه وسلم وأبيه وجده ومكيتهم وقرشيتهم لا يصح أن تكون موضع اشتباه . وعم إذا كان لا يصح أن يكون هناك دم وحبر واستعداد جنسي بين جد النبي صلى الله عليه وسلم أو أبيه وبين اسرائيلي يثرب . ورأوا في تعدد الروايات واختلافها وتغايرها ما جعلهم ينظرون إلى شجرة نسب النبي صلى الله عليه وسلم القريب منها والبعيد على أنها قد صنعت بعد الاسلام . ومن الغريب أن لا يخطر ببالهم حين أثاروا هذه الشبهات أو أرادوا أن يثيروها أن العرب لو عرفوا مغمزاً في نسب النبي صلى الله عليه وسلم وعروبه لوجهوا اليه والذكروه القرآن في معرض الرد كما ذكر كل التهم والمغامز الكثيرة التي وجهوها اليه ؛ هذا في حين أن روايات كثيرة متواترة لم يختلف فيها تضمن اعترافهم بصحة عروبة وقرشية النبي صلى الله عليه وسلم^٢ . ومن الغريب كذلك أن لا يخطر ببالهم

(١) انظر الجزء الاول من الترجمة التركيبية لكتاب تاريخ الاسلام لكاتبنا ايضاً ص ١٥٣ وما بعدها .

(٢) انظر ابن هشام ج ١ ص ٣٨٠ وما بعدها .

ان ينعموا النظر - ولعلمهم عجزوا عن إنعام النظر - في الآيات القرآنية ليكشفوا انفسهم مؤونة هذه الحيرة او هذا التشكيك والتجويم الذي يحلو لهم حول كثير مما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم والذي يساعده عليه - والحق يقال - ثغرات الروايات العربية والاسلامية .

ونقد احتوى القرآن آيات صريحة تقرر ان مكة ام القرى هي مدينة النبي صلى الله عليه وسلم^١ وآيات عديدة تكررت فيها عبارة (من انفسهم) و (من انفسكم) و (منهم) و (منك) بسبيل الاشارة الى النبي صلى الله عليه وسلم وفي معرض الخطاب للعرب ولأهل مكة بخاصة^٢ . وآيات عديدة وصف فيها النبي صلى الله عليه وسلم بوصف الأمي الذي جاء في القرآن لوصف غير الكتابيين ولوصف العرب لانهم غير كتابيين^٣ وآيات عديدة وصف بها العرب واهل مكة والقرشيون - لأن هؤلاء هم اول من خوطبوا بالدعوة - بأنهم قوم النبي صلى الله عليه وسلم^٤ . ولقد جاء في سورة الأحزاب هذه الآية (إِنَّا أَهْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتُ أَجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالَكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ الخ ٥٠) حيث تدل بصراحة على انه كان للنبي صلى الله عليه وسلم في مكة اعمام وعمات واخوال وخالات وانه قد تزوج من بناتهم اللاتي كن في عداد المسلمين المهاجرين الى يثرب . والمعروف اليقيني انه لم يكن بين زوجات النبي صلى الله عليه وسلم هاشميات وبطن هاشم هو بطن النبي الأقرب . ومن زوجات النبي صلى الله عليه وسلم عائشة بنت ابي بكر رضي الله عنها وهن من بطن التيم من قريش ومنهن حفصة بنت عمر بن الخطاب رضي الله عنها وهي من بني عدي من قريش وام حبيبة رملة بنت ابي سفيان رضي الله عنها من بني امية بن عبد شمس . وام سلمه رضي الله عنها من بني اسد وزينب

(١) انظر آية سورة محمد ١٣

(٢) انظر آيات سورة التوبة ١٣٨ وآل عمران ١٦٤ وسورة الجمعة ٢

(٣) انظر آيات سورة الاعراف ١٥٧ - ١٥٨ والجمعة ٢

(٤) انظر آية سورة الانعام ٦٦ والزخرف ٤٤

بنت حبش الأسدية رضي الله عنها من بطون قريش وسودة بنت زمعة رضي الله عنها ويتصل نسبها يلوي جد قضي دام سامة الخزومية رضي الله عنها من بطون قريش^١ وجميعين من المهاجرات من مكة الى المدينة . ومن المعروف ان العمومة والخوانلة عند العرب لا تعني العم المباشر او الخال المباشر او العمة او الخالة المباشرين فحسب وإنما قد ترجعان الى العمومة والخوانلة غير المباشرين ايضاً . بحيث يصح القول بان بني امية وبني هاشم ابنا عم لأنهم يجتمعون في عبد مناف والد هاشم وعبد شمس جدي الامرتين وإن تعبير اخواله وخالاته وعماته واعمامه يمكن ان يطلق على اخوال ابيه او جده وخالاتها وعماتها واعمامها ايضاً . وهكذا تبدو بنسب القرآن صلة القربى بالعمومة والخوانلة غير المباشرين وبتعبير آخر صلة القربى القديمة التي قد تعود الى عدة اجيال بين النبي صلى الله عليه وسلم ومختلف بطون قريش قائمة لا تحسب مبالاة . ولقد اشير الى هذه الصلة إشارة قوية في إحدى آيات سورة الشورى وهي (قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ٢٣) حيث تأمر النبي صلى الله عليه وسلم بأن يقول لبطون قريش ان ومناجى القربى بينه وبينهم يجب ان تكون قرينة قاطعة لهم على ان دعوته اياهم فوق كل شبهة من مطمع وانما هي دعوة القريب قربه الى ما فيه الخير وان من حقه عليهم ان يقابلوه بالمودة التي توجبها القربى^٢ .

ولقد روت روايات السيرة^٣ انه لما نزلت الآية (وأنذر عشيرتک الاقربين . سورة الشعراء ٢١٤) ان النبي صلى الله عليه وسلم دعا بني هاشم وبني عبد المطلب وبني عبد مناف

(١) انظر ابن هشام ج ٤ طبعة المكتبة التجارية الكبرى ص ٣٢١ وبعدها

(٢) نعتقد ان هذا او ما يقاربه هو التأويل الاقرب الى الحق للآية من التأويل الذي يعمد اليه الشيعة يجعل الآية أمراً بمودة اقارب رسول الله مقابل هداية الناس ! واكثر المفسرين اولوها بنحو ما اوردناه في المتن (انظر تفسير الآية في ابن كثير والبنفوي والطبري والحاازن والزحشري) ولقد روى البخاري حديثاً جاء فيه ان صائلاً سأل ابن عباس رضي الله عنه عن ما تعنيه كلمة القربى في الآية وكان سعيد بن جبير حاضراً وهو من كبار علماء التابعين فقال قربي آل محمد فقال ابن عباس عجلت . إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيه قرابة فقال لهم لا أسألكم عليه أجراً . ألا ان تصلوا ما بيني وبينكم من القرابة (انظر التاج الجامع لاصول الاحاديث الصحيحة ج ٤ ص ٢٠٣ - ٢٠٤)

(٣) طبقات ابن سعد ج ١ ص ١٨٤ - ١٨٥ والطبري مطبعة الاستقامة ج ٢ ص ٦١ - ٦٤

وفي رواية دعا زعماء بطون قريش لانذارهم على اعتبار انهم عشيرته الأقربون . وعلى كل حال فالآية تتضمن كما هو ظاهر دلالة قاطعة على ان النبي صلى الله عليه وسلم كان له في مكة عشيرة او بطن خاص يلتحم معه التحام القرابة العصبية المباشرة . وفي سورة التوبة هذه الآية (أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيله ١٩) ومعظم المفسرين^١ يروون ان المقصود بكلمة سقاية الحاج الشخص الذي كانت يتولى هذه المهمة وهو العباس بن عبد المطلب عم النبي عليه السلام ، وامر هذه المهمة من المهام العليا التي كان يتولاها رؤساء بيوتات قريش الرفيعة او نبهاؤها ووجهاؤها ابناء عن اباء على ما شرحناه في الجزء السابق حيث يكون في هذا قرينة قرآنية باسلوب ما على ان بني عبد المطلب من بيوتات قريش البارزة .

طفولة النبي

وتعود بعد هذا الاستطراد الى السياق فنقول ان بعض الروايات تذكر ان والد النبي مات وهو في بطن امه وبعضها تذكر انه مات بعد ولادته بسبعة اشهر او بثمانية وعشرين شهراً^٢ . وهي مقتنعة على انه مات في المدينة حيث كان في رحلة تجارية وصل فيها الى غزة وعاد منها مريضاً فتخلف عند اخواله بني عدي بن النجار فمات بعد شهر^٣ . وهي متفقة كذلك على ان النبي استرضع في بني سعد واسم مرضعته حليلة وعلى ان امه ماتت بعد ولادته ببضع سنين فنشأ يتيماً من الأبوين^٤ ، والى هذا اشارت آية سورة الضحى هذه (ألم يجدك يتيماً فآوى ٦) وقد نشأ في حضانة جده عبد المطلب الى ان مات هذا في السنة الثامنة من عمره فصار الى حضانة ورعاية عمه وشقيق ابيه ابي طالب^٥ . وقد كان له اعمام عديدون غير ابي طالب منهم عبد العزى الذي نعته القرآن بأبي لهب والعباس وحزرة^٦ . وكان ابو لهب

(١) انظر تفسير الآية في تفسير الطبري وابن كثير وغيرهما

(٢ - ٤) ابن هشام ج ١ ص ٢٦٧ - ١٧٧ وطبقات ابن سعد ج ١ ص ٨٠ - ٩٠

(٥) ابن هشام ج ١ ص ١٨٩ وطبقات ابن سعد ج ١ ص ١٠١ - ١٠١

(٦) غنى ابي لهب مؤيد بآية سورة تبت (ما اغنى عنه ماله وما كسب وغنى العباس المذكور في الطبري

والعباس من اغنياء قريش . وكان العباس صاحب منصب من مناصب مكة العليا على ما ذكرناه قبل . وكانت أسرته تنعت ببني هاشم نسبة الى جد والده . وكان هو وعمه ابو طالب من الفريق غير الغني بل وغير البارز في المجال الاجتماعي . ويستفاد هذا بالنسبة له من آية في سورة الضحى بالنسبة لفقره وهي (ووجدك عائلاً فأغنى ٨) ومن آيات في سورتي الزخرف وص فيها حكاية استغراب زعماء قريش من اختصاصه بالنبوة دونهم مع انهم هم الزعماء البارزون اصحاب المكانة المرموقة والكلمات المسوغة كما تروى في النصوص التالية :

١- وَأَنْتَلِقَ أَمْلَأُ مِنْهُمْ أَنْ أَمْشُوا وَأَصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ . مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آلِ اللَّهِ الْآخِرَةِ إِنَّ هَذَا إِلَّا اخْتِلَافٌ أَفُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابٍ .

سورة ص ٦ ٨

٢- وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ أَهَمْ يُقْسِمُونَ رَحْمَةً رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرِيًّا وَرَحْمَةً رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ

٣٢-٣٣ سورة الزخرف

(١) استغربوا نزول القرآن على النبي صلى الله عليه وسلم وقالوا إنه كان الاول ان ينزل على زعيم عظيم من زعماء مكة والطائف . فردت عليهم الايات بان ما هم فيه من تفاوت في الدرجات وعلو في المكانة هو مظهر من مظاهر الحياة وليس مظهر رحمة ربانية يختص الله بها المستحقين لها من عباده الصالحين .

اما امر فقر عنه ابي طالب فهذا لما يستفاد من الروايات ١ . ولعل تقدم اخيه العباس عليه وتولية منصب سقاية الحاج مع انه اصغر منه من الدلائل على ذلك .

ولقد احتوت بعض النكتب وبخاصة المتأخرة منها^٢ روايت كثيرة في سياق ذكر وجوده ونوره قبل نشأة الانسان الأولى ثم في سياق ذكر نسبه وحميه وولادته وبشارته دون ان يكون لها احل من قرآن او سند من حديث صحيح او دعامة من منطق ومقول بل وكثير منه لم يرد في الروايات المدونة في كتب السيرة القديمة حيث يبدو منها ان غلاة المسلمين لم يكتفوا بالوقوف عند الانسان الكامل في النبي صلى الله عليه وسلم الذي يتجلى في التميز في عظم الخلق وحفاء النفس وكبر القلب وقوة الايمان والبقاء في الله وتهيبة العظمى التي اضطلع بها ورأوا انه لا بد من ان يكون من لوازم نبوته واصطفائه ان تكون ثمة مقدمات وبشائر وان كان فيها ما يخرج النبي صلى الله عليه وسلم من النطاق الطبيعي للبشر اولا ولسائر الأنبياء ثانياً ويدخله في نطاق اللاهوتية او ما في معناها . وذلك حين يصفونه بالاب الاكبر بجميع الموجودات وانه خص بالاستخراج من ظهر آدم قبل نفع الروح فيه لانه هو المقصود من خلق النوع الانساني وان جميع الكائنات من عرش ولوح وقلم وكرسي وسعوات وارضين وانس وجن وشمس وقمر وملائكة وجنة ونار قد خلقت من نوره وان احد اجداده الياس كان يسمع تليته بالحج وهو في صلبه وانه كان يعلم بأمر نبوته مذ كانت في عالم الذر وبعد خلقته ويرى علام ذلك في الشجر واخبر وهي تسلم عليه وان امه سمعت بشائر نبوته ورأت اعلامها حين وضعت في آخر ذلك . ومن الغريب والطريف معاً ان يكون مثل هذا الغلو في اعتقاد صفات النبوة هو الذي حمل طائفة من العرب على جحد نبوته والوقوف منه موقف المنكر المستغرب اذ تخيلوا ان النبي لا بد من ان يكون فوق البشرية في القدرة على الخوارق ومعرفة الغيب وتسخير الاكوان والخلود والصعود الى السماء واستئزال الملائكة وانفتاح كنوز الارض له . فلما رأوه بشراً مثلهم بقر بلسان القرآن مثليته البشرية ويرد عليهم حينما يضربون منه الخوارق بأنه ليس الا بشراً ورسولاً وانه لا يعلم الغيب ولا يملك خزائن الله وانه ليس ملكاً وانه معرض لجميع ما

(١) انظر طبقات ابن سعد ج ١ ص ١١١ والطبري ج ٢ ص ٥٧ - ٥٨

(٢) انظر الشفاء والقمصاني وشروحها ومختصراتها وقرأ قمص المولد النبي التي تلي في الخفلات .

تتمرض له البشر عجبوا وجحدوا وردد القرآن موقفهم وندد به في آيات كثيرة (١).

على ان في القرآن آيات كثيرة فيها سور عديدة عن شخصية النبي صلى الله عليه وسلم وحياته قبل البعثة كما ان في الروايات التي يصح الاعتماد عليها سور عديدة من ذلك أيضاً .

أخلاقه



مبالاة الى الاشارات القرآنية التي نبهنا اليها قبل قليل في صدد يتمه وفقره وعدم بروزه في مجال الزعامة ففي سورة القلم آية فيها تنويه بأخلاقه وهي (وانك لعلى خلق عظيم ٤) ولا شك في أن الخلق العظيم الذي تقرره الآية فيه هو امتداد لما كان له من ذلك قبل البعثة لان الآية من أوائل ما نزل من القرآن . والكلمة مطلقة واسعة الشمول بحيث يصح القول انها تصف النبي صلى الله عليه وسلم بالأخلاق الكريمة الفاضلة الشخصية والاجتماعية . وقد روى البخاري^٢ حديثاً عن عائشة رضي الله عنها جاد فيه أن النبي صلى الله عليه وسلم حينما عاد من حراء بعد نزول الوحي الاول عليه قال خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها اني خفت على نفسي فقالت له « كلا والله ما يخزيك الله أبداً انك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق » وفي هذا تفسير للأخلاق الكريمة الفاضلة التي كان عليها قبل بعثته كما هو واضح .

وفي سورة الانعام التي هي من السور المكية المبكرة في النزول نوعاً ما هذه الآية في معرض حكاية عناد زعماء قريش والرد عليهم (وإذا جاءتهم آيةٌ قالوا كنُ نُؤْمِنُ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلَ اللَّهِ ۗ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ۗ ١٢٤)

(١) انظر مثلاً آيات سورة الاعراف ١٨٨ ويونس ٤٩ والاسراء ٩٠ - ٩٤ والانبياء ٧ - ٨ والفرقان ٧ - ٨

(٢) التاج الجامع لاصول احاديث الرسول ج ٣ ص ٢٢٦ - ٢٢٧

حيث تقرر الجفلة الثانية من الآية ان الله تعالى انما اصطفى بهذا (صلعم) لما كان عليه من استعداد ودرابح - حقيقة و عقلية و روحية جعلته أهلاً لمهمة الرسالة العظمى . وطبعي أن ذلك تقرير لما كان عليه قبل اصطفاؤه لهذه المهمة وفي سورة يونس هذه الايات التي تدل على انه لم يكن فضولياً وعلى انه كان منطوياً على نفسه منقبضاً عما كان عليه قومه

(وَإِذَا تَنَالَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا إِنَّمَا يَبْرَأَن غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَتَدَّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِع إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ . قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ . (١٥ - ١٦)

وفي سورة المؤمنين آيات تدل على أن النبي (صلعم) لم يكن نكرة بين قومه قبل بعثته ولو لم يكن بارزاً في مجال الزعامة . بل وتدل على أنه كان معروفاً عندهم برجاحة العقل وهي

(أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ . أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ . أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمُ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ .

« ٦٨ - ٧٠ »

وهناك آيات عديدة أخرى^١ تتضمن تقرير ما كانت عليه سيرته في المسلمين من لين وتنزه عن الغضاظة وغلظ القلب والاستماع للخير والعمل به وثقته في أصحابه وشدة حرصه

(١) انظر آيات سورة آل عمران و ١٥٣ - ١٥٩ والانعام ٣٥ والتوبة ٢٥ - ٢٦ و ١٢٨ ويونس ٩٩ والكهف ٦ وطه ١ - ٢ والشعراء ٣ والاحزاب ١٠ - ٢١ و ٢٨ - ٢٩ والجم ٧٢ والعلق ١٥ - ١٩ والقم ١٠ - ١٦ وانظر كذلك ص ٤٨ - ٦٩ فيها نصوص هذه الايات وغيرها وشرح لها في مبحث اخلاق النبي صلى الله عليه وسلم

على المسلمين وتألمه مما كان يشق عليهم ويسبب لهم العنت والعناء وما كان عليه من خلق الحياء والتفادي من جرح عواطف أصحابه . وما كان من شدة حرصه على هداية قومه وخيرهم وصلاحهم . وما كان يبذله من جهد عظيم تكاد أن تهلكه وتشقيه في هذا السبيل . وما كان يعتريه من هم وحزن واشفاق بسبب انقباض قومه عن الاستجابة إلى دعوته في مراحلها الأولى . وما كان عليه من ثبات الجأش وقوة الجنان في الخطوب وميدان الحرب وما كان من استغراقه في مهمته العظمى استغراقاً جعله لا يبالي بأي متعة أو مطلب أو رغبة بالنسبة إلى المعيشة البتية الهنيئة حتى كاد يطلق زوجاته حينها طالبينه بشيء من ذلك . وما كان عليه من جرأة وقوة جنان في الوقوف أمام الزعماء الأقوياء وتوجيه أشد الانذارات والصرخات القارعة التي أمر بتوجيهها عليهم كلما كانوا يشتدون في ضلالتهم وتصالحهم .

وإذا كانت هذه الآيات القرآنية متصلة بسيرته بعد البعثة فإن ما لا يصح المراء فيه أن أصول الصفات والأخلاق المشار إليها فيها كانت تمتد إلى ما قبل بعثته وأنها هي التي اهلتها لمرسالة العظمى فيما أهله من مواهب ومزايا . بل من الحق أن يقال هذا بالنسبة لجميع ما نوه به القرآن وحث عليه من أخلاق فاضلة كالصدق والعدل والبر والامانة والاعتدال والاحسان وصلة الرحم والوفاء ونصرة المظلوم والصبر والكرم وكل ما ذمه القرآن ونهى عنه من أخلاق سيئة من كذب وظلم وبغي وإثم وفحش وافك وزور وإسراف ونكث وغدر وخيانة ورباء ومكيدة وهوى . ولقد روى الامام احمد والنسائي حديثاً عن جابر بن نفير جاء فيه انه حج ودخل على عائشة رضي الله عنها فسأها عن خلق رسول (صلم) فقالت « كان خلق رسول الله القرآن^٢ وهو جواب فيه كل الحق والصدق والهداية بدوت ريب »

(١) اقرأ آيات سورة آل عمران ١٥٣ و ١٥٩ والتوبة ٢٥ - ٢٦ و ٩١ و ١٢٨ والكهف ٦ وطه ١ - ٢ والشعراء ٣ وفاطر ٨ والانعام ٣٥ ويونس ٩٩ والاحزاب ١٠ - ٢١ و ٢٨ - ٢٩ والنج ٧٢ والهمزة ١ - ٩ وتبت ١٠ - ٦ والعلق ١٥ - ١٩ والقلم ١٠ - ١٦ واقرأ كذلك الصفحات ٤٨ - ٦٩ من الجزء الاول من كتابنا سيرة الرسول التي استعرضنا وشرحنا فيها هذه الآيات وغيرها في صدد اخلاق النبي صلى الله عليه وسلم .

(٢) انظر تفسير ابن كثير لآية « وانك لعل خلق عظيم » من سورة القلم

شبابه وزواجه واعتكافاته وبعض أحداث جرت له



ولقد ذكرت كتب السيرة ان ابا طالب كان لا يسافر سقراً الا اخذ النبي معه وانه توجه نحو الشام فنزل منزلاً فيه فأثاد راعب اسمه بجيرى فلما رأى النبي وكان عمره اثني عشرة سنة سأل عن والده فقال له ابو طالب ها انا ذا وليه فقال له احتفظ بهذا الغلام ولا تذهب به الى بلاد الشام فان اليهود حسدوا في اخشاهم عليه فإِده ابو طالب معه الى مكة^١

ومما روي^٢ أن النبي (صلعم) لما بلغ سن الشباب وعرف ما كان عليه من أمانة واخلاق رضية طلبت اليه السيدة خديجة بنت خويلد ابن اسد بن عبد العزى بن قصي رضي الله عنها احدى نساء الأسر القرشية الشريفة وأرملة أبي هاله بن مالك أحد بني أسيد بن

(١) هذه خلاصة ما جاء في طبقات ابن سعد ج ١ ص ١٠١ وقد روى ابن هشام ذلك بشيء من الخلاف والبيان حيث روى ان الركب الحجأزي لما وصل الى بصرى وكان فيها دير يقيم فيه بجيرى الراهب رأى هذا غمامة تظلل الركب فنزل ودعاهم الى الطعام فلبوا الدعوة وخلفوا رسول الله عند متاعهم لخدانة سنه فظلت الغمامة حيث هي فسأله ان كان تغلف منهم احد فتال غلام حدث فطلب إحضاره فلما جاء اخذ يلحظه لحظاً شديداً وينظر الى اشياء من جسده كان يحدها عنده من صفته فقال له أسألك بحق اللآة والعزى إلا ما اخبرتني عما أسألك عنه فقال له لا تسألني بالآة والعزى فوالله ما ابغضت شيئاً قط بغضها فساله بالله عن اشياء من حانه في نومه وهيئة اموره فاخبره فوافق ذلك ما عنده من صفته ثم نظر الى ظهره فرأى خاتم النبوة بين كتفيه على موضعه من صفته التي عنده وكان مثل اثر المحجم فسأل الراهب ابا طالب عنه فقال له ابني فقال ليس ابنك فأتبعني ان يكون له اب حي فقال له ابن اخي مات ابوه وامه حبل به فقال له ارجع بأبي اخيك الى بلده واحذر عليه اليهود فوالله ان رأوه وعرفوه ما عرفته منه ليعفته شراً فانه كائن لابن اخيك شان عظيم فاسرع به الى بلده فخرج به عمه سريعاً حتى اقدمه مكة حين فرغ من تجارته . (١٩١ - ١٩٤ ج ١) ومنها يمكن من اختلاف في رواية المؤلفين فالظاهر ان مصاحبة النبي لعمه في صباه في رحلته او رحلاته التجارية صحيحة وان لقاء جرى بين عمه وبين بجيرى الراهب في رحلته وان هذا رأى في النبي من الامارات ما جعله يتوقع له ذلك الشأن العظيم ويجذر عمه عليه .

(٢) ابن هشام ج ١ ص ١٩٨ - ٢٠١

عمرو بن قيس حليف بني عبد الدار ، وكانت ذات مال أن يتجر لحسابها على عادة موسى مكة على ما ذكرناه في الجزء السابق فقام بأكثر من رحلة تجارية في سبيل هذه المهمة ونجح فيها نجاحاً جعل السيدة تعرض عليه نفسها للزواج فتزوج بها وعمره خمس وعشرون سنة .

ونعتقد أن هذا الحادث كان فاتحة عهد جديد في حياة النبي (صلعم) بل كان حاسماً فيها له اكبر الأثر في الاتجاه النهائي الذي اتجه اليه وتهيأت نفسه وقواه الروحية لتلقي الرسالة العظمى والنهوض بها . إذ أغناه الله تعالى عن الضرب في الأرض في سبيل الرزق . فاستطاع ان يتمتع في جانب السيدة بالحياة البيتية الهائلة المطمئنة من جهة وأن يتفرغ من جهة أخرى بنفسه وقلبه وفكره وروحه للتدبر في ملكوت الله وآلائه والقيام بالرياضات او الاعتكافات الروحية فارغ القلب من هموم المعيشة وضروراتها . ونعتقد ان آية سورة الضحى (ووجدك عاثلاً فأغنى ٨) قد تضمنت الاشارة الى ذلك . واسلوها الذي فيه معنى التنويه والتذكير بنعمة الله بذلك جدير بالامعان . وننبه الى ان روايات السيرة لم تذكر ان النبي (صلعم) قام بأي رحلة تجارية او شغل نفسه بأية مشغلة دنيوية تكسبية بعد اقترانه بالسيدة خديجة رضي الله عنها . وكل ما ذكرته هو اخبار رياضاته واعتكافاته في غار حراء ثم اخبار قليلة اخرى اهمها حادث التحكيم في وضع الحجر الاسود في ركن الكعبة وحضوره حرب الفجار وحلف الفضول . وهي اخبار اجتماعية . وإنه ليكفي المرأة العربية فخراً ان يكون للسيدة خديجة هذا الأثر العظيم في حياة النبي (صلعم) . ولقد تواترت الروايات فيما كان من صور هذا الأثر قبل البعثة وبعدها . فقد كانت تحنو عليه أعظم حنان وتخصه بأسمى العواطف وتهيء له الراد في مواسم اعتكافاته الرياضية والروحية وتلاحظه في اثناؤها . ثم شجعت اعظم التشجيع وهدأته اعظم التهدئة حينما اوحى الله تعالى اليه في غار حراء حيث رجع اليها مقشعراً وقال لها زملوني حتى فهب عنه الروح فآخبرها وقال لما اني خشيت على نفسي فقالت له ما اوردناه قبل من كلام عظيم وانطلقت به حتى أتت ورقة بن نوفل ابن عمها وكان امرأاً قد تنصر في الجاهلية وكان يكتب العبراني فيكتب من الأنجيل بالعبرانية ما شاء الله وكان شيخاً كبيراً قد عمي فقالت له خديجة يا ابن عم اسمع من ابن أخيك . فقال له ورقة ماذا ترى يا ابن اخي فآخبره بما رأى فقال له هذا الناموس الذي نزل الله على موسى يا ليتني فيها جذعاً ليتني اكون حياً إذ يخرجك قومك فقال له رسول الله (صلعم) او مخرجي هم قال نعم لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به الا

عودي وانت يدر كني يومك انضرك نصراً مؤزرًا^١ وكانت اول من صدقه وآمن به بما يدل على صدق فراستها وثاقب نظرها في شخصية النبي (صلعم) بعد ان تزوجته وعرفت ما فيه من مواهب واستعداد وقوى روحية وعقلية وخلقية . وظلت تؤاسيه وتهديه وتشجعه كلما اشتد غمه وحزنه من جراء موقف زعماء مكة من دعوته الى ان توفاه الله في السنة الثامنة لبعثته . وكان تفجعه عليها عظيماً لأنه فقد بفقدائها اقوى صديق ومشجع ورفيق^٢ .

وحادث التحكيم الذي اشرفنا اليه ذو مغزى خاص في صدد شخصية النبي (صلعم) وفضل اخلاقه وعقله واماته وقد ذكرته روايات السيرة^٣ دون خلاف بما قد يدل على صحته . فقد تعرضت الكعبة لسيل شديد فصدتها فاتفق زعماء قريش على هدمها وتجديد بنائها . وكان النبي (صلعم) في الخامسة والثلاثين من عمره وقد اشترك في البناء حيث كان عملاً مشرفاً . ثم اختلف الزعماء على من يضع الحجر الأسود في مكانه - وقد ذكرنا شيئاً من تاريخه وقداسته في الجزء السابق - حتى كادوا يقتتلون ثم اقترح بعضهم تحكيم اول داخل الى الحرم فكان محمداً (صلعم) فارتاحوا وهتفوا انه الامين - حيث كان اشتهر فيهم بهذا الاسم المحب الدال على امانته ورجاحة عقله فوضع الحجر في ثوب وطلب الى زعماء قريش ان يمسكوا بأطرافه ويرفعوه معاً الى ان وصل الى مكان الحجر فوضعه بيده في مكانه فأرضى بتدبيره الحكيم الجميع .

اما حرب الفجار فقد كانت بسبب قتل شخص شخصاً آخر في الشهر الحرام بما فيه مناقضة لتقاليد الاشهر الحرم التي شرحتها في الجزء السابق . وقد اشترك فيها القرشيون الى جانب حلفاء لهم ضد فريق آخر . وكان عمر النبي (صلعم) عشرين في رواية وخمس عشرة في رواية اخرى فحضرها مع عمومته وكان يقدم النبل اليهم حينما تأتي من جانب اعدائهم وتسقط في ساحتهم وفي رواية انه رمى فيها ايضاً وانه قال ما احب ان لا اكون فعلت ذلك^٤

(١) انظر التاج الجامع لاصول احاديث الرسول ج ٣ ص ٢٢٦ - ٢٢٧

(٢) انظر ابن هشام ج ١ ص ٢٥ وحياة محمد لبيك ص ١١٨ - ١١٩ - ١٨٢

(٣) انظر ابن هشام ج ١ ص ٢٠٤ - ٢١١ والطبقات لابن سعد ج ١ ص ١٢٦ - ١٢٩

(٤) انظر سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٩٥ - ١٩٨ والطبقات ج ١ ص ١٠٨ - ١١٠

واما حلف الفضول فقد انعقد بين عدة بطون قرشية بسبب ظلامة تعرض لها رجل من
زبيد حيث اشترى منه العاصي بن وائل احد اشراف قريش بضاعة وحبس عنه ثمنها . فلما
اعيا الامر الزبيدي صعد الى جبل ابي قبيس وصاح بأعلى صوته :

يا آل فهر لمظلوم بضاعته ببطن مكة نائي الدار والنفر
ومحرم اشعت لم يقض عبرته يا للرجال وبين الحجر والحجر
ان الحرام لمن تمت كرامته ولا حرام لثوب الفاجر الغدر

فقام الزبير بن عبد المطلب وقال ما لهذا وترك . فاجتمع بنو هاشم وبنو المطلب وبنو
زهره وبنو تيم وبنو اسد في دار عبد الله بن جدعان وتعاهدوا على ان لا يجحدوا بمكة مظلوماً
من اهلها وغيرهم الا قاموا معه على من ظلمه حتى ترد عليه مظلمته . وقد شهد النبي (صلعم)
الاجتماع واشترك في التعهد وكان عمره عشرين سنة وقد اثر عنه انه قال (لقد شهدت في
دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما احب ان لي بسبه حمر النعم ولو دعت اليه في
الاسلام لاجبت^١ .

هذا . وفي آية في سورة الضحى ما يمكن ان يلقي الضوء على نشأة النبي (صلعم)
الروحية وهي « ووجدك ضالاً فهدى ٧ » ولقد قال بعض المفسرين ان الآية احتوت اشارة
الى حادث تيهان فعلي وقع للنبي (صلعم) في طفولته او في احدى رحلاته كما قال بعضهم
انها تعني انه كان غافلاً عن الشريعة التي لا تتقرر الا بالوحي او انه كان حائراً في اسلوب
العبادة ونفوا عنه على اي حال ان يكون ضالاً بمعنى الاندماج في العقائد والتقاليد الشركية
الجاهلية .

والنفس لا تطمئن الى رواية تيهان النبي (صلعم) مضموناً وسنداً . ولا تبدو انها
يمكن ان تتسق مع ما تضمنته الآية من من الله تعالى على نبيه بأعظم افضاله لتفاهة الحادث .

(١) انظر سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٤٠ — ١٤١ تحقيق السقا ورفقاه وطبع مصطفى الحلبي

والطبقات لابن سعد ج ١ ص ١١٠ — ١١١ مطبعة لجنة الثقافة الاسلامية

وتفسير كلمة (خال) بالخائر يحمل معنى الآية على ان المقصود الخيرة في الطريق التي يجب ان يسار فيها الى الله وعبادته على افضل وجه وهو المعنى الذي نراه الاوجه .

ولقد ذكرت ملة ابراهيم في القرآن مرات عديدة وبجفاوة عظيمة وآيات مكة ومدنية وفي صدد الجدل والخطاب مع العرب في مكة ومع اليهود في المدينة وفي صدد الدعوة اليها والتنويه بها ووجوب التزامها وتقرير صفتها وماهيتها لذاتها أيضاً . وبأسلوب يفيد أنها توحيدية مستقيمة على وحدة الله او منحرفة عن الشرك ، وأنها كانت مما تتداوله الألسنة قبل البعثة وعنواناً على الملة المثلى لمعرفة الله وعبادته وحده^١ .

ولقد وردت روايات عديدة^٢ عن افراد من العرب في مكة ويثرب وغيرهما تخلوا قبل البعثة عن تقاليد العرب وعقائدهم الشركية واعتقدوا بوحدة الله ونزهوه عن الشركاء ومنهم من عبده على ملة ابراهيم او ما ظنه ملة ابراهيم على ما شرحناه في الجزء السابق شرحاً يغني عن التكرار . وكان العرب يسمونهم حنفاء وصابئين بمعنى انهم مالوا وانحرفوا عن دين آبائهم وتقاليدهم . فالذي نعتقده ونرى ان الآيات القرآنية تلهمه ان النبي (صلعم) حينما نضج شبابه صار من هذه الطبقة التي أنفت من تقاليد الشرك الجاهلية واعتنقت فكرة وحدة الله منزهاً عن الشريك والولد والمساعد واخذت تبحث عن ملة ابراهيم وتعبد الله على ما ظنوه هذه الملة .

ولقد ذكرت الروايات والاحاديث^٣ ان النبي (صلعم) كان يعتكف في رمضان كل سنة اعتكافاً روحياً في غار حراء في احد جبال مكة الذي سمي باسم جبل النور في الاسلام فيستغرق في آلاء الله وملكوته وعظمة كونه . وكان بعض المتورعين يفعلون ذلك^٤ . والاغلب انهم كانوا من افراد هذه الطبقة الموحدة . وظل على هذا المنوال إلى ان بلغ أشده وبلغ اربعين سنة في رواية وثلاثاً واربعين في رواية^٥ — والاولى هي الاشهر —

(١) افرا آيات سورة البقرة ١٢٣-١٣٢ وآل عمران ٦٧-٦٨ و٩٥ و٩٧ والانعام ١٦١ و ابراهيم ٣٤-٤١ والنحل ١٣٠-١٣٢ مثلاً

(٢) انظر مثلاً ابن هشام ج ١ ص ٢٣٧ — ٢٤٧

(٣) انظر التاج الجامع للاصول في احاديث الرسول ج ٣ ص ٢٢٦ — ٢٢٧

(٤) الطبري ج ٢ ص ٤٨ مطبعة الاستقامة

(٥) نفس المصدر ١٠٧ — ١٠٨

اصطفاه الله تعالى دون افراد طبقة لرسالة العظمى لما علم من مواهبه الخلقية والعقلية والروحية التي تؤهله للقيام بهذه المهمة وانزل عليه في ليلة القدر التي كانت إحدى ليالي رمضان العشر الاخيرة او السابعة والعشرين منها في غار حراء وحياه لازل مرة بآيات القرآن الاولى :

(إقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذي علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم .

سورة العلق ١ - ٥

وليس في روايات السيرة على ما ذكرناه قبل بيانات شافية عما كان النبي (صلعم) يفعله في السنين الخمس عشرة التي مرت بين زواجه من خديجة رضي الله عنها الى ان نزل عليه الوحي في غار حراء .

وفي القرآن بعض آيات تحكي قول الكفار إن النبي (صلعم) كان يتعلم ما يتلوه قرأناً من بعض الاشخاص او يستعين بهم على ذلك . منها آية في سورة النحل حكى قولهم إنه كان يعلمه رجل اعجمي وهي هذه (وَلَقَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ١٠٣) ومنها آية في سورة الفرقان حكى كذلك قولهم إن قوماً آخرين كانوا يساعدونه على نظم القرآن وهي (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلماً وَزُوراً ٤) والآيات إنما تنفي التعليم والاستعانة ولا تنفي الاتصال . والمتبادر ان القائلين لم يكونوا يقولون ما قالوه لو لم يروا او يعرفوا ان النبي (صلعم) كان يتردد على بعض أهل العلم والكتاب . ولقد ذكرت الروايات في سياق تفسير هذه الآيات اسمي جبر ويسار الروميين وقالت إنها كنا يقرآن الانجيل والتوراة وإن النبي (صلعم) كان يتردد عليها او على احدهما جبراً ويستمع إلى ما يقرأونه .

(١) انظر تفسير آيات سورتي الفرقان والنحل المذكورة في كتب تفسير الطبري وابن كثير وغيرهما .

ولقد احتوى القرآن المكي آيات عديدة فيها استشهاد بأهل العلم وأهل الكتاب على صحة رسالة النبي (صلعم) ودعوته وتأييده بفرحهم بما أنزل عليه من قرآن وإيمانهم وتصديقهم وإقرارهم بأنه منزل من الله بالحق وأوردناها في التمهيد والمستفاد من الروايات أن أكثر هؤلاء كانوا في مكة وأنهم كانوا نصارى ، وروح الآيات قد تؤيد هذا وإن هناك آية مكية تذكر شاهداً من بني إسرائيل وإيمانه بصحة رسالة النبي والقرآن نصاً وهي (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَأَمَنْ وَأُتْكِبَرْتُمْ إِنْ أَلَّهِ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ١٠)

فليس من المستبعد أن يكون النبي (صلعم) قد كان يتصل بهؤلاء وإن يكون وقف منهم على أسس الديانتين اليهودية والمسيحية وعلى ما في الأسفار التي كانت متداولة في أيديهم . والراجح إنه عرف كذلك منهم ما عليه أهل هاتين الديانتين من خلاف ونزاع وتأويلات وانحرافات عكرت صفاء جوهرهما فاشتد اتجاهه إلى الله ليهديه إلى ما هو الأقوم فاستجاب إليه فهداه إلى ملة إبراهيم الحنيفة التوحيدية الإسلامية وحمله رسالته العظمى بما يتصل في الغتاف الذي أمره بأن يهتف به (قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ . الأنعام ١٦١ - ١٦٣)

وبما يمثل في النداء الذي تضمنته هذه الآية (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ٦٤ آل عمران) و (إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ

يَكْفُرُ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ . فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ
وَجِئْتُ اللَّهَ وَمَنْ اتَّبَعَنِي وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَسْلَمْتُ
فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ
بِالْعِبَادِ . آل عمران ١٩ - ٢٠

والمبادر ان الفريق الكتابي الذي كان في مكة كان هو الآخر يشعر بالحرج مما عليه
أهل مكة من انحراف وشقاق ونزاع فلما بعث الله النبي (صلعم) ووجه دعوته اليهم في
جملة من وجه اليه دعوته اسلم وصدق معظمهم وفرحوا بما جاءهم به على ما سجلته آيات سور
الرعد (٣٦) والانعام (١١٤) والاسراء (١٠٧ - ١٠٩) والقصص (٥٢ - ٥٣)
والاحقاف (١٠) التي اوردناها في التمهيد حيث رأوا فيه حلولاً لمشاكلهم وعقدتهم وانقاذاً
لهم مما ارتكسوا فيه من حيرة وبلبلة ونزاع وخلاف .

وليس من المستبعد ان يكون اتصال النبي (صلعم) بهذا الفريق كان وثيقاً مستمراً
الى ان أوحى الله اليه . والروايات تذكر عدداً من الكتابيين الذين كانوا من الرعي الاول من
المسلمين والذين ايدوا النبي (صلعم) والتفوا حوله اشد تأييد والتفاف منهم بلال وشقران
وانجشة والاسود وام ايمن من الاحباش وسلمان الفارسي وصهيب الرومي وغيرهم وغيرهم
رضوان الله عليهم .

ولقد تواترت الروايات الى حد اليقين بأن ابا بكر الصديق رضي الله عنه كان صديقاً
للنبي (صلعم) قبل البعثة . وكان دائم التردد عليه ^١ ، وكان اول من آمن به من الرجال .
وان كلا من عثمان بن عفان وابي عبيدة بن الجراح وسعد بن ابي وقاص وعبد الرحمن بن
عوف والزبير بن العوام وطلحة بن عبد الله وسعيد بن زيد رضوان الله عليهم كانوا كذلك
من السابقين الاولين ^٢ ومن اقوى انصار النبي (صلعم) . وهم من شباب الاسر القرشية
البارزة . وبعضهم من جيل النبي (صلعم) . وهم من العشرة المبشرين بالجنة لسابقتهم

(١) ابو بكر الصديق لعلي الطنطاوي ص ٥٠

(٢) ابن هشام ج ١ ص ٢٦٦ - ٢٧٩

ونصرتهم . وجميعهم من ذوي العقول النيرة والمواهب الممتازة كما ثبت ذلك في إبان حياة النبي (صلعم) وبعد وفاته . واحدهم سعيد هو ابن زيد بن عمر احد افراد الطبقة الموحدة التي اشرنا اليها آنفاً وكان يتعبد على ملة ابراهيم . وقد كان النبي (صلعم) عرفه واجتمع به ^١ . فليس من المستبعد بل من المحتمل جداً ان يكون هؤلاء او بعضهم حلقة رفاق للنبي (صلعم) قبل بعثته وكانوا يتجهون اتجاهاه ويتحدثون في شؤون الدين وما كان عليه قومهم من سخف وخلال . فما ان اوحى الله الى النبي عليه السلام حتى سارعوا الى تصديقه ونصرته وتأيدته .

ومما له صلة بنشأة النبي « صلعم » انه لم يكن يقرأ ويكتب على ما تفيد بعض الآيات القرآنية حيث جاء في آية في سورة العنكبوت « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه يمينك اذ لا رتاب المبطلون » . سورة العنكبوت ٤٨

وفي سورة الفرقان آية اخرى تؤيد ذلك وهي :

(وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فِي تَمَلَّى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا . (٥)

وتعبير اكتبها بمعنى استكتبها على ما ذكره الزمخشري وغيره من المفسرين . . ومعنى الآية ان الكفار زعموا ان النبي « صلعم » كان يكلف بعض الكتاب بنسخ وكتابة قصص الاولين وتلاوتها عليه صباحاً ومساءً حتى يحفظها . وقد يدل هذا على ان زعماء قريش انفسهم الذين حكمت الآية قولهم كانوا يعرفون انه لا يقرأ ولا يكتب :

ولقد حاول كايثاني المستشرق الطلياني في كتابه تاريخ الاسلام ان ينكر ذلك لانه في رأيه غير معقول . وان يستدل بما في القرآن من معارف كثيرة على ان النبي « صلعم » لا بد من ان يكون قراها في اسفار الكتابيين . وقال فيما قال إن كثيراً من فتيان قريش من ابناء جيله كانوا يقرأون ويكتبون فلا يعقل ان لا يكون تعلم القراءة والكتابة بل

لقد زعم ان من المحتمل ان يكون قد حاول كتمان معرفته للقراءة والكتابة عن الناس وان بعض اصدقائه كانوا يعرفون ذلك . والاستنتاج متهاافت فيما يتبادر . فلا يعقل بأي حال ان تنفي الآيات القرآنية شيئاً يعرف بعض السامعين المؤمنين عكسه او ان يحاول كتمان امر مثل هذا عن الناس وعن اصدقائه وهم يعرفون ذلك فيه . وليس من الضروري ان يكون قارئاً كاتباً لان امثاله ولاداته قارئون كاتبون . إذ ان من الممكن ان يكون ذلك بسبب ظروف نشأته الخاصة بل هذا ما نعتقد انه الواقع . ودعوى كون معرفة النبي « صلعم » لمعارف كثيرة تتوقف على معرفته الكتابة والقراءة غير مهمة بالنسبة لتلك الظروف وغير واردة . وعلى الأرجح ان القائلين بها ينظرون بعين الحاضر وعقله . وقليل من التفكير يكفي لتبين الغلو في هذه النظرة . وقد كانت الحافظة ذات الدور الاول في تلك الظروف . ولا يماري احد انها يمكن ان تكون ذات دور عظيم في كل ظرف . ونوابغ العلماء والادباء والحفاظ من العمي من اقوى الادلة على ذلك .

ومن العجيب ان بعض علماء المسلمين حاولوا جهدهم في نفي الاكتساب العلمي عن النبي « صلعم » واستشهدوا بآية العنكبوت المذكورة وبعض آيات اخرى مثل آية سورة يوسف هذه (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْعَاقِلِينَ . ٣) وآية سورة النساء هذه (وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً ١١٣) وآية سورة القصص هذه (وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهيراً لِلْكَافِرِينَ ٨٦) وآية سورة الشورى هذه (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ٥٢)

ولقد حملوا هذه الآيات ما لا تتحمل في معرض الاستشهاد على ما ارادوا على ما هو المتبادر . ولنا نرى حكمة ولا ضرورة لهذا الجهد والنفي . ولا يمكن ان تتعارض هذه الآيات مع صحة القول بأن النبي « صلعم » قد اكتسب معارف كثيرة مما كانت تحتويه الكتب الدينية وغير الدينية من مبادئ واسس وقصص ووقائع وبما كان يدور على ألسنة الناس الكتابيين وغير الكتابيين من مثل ذلك . لأن هذا هو المتسق مع طبيعة الأشياء ولا يمكن ان لا يكون . ولقد احتوى القرآن إشارات كثيرة الى امور كثيرة بما كان عليه الناس ودائراً في بيئة النبي « صلعم » من شؤون وحالات دينية واجتماعية واخلاقية ومعاشية ومعارف وانباء ووقائع تناولها القرآن بالذكر بجدلا وعظة وتعليقا وتنديداً وإصلاحاً وتشريعاً وحظراً وإباحة . ولا يقول احد بطبيعة الحال ان هذه الامور والحالات جاءت جديدة في القرآن او ان النبي « صلعم » كان او يمكن ان يكون في غفلة او عزلة عنها قبل بعثته .

الفصل الثاني

بعثة النبي صلى الله عليه وسلم

وسيرته في مكة بعد البعثة

الفصل الثاني

بعثة النبي صلى الله عليه وسلم

وسيرته في مكة بعدها

حينما بلغ النبي (صلعم) الأربعين من عمره كما قلنا قبل، نزل عليه الوحي في غار حراء أثناء اعتكافه في إحدى ليالي شهر رمضان الأخيرة التي يرجع أنها السابعة والعشرون والتي سميت في القرآن ليلة القدر واليلة المباركة تعظيماً لها^١ والكتاب لا يتحمل بحث الوحي القرآني الذي بحثناه في كتابنا القرآن المجيد^٢ ولكننا لم نر بأساً في إيراد الحديث الذي رواه البخاري عن عائشة رضي الله عنها حيث جاء فيه^٣ : أول ما بدأ به رسول الله (صلعم) من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح . ثم حجب إليه الخلاء فكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه -- وهو التعبد -- الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك . ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها . حتى جاءه الحق في غار حراء . فجاءه الملك فقال اقرأ قال ما أنا بقارىء . قال فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال اقرأ . قلت ما أنا بقارىء . فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال اقرأ فقلت ما أنا بقارىء . فأخذني فغطني الثالثة ثم قال اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم . فرجع بها رسول الله (صلعم) يرجف فؤاده فدخل على خديجة وأخبرها الخبر وقال لها لقد خشيت على نفسي . فقالت كلا والله ما يخزيك أبداً . إنك لتصل الرحم وتحمل الكل . وتكسب المعدوم وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق . وانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ابن عم خديجة . وكان امرؤاً قد تنصر في الجاهلية . وكان يكتب الكتاب

(١) اقرأ سورة القدر وآيات سورة الدخان ٣ والبقرة ١٨٥

(٢) ص ١٥ — ٣٢

(٣) التاج الجامع للأصول ج ٣ ص ٢٢٦ — ٢٢٧

العبراني فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب . وكان شيخاً كبيراً قد عمي . فقالت له خديجة يا ابن عم اسمع ابن أخيك . فقال له ورقة يا ابن أخي ماذا ترى . فأخبره رسول الله خبر ما رآه فقل له ورقة هذا الناموس الذي أنزل الله على سيدنا موسى . يا ليتني فيها جذعاً ، ليتني أكون حياً إذ يخرجني قومك . فقل (صلعم) أو يخرجني هم . قال نعم . لم يأت رجل قط بمثل ما جئت إلا عودي . وإن يدركني يومك انصرك نصرأ مؤزرأ .

وبراعة استهلال الوحي القرآني الرباني على أعظم ما يكون من روعة وجلال . حيث تضمنت التنويه بما اختصه الله الانسان من العلم والتعليم . ثم أمر بدعوة الناس وانذارهم ونلاوة القرآن ابدي كانت فضوله تنزل عليه تبعاً عليهم . والمرجع المتسق مع العقل والحق أن الفصول الاولى التي نزلت هي التي كانت محتوية أسس الدعوة وخطوطها ومبادئها وخالية من الحجاج والجدل وحكاية مواقف الكفار مثل سور الفاتحة والأعلى والليل والشمس والقارعة والعصر والفجر واوائل سور العلق والقلم والمزمل والمدثر .

غنية الدعوة منذ البدء



ولقد ذكرت بعض الروايات أن الدعوة بدأت سرية الى أن قوي الاسلام بعض الشيء بعض الأشخاص مثل عمر بن الخطاب وحزمة بن عبد المطلب رضي الله عنها ونزلت آية (فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ . سورة الحجر ٩٤)^١ وأنه اتخذ مركزاً سريعاً يجتمع فيه النبي (صلعم) واصحابه الاولون وهو دار الأرقم . ولا يمكن التسليم بهذه الرواية على اطلاقها لأن آيات سورة المدثر الاولى (يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ ١ — ٢) قد أمرت النبي (صلعم) بالدعوة ولا بد من ان يكون فعل وفي سورة العلق آيات تدل دلالة قاطعة على ان النبي (صلعم) اخذ منذ تنبأ يصلي لله ويدعو الناس جهرة فتصدي له احد الزعماء الذي روى المفسرون انه ابو جهل ليمنعه فأمر بعدم المبالاة والاستمرار في خطته مع توجيه انذار قاصم للزعيم المتصدي وهي (أَرَأَيْتَ الَّذِي

(١) انظر تفسير الآية في تفسير ابن كثير وغيره.

يَنْهَى . عَبْدًا إِذَا صَلَّى . أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى . أَوْ أَمَرَ بِالْقَوَى .
أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَسَفَعَنُ
بِالنَّاصِيَةِ نَاصِيَةً كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ . فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ . سَنَدْعُو الزَّبَانِيَةَ كَلَّا لَا
تُطِيعُهُ وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ٩-١٩)

وفي سور القلم والمزمل والمدثر التي نزلت مبكرة جداً آيات عديدة ^١ تدل دلالة
قاطعة على ان الجدل والحجاج بين الكفار والنبي (صلم) وبخاصة زعمائهم قد بدأ مبكراً
ولا يكون هذا الا نتيجة لدعوة النبي (صلم) الناس وتلاوة القرآن عليهم جهره .
واستمر هذا الاسلوب بدون انقطاع . وكل ما يمكن ان يكون ان النبي (صلم) تجنب
الزعماء البغاة مؤقتاً دون ان يقطع معهم الجبل مما قد تفيد آية في سورة المزمل وهي
« واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرأً جميلاً ١٠ » وان يكون قصر دعوته مؤقتاً على من
توسم فيهم الخير والاستجابة . وان يكون تجنب اقامة الصلاة جماعة في فناء الكعبة رعاية
لاصحابه الضعفاء . وان يكون اتخذ له مكاناً منعزلاً يجتمع فيه مع اصحابه وقد قلنا مكاناً
منعزلاً لاننا لا نرى من المعقول ان يكون سرياً حيث كان المسلمون يعدون بالعشرات .
والمفسرون يروون ^٢ ان الشخص الذي حكى تصديه للنبي (صلم) آيات سورة العلق
هو المغيرة بن هشام الخزرمي الذي عرف في التاريخ الاسلامي بكنية ابي جهل . وكان
يكنى بابي الحكم . وكان هذا الرجل وظل من اشد اعداء النبي (صلم) ودعوته ومناوئها
واخرزين عليها حسداً واستكباراً على ما حكته روايات السيرة كثيراً ^٣ ولقد روى
عنه انه قال تنازعنا الشرف نحن وبنو عبد مناف . اطعموا فاطمينا وحملوا فحملنا واعطوا
فأعطينا حتى اذا تجاثينا على الركب قالوا منا نبي يأتيه الوحي من السماء فمتى ندرك ذلك .
والله لا نؤمن به ولا نصدقه ^٤ .

وعبارة الآية قد تفيد انه كان من زعماء مكة البارزين وصاحب مركز في مجلسهم او
دار ندوتهم . وقد تفيد كذلك انه تصدى للنبي (صلم) بموافقة المجلس الذي كان اعضاؤه

(١) انظر آيات سورة القلم ١٦-١٠ وسورة المزمل ١٠-١٨ وسورة المدثر ١١-٢٥

(٢) انظر تفسير سورة العلق في تفسير الطبري وابن كثير والحازن وغيرهم

(٣) انظر سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٨٠ وما بعدها

(٤) انظر تفسير الايات ٣٣-٣٦ من سورة الانعام في تفسير الامام ابن كثير

من رؤساء الاسر القرشية الرفيعة الذين كانوا اصحاب الحكم والسلطات في مكة على ما شرحناه في الجزء السابق . واذا صح هذا فمن السائغ ان يقال ان السلطات الرسمية في مكة قد رأت في صلاة النبي « صلعم » علناً صلاة جديدة لا عهد للناس بها وفي دعوته الناس بجهرة الى دين يخالف ما عليه الناس بدعة ورائت وجوب الوقوف امامها وانها عهدت الى احد اركانها بتنفيذ ذلك او إن هذا العضو كان اشد خماساً من غيره فكان هو المتصدي .

موقف أبي لهب وباعثه واثره

ومن الاشخاص الذين وقفوا من الدعوة موقف المناوأة الشديدة منذ بدايتها ابو لهب عم النبي « صلعم » وكنيته هذه كنية قرآنية استحقها لشدة مناوآته ونكايته . اسمه عبد العزي . وقد خصصناه بالذكر لان موقفه كان من اشد المواقف على نفس النبي « صلعم » وابعدها نكالية للدعوة على اعتباره عم النبي وكون تأثيره في سير الدعوة وعرفلتها اقوى من غيره لانه يقوي حجة هذا الغير اذا انصرفوا عن الدعوة او وقفوا منها موقف العناد والمناوأة . ولقد كانت زوجته ايضاً وراءه في موقفه الشديد فاستحقت معه

ما جاء في سورة تبت من انذار قاصم لها (تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ . مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ . سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ . وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ . فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ) .

والمفسرون يروون^١ ان السورة نزلت بمناسبة قول ابي لهب للنبي « صلعم » « تباً لك . اهكذا دعوتنا » وذلك حينما نزلت آية الشعراء هذه « وانذر عشيرتك الاقربين ٢١٤ » وجمع النبي بني هاشم وانذرهم . مع ان هذه الآية من سورة غير مبكرة في النزول وقد نزلت على ما رواه المفسرون بعد ثلاث سنين من البعثة ومع انهم قالوا ان سورة المسد من ابكر ما نزل من القرآن . وهي فعلاً تأتي سابعة السور نزولاً في روايات ترتيب نزول السور . وهذا ما يجعلنا نتوقف في الرواية المشهورة عن سبب نزول السورة . ولقد ذكرت

(١) انظر تفسيرها في تفسير الطبري وابن كثير والحاازن والطبرسي والبنوي

الروايات^٢ ان الصلات بين النبي « صلعم » وعمه قبل البعثة كانت حسنة وان بيتيها كانا متجاورين وان احدى بنات النبي « صلعم » او اثنتين منها كانتا مخطوبتين لابن عمه هذا وان ابا لهب وامراته قد حملا ابنها او ابنيها على فسخ الخطبة بعد قيام النبي « صلعم » بدعوته فالذي يرد على البال وينسجم مع تبكيّر نزول السورة ومضمونها وذكر امرأة ابي لهب فيها ومع هذه الروايات هو ان النبي « صلعم » اتصل بعمه او من اتصل به ودعاه واهله في اول من دعا . بل لعله كان اول من اتصل به بعد السيدة خديجة رضي الله عنها . فهو عمه وجار بيته وصهره . ولعله كان يكثر من التردد عليه وان يكون قد انعقد بينها مودة . ومن المعقول ان يفاتحه قبل كل انسان من غير اهل بيته وان يفضي اليه بأمره وان يطلب منه التصديق والتأييد وهو واثق كل الثقة بمقابلته بالحسنى والاجابة والاستبشار وبأنه واحد فيه العضد القوي والسند المتين لاسيما انه كان طائل الثروة كما تصفه السورة فخاب امله وقوبل منه اسوأ مقابلة ووقف من الدعوة اشد موقف من الاذى والعناد والتعطيل وقطيعة الرحم حتى لقد روي انه كان يسير وراءه وكلما تحدث مع اي من وفود الحج وغيرهم قال لهم لا تصدقوه انه ذاهب العقل وانا عمه وادري الناس به^٢ . ونعت امرأة ابي لهب بجمالة الخطب يلهم انها كانت تريد نار معارضة زوجها ومناواته واذاه لهباً . ولعلها كانت تنفخ روح العداء في زوجها كلما رأت منه جنوحاً الى التروي والفتور بسبب ما كان يربطه بابن اخيه من روابط العvisية وتقاليدها وليس بعيداً ان يكون تأثيرها عاملاً في شدوذ هذا العم عن سائر افراد عشيرة النبي « صلعم » الاقربين الذين كانوا ينصرونه ويحمونه بتأثير قوة العvisية بالرغم من ان اكثرهم لم يكونوا قد استجابوا الى دعوته بل ظلوا كذلك ، امداً طويلاً . ولقد ذكرت الروايات^٣ ان هذه الزوجة هي بنت حرب بن امية اي اخت ابي سفيان الذي كان من ابرز الزعماء وذوي الشأن في قريش والذي كان لاسرته المكانة البارزة . وظل يناويء الدعوة طيلة العهد المكي واكثر العهد المدني اي الى فتح مكة مناوأة عنيفة ويقود ويجهز الجيوش التي كانت تشتبك مع المسلمين او تغزو المدينة دار الهجرة النبوية . ولقد نفست اسرته على بني هاشم ظهور النبوة فيهم وخشيت من ذهاب

(١) انظر مجمع الزوائد ج ٩ ص ١١٣ — ٢١٤ ومروج الذهب للمسعودي ج ٢ ص ١٨٥

(٢) ابن هشام ج ٢ ص ٣٢

(٣) انظر ابن هشام ج ١ ص ٣٨٠

مكانتها وتفوق بني هاشم عليها . فكان ذلك من عوامل هذا الموقف على الأرجح والراجح ان موقف زوجة ابي لهب التي كانت تصكنى بأمر جميل متأثر بموقف اخيها واسرتها .

وهكذا واجه النبي ﷺ في خطواته الاولى هذا الموقف الأليم غير المنتظر وكان له أثر غير يسير في سير الدعوة لأنه استمر إلى نهاية العهد المكي ، بل إلى السنة الثامنة من العهد المدني أي إلى ان فتحت مكة .

ولقد ثبته الله وأيده بروح منه فواجه هذا الموقف العسير المستمر بقوة وجراحة واستمرار دون ما كلال ولا ملل يتصل بكل طبقة وبمختلف الاساليب داعياً إلى الله وحده ومكافئ الاخلاق والاعمال الصالحة والحياة الكريمة الانسانية محارباً للشرك في كل مظهره ناعياً على الشر كين سخف عقائدهم وتقاليدهم مسفهاً لأحلامهم مقررأً عجز شركائهم عن نفعهم وضررهم برسجلات صوره وحكمته آيات كثيرة جداً تالياً قرآن ربه المحكم الذي فيه شفاء الصدور والهدى والرحمة لجميع العالمين الكفيل باخراجهم من الظلمات إلى النور إلى ان ظهر امر الله واخذ الناس يدخلون في دين الله أفواجا .

فتور الوحي عن النبي عليه السلام



ومن صور السيرة النبوية المبكرة فترة الوحي عن النبي ﷺ التي تضمنت الإشارة إليها آيات سورة الضحى هذه :

(وَالضُّحَى . وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى . مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى . وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ أَلَكَ مِنَ الْأُولَى . وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى (١ - ٥))

وسورة الضحى من السور المبكرة بالنزول حيث يجيء ترتيبها العاشرة او الحادية عشرة في روايات ترتيب نزول السور أي ان فتور الوحي الذي تلهمه هذه الآيات كان في السنة الاولى من البعثة او لعله في الأشهر الاولى منها . والآيات تلهم ان هذا الفتور قد احزن النبي ﷺ أشد حزن . فقد استأنس بالوحي وسار في مهمته شوطا غير يسير . وصار له أعداء ومكذبون ومتربصون . وواجه مواقف عصيبة من عمه ومن الزعماء الكبار الذين كانوا اصحاب الحل

والعقد في مكة على ما حكته سور العلق والقلم والمزمل والمدثر والمسد . وقد روي ^١ ان زوجة ابي لهب وغيره من المكذبين المعطلين اظهروا شمتاتهم لما بلغهم فتور الوحي وحزن النبي وصاروا يقولون ساخرين ان ربه قد قلاه . فبعضها يذكر اياما وبعضها اشهراً وبعضها سنين . وبعضها يجعله اكثر من مرة ^٢ . على ان تعاقب السور المكية بالانذار والتبشير والدعوة وحكاية مواقف الكفار والحملة عليهم حتى ليكاد يكون قد نزل نصف القرآن المكي في السنين الخمس الاولى من العهد المكي يجعلنا نشك في فتور الوحي مدة طويلة تبلغ السنين . وكل ما تطمئن به النفس ان تكون اياما او اسابيع معدودة .

انذار النبي عليه السلام لعشيرته الاقربين

ومن صور السيرة النبوية في العهد المكي ما اشرنا اليه اشارة خاطفة في سياق ذكر ابي لهب وذلك حينما امر الله تعالى نبيه ﷺ بانذار عشيرته الاقربين في آية سورة الشعراء هذه «وانذر عشيرتک الاقربين» التي يحمن نزولها في السنة الثالثة للبعثة او بعدها بقليل .

ومع ان معظم هذه العشيرة اعلنوا مناصرتهم وحمائيتهم للنبي تأثراً بالعصبة القبلية الشديدة الرسوخ فقد ظلوا متمسكين بدين الآباء وتقاليدهم ومنهم من ظل كذلك ومات عليه ومنهم من ظل الى فتح مكة في السنة الثامنة للهجرة بن ومنهم من شذوا والنبي ودعوته مثل عمه ابي لهب وطبيعي انه كان لذلك اثر بالغ في سير الدعوة لأنه يعطي حجة قوية للغير في الامتناع والمناوأة ، وقد كان يحز في نفس النبي ﷺ ويجزئه اسد الحزن فاقضت حكمة التنزيل بأمره بإنذارهم في الآية المذكورة حسماً للامر .

ولقد روى المفسرون احاديث وروايات عديدة في صدد ذلك ^٣ جاء في بعضها ان النبي عليه السلام نادى بطون قريش وانذرهم وفي بعضها انه انذر اقاربه الاذنين وفي بعضها انه اولم ثلاث مرات عشيرته بني المطلب او بني عبد المطلب فكلوا يلبنون فيأكلون ويشربون ثم يتفرون دون استجابة لانذارهم وكان ابو لهب يحذرهم في كل مرة من سحر محمد . وقد

(١) انظر تفسير سورة الضحى في كتب تفسير الطبرسي وابن كثير والقرطبي والهازم والناصري

(٢) انظر تفسير سورة الضحى وتفسير آيات سورة مريم ٦٤-٦٥ في كتب التفسير المذكورة آنفاً

(٣) انظر تفسير آية الشعراء المذكورة في تفسير ابن كثير وطبقات ابن سعد ج ١ ص ١٨٤ - ١٨٥

والطبري ج ٢ ص ٦١ - ٦٤

ظل معظمهم على موقفه بما فيهم أعمامه أبو طالب والعباس وأبو لهب . ومات أبو لهب وأبو طالب على ذلك وتأخر العباس في إيمانه كثيراً . ولم يؤمن منهم إلا أفراد قلائل منهم علي وجعفر ابنا ابي طالب وحزرة عم النبي ومصعب بن عمير من أبناء عمومته وزوجته خديجة وبناته وابنه بالتبني زيد بن حارثة رضي الله عنهم .

ولقد جاء بعد آية الشعراء المذكورة آيات يتبادر ان لها صلة بهذا الموقف وهما (واخفض جناحك للمؤمنين . فإن عصوك فقل اني بريء مما تعملون . وتوكل على العزيز الرحيم) حيث أمر الله نبيه فيها بمعاناة أقاربه بالبرادة من أعمامهم وكفرهم إذا عصوه وجعل اعتماده عليه وحده وخفض جناحه وحصر اهتمامه للمؤمنين على اعتبار انهم حزبه الصادقون . فكان في هذا توطيد لبناء الاخوة الدينية والمبدئية في الاسلام وضربة من الضربات الشديدة التي وجهت إلى العصبية العائلية والقبلية الضيقة . وإذا لوحظ ان هذا الموقف في ظرف كان النبي عليه السلام فيه والمسلمون قليلين ضعفاء وكانت الحاجة إلى نعمة العصبية ومناصرة عشيرته الأقربين شديدة فإنه يلمح جانب جدير بالاجلال والأعظام من جوانب عظمة الرسول وسيرته وقوة نفسه وشخصيته وعمق إيمانه برسالته وبنصر الله له مما جعله يندر عشيرته الأقربين الذين كانوا ينصرونه بالبرادة منهم ويعلن تضامنه مع الذين آمنوا معه على ما كانوا عليه من قلة وضعف تنفيذ الأمر . ربه جاعلا اعتماده واتكاله عليه وحده .

الجدل حول القرآن بين النبي عليه السلام وزعماء الكفار



ولقد كان القرآن من أهم المواضيع التي كثرت الجدل فيها بين النبي ﷺ والكفار في العهد المبكي حتى لقد شغل ذلك حيناً كبيراً في القرآن والسيرة النبوية في العهد المذكور . فقد كانت آيات القرآن وظلت تنوء بالقرآن وروحانيته وما فيه من هدى وحكمة ونور ورحمة للناس وكون الله انما أنزله على نبيه ليخرج الناس من الظلمات إلى النور وتستشهد على صحته وصدق صلته ونزوله من عند الله بأهل الكتاب وأهل العلم على استبشاره آية الله العظمى التي أيد بها نبيه واكتفى بها عن الآيات والحوارق التي اعتاد ان يظهرها على يد أنبيائه السابقين على ما حكته آيات قرآنية عديدة ^١ . ولقد قابل نبهاء الكفار منذ البدء ذلك ثم ما كان يوجهه

(١) انظر مطالع سور الاعراف ويونس وهود والرعد وابراهيم والحجر والكهف والنمل والفرقان ولقمان والسجدة وفصلت والشورى والزخرف ثم آيات سور الاسراء ٨٢ و ٨٨ و ١٠ والانعام ١٩ - ٢٠ و ١١٤ و ١٥٥ - ١٥٧ والنمل ٤٨ و ٦٤ والشعراء ١٩٢ - ١٩٦ والنمل ٧٦ - ٧٧ والمنكحوت ٥٠ - ٥١ والواقعة ٧٥ - ٨٠ وفصلت ٤٤ و ص ٢٩ -

إليهم من تنديد وتسفيه وحمة على شركائهم وتقاليدهم وأخلاقهم بنعت القرآن بأنه أساطير
الاولين . وانه شعر وانه قول البشر وان الشياطين هم الذين يتنزلون به وانه مفتوى وان
اناساً يعلمونه للنبي ﷺ ويساعدونه عليه بل وقالوا انهم لو شاؤوا لقالوا مثله ثم بنعت النبي
ﷺ بالساحر حيناً والمسحور حيناً والشاعر حيناً والمجنون حيناً والكاهن حيناً على ما حكته آيات
عديدة أيضاً .

ولقد كان القرآن وظل يرد عليهم أقوالهم وتهمهم رداً قوياً لا ذعاً نافذاً الى اعماق القلوب
ثم اخذ يتحداهم المرة بعد المرة طالباً منهم ان كانوا صادقين بأن يأتيوا بسور من مثله أو بسورة
أو بحديث أو بآية فلم يستطيعوا فسجل عليهم عجزهم في كل مرة وقرر بأسلوب الواثق
المنتصر المستعلي انهم لن يأتيوا بمثله أو بشيء من مثله ولو اجتمعت معهم الجن وكان بعضهم
لبعض ظهيراً على ما حكته كذلك آيات عديدة .

وهناك آيات تحتوي صوراً طريفة من صور الجدل حول القرآن بين النبي عليه السلام
والكفار او بعبارة ادق نبهائهم . ففي سورة الفرقان هذه الآية :

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ لَا أَنزَلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ
لُنُشِئَ بِهِ فُؤَادُكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ۝ ٣٢)

ويظهر ان الكفار ظنوا او سمعوا ان الكتب الأولى نزلت على الأنبياء السابقين جملة
واحدة فتحدوا النبي عليه السلام هذا التحدي الذي حكته الآية بقطع النظر عن ما في ظنهم
من خطأ وجهل .

وعبرة الآية تفيد ان الكفار قد عنوا بالقرآن الفصول التي فيها مبادئ الدعوة ودعائهم .
وهذا ما عنته جملة (آيَاتُ مُحْكَمَاتٍ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ) في آية سورة آل عمران هذه
(هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتُ مُحْكَمَاتٍ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ
وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ۝ ٧)

وفي سورة فصلت هذه الآيات :

وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ

قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي
آذَانِهِمْ وَقُرْ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ٤٣ — ٤٤)

ويظهر أن الكفار استغربوا نزول القرآن بلغة غير اللغة التي نزلت بها الكتب الأولى
واعتبروا ذلك دليلاً على عدم صلته بالله تعالى . وقد احتوت السورة ردين عليهم أولهما في
آيات السورة الأولى التي أكدت نزوله من الرحمن الرحيم وأنه أنزل بلغة عربية لقوم يعرفون
هذه اللغة^١ . وثانيها في الآية التي نحن في صددنا حيث قررت أنه لو أنزل بلغة غير عربية
لكانوا طلبوا تفصيله بلغة عربية .

ومن الجدير بالذكر والتسجيل أن في روايات السيرة القديمة ما يفيد أن الكفار أو
بعبارة أدق نبهاءهم مع ما كانوا ينعنون القرآن من نعوت كانوا لا يمنعون أنفسهم من الاستماع
إليه وإظهار دهشتهم وحيرتهم من بلاغته وروعته وخوفهم من تأثيره .

فقد روى ابن هشام أن الوليد بن المغيرة اجتمع إليه نفر من قريش وكان ذا سن فيهم
فقال لهم يا معشر قريش إن الموسم قد حضر وإن وفود العرب ستقدم عليكم وقد سمعوا
بأمر صاحبكم فاجمعوا فيه رأياً واحداً ولا تختلفوا فيكذب بعضهم بعضاً . فقالوا له نزل
كاهن . قال والله ما هو بكاهن . ولقد رأينا الكهان . فما هو بزمرة الكاهن ولا سحبه .
قالوا نقول مجنون . قال ما هو بمجنون . لقد رأينا الجنون وعرفناه . فما هو بجنونه ولا بجنونه
ولا وسوسته ، قالوا نقول شاعر . قال ما هو بشاعر لقد عرفنا الشعر كله . ورجزه وهزجه
وقريضه ومقبوضه ومبسوطه ، فما هو بالشعر . قالوا نقول ساحر . قال ما هو بساحر . لقد رأينا
السحار وسحرم فما هو بنفسهم ولا عقدهم . قالوا فما نقول يا أبا عبد شمس . قال والله إن
لقوله لحلاوة وإن أصله لعذق وإن فرعه لجناة . وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عرفتموه
باطل . وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا ساحر يفرق بين المرء وأبيه وبين المرء وأخيه
وبين المرء وزوجه وبين المرء وعشيرته . وروى كذلك عن ابن اسحق عن محمد بن مسهر
بن شهاب الزهري^٢ أن أبا سفيان وأبا جهل والأخنس بن شريق خرجوا ليلة ليستمعوا من

(١) ج ١ ص ٢٨٨

(٢) نفس المصدر ص ٣٣٧ — ٣٣٨

رسول الله ﷺ وهو يصلي من الليل في بيته فأخذ كل رجل منهم مجلساً يستمع فيه وكل لا يعلم بمكان صاحبه فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق فتلاوموا وقالوا لبعضهم لا تعودوا فلورآكم بعض سفهاكم لا وقعت في نفسه شيئاً ثم انصرفوا . غير أنهم عادوا ليلة ثانية ثم ليلة ثالثة . وذهب الاخنس إلى أبي سفيان فقال له ما رأيك يا أبا حنظلة فيما سمعت من محمد قال والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها . وسمعت أشياء ما عرفت معناها وما يراد بها فقال له وأنا والذي حلفت به كذلك . ثم خرج حتى أتى أبا جهل فقال ما رأيك فيما سمعت من محمد . فقال ماذا سمعت ، تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف . اطعموا فأطعمنا وحملوا فحملنا . وأعطوا فأعطينا حتى إذا تحاذينا على الركب وكنا كفرسي رهان قالوا منا نبي يأتيه الوحي من السماء فمتى تدرك مثل هذه . والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه .

ولقد خرج أبو بكر رضي الله عنه من مكة يريد للحاق بابن جبرين في الحبشة لشدة ما كان من ضغط زعماء قريش وإذا هم فلقية زعيم اسمه ابن الدغنة فلما علم بما أراد قال له . تلك لا يخرج ولا يخرج فأنا جارا لك أراجع وأعبد ربك ببلدك . ثم جاء معه الى مكة فقال لأشراف قريش اخرجون رجلاً يكسب المعدوم ويصل الرحم ويحمل الكل ويعين على نوائب الحق فلم تكذب قريش بجوار ابن الدغنة ولكنهم قالوا له ليعبد ربه في داره ولا يستعلن في قراءته فأننا نخشى أن يفتن نساءنا وابناءنا لأنه كان رجلاً بكاء وكان ينقذف عليه نساء المشركين وابناؤهم متأثرين بما يقرأ معجبين به^١ .

ولقد روى ابن هشام عن ابن اسحق أن عتبة بن ربيعة أحد سادات قريش رأى رسول الله ﷺ وحده جالساً في المسجد فقال يا معشر قريش ألا أقوم الى محمد فأكله وأعرض عليه اموراً لعله يقبل بعضها فنعطيه ايها شاء ويكف عنا فقالوا بلى يا أبا الوليد فقام اليه وجلس عنده وقال له يا ابن أخي إنك منها حيث علمت من الشرف في العشيرة والمكان والنسب . وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم وسفقت احلامهم وعبت آفاتهم ودينهم وكفرت من مضى من آباءهم . فاسمع مني أعرض عليك اموراً تنظر فيها لعنك تقبل منها بعضها فقال له قل اسمع فقال له ان كنت تريد بما جئت به مالا جمعنا لك

من اموالنا حتى تكون أكثره مالاً . وان كنت تريد شرفاً سودناك علينا حتى لا نقطع
 امرأ دونك . وان كنت تريد ملكاً ملكناك علينا . وان كان هذا الذي يأتيك رياءً
 لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلك فيه اموالنا حتى نبوءك . فإنه ربما غلب
 التابع على الرجل ، حتى يداوى منه . فلما فرغ قال له رسول الله ﷺ اسمع مني قال افعل
 فأخذ يقرأ سورة فصلت (حم . تَنزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . كِتَابٌ فُصِّلَتْ
 آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ
 فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ)

ومضى يقرأ وعتبة منصت حتى انتهى الى موضع السجدة منها

(وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا
 لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ . إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ) .

سجد فسجد عتبة ثم قال له رسول الله ﷺ سمعت يا ابا الوليد ما سمعت فأتت وذاك ،
 فقام عتبة الى اصحابه فقال بعضهم لبعض تحلف بالله لقد جاءكم بغير الوجه الذي ذهبه ،
 فلما جلس اليهم قالوا ما وراءك يا ابا الوليد قال ورائي اني قد سمعت قولاً ما سمعت مثله
 قط . والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة . يا معشر قريش اطيعوني واجعلوها
 بي . واخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه : فوالله ليكون لقوله الذي سمعت منه
 نبأ عظيم . فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم وإن يظهر على العرب فملكه ملككم
 وعزه عزكم وكنتم اسعد الناس به . قالوا اسحرك والله يا ابا الوليد . ومها يكن من
 مأخذ على هذه الروايات فإننا نرجح انها لا تخلو من حقيقة ما . ولا سيما ان الزعماء لم يكونوا
 أغبياء حتى يفوتهم ما في القرآن من روعة وروحانية وسمو وبلاغة وحكمة وهدى .
 وكانت مواقفهم ناشئة عن اسباب عديدة اخرى على ما اشارت اليه آيات قرآنية عديدة
 وعلى ما سوف نشرحه بعد .

(١) ابن هشام طبعة مصطفى الباي ج ١ ص ٣١٣ — ٣١٤

(٢) يقصدون بالرمي شيطان الجن الذي ينزل على الكهان والشعراء والسحرة حسب اعتقادهم

ولقد كانوا يرون ما عليه اليهود والنصارى من خلاف ونزاع وشقاق فيخلقون اغلظ الايمان ان لو جاءهم نذير منهم ليكون اهدى منهم^١ ويقولون اننا لا نعرف لغة الكتب المنزلة الاولى واننا سنكون اهدى من اليهود والنصارى لو جاءنا كتاب بلغتنا على ما قررته بعض الآيات القرآنية ومما فيه دلالة على ما قلناه

تعليق على موقف الملرضيين من المبشرين والمستشرقين

وهنا مكان للاستطراد الى مسألتين يقف المبشرون والمستشرقون المعروضون منها موقفاً يثير الاستمزاز لما فيه من سخف وفحش وسوء أدب وتجن ، حيث يكررون ما حكاه القرآن عن الكفار من تهمة النبي ﷺ بافتراء القرآن ومن وحده بالجنون ، ولا يتأثرون بالردود القوية النازدة الى اعماق النفس التي رد بها القرآن على التهمتين والكفار^٢ متجاهلين روحانية الرسالة المحمدية وغنويتها والمبادئ السامية التي قامت عليها .

ولقد اثاروا في معرض التهمة الاولى اشكالات ثانوية ووسائلية لا تمس الجوهر ولا تثبت على التحجيس حيث انكأوا الى ما في القرآن من تطابق لكثير مما جاء في امصار العهد القديم والجديد فزعموا انه مقتبس منها ، والى ما في القرآن من تغاير لما جاء في هذه الاسفار فزعموا انه محرف في القرآن والى ما جاء في القرآن من احداث ووقائع مغايرة في الظاهر لما عرف من احداث ووقائع فزعموا انه مختزع .

ولقد تجاهلوا بالنسبة للنقطة الاولى ان القرآن اعلن قيام التطابق بينه وبين ما سبقه من كتب في آيات عديدة لاعلى اعتبار انه مقتبس منها بل على اعتبار انه وحي رباني نزل على النبي ﷺ كما كان ينزل على النبيين من قبله^٣ . اما بالنسبة للنقطة الثانية فلا يستطيع احد ان يزعم صادقاً ان ما هو متداول من الاسفار اليوم هو الذي كان متداولاً في زمن النبي ﷺ وحسب . وهناك نقاط كثيرة جزئية لا يمكن ان يكون النبي ﷺ -- ونقول ذلك من

(١) اقرأ آية سورة فاطر ٤٢ وآيات سورة الانعام ١٥٠ - ١٥٣

(٢) انظر آيات سورة الاحقاف ٨ والثوري ٢٤ والنساء ١٦٧

(٣) انظر آيات سورة البقرة ٤٠ و ١٠٦ وآل عمران ٣ والنساء ٤٧ و ١٦٣ والمائدة ٤٨ ويونس

٣٧ ويوسف ١١ وفاطر ٣١ والثوري ١٣

باب المساجلة معهم والله ولرسوله المثل الأعلى— قد اخترعها. فليس هناك ضرورة فنية لذلك، وسياق القرآن يظل مستقيماً بدونه لو لم يكن معروفاً متداولاً. وليس هناك ما يمنع ان يكون ما لم يرد في الاسفار او ما يرد متغيراً معها قد ورد في اسفار وقراطيس مفقودة اليوم كما فقد كثير منها على ما يستفاد من ذكر بعضها لاسفار ليست موجودة اليوم. ولقد كان القرآن يتلى علناً ويسمعه اليهود والنصارى ولم يروى رواية عن اعتراضهم وانكارهم. اما بالنسبة لما جاء متغيراً في الظاهر لما هو معروف اليوم من وقائع وحقائق فإنه مما كان معروفاً في زمن النبي ﷺ. والقرآن في الأمور الواسطية من قصص ومشاهد لم يهدف الى تاريخ الاحداث او تقرير حقائق المشاهد لذاتها وإنما الى العظة والعبرة والتذكير والتمثيل. وهذا الهدف انما يتحقق بقوة اذا كانت القصص معروفة عند السامعين لاول مرة جزئياً او كلياً. وليس هناك اي دليل ينقض ان القصص القرآنية مما كان متداولاً في بيئة النبي ﷺ. ونحن نعتقد ذلك رنوى انه هو الذي يتسق مع العقل. بقي ما هناك من تطابق في الجوهر بين القرآن والكتب الاولى الى الدعوة الى الله ومكارم الاخلاق والنهي عن الفواحش والمنكرات. وهو المقصود بالدرجة الاولى في تقارير القرآن بالتطابق بينه وبين الكتب والذي عبر عنه في اغلب المناسبات بتعبير «مصدق لما بين يديه» وما دام المصدر واحداً وهو الوحي الرباني فليس هناك اي ضرورة الرد على اي زعم في صده ان كان هناك زعم ما.

ولقد حرفوا في معرض التهمة الثانية بعض الروايات والاحاديث عن مواضعها ومقاصدها ليزعموا ان النبي ﷺ كان مصاباً بالصرع وانه كان يفقد صوابه حين تأتيه النبوة وتعتبره التشنجات حتى اذا أفاق تلا على المؤمنين ما يزعم انه وحي الله^١ ولقد كشفهم حقدهم وخبت سرائرهم فأنساهم ان المصابين بالصرع تتعطل فيهم اثناء النبوة حركة الشعور والتفكير والذاكرة، وقد ناقضوا انفسهم حين قالوا انه كان عقب ذلك يتلو آيات القرآن متجاهلين ما في هذه الآيات من روعة وبلاغة وحكمة ودعوة الى الله وحده والايان به وبأنبيائه وكتبه واليوم الآخر والى الخير والمعروف ومحاربة الشرك والوثنية والنهي عن الاثم والفواحش والمنكرات بما لا يعقل ان يصدر عن مريض في عقله وجسمه وخلقه. وقد تجاهلوا

(١) انظر كتاب حياة محمد لحسين هيكل طبعة ثانية ص ٣٩ - ٤٠

كذلك ان القرآن حكى نهمة الجنون والجنون عن خصومه الاشداء ومكذبيه العيدين وردها عليهم رداً شديداً قوياً نافذاً^١.

ولقد تجاهلوا في التهمتين ان القرآن استشهد بالكتابين وان الذين حسنت نواياهم وحفت سرائرهم وتجردوا من الغرض والتعصب والمكابرة والعناد والآثانية... ومنهم القسيسوت والرهبان والراسخون في العلم - لم يسعهم إلا ان يصدقوا ويؤمنوا دون ان يكون هناك اي احتمال لتهمة الضغط والاكراه لعدم امكان ذلك في تلك الظروف نائراً بما رأوه من صدق اعلام النبوة المحمدية وسموه من الحق ثم بما رأوه من تطابق بين حفات النبي ﷺ وما في كتبهم من بشارت على ما جاء في آيات قرآنية عديدة اوردتها في التمهيد كانت في الحقيقة تسجيلاً لواقع حالهم^٢. وإذا كان حقاً ان فريقاً منهم بقوا متسكين للدعوة المحمدية فقد كان ذلك حسداً وبغياً وبتأثير المطامع والمآرب والآثانية على ما جاء في آيات قرآنية عديدة اوردناها كذلك في التمهيد وكانت هي الاخرى تسجيلاً لواقع حالهم.

عروض زعماء الكفار ومناوضاتهم للنبي عليه السلام

ض

ولقد كان النبي عليه السلام شديد الحرص على هداية الناس شديد الغم والحزن من انصرافهم وتصاميمهم ومناوئهم حتى ليكاد يهلك نفسه على ما سجلته آيات قرآنية عديدة اقتضت حكمة التنزيل ايجاءها بسبيل التهوين عليه وتهدة روعه وتثبته وتقريب كونه ليس مسؤولاً عن هدايتهم ولا يطلب منه اجبارهم وإنما هو نذير^٣. وكان حرصه هذا شديداً بالنسبة للزعماء بنوع خاص لأنهم كانوا يصدون سواد العرب عنه. فكان بعض الزعماء

-
- (١) انظر آيات سورة الاعراف ١٨٤ والمؤمنون ٦٩-٧٠ وسبا ٤٦ والطور ٢٩-٣١ والقم ٢٩ والتكوير ١٦-٢٧
- (٢) انظر خاصة آيات سورة الاعراف ١٥٦-١٥٧ وآل عمران ١٩٩ والنساء ١٦٢ والمائدة ٨٢-٨٣ والانعام ١١٤ والرعد ٣٦ والاسراء ١٠٧-١٠٩ والقصص ٥٢-٥٣
- (٣) انظر مثلاً آيات سورة الفاشية ٢١-٢٢ وق ٣٨ و ٤٥ وفاطر ٨ والقصص ٥٩ والثلث ٩١-٩٢ والانبياء ١٠٨-١١١ وطه ٣١-٣٢ والشعراء ٣ والكهف ٦ وهود ١٢ ويونس ١٠٨-١٠٩ والحجر ٩٧-٩٩ والانعام ٣١ و ٣٥-٣٦

يستغلون هذه العاطفة فيه لمفاوضته وعرض الطول النحفية وطلب التبادل في التساهل مما فيه دليل على انهم كانوا في قرارة أنفسهم يرون في دعوته ومواقفه الحق والصدق والجد والاخلاص .

وفي القرآن آيات عديدة في صدد ذلك اوضحتها الروايات حيث ينطوي في ذلك حور هامة من السيرة النبوية . من ذلك آية جاءت في سورة القلم وهي :

(وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ)

اي تمنوا ان يساهروهم النبي ﷺ فيسايرونه . وقال المفسرون انهم طلبوا منه ذكر آلهتهم بالخير حتى يسمعوا له ويلينوا لكلامه ١ . وسورة القلم من اوائل ما نزل من القرآن حيث يدل هذا على ان فكرة تبادل التساهل انبثقت في اذهان بعض الزعماء منذ بداية الدعوة . ويظهر انهم كانوا يحلفون للنبي ﷺ على ذلك . وقد علم الله تعالى انهم كاذبون خادعون فنهاه عن مطاوعتهم ومسايرتهم على ما نفى هذه الآيات التي وردت قبل هذه الآية وبعدها :

(فَلَا تَطْعَمِ الْمُكْذِبِينَ . وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ . وَلَا تَطْعَمُ كُلَّ حَلَّافٍ مَبِينٍ . هَمَّازٍ مَشَاءٍ بِنَعِيمٍ . مَنَاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ . عُتْلٌ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٌ . أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ . إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ١٦-١٨)

والآيات تدل على ان الذي عرض تبادل المداهنة والملاينة معروف بسوء السيرة والنشأة والاخلاق الفاسدة والكذب وانه يقف مواقف التكذيب والسخرية . ومن ذلك سورة الكافرون وهذه آياتها :

(قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ . لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ . وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ . وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ . وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ . لَكُمْ

(١) انظر تفسير سورة القلم في كتب تفسير الطبري والطبرسي وابن كثير وغيرهم

دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ)

وقد روى المفسرون في حدها^١ ان زعماء قريش قالوا للنبي ﷺ هلم فاتبع ديننا وتتبع دينك ونشركك في أمرنا كله نعبد آلهتنا سنة ونعبد آلهك سنة فإن كان الذي جئت به خيراً كنا قد شركناك فيه واخذنا حظنا منه وان كان الذي بأيدينا خيراً كنت قد شركتنا في أمرنا واخذت بحظك منه فقال لهم معاذ الله اشرك بالله غيره فقالوا فاستلم بعض آلهتنا نصدقك ونعبد إلهك فنزلت السورة . والسورة من السور المبكرة في النزول حيث يجيء ترتيبها الثامنة عشرة بعد سور كلها قصار . ومن ذلك هذه الآيات في سورة الاسراء :

(وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك ليفتنوك عن غيرنا
وإذا لا تأخذوك خليلاً . ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم
شيئاً قليلاً . إذا لآذنتك ضعف الحياة وضعف المات ثم لا تجد لك
علينا نصيراً ٧٣-٧٥)

وبما رواه المفسرون^٢ في حدد هذه الآيات ان زعماء الكفار اقترحوا على النبي ﷺ ان يسكت عن شتم آلهتهم وتحقيرها وان يتساهل في بقائهم على بعض تقاليدهم مدة من الزمن او ان يسمح لهم بتكريم آلهتهم بعض التكريم او ان يلم بأوثانهم ويلبسها كما يفعل بالحجر الأسود . فخطر بباله ان يستجيب لبعض مطالبهم هذه مدفوعاً برغبة كسبهم وكسر السد الذي اقاموه بينه وبين سواد العرب ولكن الله ثبته لأن في أي تساهل في الاستجابة الى مطالبهم شائبة من الشرك بالله الذي جاءت الدعوة لمحاربته اشد حرب ثم نزلت الآيات تحكي الموقف .

ومن ذلك هذه الآية في سورة بونس :

(وإذا تلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا أتت
بقرآن غير هذا أو بدله قل ما يكون لي أن أبده من تلقاء نفسي

(١) انظر تفسيرها في تفسير البغوي

(٢) انظر تفسير الايات في تفسير الطبري وابن كثير والبغوي والحازن والطبرسي والزمخشري

إِنْ أَتَّبِعْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥)

وقد روى المفسرون^١ في صدد هذه الآيات أن حمسة من رجال قريش جاؤوا إلى النبي ﷺ فطلبوا منه الاتيان بقرآن ليس فيه تسفيه لعقولهم وحملة على آلهتهم أو ادخل تبديل عليه يخفف من شدة ذلك إذا كان يريد أن يستجيبوا إليه أو يسكتوا عنه . فنزلت الآيات بالرد عليهم هذا الرد المحكم الذي فيه التلقين المنطوي في السورة السابقة . ولقد اعقب الآيتين هذه الآيات :

(قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ . فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ اقْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمَجْرُمُونَ . وَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَنْتَبِّتُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ) .

حيث احتوت امرأ النبي ﷺ بأن يقول ما جاء في الآيتين الأولين بسبيل تأييد رفض مطالبهم وبأن يندد بعقائدهم وعبادتهم ما لا يضر ولا ينفع في الحقيقة بحجة جعلهم شفعاء عند الله . والآيات قوية التعبير رائعة التلقين في صدد الرسالة المحمدية وشخصية النبي ومدى عقائد العرب الشركية .

ومن ذلك هذه الآيات في سورة الانعام :

(وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ . وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا)

(١) انظر تفسيرها في تفسير الحازن والبغوي

أَهْوَلًا مِنْ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مِنْ يَبْنِيْنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ (٥١-٥٣)

وقد روى المفسرون ^١ في حدد هذه الآيات ان بعض زعماء الكفار طلبوا من النبي ﷺ طرد الفقراء والصعاليك من احيائه اذا كان يريد ان يجلسوا اليه ويستمعوا له او حين يريدون ان يجلسوا اليه وكانوا يتعجبون بهم بعدم استجابتهم الدعوة ويقولون على سبيل السخرية والازدراء أهؤلاء الذين من الله عليهم فبداهم من دوننا ، وان النبي ﷺ فكر في اجابة طلبهم او ان عمر بن الخطاب رضي الله عنه اقترح عليه ذلك ليظهر ماذا يريد الزعماء وانه هم بأن يكتب بذلك عهدا بينه وبينهم فنزلت الآيات محذرة منبهة . وممما يمكن من امر ما جاء في بعض الروايات فالآيات تنطوي على ما كان من ازدراء زعماء الكفار لاعتراء المسلمين الذين يلتفون حول النبي ﷺ وطلبهم منه طردهم عنه ليجلسوا اليه ويستمعوا الى حديثه وانه خطر بباله الاستجابة الى طلبهم مدفوعاً في ذلك برغبة هدايتهم وكسبهم فنزلت منبهة محذرة منوهة بشأن المؤمنين وكرامتهم عند الله وفضلهم على الكفار منها كانت درجتهم الاجتماعية . ومن ذلك هذه الآية في سورة الكهف :

(وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ۚ (٢٨)

وقد روى المفسرون في صدها ^٢ ان زعيما جاء الى النبي ﷺ فقال له اما يؤذيك ريح الذين حولك من الفقراء ونحن سادات مضر واشرافها ان اسلمنا اسلم الناس ولا يمنعنا من ذلك إلا هؤلاء . فنجهم عن مجلسك او اجعل لنا مجلساً ولهم مجلساً وان النبي ﷺ اراد ان يستجيب فنزلت الآية منبهة محذرة ورافعة كذلك شأن المسلمين وكرامتهم وفضلهم .

ويصح ان يسلك في هذه السلسلة آيات سورة عبس هذه :

(عَبَسَ وَتَوَلَّى . أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى . وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى . أَوْ

(١) انظر تفسير الايات في تفسير الطبري وابن كثير والبغوي والخازن والطبرسي والزمخشري

(٢) انظر تفسيرهما في ابن كثير والبغوي وغيرهما

يَذْكُرُ فَتَنْفَعُهُ الذِّكْرَى . أَمَّا مَنْ اسْتَعْنَى . فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى . وَمَا
عَلَيْكَ إِلَّا يَزَّكَّى . وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى . وَهُوَ يَخْشَى . فَأَنْتَ عَنْهُ
تَلْهَى (١-١٠)

حيث احتوت عتاباً للنبي ﷺ بعدم اهتمامه بأعمى مسلم جاءه مستهدياً مستفسراً في وقت
كان يتحدث فيه مع أحد الزعماء ، وحيث انطوى في هذا الموقف تلك الرغبة التي كانت
وظلت تغلج في نفسه منذ عهد مبكر لأن سورة عبس من السور المبكرة في النزول ويحيى
ترتيبها الرابعة والعشرين بعد سور كلها قصار - في هداية الزعماء وكسبهم .

ويلفت النظر الى التوافق بين الآيات القرآنية في مختلف الظروف في حدد كرامة المؤمن
وقدره وفضله على الجاحد المستكبر ، حيث كان هذا وظل من المبادئ القرآنية التي
لا تختلف ولا تبدل

وواضح ان تكرور التسجيل القرآني لهذه السور المتماثلة يدل على تكرور الحوادث والمواقف
المتماثلة بين النبي ﷺ وزعماء الكفار .

ولقد روى ابن هشام روايات عديدة عن مراجعات زعماء قريش لأبي طالب وتذمرهم
له من ابن أخيه وطلبهم منه رده عن تسفيه أحلامهم وشم آلهتهم او التخلي عنه ومن ذلك
ما يتصل بالبحث الذي نحن في صده انهم جاؤا اليه حينما اشكى وثقل وكانوا خمسة وهم
عتبة وشيبة ابني ربيعة وابو جهل وامية بن خلف وابو سفيان وقالوا له انك منا حيث علمت
وقد حضرك ما ترى ونحوفنا عليك وقد علمت ما بيننا وبين ابن أخيك فادعه فخذله منا
وخذلنا منه ليكف عنا ونكف عنه وليدعنا وديننا وندعه ودينه فبعث اليه فقال له هؤلاء
اشراف قومك قد اجتمعوا لك ليعطوك وليأخذوا منك فقال له يا عم كلمة واحدة يعطونيها
يلكون بها العرب وتدين لهم بها العجم . فقال ابو جهل نعم وابعك وعشر كلمات قال
يقولون لا اله الا الله وتخلصون ما تعبدون من دونه . فصفقوا ثم قالوا اتريد يا محمد ان
نجعل الالهة اثماً واحداً ان ادر لك عجب . ثم قال بعضهم لبعض انه والله ما هذا الرجل
يعطيك شيئاً ما تريدون . فانطلقوا وامضوا على دين آبائكم حتى يحكم الله بينكم وبينه .

ونقول هنا في شأن هذه الرواية ما قلناه في شأن الروايات السابقة من حيث احتمال انطوائها على حقيقته برغم ما يبدو عليها من تنميق لأنها متسقة مع الآيات القرآنية .

ويمكن أن يسلك في سلكها الرواية التي رواها ابن هشام عن عتبة وأوردناها في مبحث الجدل في القرآن . وسورة قصص التي ذكرت هذه الرواية أن النبي ﷺ تلاها على عتبة قد نزلت على ما يليهم ترتيبها في النصف الثاني بل في الثلث الثالث من العهد المكي . وهذا يعني أن عروض ومطالب زعماء قريش ظلت تتكرر منهم في مختلف أدوار هذا العهد .

حجاج المشركين ولجاجهم في صدد الحياة الآخروية



ولقد كانت مسألة البعث والجزاء الآخروية من أهم ما دار حوله اللجاج واللجاج بين النبي عليه السلام والمشركين . فقد كان الوعد والوعيد بالحياة الآخروية ومحاسبة الناس فيها على أعمالهم في الدنيا وجزاؤهم عليها بلجنة والرضوان أو بالنار والغضب الرباني من أهم وسائل الدعوة ومؤيداتها ومنذ بدايتها على ما تدل عليه آيات كثيرة مبكرة النزول ثم استمر ذلك حتى لا تكاد تخلو منه سورة من السور الطويلة والمتوسطة بل والقصيرة وبخاصة السور المكية ^١ . وقد أخذ المشركون يقابلون ذلك منذ البدء بالدهشة والانكار والتكذيب والسخرية والتحدي واستمروا على ذلك إلى النهاية على ما سجتته الآيات الكثيرة التي نزلت في مختلف أدوار التنزيل ^٢ . ومن نماذج ما حكته الآيات من أقوالهم آيات سورة سبأ هذه :

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنْبِئُكُمْ إِذَا مُزِقْتُمْ كُلٌّ مَزْقٍ أَنْتُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ . أَفَقَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ٧ — ٨

وآيات سورة الاسراء هذه :

(وَقَالُوا إِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفُفًا أَإِنَّا لَمَخْلُوقُونَ خَلْقًا جَدِيدًا . قُلْ

(١) (٢) الآيات في ذلك كثيرة جداً ومثبتة في معظم سور القرآن المكية فلا حاجة إلى إيراد أمثلة أو الإشارة إليها

كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا . أَوْ خَشْطًا مِمَّا يَكْتَبَرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْفِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا (٤٩-٥١) .

فكان القرآن يرد عليهم ردوداً قوية عنيفة حيناً وهادئة حيناً موجهة الى العقل والقلب ومبرهنة على قدرة الله على ذلك بما كانوا يعترفون به من ربوبية الله الشاملة وخلق السماوات والأرض وما فيها من مخلوقات عاقبة وغير عاقبة وحياة وبغير حياة وظاهرة وخفية ومنبهة إلى ان الله لا يعقل ان يكون خلق الناس عبثاً وهو اورخي بأن يكون المسيء والحسن والكافر والمؤمن والمنتمى والفاجر في درجة واحدة ولا ينال كل منهم ما يستحقه مما يمكن ان لا يناله في الحياة الدنيا وبما يتناقض مع الحكمة والرحمة والعدل والحق مما سجلته الآيات الكثيرة التي نزلت في مختلف أدوار التنزيل كذلك ١

ومع انهم كانوا يعتقدون بشكل ما بخلود الروح بل وبالبعث بعد الموت بدليل انهم يعقرون نافقة عند قبر ميتهم وبجاعة اذا كان زعيماً لتكون ركوبة له حيناً يبعث وكانوا يزورون قبور موتاهم ويرشوناً ويفرسون بعض الغراس عندها ويناجونها على ما شرحناه في الجزء السابق فان اذهلهم لم تستطع ان تستوعب هذه المسألة استيعاباً تاماً وظلوا على انكارهم وتكذيبهم حتى لتكاد تكون من اسباب عدم اسلام كثير منهم .

ويبدو لنا ان عدم ذكر البعث الاخروي وحسابه وثوابه وعقابه بصراحة ووضوح في الكتب المنزلة الاولى كانت من اسباب هذا الموقف . فقد كان العرب قبل البعثة يستمدون كثيراً من معارفهم الدينية من الكتابيين . ولقد كانت هذه المسألة في حد ذاتها مسألة ايمانية مغيبة وكانت اوصاف الحياة الاخرية وحسابها وجنتها ونارها مستمدة في القرآن من مألوفات الحياة الدنيا وآمن من آمن بها تبعاً لايمانه بالله ورسوله وقرآنه . فلما لم يسمع المشركون من الكتابيين شيئاً صريحاً واضحاً في ذلك وقفوا منه موقف المنكر المكذب والمستغرب الساخر المتحدي الذي وقفوه .

(١) الآيات في ذلك مبثوثة في معظم السور المكية فلم نر ضرورة الى الإشارة إليها او ايراد أمثلة منها

تحدي المشركين للنبي عليه السلام بالمعجزات



وفي القرآن آيات كثيرة تحكي ما كان يقع من المشركين وبخاثة زعمائهم ونبهاهم من تحد للنبي عليه السلام باستنزال الملائكة وعمل المعجزات لتأييد صدق دعواه وحلته بالله تعالى كما كان يفعل الرسل من قبله على ما علموه من الكتابيين وذكره القرآن حيناً وأوه بشراً مثلهم ورأوه يبشر وينذر بحياة اخروية يحاسب الناس فيها على اعمالهم وينالون ما يستحقون من ثواب وعقاب ، ورأوا في دعوته تحدياً لزعامتهم وتهديداً لمكانتهم ومصالحهم وخربة على تقاليدهم ثم يرد على ما ينعتونه به من نعوت الجنون والسحر والكهانة والكذب والافتراء والاتصال بالشياطين ردوداً قوية قارعة مستشهادة بالله عز وجل وبأهل العلم والكتاب على صدق دعواه مقرر ان ليس بدعاً وانما هو نذير وبشير ورسول كالرسل الذين جاؤوا قبله الى اقوامهم ثم يستمر في دعوته وانذاراته غير مبال بقوتهم وجاههم واموالهم ومناوئهم .

ولقد بلغ عدد المرات التي تحدوا النبي ﷺ فيها خمساً وعشرين حكها القرآن عنهم في سور عديدة تمثل مختلف ادوار العهد المكي الى نهايته حيث يدل ذلك على شدة ملاحقة الكفار بالالاحاح والاحراج وما شغله ذلك من حيز كبير في السيرة النبوية في عهدها المكي .

وهذه جملة من الآيات تمثل مختلف ادوار هذا العهد نكتبها بها عن سائرها :

١ — وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا . أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنَّ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا .

سورة الفرقان ٧-٨

٢ — وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى

القصص ٤٨

٣ — وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا . وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا . أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا . أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا . أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَاهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا .

سورة الاسراء ٨٩ - ٩٤

٤ — وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ .

الانعام ١٠٩

٥ — بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلْ أَفْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِالآيَةِ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ .

الانبياء ٥

٦ — وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ . أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ . إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ .

العنكبوت ٥٠ - ٥١

ولقد كان موقف القرآن تجاه الاحلح المتلاحق والاحراج المستمر بالتجدي سلبيا حيث كانت ردوده تتضمن تقرير مشيئة الله بعدم استجابة التجدي كما جاء في آيات الاسراء ٩٤ والانعام ١٠٩ والعنكبوت ٥١ التي اوردناها وكما جاء في آيات عديدة اخرى منها هذه الآيات :

١- وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ

الرعد ٧

٢- وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ .

الرعد ٢٧

٣- وَيَقُولُونَ لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغِيبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ .

يونس ٢٠

٤- وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكَ لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ .

الانعام ٨

٥- وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى .

طه ١٢٣

ومع هذا الموقف السلبي الذي كان على ما يتبادر من اسباب الاخلاص المتصل والاحراج المستمر من ناحية الكفار فإنه يلهم ان حكمة الله اقتضت ان لا تكون احوار دعامه لنبوة محمد ﷺ وبرهاننا على صحة رسالته وصدق دعوتيه على اعتبار ان هذه الرسالة التي تنطوي على الدعوة الى الله وحده وتنزيهه عن كل سائبة وتأويل وشريك وولد ومساعد ومحاربة الشرك والوثنية والتقاليد المبنية عليها ثم على الحث على صالح الأعمال ومكارم الأخلاق والفضائل الاجتماعية والشخصية الكفيلة باسعاد البشر وتواديهم وتعاونهم والتنفير من الرذائل والمنكرات والفواحش والبنغي التي تؤدي الى شقاء البشر ودمارهم تنطوي في الوقت نفسه وبسبب ذلك على الحجة القاطعة على انها وحى رباني وفي غنى عن معجزات خارقة للعادة لا تتصل بها لذاتها .

على ان القرآن كان ايجابياً كل الايجابية في سياق الرد على جحود الكفار لوحدة الله واشراك غيره معه في الاتجاه والعبادة وفي سياق البرهنة على وحدته واستحقاقه وحده للعبادة والخضوع واتصافه بصفات الكمال ووجوب وجوده وفي سياق الحملة على الكفار والتنديد بهم بسبب عداوتهم وتقاليدهم الوثنية والشركية وفي سياق اثبات حقيقة الحياة الاخرى وعذابها وثوابها وقدرة الله على اعادة الخلق الذي بدأه وما ينطوي في هذه الحياة من حكمة العدل والحق والتنزه عن العبت وفي سياق الدعوة الى الاعمال الصالحة وتقبيح الأعمال السيئة على انواعها واثبات ان ذلك انما هو الصالح الانسانية وخيرها وسعادتها وبعبارة واحدة في سياق الدعوة الى اهداف الرسالة المتنوعة حيث احتوى القسم المسيحي منه آيات وفصولا كثيرة جداً فيها من قوة الحجة ونصاعة البيان واستحكام البرهان واسلوب الخطاب الموجه الى العقل والقلب معها ما فيه كل الايجابية وما لا يسمع اي منصف حسن النية والرغبة غير متعمد العناد والمكابرة إلا التسليم به وليس من حاجة الى ايراد الأمثلة لأن هذه الآيات والفصول منتشرة في جميع السور المكية تقريباً .

وإلى هذا فقد احتوت ردود القرآن على التحدي آيات كثيرة تضمنت تعليل عدم الاجابة اليه وتوضيح نية العناد والمكابرة في المتحدين بحيث لو أنزل عليهم أعظم الآيات لما آمنوا لأن الايمان انما يكون من ذوي الرغبة في الحق والهدى وذوي السرائر الطيبة والقلوب السليمة . ومثل هؤلاء لا يحتاجون الى معجزة ولا يتوقف ايمانهم عليها وانما يكفي لهم ان تخاطب عقولهم وقلوبهم وهو ما جرى عليه القرآن . وهذه بعض امثلة من تلك الآيات :

١- وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَتَمْسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ
الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ .

الانعام ٧

٢- وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ
كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ
يُخَلِّفُونَ .

الانعام ١١١

٣- وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ
كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَنُاسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ
يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا
قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ . إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ
الْمِيعَادَ .

الرعد ٣١

٤- وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ . لَقَالُوا
إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ .

الحجر ١٤ - ١٥

وفي سورة الانعام آية اخرى ذات مغزى عظيم في هذا الصدد أيضاً وهي :

(وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ أُسْتِطْعِمَتْ أَنْ تَبْتَغِي فَقَدْ فِي
الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهَدَى

وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ . إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٣٥-٣٦)

حيث تفيد ان النبي ﷺ كان يود ان يظهر الله على يده معجزة استجابة لتحدي الكفار المخرج فأخبره الله ان ذلك لن يجدي لأن الذين عندهم الرغبة في الاصغاء للحق واتباعه سيؤمنون والذين ليس عندهم هذه الرغبة لن يؤمنوا مهما تأتهم من آية .

والخطاب في عبارة (وما يشعركم انها اذا جاءت لا يؤمنون) في آية الانعام (١٠٩) التي أوردناها قبل موجه الى المسلمين الذين كانوا على ما رواه المفسرون وتلقاه الآية يتمنون بدورهم ان يظهر الله معجزة اجابة لتحدي الكفار فأخبرهم انه يعلم انه ليس في الكفار رغبة في الايمان ولو جاءتهم آية . وهذا المعنى منطوق في تعبير (افلم يئس الذين آمنوا) الوارد في آية سورة الرعد (٣١) .

ونحب ان نستدرك امراً وهو ان الموقف السلبي القرآني هو بالنسبة للتحدي فقط ولا يعني ان الله تعالى امتنع عن تأييد نبيه بالمعجزات بالمرة . ففي القرآن آيات عديدة فيها إخبار بتأييدات ربانية للنبي والمسلمين يصح ان تسمى معجزات كما ان هناك احاديث صحيحة فيها اخبر من ذلك هذا الى واجب اليقين بقدرة الله على المعجزات وهو الذي بدأ الخلق وبيده مكسوت كل شيء في كونه الاعظم ثم الى ان القرآن ذكر ذلك بصراحة . مع التنبيه الى ان كثيراً من الروايات التي احتوت اخبار المعجزات النبوية مما يحتمل التوقف ويدعو الى التحفظ والى ان اقوال بعض المؤلفين فيها تتضمن تكلفاً لا ضرورة له ولا طائل من وراءه .

وقد تكون آيات سورة القمر الأولى التي ذكر فيها انشقاق القمر وهي :

(أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ . وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ . وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أُمْرٍ مُسْتَقَرٌّ) (٣-١)

بما يورد في معرض كون القرآن لم يبق سلباً كل السلبية في الرد على التحدي . ولقد رويت حقاً احاديث عديدة ذكر فيها خبر انشقاق القمر فعلا في مكة وان ذلك قد وقع جواباً عن تحدي الكفار . منها حديث عن انس بن مالك رضي الله عنه قال سأل اهل مكة النبي ﷺ آية فانشق القمر بمكة مرتين والى ذلك اشارت الآية (اقربت الساعة وانشق القمر)

ومنها حديث عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه قال انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فصار فرقتين فرقة على هذا الجبل وفرقة على هذا الجبل فقالوا سبحنا محمد . وفي حديث آخر فيه نفس النص السابق وزيادة عليه قالوا انظروا السفار فالان كانوا راوا ما رأيتم فقد صدق فان محمداً لا يستطيع ان يسحر كل النمر، وسألوا القاضى من كل وجهة فقالوا رأينا . ومع ذلك فانه يلحظ اولاً ان سورة القمر من السور المبكرة في النزول ولم يرد في السور التي قبلها حكاية لتحدي الكفار للنبي ﷺ باظهار معجزة . وحكاية تحدي الكفار كانت في السور التي تلات بعد سورة القمر بمسودة غير قصيرة . وثانياً ان القرآن لم يشر الى حادث انشقاق القمر ثانية في السور والفصول القرآنية التي حكى تحديات الكفار بطلب الآتيان بمعجزة أو آية مراراً وتكراراً مع انه يمكن ان يقال ان التذكير به يكون رداً قوياً على المتحدين الذين رأوه ولم يؤمنوا . وهناك من لم يأخذوا بما ورد في هذه الاحاديث وصرخوا الآيات الى اشراط الساعة . وقاسوا خبر انشقاق القمر المذكور فيها على ما جاء في آيات عديدة ذكرت ما سوف يقع من تبدل في نوااميس الكون عند مجيء الساعة مثل هذه الآيات :

١- إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ . وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ . وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ .

التكوير ١-٣

٢- فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ . وَخَسَفَ الْقَمَرُ . وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ . يَقُولُ الْإِنْسَانُ أَيْنَ الْمَقَرُّ .

القيامة ٧-١٠

٣- إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ . وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَشَرَتْ . وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ .

الانفطار ١-٣

(١) هذه الاحاديث اوردتها ابن كثير المفسر في سياق تفسير الايات المذكورة من سورة القمر وقد اورد معها احاديث عديدة اخرى .

ولعل سكوت القرآن عن الحادث على خطورته وخاصة ازاء تكرار تحدي الكفار وملاحقتهم يلهم وجاهة هذا الصنف المنسجم كما هو ظاهر مع الموقف السلبي الذي وقفه القرآن .

وفي سورة الاسراء آية ذات مغزى عظيم في هذا الصدد وهي :

(وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفاً ٥٩)

حيث تحتوي تقريراً باتاً صريحاً بأن حكمة الله اقتضت الامتناع عن إجابة تحدي الكفار بإرسال آية لأنه ثبت بالتجربة مع الأقوام السابقين أنهم كذبوا بالآيات ولم يؤمنوا بها .

ولقد احتوت سورة العنكبوت آية ذات مغزى عظيم بعد حكاية تحدي الكفار للنبي ﷺ بانزال آيات من ربه وهي :

(أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَا نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يَتْلُو عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرُحْمَةً يُذَكِّرُونَ (٥) .

حيث انطوى في ذلك تقرير كون القرآن الذي احتوى أسس الرسالة المحمدية وأهدافها بروحانيته الرائعة واسلوبه البليغ الحكيم السامي هو الآية التي فيها كل الكفاية للدلالة على صحة دعوى النبي ﷺ وصدق دعوته وصلتها بالوحي الرباني .

الاسراء والمعراج



ومن الأحداث الهامة التي شغلت حيزاً في روايات السيرة والأحاديث وكتب التفسير حادث الاسراء والمعراج .

وقد أشير إلى هذا الحادث في الآية الأولى من سورة الاسراء وهي :

(سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) .

والاسراء في اللغة بمعنى السير في الليل . وكلمة الاقصى بمعنى البعيد جداً . والمتفق عليه أن المراد بالمسجد الاقصى هو مسجد بيت المقدس الذي كان معبد بني اسرائيل . ولقد كان هذا المعبد خراباً مندثراً في زمن النبي ﷺ فيكون المقصود مكانه . وقد غدا تعبير (المسجد الاقصى) علماً في الاسلام على المسجد الاسلامي المشهور في بيت المقدس الذي انشئ مكان ذلك المعبد .

وفي كتاب سيرة ابن هشام فصل طويل عن حادث الاسراء احتوى احاديث متنوعة عن كيفيته وآثاره . وكذلك في كتب التفسير احاديث متنوعة عن ذلك .

ومما جاء في هذه الأحاديث حديث عن عائشة رضي الله عنها أن الاسراء كان رؤيا صادقة وأن جسد النبي ﷺ لم يفقد . ومنها ما روي عن أم هانيء عمة النبي ﷺ التي كان يبيت في بيتها ليلة الاسراء أنها فقدت جسمه وخشيت أن يكون تعرض لأذى الكفار وأنه أخبرها أنه صلى العشاء الأخيرة في مكة ثم أسري به الى بيت المقدس ثم عاد وصلى صلاة الصبح في مكة . ومنها ما يفيد أن حادث الاسراء كان مرة واحدة بعد البعثة وقبل الهجرة ومنها ما يفيد انه مرتين مرة في اليقظة وأخرى في المنام بعد البعثة وقبل الهجرة . ومنه ما يفيد انه ثلاث مرات مرة قبل البعثة ومرتين بعد البعثة وقبل الهجرة . واحدة منها في المنام وأخرى في اليقظة والجسد . ومنها أن الاسراء كان قاصراً على الاسراء من مكة الى بيت المقدس ومنه عاد الى مكة ، ومنها ما يقرن الاسراء بالمعراج ويفيد أن النبي ﷺ عرج به من بيت المقدس الى السماء ثم عاد الى بيت المقدس ومنه الى مكة . ومنها ما يفيد أن الاسراء كان بالجسد واليقظة وإن المعراج كان بالمنام .

(١) انظر ابن هشام ج ٢ ص ١ - ٢٠ - طبعة مصطفى الحلبي وتفسير آية الامراء المذكورة وتفسير سورة النجم في كتب تفسير الطبري وابن كثير والحازن والبغوي والطبري ، وما يأتي بعد مقتبس من هذه المصادر .

آية سورة الاسراء قاصرة كما هو ظاهر على ذكر الاسراء من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى . وروحها تلهم أنه كان بالجسد واليقظة لانه لو كان في المنام لما ظهرت حكمة ذكره والتنويه به بهذه القوة والصرحة.

واكثر ما ورد في الاحاديث من بيانات عائد الى المعراج ويامح فيها تكلف وتزييد واغراب وتتجمل ملاحظات كثيرة ووجيهة - الا ان يكون حادث المعراج رؤيا في المنام كما ذكر بعض الاحاديث - مثل صعود النبي ﷺ للسماء على سحابة وفتح أبواب السموات واحد بعد آخر مما فيه تقرير لمادية السماء ولقاء عدد من الانبياء في مختلف السموات احياء على أشكالهم الدنيوية المروية ووصف العرش والروح والقلم وسدرة المنتهى وصفاً فيه تقرير لماديتها . ومثل رؤية النبي ﷺ ربه والملائكة العظام بأشكالهم الهائلة والجنة والنار وعذاب أهل النار ونعيم أهل الجنة ومثل طريقة فرض الصلوات الخمس التي فرضت في أثناء هذا الحادث خمسين ثم انزلت الى خمس نتيجة لمراجعة النبي ﷺ المتكررة عملاً بنصيحة موسى عليه السلام الخ ...

وما ورد في حصد الاسراء ان جبريلا عليه السلام أتى النبي ﷺ وهو نائم فهمزه فلما أفق أتاه بدابة اسمها البراق دون البغل وفوق الخمار يضع يسده في منتهى طرفه فركبها وسار جبريل في ركابه الى أن وصلا الى بيت المقدس وهناك جاء الانبياء قدمه جبريل عليهم فأمهم ثم عرج به الى السماء . وما ورد كذلك أن جبريل ورفيقين له شقوا بطنه وغسلوه بماء زمزم ثم حشوه إيماناً وحكمة ثم أتى جبريل بالبراق فركبه وقد روي أن هذا وقع قبل البعثة كما روي أنه وقع بعدها . والاحاديث التي وردت فيها هذه البيانات لم ترد في كتب الاحاديث الصحيحة المشهورة .

ولقد ذكرت الاحاديث أن النبي ﷺ حدث الناس بأسراره صباح ليلة الاسراء -- وهذا يؤيد كونه بجسده ويقظته - فارتد أناس ممن كانوا آمنوا -- الى هذا تشير آية ه في سورة الاسراء وهي :

(وما جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ)

على ما ذكره المفسرون اي اختباراً ليظهر المؤمن الثابت من المتقلب . وقد كان ممن

سمع الحديث ابو جهل فلم يظهر استغرابه خوفاً من تراجع النبي ﷺ بل سارع هو وبعض زملائه مع المرتدين الى ابي بكر رضي الله عنه وقالوا له إن صاحبك يقول انه اسري به الثيابة الى بيت المقدس ثم أصبح في مكة فقال لهم لئن قال ذلك لقد صدق وإني لاصدقه فيما أبعد من ذلك في خبر السماء في غدوة او روحة . وما روي ان بعض الكفار قالوا امتحنوه فقالوا له هل مررت بابل لبني فلان قال نعم وجدتهم في مكان كذا وقد ضل لهم بعير فهم في طيه . وانكسرت لهم ناقه حمراء . ووجدت قصعة فيها ماء فشربت مما فيها . وإن من رعايتها فلاناً وفلاناً . وستصبحكم بالغداة . فرقدوا على الثنية ينتظرون فما لبثوا أن استقبلوا لابل فسلّوه من ضل لكم بعير وهل انكسرت لكم ناقه حمراء وهل فقدتم ماء في قصعة فقلوا نعم فسلّوهم عن أسماء رعايتهم فذكروها كما ذكرها . ثم امتحنوه فطلبوا منه نعمت بيت المقدس . فنعمته نعمتاً صحيحاً عرفه الذين زاروه منهم .

واكثر المفسرين واكثر الاحاديث على ان الاسراء وقع مرة واحدة بالجسد وفي اليقظة وانه اقترب بالعروج الى السماء اما خبر وقوعه مرة قبل البعثة ومرتين بعد البعثة واحدة في اليقظة وأخرى في المنام فأكثر المفسرين ينكرونه .

ومها يكن من أمر فان روح آية الاسراء ومضمونها يدلها ان الحادث كان تكريماً للنبي ﷺ بقصد اطلاء على ملكوت الله وآياته اولا انه حادث خاص بمدرجات النبي ﷺ لم يشعر به غيره ثانياً وانه ليس من قبيل انعجزات التي تظهر على يد الوسل لاجل اثبات حلتهم بالله ثالثاً . والاولى ان يوقف من ماهيته وكيفية موقف التحفظ مثل سائر مدرجات النبي ﷺ الروحانية الخاصة . دون تزيد ولا تخمين مع واجب الايمان بالاسراء بنوع خاص كحقيقة ايمانية ما دام قد ذكر وقوعه صراحة في القرآن وإن لم يدرك كنهه مثل الايمان بالوحي وسائر مدرجات النبي ﷺ الخاصة التي وردت فيها نصوص صريحة في القرآن والاحاديث النبوية الصحيحة ومع التسليم بقدرة الله على كل شيء . فاما المعراج فإنه لم يذكر صراحة في القرآن وإنما جاء في الاحاديث في سياق آية سورة الاسراء المذكورة وآيات سورة النجم الاولى . والتحفظ ازاءه اولى وأوجب بسبب ما جاء في الاحاديث والروايات عنه الا ان يكون كما روى بعض الاحاديث رؤيا في المنام وهو ما نغفل الى ترجيحه .

اخطيأاء زعماء المشركين المستغنيين من المؤمنين

(١)

ولقد كان الزعماء يكتفون في أول الأمر بالصد والتكذيب والتعطيل والسخرية والتجدي وتوجيه الاتهامات واللجاج والحجاج . فلما رأوا النبي ﷺ مستمرّاً في دعوتهم ورأوا أن كثيراً من أبنائهم وبناتهم وكتبوا من الكتابيين والضعفاء والارقاء والغرباء الذين وجدوا في الدعوة ملاذاً وفرجاً وحلاً لمشاكلهم قد سارعوا إلى الايمان والتصديق فخشوا من تفاقم الخطب فغيروا موقفهم وأخذ البغاة منهم يعدون إلى الانسحاب الأذى على المسلمين واخطيأاهم وقتلتهم إلى إجبارهم على الارتداد عن الإسلام إلى الكفر . وكان لهذا التصرف منهم أثر خطير في سير الدعوة في العهد المكي بطوله بل يصح أن يقال إنه من أهم أحداث هذا العهد وأبعدها أثراً إن لم نقل إنه أهمها . ولقد احتوى القرآن آيات وفصولاً فيها مشاهد وصور متعددة لهذا الموقف الذي استمر المسلمون يكتبون بناره طيلة العهد المكي إلى السنة الثامنة من العهد المدني والذي كان من نتائجه الهجرات الأولى والثانية إلى الحبشة ولجوء النبي ﷺ إلى الطائف ثم هجرته وهجرة أصحابه معه إلى المدينة .

وأولى الاشارات القرآنية إلى ذلك جاءت في سورة البروج التي تعد من السور المبكرة في النزول حيث يجيء ترتيبها الرابعة والعشرين بعد سور كاهن من القصص وحيث يحتمل نزولها بناء على ذلك في أواخر السنة الأولى أو أوائل السنة الثانية لبعثة . والآية التي تضمنت الإشارة هي :

(إِنَّ الَّذِينَ قَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ (١٠) .

حيث يفيد مضمونها أن الاخطيأاء قد بدأ قبل نزولها بامد ما وانه شمل الرجال والنساء على السواء .

ولقد كان من حور الاخطيأاء على ما ذكرته روايات السيرة أن الزعماء والاغنياء

(١) انظر ابن هشام ج ١ ص ٣٣٩ — ٣٤٤

تعهدوا على تعطيل مصالح المسلمين من تجارة واملاك وزراعة وان بعض الآباء والامهات من قريش حرموا اولادهم من ثروتهم او هددوهم بذلك ومنهم من كان يقيد ابنه بقيود حديدية لينعه من الخروج والاجتماع بالنبي ﷺ وإخوانه في الدين وان يعرى الارقاء ويطرحون فوق الرمال والصخور المحرقة المتوهجة من شدة الحرارة ويوضع على اجسادهم الصخور ويتمنع عنهم الماء والطعام وتقيد ايديهم وارجلهم بقيود الحديد ويجدون بالأسواط شديد الجلد مما ادى الى إزعاق ارواح بعضهم فضربوا مثلاً خائداً على التمسك بالعقيدة وتحمل الاذى والتضحية بالنفس في سبيلها . ولقد كان ميسورو المسلمين وبخاصة ابو بكر رضي الله عنهم يشتررون الارقاء المضطهدين وينقذونهم كلما امكن ذلك^١.

وهناك آيات احتوت بعض صور من الضغط والاذى بل الارتداد. ففي سورة العنكبوت هذه الآيات :

(أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ .
وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ
الْكَاذِبِينَ . ٢ — ٣)

حيث احتوت تنبيهاً للمؤمنين بأنهم معرضون للضغط والفتنة والاختبار ليظهر الصادق من الكاذب . ولقد روى المفسرون^٢ انها نزلت في انس في مكة آمنوا وحبسهم ذوهم عن الهجرة الى المدينة والآيات نزلت قبل الهجرة الى المدينة . ونقد ذكرت الروايات^٣ ان بعض زعماء الاسر القرشية كانت تحبس وتقيد ابناءها الذين آمنوا وسميت منهم عياش بن ابي ربيعة وابا جندل بن سهيل بن عمرو^٤ . فالآيات فيما نعتقد نزلت في هؤلاء او امثالهم في مكة بسبيل تثبيتهم وتشجيعهم . واعلموا انطوت على شيء من الانذار . ولقد جاء بعد هذه

(١) انظر كتاب ابي بكر الصديق لابي الطنطاوي ص ٦٨ . وبعدها

(٢) انظر تفسير الايات في تفسير الطبرسي والبقوى والحازن

(٣) انظر تفسير آيات سورة العنكبوت السابقة في تفسير الطبري وانظر طبقات ابن سعد ج ٣ ص ١٢٢

(٤) انظر تفسير هافي تفسير الطبري

الآيات آيات فيها تأكيد لهذا الانذار . وهي هذه :

(مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ .)
(٥ - ٦)

وفي هذه السورة أيضاً هذه الآية :

(وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ٨) .

وقد روي أنها نزلت في سعد بن أبي وقاص وأمه ، فإن أمه وهي بنت أبي سفيان بإسلامه قالت له لتدعن هذا الدين الجديد أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت فتعير بي فيقال قاتل أمه . فنزلت الآية أمرة بعدم طاعة الوالدين إذا طلبا من ابنها الشرك بالله . فقال لها يا أمه لو كانت لك مئة نفس فخرجت نفساً نفساً ما تركت ديني ولا تستبعد أن تصكون آيات السورة الأولى مقدمة تهديدية لهذه الآية وما نزلت في صدره .

ولقد تكرر معنى الآية الأخيرة في سورة لقمان أيضاً كما ترى في هذه الآيات :

(وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَسَنَةً أُمَّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ . وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ١٤ - ١٥) .

(١) انظر مكية ما في تفسير الطبرسي .

حيث يدل هذا على ان المسألة ليست مسألة فردية بل اكثر . وحيث ينطوي في ذلك صورة من صور العهد المكي .

وفي سورة العنكبوت ايضاً هذه الآيات :

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةً
النَّاسِ كَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولَنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ
أَوْ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ . وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا
وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ . ١٠-١١)

وقد روي ان الآيات مدنية واستدل على صحة الرواية بكلمة المنافقين . والآيات
منسجمة مع السياق وقد جاء بعدها هذه الآيات التي فيها صورة من صور العهد المكي :

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ
خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ . إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ١٢)

ولذلك فنحن نرجح ان الصورة التي احتوتها الآيات من صور العهد المكي . وفحواها
يؤيد ذلك لان المسلمين لم يتعرضوا لأذى الناس في العهد المدني بأسلوب يجعلهم يرتدون
عن دينهم .

وفي سورة الحج هذه الآيات :

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ
وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ
الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ . يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُ وَلَا يُضُرُّهُ وَلَا يُنْقِضُهُ ذَلِكَ
هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ١١-١٢) .

وفي الآيات إشارة الى اناس جعلوا ايمانهم رهناً على السلامة والعافية فلما تعرضوا للذى
والاختبار انقلبوا على وجوههم وارتدوا .

مقابلة بعض المؤمنين الأذى بمثله ونهي الله عن ذلك وحكمته



ولقد روت الروايات ان بعض المؤمنين الأقوياء حاولوا مقابلة الأذى بمثله حيث ذكرت ان بعض المشركين تصدوا لسعد بن أبي وقاص وبعض رفاقه رضي الله عنهم وهم يصلون في شعب من شعاب مكة فناكروهم وعابوا عليهم فقابلوهم بالمثل ووصل الأمر إلى الاشتباك . وقد خرب سعد رضي الله عنه رجلاً منهم بلحى بعير فشجه فكان أول دم هريق في الإسلام^١ ويظهر ان حكمة الله تعالى اقتضت ان لا يصل الأمر في العهد المبكي بين المؤمنين والمشركين إلى هذا الحد حيث كان المؤمنون قلة خشية لا تستطيع ان تصمد امام الكثرة . وكان جل ابناء الأسر القرشية منهم مضطهدين او منبوذين من ذويهم فليس لهم بهم قوة ولا نصر على ما يستفاد من بعض الآيات حيث ورد في سورة الجاثية هذه (قل الذين آمنوا يغفروا لذين لا يرجون أيام الله ليجزي قوماً بما كانوا يكسبون ١٤) وقد روى المفسرون^٢ في حدها انها نزلت في مناسبة شتم فيها رجل من المشركين عمر بن الخطاب رضي الله عنه فهم هذا بالبش به فأمرت الآية المؤمنين بالصبر والتحمل والتسامح والاعضاء .

ولعل آية النحل هذه قد هدفت إلى ذلك (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين) حيث أمرت النبي ﷺ والمؤمنين بأن لا يجادلوا غيرهم في حدد الدعوة إلا بالتي هي أحسن دون عنف وشدة قد يثيران المدعو وقد يؤديان إلى عكس المقصود .

استطراد إلى تعليل موقف الزعماء



ومن الجدير بالذكر ان الموقف المناوئ للصاد الجاحد المؤذي الذي وقفه زعماء مكة وأعيانها من المؤمنين وأثروا به على السواد الأعظم من العرب فجالوا بينهم وبين الإسلام لمدة طويلة تبلغ نحو عشرين سنة لا يمت بسبب حقيقي إلى جوهر الدعوة ولا هو ناشئ عن جهل

(١) ابن هشام ج ١ ص ٢٨١ — ٢٨٢

(٢) انظر تفسير الآية في تفسير البقوي

وغفلة حيث كان اهل بيته النبي وبخاصة الزعماء والنبهاء منهم على حظ غير يسير من الثقافة والحضارة لاتصالهم بالبلاد المجاورة لهم وبالكتابين الذين كانوا بين ظهرانيهم على ما شرحناه في الجزء السابق ^١ . حتى لقد كان بعضهم يسخر من الكتبيين ويستكبر ما كانوا عليه من خلاف ونزاع وانحراف وضلال ويقسمون الايمان ان لو جاءهم نذير من الله وكتاب بلغتهم مثل ما كان سابقاً ليكون اهدى منهم ^٢ . وكانوا على ما قرره القرآن مؤمنين بالله عز وجل كإله اعظم خالق السموات والأرض ومدير الكون ورازق الناس والمؤثر في كل شيء والذي في يده ملكوت كل شيء . وقصارى امرهم او امر اكثرهم انهم كانوا يشركون مع الله في الاتجاه والعبادة والدعاء عناصر كشفعاء يتوسلون بها عنده لدفع المضار وجلب المنافع ويتخذون لها وموزاً مادية يقيمون عندها طقوسهم وكان اهم هذه العناصر الملائكة حيث كانوا يعتقدون انها بنات الله على ما شرحناه في الجزء الثاني .

ولعل من اقوى البراهين على هذا ما ظهر من المئات منهم الذين آمنوا مبكرين او متأخرين من عبقرية في العقل والحكم والفهم والسياسة والحروب والقيادة والادارة والقضاء بما امتلأت بأسمائهم كتب التراجم وبخاصة كتاب اسد الغابة لابن الأثير ، وبما هو مشهور معروف . وانما لأسباب ما انطوى في الدعوة من ثورة اصلاحية واجتماعية ودينية وانسانية . فمنهم من رأى النبي عليه السلام ينغى بلسان القرآن على اهل الاموال امواهم وعلى المسرفين اسرافهم وعلى البخلاء بخلبهم ويدعو الى البر بالفقراء والمساكين والانفاق في سبيل الله فخاف على ثروته ومنهم من رأى النبي بلسان القرآن يسوي بين الزعماء والصعايك والاحرار والعبيد والعرب والعجم فاستعظم واشدأز . ومنهم من رأى الضعفاء والارفاء والفقراء يسارعون الى الايمان بالدعوة ويلتقون حول صاحبها فحسبوا ما ينجم من ذلك من عواقب وخيمة لهم . ومنهم من كان يحتل مركزاً عالياً في قومه فاستكبر عن ان يغدو تابعاً بعد ان كان متبوعاً . ومنهم من حسد النبي ﷺ لاختصاصه دونه بالقرآن مع انه ليس من الزعماء البارزين . ومنهم من تأثر بالعصية القبلية ورأى في نجاح حركة يدعو اليها نبي من بني هاشم غصاً لأسرته البارزة واعلاء لشأن بني هاشم . ومنهم من خشي ان تفقد مكة ما كان لها من امتيازات متنوعة بسبب حرمها وامنها ومواسم الحج فيها يعود على اهلها منها المنافع العظيمة فظن ان الدعوة سوف تتسبب هذه الامتيازات . ومنهم من كان متأثراً بعصية التقاليد الشديدة

(١) اقرأ باب الحياة العقلية في كتابنا عصر النبي عليه السلام وبيئته قبل البعثة ايضا
(٢) تثن في آيات سورة فاطر ٤٢-٤٣ وآيات سورة الانعام ١٥٥-١٥٧ التي اوردها قبل

الرسوخ التي كان يتضاءل امامها قوة المنطق وتعمى الابصار والتي كان النبي ﷺ يهاجم بلسان القرآن الفاسد الضار الفاحش منها . ومنهم من كان موقفه موقف الممتنع غير العنيف في الصد والحجاج الذي يعتذر عن موقفه بالاعذار الواهية . ويعرض العروض ويطلب المطالب التي فيها انحراف عن المبادئ والاهداف السامية في الدعوة ثماً لمسايرته . ومنهم من كانت موقفه موقف الممتنع الساعي في التعطيل والحرض على الدعوة غيره والمجادل العنيد المكابر والمؤذي المستجيب والمهوش على النبي ﷺ . ولم يتورع هؤلاء بنوع خاص عن وصف النبي ﷺ بالكاذب والمفتري والساحر والمسحور والمجنون والشاعر والكاهن . ونسبة القرآني إلى الشيطان كما بذلوا جهودهم في تحدي النبي ﷺ وتعجيزه بمختلف الاساليب .

والناظر في القرآن المكي يجد معظمه في شرح مواقف الكفار المتنوعة المذكورة وحكاية اقوالهم والرد عليهم وتفسيرهم وانذارهم وتذكيرهم بقصص الانبياء السابقين واقوامهم وما نال المكذابين الجاحدين من نكال الله وتدميره في الدنيا وما سوف يلقيه من الموقف العصيب والعذاب الشديد والحزي العظيم في الآخرة بأساليب متنوعة . منها المعتدل . ومنها الموجه الى العقول والقلوب . ومنها ما كان صرخات داوية وصفعات شديدة كحجم البراكين كان النبي ﷺ يوجهها بخاحصة للفريق العنيد المكابر الشديد العداء والأذى بكل قوة وجراءة دون مبالاة بما كانوا عليه من جاه ومال وقوة وأنصار كما يجد ان جانب ذلك تنوياً بالذين آمنوا وصدقوا وتثبيتاً لهم وبشرى بما سوف يمنحهم الله من أمن ونصر وتمكين في الدنيا لهم ولدينهم الذي ارتضاه لهم ثم بما سوف ينالونه من صنوف التكريم والنعمة في الآخرة مضافاً الى ذلك كله شروح رائعة جليلة لأهداف الدعوة السامية الصافية .

كان المؤمنون الأولون في مكة رمزا رائعا للبشر جميعهم



ومع ان غالبية العرب العظمى نتيجة لموقف معظم زعماء مكة ظلت ممتنعة عن الاستجابة وظل موقف هؤلاء على ما هو عليه دون تبدل كبير طيلة السنين الثلاث عشرة التي قضاها النبي ﷺ في مكة بعد بعثته ثم طيلة ثمانى سنين اخرى بعدها — باستثناء معظم اهل يثرب وما حولها في هذه الفترة — الى ان تم فتح مكة فانهيار السد المانع ودخل الناس في دين الله افواجا . ومع ان عدد المستجيبين الى الدعوة في مكة ظل قليلا نتيجة لذلك ايضا فقد كانوا رمزا رائعا للبشر جميعهم ودليلا حيا على ان الدعوة تحتوي جميع عناصر القوة والاستجابة

حينما يستطيع سامعها ان يتجرد عن اهوائه وشهواته وعصبيته ومآربه وأنانيته وكبره ومكابرتة وحسده . وحينما تكون مرضاة الله تعالى ووحدايته والحق والحقيقة والخير والهدي غايته ورغبته وحسب . حيث كانوا من مختلف الاجناس والطبقات والألوان والأديان . فيهم الغني والفقير والشريف والصعلوك والحر والعبد والذكور والاناث والعربي والرومي والفارسي والحبشي والسرياني والمصري واليهودي والنصراني والمجوسي والمشرک والوثني وعبد الكواكب والحنفي الصابئي الموحد . وقد تكون من هذا الرعيل الأول - الذي كان افراده اعظم واصدق واقي شهود عيان لأعلام النبوة المحمدية فانضو اليها - مجتمع انساني كامل متساو في الحقوق والواجبات يعاون القادر فيه العاجز ويعطي الغني فيه الفقير ولا يظلم فيه القوي الضعيف ولا يخشى فيه الضعيف القوي ، ويتضامن الجميع فيه في السراء والضراء ويتسابقون فيه الى الخيرات ويتواصون فيه بالصبر والحق والمرحمة والبر ويعبدون الله وحده منزها عن كل شائبة محررين انفسهم من كل قوة غيره خفية وظاهرة ويتحملون في سبيل هذا الدين القويم الذي انضو اليه الأذى صابرين محتسبين ، منتظرين وعد الله لهم بالتمكين والنصر . وهو الوعد الذي حققه الله لهم كاملا بعد سنوات معدودات فتمت بذلك معجزة الله الكبرى ، وقد وصفهم الله بكل هذه الصفات بأسلوب رائع على ما يراه الناظر في القرآن مبثوثا في كثير من سورة وفصوله ^١ .

ولقد كان من المؤمنين السابقين افراد كثيرون ينتمون الى الاسر القرشية البارزة وكانوا من الرجال والنساء على السواء . وكان جلهم في سن الشباب بينما ظل معظم آبائهم ودوهم وفيهم الزعماء الكبار على كفرهم وعنادهم على ما تفيد اسماء وانساب المهاجرين الى الحبشة التي سنوردها بعد قليل وعلى ما يفيد كذلك حديث هام رواه ابن اسحق عن ام سلمة ام المؤمنين سنورده بعد قليل ايضا ثم على ما يستفاد من استعراض اسماء المهاجرين الى المدينة مع النبي عليه السلام التي ذكرها كتاب اسد الغابة حيث يسوغ القول ان اذهان شباب قريش كانت آخذة بالفتح باحثه عن مخرج مما كان عليه آباؤهم من عقائد وتقاليد سخيفة وحيث يكون في ذلك مظهر من مظاهر القواعد الاجتماعية التي تقرر قابلية الشباب للاستجابة للدعوات الإصلاحية والاجتماعية والاندماج فيها . وهو ما يمكن ان توصف به الرسالة المحمدية من

(١) اقرأ سورة المص و سورة الليل وآيات سورة البلد ١١-١٨ والفاشية ٨-١٦ والنبأ ٥-٣٦ والانسان ٥-٢٢ والمارج ١٩-٣٥ والطور ١٧-٢٨ والذاريات ١٥-١٩ والثورى ٣٦-٣٨ والافات ٤٠-٤٩ وفاطر ٢٨-٣٥ والسجدة ١٦ والمؤمنون ١-٨ والفرقان ٣-٧٦

ناحية ما . فما إن أخذ يدعو إليها حتى استجابوا اليه وأقبلوا عليه دون مبالاة بما كان من غضب آبائهم وذوئهم واضطهادهم لهم . وقد هاجروا من وطنهم الى الحبشة اولاً ثم الى يثرب مستسكين بدينهم الذي ارتضاه الله تعالى لهم وأشربوا حلاوته وكانوا حملة مشعل الهداية فصاروا مع غيرهم من السابقين الأولين مظهر ثناء من الله عظيم في آية سورة التوبة (١٠٠) التي قالت عنهم (رضي الله عنهم ورضوا عنه) .

ركن الزكاة وحكمة التكبير في فرضه



ونود ان ننبه الى مسألة مهمة متصلة فيما نعتقد بظروف الدعوة الاولى ومحنة الأذى . وهي مسألة الزكاة التي هي من اركان الاسلام الأساسية . فقد أشير إليها في الآيات والفصول المبكرة في النزول متلازمة مع الصلاة ونوه بالمؤمنين الذين كانوا يؤدونها ويعرفون ان في أموالهم حقاً معلوماً للسائل والمحروم^١

فما يتبادر أن ذلك بالاضافة الى ان الزكاة ومقاصدها هدف أساسي من أهداف الدعوة الاسلامية يدل على ان ظروف الدعوة كانت تدعو الى فرض شيء معين من المال على ما يجوز الغني المسلم للفقير المسلم في ذلك الحين الذي كان عدد الفقراء فيه كثيراً من جهة ومعروضين للأذى والمطاردة من جهة أخرى . ولعل مشروع الدعوة الاسلامية نفسه كان في حاجة الى نفقات لا بد منها كان النبي ﷺ يتقاضاها من أغنياء المسلمين كحق واجب الأداء عن أموالهم . ولقد يصح ان يقال ان تشريع الزكاة في العهد المكي هو الوحيد بين التشريعات غير التعبدية إذ ان جل هذه التشريعات إنما كان في العهد المدني حيث يؤيدها هذا التعليل الذي ذكرناه فاقترضت حكمة التنزيل فرض الزكاة فرضاً على أغنياء المسلمين ليؤدوها بدافع من إيمانهم كالصلاة ولا تكون بصفة التبرع التطوعي الذي يكون المرء فيه مختاراً .

(١) انظر آية سورة الاعلى (١٤) والذاريات ١٦ - ١٩ وفاطر ٢٩ والاسراء ٢٦ والمؤمنون

٢٤ - ٢٥ والنحل ١ - ٣ ولها من ١ - ٥ والليل ١٧ - ١٨

الهجرة الى الحبشة

ولما اشتد الاذى على المسلمين قال لهم النبي ﷺ لو خرجتم الى الحبشة فإن فيها ملكاً لا يظلم عنده أحد وهي ارض صدق حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه^١.

فهاجر فريق من المسلمين الى الحبشة نتيجة لذلك . والى هذه الهجرة أشارت هذه الآيات في سورة النحل (والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا انبؤهم في هذه الدنيا حسنة ولأجر الآخرة اكبر لو كانوا يعلمون . الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون (٤١ - ٤٢)) .

وقد روى ابن سعد^٢ أن عدد الذين خرجوا لأول مرة كان احد عشر رجلاً واربع نساء وهم عثمان بن عفان من بني أمية وزوجته رقية بنت رسول الله ﷺ وابو حذيفة بن عتبة بن ربيعة وزوجته سهلة بنت سهيل بن عمرو والزبير بن العوام من بني أسد ومصعب بن عمير من بني هاشم وعبد الرحمن بن عوف من بني زهرة وابو سلمة من بني مخزوم ومعه زوجته أم سلمة بنت أمية بن المغيرة وعثمان بن مظعون من بني جمح وعامر بن ربيعة العنزي حليف بني عدي وزوجته ليلى وابو سبرة بن ابي وهم العامري وحاطب بن عمرو بن عبد شمس وسهيل بن بيضاء من بني الحارث وعبد الله بن مسعود حليف بني زهرة رضوان الله عليهم .

وكانت هجرتهم في شهر رجب من السنة الخامسة للبعثة . وقد خرجت قريش في أثرهم فلم يدركوهم حيث كانوا ركبوا البحر على ظهر سفينتين من جده الى الحبشة مقابل نصف دينار عن كل راكب^٣ وقد لبثوا شهرين ثم بلغهم ان قريشاً اسلمت فعادوا حتى اذا كانوا على ساعة من مكة لقوا ركباً من كنانة فسألوهم عن قريش فقالوا ان محمداً ذكر آلهتهم بخير فتابعه الملائكة اترد عنها فعاد اشم آلهتهم وعادوا له بالشر فترك كنانهم على ذلك . فاستمر العائدون ثم قالوا ندخل فننظر ثم نرجع . وقد دخلوا بجوار رجال من مكة استجاروا بهم فأجاروهم حسب التقاليد التي شرحناها في الجزء السابق . ومع ذلك فقد اشتد عليهم قومهم وسطت بهم عشائروهم ولقوا منهم أذى شديداً فأذن رسول الله ﷺ لهم بالهجرة ثانية

(١) ابن هشام ج ١ ص ٣٤٤

(٢) طبقات ابن سعد ج ١ ص ١٨٨

(٣) ابن سعد ج ١ ص ١٨٨ - ١٨٩

الحبشة فخرجوا وانضم اليهم غيرهم فبلغ عددهم هذه المرة ثلاثة وثمانين رجلاً و ١١ امرأة
ريشة وسبع غرائب ١ .

أما ما بلغ المهاجرين الاولين من اسلام قريش الذي جعلهم يعودون فقد اورد ابن
٢٠٠٠ في حده رواية جاء فيها ان النبي ﷺ نعى في نفسه ان لا ينزل عليه شيء ينفر زعماء
مكة منه وانه قاربهم وقاربوه وانه قرأ عليهم في مجلس سورة النجم حتى بلغ

(أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ)

التي الشيطان كلمتين على لسانه وهما (تلك الغرائق العلى . وإن شفاعتهن لترتجى)
فكلم رسول الله ﷺ بها ثم مضى فأتم السورة وسجد فسجد القوم جميعاً . ولقد انكر
كثير من المفسرين الرواية ٢ ومنهم من قال إن الشيطان هو الذي اتقى الجنتين فظن الكفار
ان النبي ﷺ هو الذي القاهم . ومنهم من قال إن بعض الكفار هم الذين القوها تحدياً
لما جاء بعد الآيات التي تلاها النبي ﷺ من تسفيهه وتنديده ثم لما سجد النبي ﷺ في آخر
السورة لله عز وجل سجدوا لآلهتهم استمراراً في التحدي والعناد .

ولقد اعاد بعض المستشرقين وابدوا في هذه القصة واعتبروها صحيحة ومأخذاً . ولقد
فندها حسين هيكل في كتابه حياة محمد في فصل طويل قوي محكم ٣ ولقد روى المفسرون

(١) ابن سعد ج ١ ص ١٩١ — ١٩٢

(٢) ابن سعد ص ١٨٩ — ١٩٠

(٣) انظر تفسير آيات الامراء ٧٣ — ٧٥ وآيات الحج ٥٢ — ٥٣ في كتب تفسير الطبري وابن
كثير والحازن والطبرسي والبغوي .

(٤) تأتي بعد آيات (افرايتم الالة والعزى . ومناة الثالثة الاخرى) هذه الايات :

(اَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَىٰ . تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِشْرَىٰ . إِنْ هِيَ
إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ
يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَىٰ ٢١—٢٣)

(٥) ص ١٥٧ — ١٦٤

هذه الرواية في سياق آيات الاسراء هذه :

(وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ
وَإِذَا لَا تَخَذُوكَ خَلِيلًا . وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا
قَلِيلًا . إِذَا لَأَذُنَاكَ ضِعْفَ أَحْيَاءٍ وَضِعْفَ آَلَمَاتٍ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا
نَصِيرًا ۝ ۷۳ - ۷۵)

مع أن روح الآيات وحيتها وظروف نزولها تثبت من الوجهة الجدلية عدم صحة
الرواية أصلاً . فالرواية تذكر أن النبي ﷺ قد قال قولاً أي وقع منه فعل في حين أن
الآيات تقول إنهم كادوا يفتنونه . وسياق آيات النجم لا يمكن أن تتحمل ما روي من الجهتين
لأنه مصوب على تسفيه الكفار لاتخاذ المعبودات الثلاثة إلهة وتسميتها بأسماء الإناث ونسبتها
إلى الله كبنات له أو كرموز للملائكة الذين زعم الكفار أنهم بنات الله سبحانه وتعالى .

وقد قلنا من الوجهة الجدلية لأن ثناء النبي ﷺ على الأصنام والأقمار بفائدة شفاعتهم
من المستحيلات من ناحية الحقيقة وواقع أساس الدعوة . وفصول القرآن المتلاحقة المكررة
المؤكدة على وحدة الله تعالى وتسفيه الشرك به بأي سبب ومظهر ولا يمكن أن يقول بذلك
منصف عاقل .

ومها يمكن من أمر فإننا لا نرى ما يمنع أن يكون خبر بمائل مكبر قد بلغ المهاجرين
الأوليين فاستبشروا وعادوا فلما رأوا الحالة على ما تركوها بل واشد عادوا فهاجروا ثانية
وهاجر معهم عدد كبير آخر . نتيجة لأشداد قريش في العداء والأذى .

هذا . ويبدو من الأسماء والأنساب التي أورد بعضها ابن سعد واستوفى جميعها ابن هشام
أن جل المهاجرين في المرتين كانوا من أبناء الأسر القرشية مع أفراد كانوا حلفاء لبعض هذه
الأسر حيث يسوغ القول إنهم الذين أنكرت أسرهم أو زعماء أسرهم عليهم إسلامهم
واضطهدوهم أو قاطعوهم أو لم يتعصبوا لحمايتهم ولم يكن لهم من القوة الذاتية ما يمنعهم

ويحميم حيث كان منهم افراد من كل من اسر بني هاشم وبني أمية وبني اسد وبني عبد الدار
وبني مخزوم وبني جمح وبني عدي وبني سهم وبني عامر وبني الحارث .

وكان فيهم ابناء زعماء كبار كانوا في حلف الكفر والمناوأة مثل عمرو بن سعيد بن
العاص وزوجته فاطمة بنت صفوان بن أمية وعبد الله بن جحش وزوجته رملة بنت ابي
سفيان . وفراس بن النضر بن الحارث بن كلوه الذي كان ابوه من اقوى خصوم النبي ﷺ
وأبو سلمة المخزومي وزوجته ام سلمه بنت ابي أمية بن المغيرة المخزومي . وهشام بن حذيفة
بن المغيرة المخزومي . وسلمه بن هشام بن المغيرة المخزومي وعياش بن ابي ربيعة بن المغيرة
المخزومي : وهشام بن العاص بن وائل السهبي . وابي حذيفة عتبة بن ربيعة وزوجته سهيلة
بنت سهيل بن عمرو .

ومن هاجروا رجال صار لهم في التاريخ الاسلامي شهرة تدل على انهم كانوا في شبابهم
من اصحاب النباهة والبروز والنشاط منهم عثمان بن عفان وزوجته رقية بنت رسول الله ﷺ
ومصعب بن عمير الهاشمي وعبد الرحمن بن عوف الزهري والزيبر بن العوام الاسدي .
وعثمان بن مظعون الجمحي والمقداد بن الاسود وابي موسى الاشعري وجعفر بن ابي طالب ،
الهاشمي وغيرهم وغيرهم رضوان الله عليهم .

وقد يبدو عدم وجود اسماء لمساكين المؤمنين وفقرائهم وغربائهم بين المهاجرين غريباً .
وقد تبادر لنا تعليلاً لذلك ان ضغط زعماء قريش كان اكثر شدة على ابناء الاسر القرشيين
لأنهم تحسبوا عواقب ايمان الذين آمنوا منهم بالنسبة لسائر شباب هذه الاسر في حين انه لم
يكن ما يحشونه من مثل ذلك من المساكين والارقاء والفقراء والغرباء ، وهذه صورة
مخالفة لما في الاذهان كما هو المتبادر .

ونريد ان نقف عند اسم جعفر بن ابي طالب رضي الله عنه لنقول اننا نستبعد ان يكون
قد اضطهد من قبل اسرته . فالروايات متواترة على ان غالبية بني هاشم وعلى رأسهم ابو
طالب كانوا يتعصبون للنبي ﷺ ناذرين حمايته والدفاع عنه تأثراً بالعصية الراسخة برغم
ان اكثرهم لم يكونوا قد آمنوا . ولذلك نرجح ان النبي ﷺ ندبه ليكون وكيله في
المهاجرين ، ورسوله معهم الى ملك الحبشة . وفي الروايات بما قد يؤيد ذلك حيث ذكرت
انه كان المتكلم بلسان المهاجرين امام هذا الملك^١ .

ولعل انتشار النصرانية في الحبشة من عوامل اختيارها من قبل النبي ﷺ داراً للهجرة الاولى . لان النصارى في مكة الذين كانوا يؤلفون الكتلة الساحقة من الكتابيين وقفوا ذلك الموقف الايجابي المحبب المؤمن المصدق من النبي ﷺ على ما سجلته الآيات المكية التي اوردناها في التمهيد .

ولقد ذكرت الروايات^١ ان المهاجرين لقوا من ملك الحبشة عطفاً وبراً وتطميناً وانه ابتهج وتأثر بما سمعه من آيات القرآن عن المسيح وامه ورسالته حتى لقد روي انه اعتنق الاسلام^٢ مما جاء مصداقاً لما توفعه النبي ﷺ .

ولقد ذكرت الروايات^٣ ان قريشاً ارسلت وفداً الى ملك الحبشة مؤلفاً من عمرو بن العاص وعبد الله بن ابي ربيعة ليقنعه بخطر المهاجرين ويغريه بطردهم وحملته الهدايا للملك وبطاركته ، حيث يدل هذا على توجس قريش من نتائج هذه الرحلة وكسب المسلمين لقلب الملك ورجاله وهم يسمعون منهم القرآن يذكر الكتابيين بشيء من الخفاوة . لا سيما ولم تكن غزوة الاحباش لليمن لنصرة بني دينهم النصارى حينما اضطهدهم الملك الجيري المتهود ثم غزوتهم للبحجاز على ما شرحناه في الجزء السابق ما تزال حديثه العهد الذكري .

وقد كان نصيب الوفد الاخفاق على ما ذكرته الروايات التي ذكرت ان الوفد وزع الهدايا على البطارقة واستعان بهم على مهمته ثم قابل الملك بحضورهم وقال له ان غلماناً سفهاء منا فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينك وجاؤوا بدين جديد ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا انت وقد ضلوا الى بلدك . وقد بعثنا اليك فيهم اشراف قومهم من آبائهم واعماهم وعشائرتهم لتردهم اليهم . وان البطارقة ايدوا الطلب ولكن الملك لم يقبل وطلب استدعاء المهاجرين وسألهم عن الدين الذي فارقوا قومهم فيه فتكلم جعفر بن ابي طالب رضي الله عنه فقال (ايها الملك كنا قوماً اهل جاهلية نعبد الاصنام ونأكل الميتة . ونأتي الفواحش . ونقطع الارحام . ونسيء الجوار . ويأكل القوي منا الضعيف فبعث الله الينا رسلاً منا

(١) ابن هشام ج ١ ص ٣٥٨

(٢) نفس المصدر ص ٣٦٥

(٣) ابن هشام ج ١ ص ٣٥٦ وبعدها

نعرف نسبه وصدق وامانته وعفافه فدعانا الى الله لنوحده ونعبده وتحلج ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان . وامرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة . وصلة الرحم . وحسن الجوار . والكف عن المحارم والدماء . ونهانا عن الفواحش . وقول الزور وأكل مال اليتيم . وامرنا ان نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً وامرنا بالصلاة والزكاة والصيام فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئاً وحرمتنا ما حرم علينا واحللتنا ما أحل لنا . فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليوردونا الى عبادة الأوثان وان نستحل ما كنا نستحل من الخبائث فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا الى بلادك واخبرناك على سواك ورغبنا في جوارك ورجونا ان لا نظلم عندك . فقال له النجاشي هل معك مما جاء عن الله من شيء؟ فقال نعم فطلب منه قراءته عليه فقرأ عليه صدرأ من (كهيعص) -- سورة مريم -- فبكى والله النجاشي حتى اخضلت لحية وبكت اساقفته حتى اخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم ثم قال لهم ان هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة . انطلقا فلا والله لا اسلمهم اليكما ولا يكادون^١ .

وبما جاء في الحديث نفسه عن أم سامة رضي الله عنها ان عمرو بن العاص عاد الى الملك في اليوم الثاني فقال له انهم يقولون في عيسى بن مريم قولاً عظيماً فارسل اليهم فسلمهم فأرسل اليهم فلما دخلوا عليه سألهم عما يقولون في عيسى بن مريم فقال جعفر رضي الله عنه نقول فيه الذي جاءنا به نبينا ﷺ هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته القاها الى مريم العذراء البتول . ف ضرب النجاشي بيده الى الارض فأخذ منها عوداً ثم قال والله ما عدا عيسى بن مريم ما قلت هذا العود فتناخرت بطارقه حوله حين قال ما قال فقال وإن نخرتم والله . ثم

(١) هذا الحديث الطويل رواه ابن هشام عن ابن اسحق المولود في القرن الهجري الاول والتوفي سنة ١٥٢ هـ الذي قال حدثني محمد بن مسلم الزهري عن ابي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام الخزومي عن ام سلمة زوجة رسول الله صلى الله عليه وسلم التي كانت من المهاجرين مع زوجها الاول ابن سلمة ومات عنها في الحبشة فشرها النبي صلى الله عليه وسلم بالزواج منها مع انها كانت متقدمة في السن وكان لها اولاد كبار . ومما يمكن ان يقال فيه بسبب تنميق عبارته وطوله فليس فيه خيال ولا مبالغة وانما هو تعبير صادق كن الصدق عن واقع الامر مما يسوغ القول انه مطابق لما حصل . ووقت سماع الحديث وتدوينه يسبحان بالقول ان ما جاء فيه صحيح (انظر الجزء الاول من سيرة ابن هشام طبعة مصطفى البابي الحلبي ص ٣٤٦ - ٣٤٢)

قال لجمعهم وصحبه اذهبوا فانتم آمنون من سبكم غرم . من سبكم غرم . ما احب ان يكون لي ذراً^١ من ذهب واني آذيت رجلاً منكم فانتم آمنون .

ولقد بقي المهاجرون في الحبشة نحو اثنتي عشرة سنة اي الى السنة السابعة من هجرة النبي ﷺ الى المدينة حيث صار في قوة ومنعة وتهادن مع قريش فيما عرف بصلح الحديبية فأرسل اليهم مندوباً فحملهم على سفيتين^٢ .

هذا . ولقد رأينا المستشرق الطلياني كايثاني يغمز المهاجرين في صبرهم وجلدهم ورسوخ عقيدتهم وفي رغبتهم بالنجاة بأنفسهم وتحليلهم عن نبيهم . وليس في هذا شيء من الحق من جهة . وهو ملقى جزافاً بعقل اليوم وناتج عن عدم فهم ظروف البيئة النبوية والمهاجرين وتقديرها من جهة أخرى . فالذين هاجروا كانوا بين امرين إما ان يظلوا يتعرضون للاذى وقد تحون بعضهم اعصابهم فيرتدون وإما ان يصبروا حتى يودي الصبر بحياتهم لانهم ليس لهم قوة ذاتية تحميهم وليس في هذا مصلحة للمسلمين والدعوة . وقد وقعت الحالتان فليس في تفادي مثل ذلك بالهجرة محل للغمز . بل هي دليل على تعلق المؤمنين بدينهم وخوفهم من الافتتان عنه وتضحياتهم بوطنهم ومصلحتهم في سبيله . وفي هذا ما يستوجب الاكبار والثناء . ولقد خرجوا بإذن من رسول الله ﷺ بل وبحث وتشجيع وهو خير من يقدر الظروف المحيطة بهم . ولقد اشار القرآن الى هجرتهم بأسلوب الاقرار والثناء والبشرى في آيات سورة النحل هذه (والذين هاجروا في الله من بعد ما ظالموا لنبؤتهم في الدنيا حسنة ولاجر الآخرة اكبر لو كانوا يعلمون . الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون ٤٠ - ٤١) وفي هذا وذاك القول الفصل حتى من الناحية التاريخية . والغريب ان الغامزين يتجاهلون حالة واقعية متكررة وسائغة في كل ظرف ومكان منذ اقدم الازمنة الى الآن والى ما شاء الله بسبيل شفاء النفس بالتعليق والغمز ضد الاسلام والمسلمين .

(١) فرها ابن هشام بالجيل .

(٢) ابن هشام ج ٣ ص ١٤٤

صور اخرى من الضغط والاذى

٥٥

في سورة النحل التي نزلت^١ بعد هجرة من هاجر من المؤمنين الى الحبشة آيات تفيد وقوع حادث ارتداد في العهد المكي . وهي هذه :

(مَنْ كَفَرَ بِاللّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ عَذَابٌ وَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ . ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحْبَبُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ١٠٦ — ١٠٧)

ولقد روى المفسرون^٢ في صدد هذه الآيات ان هذا الحادث وقع حينما اخبر النبي عليه السلام بنجر الاسراء . ومع عدم استبعادنا ان يكون بعض المسلمين قد ارتدوا نتيجة لهذا الخبر فاننا نرجع ان حادث الارتداد المذكور في الآيات كان لسبب آخر . فقبل هذه الآيات جاءت الآيات التالية :

(فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ . إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ . إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ . وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنْزَلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ . قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ . وَلَقَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ . إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمْ

(١) الدليل على نزولها بعد الهجرة ورود آية في السورة تنوه بالمهاجرين وتبشرهم وهي (والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا لنبوءتهم في الدنيا حسنة ولاجر الآخرة اكبر لو كانوا يعلمون ٤١)

(٢) انظر تفسير الايات في تفسير الطبرسي وابن كثير والحازن

الله وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . إِنَّمَا يَقْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ
وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ٩٨ — ١٠٥)

وروح هذه الآيات ومضمونها يلهمان أنها نزلت في صدد حادث له صلة بالقرآن ويلهامان
أنه أوحى للنبي ﷺ بعض الآيات لتكون مكان بعض آيات أخرى فلما تلا الجديدة وأهمل
الأولى استغل زعماء الكفر ذلك فأخذوا يشنعون عليه ويهاجمون دعواه كون القرآن وحياً
إلهياً وينسبون إليه الافتراء والتعسف من شخص معين . ولعلمهم قالوا ان الشيطان هو الذي
يوسوس له ويلقي عليه لا الملك وان التبديل دليل على ذلك لأن الشيطان قد يخطئ ولكن
الملك لا يصح ان يخطئ . واستغلوا الحادث في الصد والتأثير ببعض المسلمين وتوسلوا بالاغراء
الى جانب الاستغلال والتهويل . وكان من نتيجة ذلك ان ارتد بعضهم استجابة لهذه الدعاية
واستجابة لمنافع الحياة الدنيا . فجاءت الآيات تثبت النبي ﷺ والمسلمين . وتهاجم الصادقين
والمهوسين والمرتدين وتحمل عليهم الحملة الشديدة التي انطوت في الآيات ، فليس للشيطان
سلطان على المؤمنين المتوكلين على الله وانما سلطانه على الذين يشركونه وهم المشركون . والله
هو الاعلم بمقتضيات حكمة التنزيل . وكل تبديل وتنزيل هو من وحي الله وتنزيل روح
القدس ملك الله الاكبر . وليس للنبي إلا اتباع ما يوحى به اليه . والذين لا يؤمنون بآيات
الله كما تنزل وفق حكمة تنزيهه هم الكاذبون المفترون وهذا من تنزه عنه النبي واصحابه
المخلصون . والرجل الذي ينسبون اليه تعليم النبي هو اعجمي اللسان في حين ان القرآن عربي
مبين فحجبتهم ساقطة بنفسها ...

ولقد جاء بعد الآيات « ١٠٦ — ١٠٧ » هذه الآية :

(ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا
وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ١٠٠)

ومع ان المفسرين^(١) قالوا ان الاية بحق مستضعفين اجبروا على الارتداد عن الاسلام ثم
وجدوا فرصة فهاجروا وعادوا الى الاسلام وبعضهم قال انها نزلت في جماعة قيدهم اهلهم في
مكة ومنعواهم من الهجرة الى المدينة بعد هجرة النبي ﷺ اليها فالتنازروا هذين القولين في

(١) انظر تفسير الاية في تفسير ابن كثير والبغوي .

غير محلها ونرجح انها متصلة بالموضوع الذي انطوى في الآيات السابقة بدليل نزول الآية عقبها ، وان بعض الذين ارتدوا بدعاية زعماء الكفار وتهويشهم واغرائهم ندموا ولما سنحت لهم الفرصة هاجروا وعادوا الى الاسلام . والمتبادر انهم هاجروا الى الحبشة وانضموا الى رفاقهم المهاجرين فيها .

ما تعرض له النبي عليه السلام وعشيرته من الاذى والضغط

ولقد كان النبي ﷺ وعشيرته الاقربين من جملة من تعرضوا للضغط والأذى أيضاً . وهذا غير ما كان زعماء المشركين يوجهونه إليه من تهم الجنون والكذب والافتراء والسحر والكهانة والشعر والتحدي . وفي الروايات حوادث عديدة فيها صور مشرقة من صمود النبي عليه السلام وصور مؤثرة بما كان يتعرض له هو وعشيرته من ضغط وأذى في سبيل الله واعلاء كلمته .

ففي سورة الانبياء هذه الآية :

(وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوءًا أَهْذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ كَاِفِرُونَ ٣٦)

وفي سورة الفرقان آية قريبة منها وهي :

(وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوءًا أَهْذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ٤١)

حيث يفيد التكرار تكرار هذه الصورة من الاذى .

ومما ذكره بن هشام^١ عن ابن اسحق ان قريشاً كانت تسمي رسول الله ﷺ مذمماً - تحريفاً لحمد - ثم يسبونونه وان امية بن خلف كان شديد الهمز واللمز له وفيه نزلت سورة الهمزة :

(وَنِيلُ لِكُلِّ هُمْزَةٍ لَمْزَةٍ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ . يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ . كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ بِالْحُطَمَةِ ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ . نَارُ اللَّهِ الْمَوْقَدَةُ . الَّتِي تَطْلُعُ عَلَى الْأَفْقِدَةِ . إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ . فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ)
حيث احتوت رداً صاعقا يقذف بالحلم في وجه هذا الطاغوي .

وبما رواه ابن هشام ^١ ان زعماء قريش جاؤوا الى ابي طالب عمه وقالوا له ان ابن اخيك سب آلهتنا وعاب ديننا وسفه احلامنا وضلل ابناؤنا فإما ان تكفه عنا أو تخلي بيننا وبينه . فانك على مثل ما نحن عليه من خلافة . فردهم رداً جميلاً . ثم جاؤوا اليه ثانية وقالوا له هذا عمارة بن الوليد أنهد فتى في قريش واجمله فخذ فلك عقله ونصره واتخذ ولدًا واسلم اليها ابن اخيك الذي خالف دينك ودين آبائك وفرق بجاعة قومك وسفه احلامهم فانما هو رجل برجل فقال لهم بشس ما تسوموني عليه أسلمكم ابني تقتلونه واغزو لكم ابنكم ^٢ . و جاؤوا إليه ثالثة فقالوا له انا قد استهيناك من ابن اخيك فلم تنه عنا ولن نصبر على شتم آبائنا وتسفيه احلامنا وعيب آلهتنا فاما ان تكفه عنا او ننازلك واياء حتى يهلك احد الفريقين فبعث ابو طالب للنبي ﷺ فحكى له قول الزعماء ثم قال له فابقي علي وعلى نفسك ولا تحملي من الأمر ما لا أطيق . فظن رسول الله ﷺ ان قد بدا لعمه فيه وانه خاذله ومسلمه وانه قد ضعف عن نصرته والقيام معه فقال له يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على ان اترك هذا الأمر حتى يظهره الله او أهلك ما تركته ثم استعبر وبكى فقال له عمه يا ابن اخي قل ما احببت فوالله لن اسلمك ابداً ^٣ . ثم دعا بني هاشم وبني المطلب وطلب منهم منع رسول الله والقيام دونه فأجابوه إلى ما دعاهم وشذ ابو لهب عن الاجماع ^٤ .

وبما رواه ابن هشام ^٥ ان عتبة ابن ابي معيط جلس الى النبي عليه السلام يستمع منه فبلغ ذلك ابياب بن خلف فأتاه فقال له : وجهي من وجهك حرام ان انت جلست اليه واستمعت له ثانية وان أنت لم تأته فتتفل في وجهه ففعل عدو الله وكان هذا من اشد الأذى الذي وقع على النبي عليه السلام ، وهو الذي عني في آية الفرقان هذه (ويوم يعرض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا) -

(١) ج ١ ص ٢٨٤-٢٨٥ (٢) ج ١ ص ٢٨٥ ابن هشام (٣) ٢٨٤-٢٨٥

(٤) ٢٨٧ (٥) ج ١ ص ٣٨٧

كذلك مما رواه ان ابا هب والحكم بن العاص وعقبة ابن ابي معيط كانوا جيرانا لبيت النبي عليه السلام فكانوا يطرحون عليه رحم الشاة وهو يصلي ومنهم من كان يطرحها في قدره اذا نصبت^١.

ومما رواه ابن هشام^٢ ان اشراف قريش اجتمعوا يوماً في الحجر (فناء الكعبة) فقالوا ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من امر هذا الرجل قط وقد صبرنا منه على امر عظيم . وبينما هم في كلامهم جاء النبي الى الكعبة فاستلم الركن ثم طاف فلما مر بهم غمزوه ببعض القول فكظم غيظه واستمر في طوافه فلما مر بهم ثانية غمزوه فكظم غيظه واستمر في طوافه فلما مر بهم ثالث مرة غمزوه فوقف وقال أتسمعون يا معشر قريش . اما والذي نفسي بيده لقد جئتكم بالذبح . فأخذت القوم كلمته حتى ما منهم رجل إلا كأنه على رأسه طائر حتى ان اسدهم فيه وصاة قبل ذلك ليرفؤه بأحسن ما يجد من القول ويقول له انصرف يا ابا القاسم فوائه ما كنت جهولاً . ثم اجتمعوا في الغد فقال بعضهم لبعض لقد بادأتموه فبادأكم بما تكرهون فتركتموه . فبينما هم كذلك اذ طلع عليهم فوثبوا اليه وثبة رجل واحد وأحاطوا به يقولون انت الذي تقول كذا وكذا في عيب آهتنا وديننا فقال لهم نعم أنا فتقدم واحد منهم فأخذه بجميع رداءه فقام ابو بكر رونه وهو يبكي ويقول أقتلون رجلاً ان يقول ربي الله ثم انصرفوا عنه وكان هذا أشد ما نالته قريش من النبي عليه السلام كما قال ابن هشام . وقد رجع ابو بكر رضي الله عنه وقد صدعوا فرق رأسه مما جبدوه بلحيته وكان رجلاً كثير الشعر^٣.

ومما رواه كذلك : ان ابا جهل قال في مجلس من مجالس قريش يا قوم ان محمداً ابني إلا ما ترون من عيب ديننا وشم آباءنا وتسفيه أحلامنا وسب آهتنا واني اعاهد الله لأجلسن غداً

(١) ج ٢٠ ص ٢٥ (٢) ج ١ ص ٣٠٩-٣١٠

(٣) ج ١ ص ٣٠٩-٣١٠ من المصنف الذي يروي هذه الصور من الاذى يروي ايضاً (انظر الجزء الثاني ص ٢٥-٢٦ مطبعة مصطفى الحلبي) ان سفياً التي تراباً على رأس النبي عليه السلام فقال (ما نالت قريش مني شيئاً اكراهه حتى مات ابو طالب) حيث ينقض هذا تلك الروايات . ويسوع القول ان كل ما كان من قريش قبل موت ابي طالب هو الغنم على هذا وعشيرته والسخرية والتكذيب وتوجيه تهم الكذب والافتراء والسحر والشعر والكهانة والجنون وربما شيء من الشائهم والهمز واللامز

(١) ج ١ ص ٣١٩-٣٢٠

مجهز ما اطبق حملاه فاذا سجد في صلاته فضخت به رأسه فاسلموني عند ذلك او امنعوني فليصنع بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم قالوا والله لا نسلمك لشيء أبداً فامض لما تريد . فلما أصبح ابو جهل اخذ حجراً كما وصف ثم جلس ينتظر رسول الله . وغدا رسول الله كما كان يغدو وقام يصلي فلما سجد احتمل ابو جهل الحجر واقبل نحوه حتى اذا دنا منه رجع منهزماً منتقها لونه مرعوباً قد يبست يدها على حجره حتى قدمه وقام اليه رجلاً قریش يسألونه ما باله فقال لما دنوت منه عرض لي دونه فحل من الابل والله ما رأيت مثل هامته ولا مثل قصرته (عنه) ولا أنباه لفحل قط فيهم أن يأكلني . وقد روينا قبل رواية قريبة من هذه حينما هم ابو جهل ان ينفذ بيننا له بوطء عنق النبي عليه السلام ان عاد فصلى بعد ان نهاه عن الصلاة . وهذا وذاك في نطاق قدرة الله بدون ريب .

اسلام حمزة وعمر رضي الله عنهما واثروه



وبما رواه ابن هشام ايضاً ان ابا جهل مر برسول الله عند الصفا فأذاه وسخفه وقال فذهب بعض ما يكره من العيب لدينه والتضعيف في امره فلم يكلمه ثم انصرف عنه . وكانت مولاة لعبد الله بن جدعان شاهدة سامعة . ورأت في هذه الاثناء حمزة عم النبي فقالت له يا ابا عمار لو رأيت ما لقي ابن اخيك آتفاً من ابي الحكم بن هشام وقصت عليه ما سمعت ورأت فاحتمل حمزة الغضب فخرج يسعى ليوقع بأي جهل إذا لقيه ودخل المسجد فرآه جالساً فأقبل نحوه حتى إذا قام على رأسه رفع القوس فضربه بها فشجه شجة منكراً ثم قال أتشتمه وانا على دينه أقول ما يقول . فرد علي اذا استطعت فقام رجال من بني مخزوم لينصروا ابا جهل فقال لهم دعوه فاني والله قد سببت ابن اخيه سبا قبيحاً . ومنذئذ انضم حمزة رضي الله عنه الى صف النبي ايماناً بعد ان كان في صفه عصبية . فكان ذلك مما اعز الاسلام وجعل قريشاً يكفون عن بعض ما كانوا ينالون به النبي ﷺ

وانقد كان اسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه مما اعز الاسلام ايضاً حتى لقد روي عن ابن مسعود انه قال ما كنا نصلي عند الكعبة حتى اسلم عمر .

ولقصة اسلام عمر صلة بموضوع أذى المؤمنين وأذى رسول الله وفيها عبرة وصورة
خطيرة من العهد المكي .

وبما رواه ابن هشام في صدد ذلك ان احد المؤمنين وكان يكتم ايمانه لقي عمر فقال له
الى اين فقال اريد هذا الصايء « ويعني النبي » الذي فرق امر قريش وسفه احلامها وعاب
دينها وسب آلهتها فأقتله فقال له والله لقد غرتك نفسك يا عمر اترى بني عبد مناف تاركيك
أفلا ترجع الى أهل بيتك فتقيم امرهم . فسأله واي اهل بيتي قال خنتك وابن عمك سعيد بن
زيد واختك فاطمة فقد والله أسما وتابعا محمداً . فرجع عمر غامداً إلى أخته وخنته وعنده
خباب بن الارث معه صحيفة فيها سورة طه يقرئها إياها فلما سمعوا حس عمر تغيب خباب في
مخدع واخذت فاطمة الصحيفة فجعلتها تحت فخذهما وكان عمر قد سمع قراءة خباب فلما
دخل قال ما هذه الغيسة التي سمعت . لقد أخبرت أنكما تابعتا محمداً على دينه وبطش بخنته
فقامت اليه اخته لتكفه فضرها فشجها فلما فعل قالت له اخته وخنته نعم لقد آمنابالله ورسوله
فاصنع ما بدا لك . فلما رأى عمر ما بأخته من الدم ندم وارعوى وقال لها اعطني هذه
الصحيفة التي سمعتمكم تقرؤون آنفا حتى انظر ما هذا الذي وجاء به محمد فامتعت حلف لها
ليردنها إذا قرأها قالت له انك نجس على شركك وانها لا يمسا إلا الطاهر فقام عمر فاغتسل
فأعطته الصحيفة فلما قرأ من سورة طه صدراً قال ما احسن هذا الكلام وأكرمه . فلما سمع
ذلك خباب خرج اليه فقال له والله اني لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه فأني
سمعتك امس يقول اللهم أيد الاسلام بأبي الحكم ابن هشام او بعمر بن الخطاب فقال له عمر
فدلني يا خباب على محمد حتى آتيه فأسلم فأخذه حتى إذا طرقا الباب سمع من في الداخل صوت
عمر فقالوا يا رسول الله هذا عمر متوشحاً بالسيف فقال حمزة ائذن له فان جاء يريد خيراً
بذلناه له وان جاء يريد شراً قتلناه بسيفه فأذن له ونهض رسول الله حتى لقيه في الحجرة فأخذ
بجميع رداءه وجذبه جذبة شديدة ما جاء بك يا ابن الخطاب فوالله ما أرى ان تنتهي حتى
ينزل الله بك قارعة فقال عمر يا رسول الله جئتك لأؤمن بالله وبما جاء من عند الله ورسول
الله فكبر رسول الله تكبيرة عرف اصحابه منها ان قد أسلم . وعرف المسلمون وقريش ان
الاسلام قد اعتز باسلامه كما اعتز باسلام حمزة قبله رضي الله عنهم^١ .

ومها بدا على الرواية فنحن لا نرى ذلك مانعاً لصحتها في جملتها لانها متسقة مع ظروف
الاحوال .

(١) ابن هشام ج ١ ص ٣٦٨-٣٧١

المقاطعة التي أعلنها زعماء قريش ضد عشيرة النبي صلى الله عليه وسلم

ونعود بعد الاستطراد لموضوع الأذى ضد النبي ﷺ وعشيرته فنقول إن من أهم أحداث ذلك المقاطعة التي أعلنها زعماء قريش على عشيرة النبي الأقرين حينما أعياهم أمره ورأوه مستمراً في دعوته ورأوا عشيرته قائمة على نصرته والدفاع عنه حيث ائتمروا فاتفقوا على كتابة وثيقة عرفت بالصحيفة تعهدوا فيها بأن لا يزوجوا بني هاشم وبني المطلب ولا يتزوجوا منهم ولا يبيعوهم ولا يبتاعوا منهم وعلقوا الصحيفة في جوف الكعبة تأكيداً للأمر على أنفسهم . وكان ذلك من أشد الضربات التي وجهت للنبي وعشيرته الأقرين . وقد انحاز بنو هاشم وبنو المطلب إلى أبي طالب فدخلوا شعبه وتضامنوا معه وشذ عنهم أبو لهب . وقد استمرت المقاطعة سنتين في رواية وثلاثاً في رواية حتى جهدوا ولم يصل إلى أحد شيء إلا سرّاً ممن أراد حلّتهم ممن كان لهم رحم من قريش .

واقعد لقي أبو جهل ابن أخيه خديجة زوجة النبي ﷺ ومعه غلام يحمل قمحاً يريد به عمته فقال له أذهب بالطعام لبني هاشم والله لا تبوح حتى افضحك في مكة . فتصدى له أحد أقاربه من بني اسد وقال له مالك وماله اتمنعه من ابصال طعام إلى عمته فدفع الرجل وسيله فأبى فتلاسنا ونال أحدهما من صاحبه فأخذ الأسدى واسمه أبو البخثري لحي بعير فضرب به أبا جهل فشجه ووطأه وطأ شديداً . ثم مشى هشام بن عمرو وكان يمت في الحؤولة إلى بني مناف إلى زهير بن أبي أمية وكانت أمه بنت عبد المطلب فقال يا زهير أروضيت أن تأكل الطعام وتلبس الثياب وتنكح النساء واخوالك حيث علمت . أما إني أحلف بالله لو كان أخوال أبي الحكم بن هشام (يعني أبا جهل) ثم دعوته إلى مثل ما دعاك إليه منهم ما أجابك إليه . ثم اتفقا على السعي في نقض الصحيفة وانضم إليها المطعم بن عدي وزمعه بن الاسد وغدوا في يوم إلى المسجد وجاء زهير فطاف بالبيت ثم أقبل على الناس فقال يا أهل مكة أنا كل الطعام ونشرب الشراب ونلبس الثياب وبنو هاشم هلكت والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة المقاطعة الظالمة فقال له أبو جهل كذبت والله لا تشق فقال زمعة له أنت والله الكاذب فقال أبو البخثري صدق زمعة فقال المطعم صدقنا وكذب من قال غير ذلك نبهوا إلى أنه منها . فقال أبو جهل أمر قضي بليل . فم يعبأوا به وقام المطعم

الى الصحيفة ليشقها فوجد الارخة قد أكلتها إلا جملة (باسمك اللهم) فاتحتها . وبذلك انحصرت الغمة عن رسول الله ﷺ وعشيرته الاقربين . والطبري الذي ننقل عنه الخبر ذكر أن رسول الله عليه السلام لم يتوقف اثناء القطيعة عن الدعوة إلى سبيل الله سراً وجهرأ وآناء الليل واطراف النهار .

ولا يذكر الطبري وقت هذا الحادث بصراحة . ولكن سياقه يفيد انه كان بعد هجرة المؤمنين الى الحبشة . أي في السنة الخامسة او السادسة للبعثة .

ولقد ذكرت الروايات ان ابا طالب لم يلبث ان توفي بعد انحسار الغمة وكانت وفاته قبل الهجرة الى المدينة بثلاث سنين^٢ اي في السنة التاسعة للبعثة مما فيه تأييد للتخمين .

تفكير النبي عليه السلام بالهجرة الى الحبشة أيضاً

ولقد جاء في سورة الاسراء هذه الآية :

(وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِنْ لَا يَلْبَثُونَ خِلاَفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ۖ) (٧٦)

التي تفيد أن النبي ﷺ قد فكر في الهجرة هو ايضاً . ومن العجيب ان روايات السيرة لا تذكر ذلك مع ان دلالة الآية عليه صريحة . اما روايات التفسير فقد ذكرت^٣ ان اليهود في المدينة هيجوا النبي ﷺ وقالوا له ان الانبياء إنما بعثوا في الشام وإنه يجدر به ان يخرج اليها وإنه استعداد فعلا للخروج .

(١) ج ٢ ص ٧٤ - ٧٩ مطبعة الاستعانة سنة ١٣٥٧ - ١٩٣٩ . ولقد ذكر ابن هشام في الصحيفة ايضاً .

(٢) ج ١ ص ٣٧٥ - ٣٧٦ ويتفق مع الطبري حتى في العبارة . وقد نقلنا الخبر عن الطبري لأنه اوفى واكثر تسلسلاً .

(٣) انظر تفسيرها في كتب تفسير الطبري وابن كثير وغيرهما .

وبعض الروايات ذكرت ان الآية مدنية . واسلوها وانسجامها مع ما سبقها ولحق بها مضموناً وسبكاً لا يسمح بتصديق الرواية . والآيات السابقة لها تذكر مواقف الكفار بحيث يسوغ الجزم بان ضمير الجمع الغائب فيها عائد اليهم . والذي نرجحه او بالاحرى نكاد نجزم به استناداً الى هذه الآية ان النبي عليه السلام حينما اخذ اذى الزعماء وغطهم يشدان عليه بعد هجرة كثير من اصحابه من ابناء الأسر القرشية اعتزم هو ايضاً الهجرة ثم ثبته الله ليستمر في اداء مهمته في مرحلتها الأولى في بيئته . ولقد روي عن عائشة رضي الله عنها حديث جاء فيه ان اباها رضي الله عنه لما ابتلي المسلمون خرج مهاجراً نحو ارض الحبشة حتى بلغ برك الغماد وهو موضع وراء مكة مما يلي البحر فلقبه ابن الدغنة سيد القارة احدى القبائل المعروفة فقال ابن تربد يا ابا بكر فقال له اخرجني قومي فأريد ان اسبح في الارض واعبد ربي فقال له مثلك لا يخرج ولا يخرج . انك تكسب المعدوم وتصل الرحم وتحمل الكل وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق فأنا لك جار . ارجع واعبد ربك بيدك . فرجع وارتحل معه ابن الدغنة فطاف ابن الدغنة عثية في اشراف قريش وقال لهم ان ابن بكر لا يخرج مثله ولا يخرج . اخرجون رجلاً يكسب المعدوم ويصل الرحم ويحمل الكل ويقري الضيف ويعين على نوائب الحق فلم تكذب قريش بجوار ابن الدغنة الخ .)

ويلوح لنا ان ما جاء في هذا الحديث متصل بعزيمة النبي عليه السلام على الهجرة وظروفها ومؤيد لما قررناه .

فأبو بكر رضي الله عنه اكثر اصحاب رسول الله ملازمة وتصديقاً وتأيداً له . هو صاحبه في الغار والهجرة الى المدينة . فمن المحتمل ان يكون الاثنان قررا الخروج كل على حدته على ان يلتقيا في جدة ويبجران منها الى الحبشة . وقد ثبت الله رسوله فاستقر ثم لم يلبث صاحبه ان عاد فازداد استقراراً وطمأنينة .

جراحة قريش على أذى النبي بعد موت أبي طالب وذهابه إلى الطائف وعرض نفسه على القبائل

٥

ولقد قلنا إن أبا طالب لم يلبث أن توفي بعد شق الصحيفة . وكان ذلك في السنة الثامنة أو التاسعة للبعثة . وقد توفيت أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها في نفس السنة فكانت ضربتين سيديني الوقع على النبي عليه السلام . فبفقد عمه فقد زعيم عشيرته المدافع عنه الذي كانت العشيرة تحترمه وتتضامن معه في الدفاع والنصرة والذي كانت له الحرمة والمكانة في قريش أيضاً .

وبفقد زوجته فقد أعظم رفيق حنون مشجع ومثبت كاث له أقوى الأثر في استشهاده بأهدوء والطمأنينة وتفرغه لرياضاته الروحية ثم في الظروف العصيبة التي ما فتىء يواجهها في مختلف ادوار عهد نبوته في مكة . وقد قال ابن هشام^٢ إن قريشاً نالت من رسول الله من الأذى بعد هلاك أبي طالب ما لم تطمع به في حياته . وكان هذا ما قاله النبي عليه السلام على ما رواه حيث روى أن سفيهاً من قريش نثر التراب على رأسه فعاد إلى البيت والتراب عليه فقامت إحدى بناته تغسله عنه وهي تبكي فقال لها لا تبكي يا بنية فإن الله مانع أباك ثم قال (ما نالت مني قريش شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب .

ويروي ابن هشام^٣ بعد هذا أن النبي عليه السلام خرج إلى ثقيف في الطائف رجاء هدايتهم والحصول على نصرتهم ومنعتهم . وقد اجتمع إلى زعماء الطائف وساداتها وهم عبد باليل بن عمرو بن عمير وأخويه مسعود وحبيب فتحدث معهم ودعاهم إلى الله وطلب منهم النصرة على قومه فسخروا منه وكذبوه وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونهم ويصيحون به ويحبسونهم حتى ألبأوه إلى حائط لعتبة بن ربيعة وأخيه شيبه فعمد إلى ظل جلة من عنب فجلس فيه . واخذ يناجي ربه ويشكو إليه ضعفه وحزله ويطلب منه العون والرضاء فلما رأى

(١) و (٢) ابن هشام ج ٢ ص ٢٥ — ٢٦

(٣) ٢٨ — ٣١ ج ٢

(٤) كانوا يسمون بسائيتهم بالحائط لأنهم كانوا يقيمون حولها سوراً أو حائطاً . وعنه وشبهه من

أشراف قريش .

ابن ربيعة ما لقيه تعرّكت رحمتهم فأمرأ غلاماً لها اسمه عداس بأن يضع قطيفاً من العنب على طبق ويقدمه اليه . فلما فعل قال رسول الله باسم الله قبل ان يديده ويأكل منه فنظر اليه عداس وقال هذا كلام لا يقوله اهل هذه البلاد فسأله عن بلده فقال له انا نسراني من اهل نينوى فقال له قرية الرجل الصالح يونس بن متى فقال له وما يدريك به قال ذلك اخي هو نبي وانا نبي . فاكتب عداس على رأسه ويديه وقدميه يقبلها . فلما رجع قال له سيده ما لك فعلت كذلك فقال لها ما في الارض خير منه لقد اخبرني بأمر لا يعلمه الا نبي فحذراه وقالوا له دينك خير منه .

وغادر الطائف يائساً فأراد الله تعالى تعزيته فصرف اليه نفرأ من الجن يستمعون القرآن ويعلمون إيمانهم به ويعودون الى قومهم مبشرين منذرين واخبره بذلك في آيات سورة الاحقاف هذه :

(وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ . قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ . يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجْزِيَكُمْ مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ٢٩ — ٣١) .

فكان في ذلك تعزية كبيرة له . فإذا كان مشركو العرب يكذبونه ويؤذونه فالجن الذين هم اقوى منهم واعى يؤمنون به .

ولم يجرأ على دخول مكة بدون جوار فأرسل رسولا الى الاخنس بن شريق يسأله عما إذا كان يجيره حتى يبلغ رسالة ربه فاعتذر فأرسل الى سهيل بن عمرو فاعتذر فأرسل الى المطعم بن عدي فأجاب ثم لبس سلاحه هو وبنوه وبنو اخيه فدخلوا المسجد فلما راه ابر جهل قال له ايجير ام متابع قال بل يجير قال قد اجرنا من أجرت . فأرسل الى النبي عليه السلام ان انت مكة وادع الى ربك وما يرويه الطبري الذي نقل عنه هذا الخبر ان

النبي عليه السلام دخل يوماً المسجد بعد ذلك والمشركون عند الكعبة فلما رآه أبو جهل قال هذا نبيكم يا بني عبد مناف فقال عتبة بن ربيعة وما تنكر ان يكون من انبي او ملك فسمع النبي المحاورة فأتاهم فقال لعتبة اما انت فوالله ما حميت الله ولرسوله ولكن حبت لانتك . واما انت يا ابا جهل فوالله لا يأتي عليك غير كبير من الدهر حتى تضحك قليلاً وتبكي كثيراً . واما انتم يا معشر المأ من قريش فوالله لا يأتي عليكم غير كبير من الدهر حتى تدخلوا فيما تنكرون وانتم كارهون .

ولقد اخذ النبي عليه السلام بعد ذلك يعرض نفسه على العرب في المواسم ويطلب منهم متابعتة ونصرتة . ومن عرض نفسه عليهم على ما رواه ابن هشام^١ جماعة من قبيلة كندة وجماعة من بني كلب وجماعة من بني حنيفة وجماعة من بني عامر وجماعة من بني الاشهل من الاوس . وكان ابولهب يجري وراءه كلما جاء الى منزل من منازل العرب ويحذوهم منه . فكان منهم من يكتفي بالاباء ومنهم من يرد عليه رداً قبيحاً . وما روي في سياق ذلك ان زعبا من بني عامر بن صعصعة قال لقومه لو اني اخذت هذا الفتى من قريش الاكلت به العرب ثم قال له ارايت ان تابعناك ثم اظهرك الله على من خالفك أيكون لنا لامر من بعدك فأجابته ان الامر الى الله يضعه حيث يشاء .

اتصال النبي عليه السلام بجماعة من الخزرج وتلاحق الاتصالات بعد ذلك ومبايعة الأوس والخزرج للنبي

وفي الموسم السابق للهجرة بسنتين عرض نفسه على نفر من الخزرج من اهل يثرب وكانوا يسمعون من اليهود ان نبياً سيعث من العرب ويكونون حزباً معه على العرب^٣ .

(١) ج ٢ ٣١ — ٣٣

(٢) هذه النبذة الى آخر الفصل مقتبس مقطعا من ابن هشام ج ٢ ص ٣٨ — ٥٥

(٣) الى هذا اشارت آيات في سورة البقرة وهي تندد باليهود لكفرهم بالنبي والقرآن بغيا وغيظا وهي (وجاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين . بشوا اشتروا به انفسهم ان يكفروا بما انزل الله بغيا ان ينزل من فضله على من يشاء من عباده فباؤوا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين ٨٩ — ٩٠) ومعنى يستفتحون يتبجحون ويزهون

فلما سمعوا كلام النبي وآيات القرآن التي تلاها عليهم قالوا لبعضهم انه للنبي الذي توعدكم به يهود فلا يسبقنكم اليه فقبلوا دعوته وحدقوه ثم قالوا له انا تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم وعسى ان يجمعهم الله بك وسنحدثهم فان يجمعهم الله على دينك فلا رجل أعز منك . وكان هؤلاء ستة أشخاص وهم أبو أمامة أسعد بن زرارة وعوف بن الحرث من بني النجار - وهما من احوال والد النبي عليه السلام وجده - ورافع بن مالك من بني زريق وقطبة بن عامر من بني سواد وعقبة بن عامر من بني حرام وجابر بن عبد الله من بني عبيد رضي الله عنهم وارضاهم حيث كانوا أول الرعيل الأول من اهل المدينة الذين شرح الله صدرهم للإسلام وحملوا مشعل الهداية وحشوا قومهم على الاستجابة ونجحوا وحيث ثبت بهذا مزة اخرى ما في الدعوة من قوة عناصر الاستجابة حينما يسمعون من تجرد من الهوى والمآرب والمكايبة ورغب في الحق والهدى .

ولما قدموا الى المدينة ذكروا لقومهم ما كان ودعواهم الى الاسلام فأخذوا يستجيبون بيسر وسهولة حتى لم يبق دار إلا وفيها ذكر من رسول الله .

فلما كان العام التالي جاء وفد من المدينة مؤلف من اثني عشر رجلا من الأوس والخزرج معاً وهم أسعد بن زرارة وعوف ومعاذ أبناء الحرث بن رفاعة من بني النجار ورافع بن مالك وذكوان بن عبد قيس من بني زريق وعبادة بن الصامت ويزيد بن ثعلبة من بني عوف والعباس بن عباد من بني سالم وعطبة بن عامر من بني سلمة وقطبة بن عامر من بني سواد وجميعهم من الخزرج ثم ابو الهيثم مالك بن التيهان وعويم بن ساعدة من بني عبد الأشهل من الأوس رضي الله عنهم فالتقوا بالنبي عليه السلام بمكان عرف بالعقبة وبايعوه على ان لا يشركوا بالله شيئاً ولا يسرقوا ولا يزنوا ولا يقتلوا اولادهم ولا يأتوا بيهتان يفترونه بين أيديهم وأرجلهم ولا يعصوا النبي عليه السلام في معروف^١ ثم تواعدوا للعام المقبل .

وهذا أول عقد سياسي ديني عقد في الاسلام بين النبي عليه السلام وبين وفد يمثل قبيلتي

(١) عرفت صيغة هذه البيعة بيعة النساء لأن الله امر النبي ببيعة النساء عليه كما جاء في آية سورة الممتحنة هذه (يا ايها النبي إذا جاءك المؤمنات يبائعنك على ان لا يشركن بالله شيئاً ولا يسرفن ولا يزنين ولا يقتلن اولادهن ولا يأتين بيهتان يفترنه بين ايديهن وارجلهن ولا يعصينك في معروف فبايعهن واستغفر لهن الله إن الله غفور رحيم ١٢) وهكذا ثبت الله هذه الصيغة التي بايع وفد يثرب بها في القرآن .

الخزرج والأوس وأول نصر سياسي ديني سجلته الدعوة الإسلامية ودخلت به في عهد جديد وانفتح لها به باب تحقيق الوعد الذي وعده الله رسوله بالنصر والتأييد .

وقد بعث الرسول عليه السلام معهم مصعباً بن عمير بن هاشم بن عبد مناف ليقرئهم القرآن ويعلمهم الاسلام ويفقههم في الدين . وانزله اسعد بن زرارة احد زعماء الخزرج من بني النجار في بيته فكان هذا البيت المبارك أول مركز للاسلام في عهده الجديد .

ولا نستبعد ان يكون النبي عليه السلام قد اختار مصعباً لقربته اللاحقة حتى يكون وكيله ومندوبه اسوة بما خناه من انتدابه لجعفر بن ابي طالب ليكون مندوبه ووكيله في دار الهجرة الأولى في الحبشة .

والروايات تذكر أن اسعد بن زرارة رضي الله عنه أول من اقام صلاة الجمعة جماعة في يثرب بعد عودته فكان في ذلك صورة اخرى من صور تدشين العهد الجديد .

واخذ مصعب رضي الله عنه ينشط في سبيل نشر الاسلام وتعميمه بتأييد اسعد بن زرارة . وكان الحظ حليفاً لها في نشاطها فاخذ الاسلام يعم وينتشر بين الأوس والخزرج بسهولة ويسر . وبما كان ذا اثر في ذلك اسلام أسيد بن خضير وسعد بن معاذ زعمي الأوس رضي الله عنها الذي رواه ابن هشام في حديث طويل شيق حيث تابعتها قبيلتها برمتها تقريباً .

وبعثة العقبة التي ذكرناها قبل عوفت بالعقبة الاولى او الصغرى لانه اعقبها في العام المقبل والاخير من العهد المكّي بيعة اخرى عرفت بالكبرى حيث خرج وفد كبير عدته ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان منهم من الأوس ثلاثة عشر والباقيون من الخزرج فالتقى بهم النبي عليه السلام حسب الموعد في العقبة . وكان معه عمه العباس الذي كان ما يزال على دين قومه واحب ان يحضر امر ابن اخيه ويتوثق له . فلما جلسوا قال العباس يا معشر الخزرج - والكلمة تشمل الأوس ايضاً على ما اوضحه ابن هشام - إن محمداً منا حيث علمتم وقد منعناه

(١) كان مصعب من المهاجرين الاولين الى الحبشة وعاد إلى مكة حينما عاد هؤلاء للمرة الاولى على ما شرحناه في نبذة الهجرة إلى الحبشة . وانظاهر من هذه الرواية انه بقي في مكة إلى جانب النبي عليه السلام وهو من عشرته الاقربين ولم يرجع إلى الحبشة ثانية

من قومنا بن هو على مثل رأينا فيه . فهو في عز من قومه ومنعة في بلده . وقد أبى الا
الانحياز اليكم واليهوق بكم فان كنتم ترون انكم وافون له وما نعوذ فانتم وما تحملمتم من
ذلك والا فدعوه فانه في عز ومنعة .

فقالوا قد سمعنا فتكلم يا رسول الله وخذ لنفسك ولربك ما احببت . فتكلم وتلا
القرآن ثم قال ابا يعكم على ان تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وابناءكم .

فأخذ البراء بن مسرور رضي الله عنه احد زعماء الخزرج بيده ثم قال نعم يا رسول الله
والذي بعثك بالحق لنمنعنك مما تمنع منه أزونا فبايعنا يا رسول الله فنجح والله اهل الحروب
راهن الجنة ورثناها كبراً عن كبر . وقام ابو الهيثم فقال يا رسول الله إن بيننا وبين اليهود
حبالا وإننا قاطعوها فهل عسيت ان نحن فعلنا ذلك ثم اظيرك انه ان ترجع الى قومك وتدعنا .
فتبسم رسول الله ثم قال (بل الدم الدم . والهدم الهدم . انا منكم وأنتم منى احارب من
حاربتم واسلم من سالمتم) ثم طاب منهم تسمية اثني عشر شخصاً ليكونوا نقباء على قومهم
فسموا له تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس وهم من الخزرج اسعد بن زراره وسعد بن
الربيع وعبد الله بن رواحه ورافع بن مالك والبراء بن معرور وعبد الله بن عمر وعباد
بن الصامت وسعد بن عباد والمندر بن عمرو . ومن الأوس اسيد بن خضير وسعد بن
خيشمة ورفعة بن المندر او ابو الهيثم على اختلاف في الرواية رضي الله عنهم فقال لهم رسول
الله عليه السلام انتم على قومكم بما فيهم كفلاء ككفالة الخواريين لعيسى ابن مريم وانا
كفيل على قومي ويقصد المؤمنين منهم .

وبما روي في هذا السياق الشائق الخطير ان العباس بن عبادة الخزرجي قال يا معشر
الخزرج هل تدرون علام تباعون الرجل . انكم تباعونه على حرب الاحمر والأسود فان
كنتم ترون انكم اذا نهكت اموالكم مصيبة واشرافكم قتل اسلمتموه فمن الآن . فوالله
ان فعلتم فهو خزي الدنيا والآخرة . وان كنتم ترون انكم وافون له بما دعوتوه فخذوه
فهو والله خير الدنيا والآخرة .

قالوا فانا نأخذه على مصيبة الاموال وقتل الاشراف . فما لنا بذلك يا رسول الله
ان نحن وفينا . قال الجنة . فقالوا ابسط يدك فبايعوه . فكان ذلك العقد الاسلامي
الديني السياسي الثاني الذي وطد الاول على مقياس اوسع والذي وطد العهد الجديد للدعوة
الاسلامية بقوة اشد واشمل .

وجاء الى قريش من اخبرها بما جرى فاستشعرت بالجد والخطر وغدت جلتها الى منازل القوم وقالوا لهم انه قد بلغنا انكم جئتم الى صاحبنا تستخرجونه من بين اظهرنا وتبايعونه على حربنا . وانه والله ما من حي من العرب ابغض اليانا ان تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم . وظل المسلمون منهم ساكتين .

وانبرى المشركون يحلفون بأنه لم يكن من هذا شيء . وكلموا فيمن كلمهم عبد الله بن ابي سلول احد زعماء الخزرج - الذي صار زعيم المنافقين في العهد المدني - فقال لهم ان هذا الامر جسيم وما كان قومي ليتفوقوا عليّ بمثله وما علمته كان . فانصرفوا ولكنهم لم يلبثوا ان تأكدوا الخبر فخرجوا في طلب القوم فأدركوا سعد بن عبادته والمندر بن عمرو وكانا من النقباء وتمكنوا من اعتقال الاول واقلت الثاني .

وقد قيدوا يدي سعد واخذوه الى مكة وضربوه ضرباً مبرحاً حتى اشفق عليه احد المكيين فقال له ويحك اما بينك وبين احد من قريش جوار وعهد قال بلى كنت اجيراً لجير بن مطعم وللحارث بن حرب قال فاهتف باسمها ففعل فذهب الرجل اليها وقال ان رجلاً من الخزرج يضرب الآن بالأبطح يهتف باسمكما وهو سعد بن عبادته . قال اصدق فيما قال ثم جاءوا فخلصاه من ايدي معتقليه .

هجرة المؤمنين الأولين من مكة الى المدينة

وأذن رسول الله لأصحابه بالهجرة الى المدينة قائلًا لهم ان الله عز وجل قد جعل لكم اخواناً وداراً تأمنون بها فأخذوا يخرجون ارسالا حينما امكنهم ذلك . منهم من كان يخرج مع اهله ومنهم من كان يخرج بمفرده واكثرهم خرجوا مستخفين وقد تركوا اهلهم واموالهم مضحين بها في سبيل دينهم وربهم .

وكانوا يلقون عند اخوانهم من الأوس والخزرج الترحيب والعتوف . والى هذا المشهد الجليل . أشارت آيات سورة الحشر هذه :

(لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يُنْتَغُونَ

فَضَلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ .
وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا لَدَارَ وَالِإِيمَانِ مِنْ قَبْلِهِمْ يُجْزَوْنَ مِنْ هَاجِرٍ إِلَيْهِمْ وَلَا
يُجَادُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ
بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوَفِّ شَخَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٨ - ٩)

وكان هذا المشهد هو المثل الثاني الذي ضربه الرعيل الأول من المؤمنين في الهجرة في
سبيل الله ودينهم في ظل الراية الاسلامية . ولكنهم في هذه المرة كانوا في طريق العزة
والمنعة واعلاء كلمة الله .

استشعار قريش بالخطر وتأمرهم على النبي عليه السلام

وافلاته منهم وهجرته الى المدينة



ولقد بقي النبي عليه السلام متربصاً في مكة ليشرف على هجرة أصحابه منتظراً أمر ربه
للهجرة بدوره في الوقت المناسب . وقد اشتد شعور زعماء قريش بالجد والخطر فأخذوا
يتآمرون في أمر منع النبي من الهجرة حتى لا يتفاهم الخطب عليهم ويقعوا فيما حسبه من
خطر . فمنهم من قال احيسوه في الحديد واغلقوا عليه باباً انى أن يموت . ومنهم من قال
نخرجه من بين اظهرينا ومنهم من اقترح قتله من قبل جماعة مؤلفة من جميع اسر قريش
حتى يتفرق دمه ولا يقدر بنو عبد مناف على حربهم جميعاً ويروضون بالعقل اي الديسة
واستقر رأيهم اخيراً على هذا . والى هذه المؤامرات اشارت آية سورة الانفال هذه :

(وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ أَوْ يُقَتِّلُوكَ)

وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٣٠)

(١) بمعنى ليجبوك

ولقد كان زعماء قريش يظنون ان أمر محمد سوف يبقى خيقاً ضعيفاً نتيجة لموقفهم منه وحدهم عنه وملاحقتهم له بالكذب والسخرية والالتهام وملاحقته وملاحقة اصحابه بالأذى والاضطهاد وتأثيرهم على قبائل العرب التي كانت ترى في مكة أم القرى إماماً وأهلها أهله وأدري الناس به . حتى لقد كانوا يقولون انما هو شاعر فتربص به حتى يموت . فيموت أمره معه على ما حكته آية سورة الطور هذه (أم يقولون شاعر فتربص به ريب المنون ٣٠) بل ولقد رأوا بعد وفاة ابي طالب امارات ظنوها امارات الانبياء حينئذ يس منهم فذهب إلى الطائف فعاد منها خائباً ولم يجرأ على دخول مكة إلا بجوار ثم حينما عرض نفسه على القبائل فرفضوه وردوه ، فإذا هم يرونه يقوم بجرعة التفاف خطيرة فيتعاقد ويتعاهد مع قبيلتي الأوس والخزرج القويتين ، وقد توقعوا من هذه الحركة العواقب الوخيمة من حيث احتمال نجاح دعوته وانتشارها في العرب وسقوط هيبة مكة وإمامتها وأمنها ومنافعها ونشوب العداة بينهم وبين المدينة وهي على طريق قوافلهم التجارية .

ويلوح لنا من آية الأنفال ان السلطات الرسمية في مكة هي التي تولت المؤامرة . فاث حبسه لا يمكن أن يكون من غير عشيرته إلا من سلطة نفذة . ونرى في عبارة (ليخرجوك) أكثر من إلقاء الى خروج حر حيث روى ابن هشام ان مقترح اخراجه قال (نخرجه من بين أظهرنا وننفيه من بلدنا فإذا خرج فلانباي أين يدعب ولا حيث يقع ونكون قد فرغنا منه) لأنهم لو كانوا يقصدون هذا لما كان هناك محل المؤامرة عليه حتى يجسوه أو يقتلوه . ولا محل لعضبهم من تعاقده مع الأوس والخزرج ليخرج اليهم هو وأصحابه وعزيمتهم على منعه من ذلك . ونرى انهم أرادوا بالاخراج نفيه الى مكان لهم عليه سلطان يقيم فيه إقامة إجبارية تحت المراقبة .

ولقد اتدبوا القتبان الذين سينفذون مؤامرة الاغتيال . وصار هؤلاء يترصدون الرسول لاغتنام فرصة سانحة . ثم قرروا اقتحام البيت عليه في ليلة من الليالي وأنباء الله بذلك فأمر ابن عمه علياً رضي الله عنه الذي احتضنه مذ كان صبياً تحفيماً عن أبيه ١ وأسكنه عنده بالنوم مكانه والتسجي بيوت اخضر خضرمي كان يتسجى به وخرج في أول غداة الليل وأسمى الله أبصار المتربصين عنه . وحينما اقتحموا البيت وجدوا النائم في فراشه هو علي وان النبي محمد فلت منهم .

(١) انظر السيرة ج ٢ ص ٥٧ ٥٨

وذهب النبي عليه السلام في رواية^١ الى بيت ابي بكر رضي الله عنه فقال له ان الله قد أذن لي في الخروج والهجرة فقال ابو بكر الصحبة يا رسول الله قال نعم . وكأنت ابو بكر كلما اعتزم ان يهاجر صبره النبي قائلاً لا تعجل لعل الله يجعل لك صاحباً . فأشرق وجهه وبكى من الفرح ثم قال يا نبي الله هاتان راحلتان كنت اعددتيهما لهذا فاستأجرا دليلاً وساماً الراحلتين ثم عمدا الى غار في جبل ثور فدخلاه حتى يعيا على الناس وامر أبو بكر ابنه عبد الله بالتسمع للناس وإتيانها بالأخبار وامر مولاه وراعي غنمه عامراً بن فبيرة باراحة الغنم إذا امسى نحو الغار حتى يأخذا حاجتهما وامر بنته اسماء بأن تأتيهما بما يصاحبهما من الطعام ولبنا في الغار ثلاثة أيام حتى اذا اطمانا بئاس قريش وانقطاع طلبها لهم ركبنا راحلتيهما وسارا على بركة الله . وقد سلك الدليل واسمه عبد الله بن ارقط بهما طريقاً وعرة شاقة وغير مألوقة فسكران في ذلك نجائهما . وبما جاء في سياق ابن هشام الذي نروي عنه ما تقدم ان ابا جهل جاء الى بيت ابي بكر فسأل ابنته عنه فقالت لا أدري فلطمها ثم ارسل من يلتمسها في شعاب مكة وبيادنا . وقد مر بعض هؤلاء بالغار حتى لقد تسلقه احدهم وشعر به ابو بكر رضي الله عنه فارتاب اسد الروع فقال له النبي عليه السلام لا تحزن ان الله معنا . وهذا مما حكاه القرآن في آية سورة التوبة هذه :

(إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٤٠)

وبما ترويه الروايات^٢ ان المتسلق عاد ادراجه وقال لأصحابه لا يمكن ان يكون في الغار احد فقد وجدت العنكبوت معشاً عليه من قبل مولد محمد وهناك حمامتان بائضتان عند مدخله . وليس في هذا شيء خارج عن قدرة الله الذي شاء نجاة رسوله واهله دينة .

(١) هناك رواية اخرى رواها الطبري (ج ٢ ص ٩٩) جاء فيها ان النبي ذهب من داره حينما خرج الى جبل ثور مباشرة ووصى علياً باخبار ابي بكر بذلك ليحقق به .
(٢) انظر طبقات ابن سعد ج ١ ص ٢١١-٢١٤

ومما ذكره ابن هشام^١ ان قريشاً جعلت لمن يرد محمداً مئة ناقة وان شخصاً اسمه سراقه ابن مالك طمع في الجائزة فخرج على فرس له يلتصقه مع صاحبه فأخذت فرسه تتعثر مرة بعد مرة حتى أدرك ان الله مانع رسوله فغير نيته ثم ادرك الراكب واعلنهم انه لا يريد منهم شراً وطلب منهم عهداً يحتفظ به فكتب له ابو بكر ما طلب باذن من النبي عليه السلام ولم يلبث المؤمنون في المدينة ان عرفوا بأمر خروج النبي عليه السلام فصاروا يتوكفون قدومه في ظاهر الحرة يوماً الى ان طلع عليهم ركبته في مساء يوم . وكان أول من رآه رجس من اليهود فصاح بأعلى صوته يا بني قيلة^٢ هذا جدكم قد جاء . وكان ذلك للثمان خلون من ربيع الأول وقيل كان دخوله يوم الجمعة لاثنتي عشرة من هذا الشهر .

وبهجرة النبي عليه السلام الى المدينة انفتح باب العهد الاسلامي الجديد الذي توطد فيه دين الله توطيداً نهائياً فكانت ابرك احداث التاريخ الاسلامي الأول بعد ليلة القدر التي نبي فيها النبي ونزل عليه وحى الله بالقرآن .

الكتابيون في العهد المكي وموقفهم من البعثة النبوية



هناك روايات عديدة تحتوي اسماء عدد من الكتابيين كانوا في مكة قبل بعثة النبي عليه السلام وبعدها . وهناك آيات عديدة فيها اشارات الى ذلك .

والمستفاد من هذه وتلك ان الكتابيين في مكة لم يكونوا كتلة كبيرة او متماسكة . فبينما نرى في القرآن المدني فصولاً طويلة بين ما كان بين النبي عليه السلام واليهود الذين كانوا كتلة كبيرة من احتكاك وحجاج ولجاج لا نكاد نجد شيئاً من ذلك في القرآن المكي مما قد يكون فيه دلالة على ذلك .

والاسماء التي ذكرتها الروايات اسماء افراد كلهم او جلهم ارقاء . منهم جبرا ويسار الروميين غلامي ابن الحضرمي وكانا يثبتان بالحدادة وعائش غلام حويطب بن عبد العزى واناسطاس غلام صفوان بن امية وصهيب الرومي الذي كان ذا مال ونجار قبضي وشماس

(١) ج ٢ ص ١٠٢-١٠٣

(٢) قيلة احد اجداد الاوس والخزرج القدماء واراد بكلمة جدكم (حظكم)

رومي لم تذكر الروايات اسميهما . وذكرت كذلك أسماء بضعة أشخاص من أصل حبشي
جلهم أو كلهم أرقاء منهم بلال ووحشى وشقران وأنجشة والاسود وام ايمن . وقد سلكنا
هؤلاء في السلسلة اجتهداً منا بأنهم نصارى لأن النصرانية كانت فاسية في الأحباش^١ .

وفي سورة النحل آية تحكي قول الكفار ان رجلاً يعلم النبي عليه السلام وترد عليهم بأن
هذا الرجل اعجبى اللسان وهي هذه :

(وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّلسَانِ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ
أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ١٠٣)

حيث تفيد الآية ان من هؤلاء من كانوا حديثي العهد بالقدوم إلى مكة حتى كان بعضهم
ما يزال محتفظاً بلسنته أو لغته الأعجمية .

وقد لا تكون هذه الاسماء جميع من كان في مكة من الكتائبين . ولكن ظاهر الحال
يؤيد ما قلناه من انهم لم يكونوا كتلة كبيرة .

والأرجح الذي قد تؤيده الروايات ان اصحاب هذه الاسماء ورفاقهم الذين لم تذكرهم
الروايات كانوا نصارى . ولم تذكر الروايات غير اسم عربي واحد كان نصرانياً في زمن
بعثة النبي عليه السلام هو ورقة بن نوفل الاسدي ابن عم ام المؤمنين خديجة رضي الله عنها
الذي جاء اسمه في حديث عائشة رضي الله عنها عن بدء الوحي وأوردناه في مطلع الفصل الثاني
وقد ورد اسمه في سيرة ابن هشام في سياق الاسماء التي حذفت عن الشرك وعبادة الاوثان^٢
ثم في سياق ذكر تعذيب بلال رضي الله عنه حيث كان ير به وهو يعذب ويقول احد احد
فيقول احد احد والله يا بلال لم يقبل على معذبه أمية بن خلف فيقول احلف بالله لنن قتلتموه
على هذا لا تخذه حناناً^٣ ونرجح ان ورقة ليس العربي النصراني الوحيد .

وفي سورة الاحقاف آية تفيد انه كان في مكة اسرايليون ايضاً . وهي هذه :

(١) انظر تفسير البضاوي لآية النحل ١٠٣ وآية الفرقان ٤ وتفسير الخازن وابن كثير والطبرسي ايضاً
وانظر ابن هشام ج ١ ص ١٨٢ و ١٥٥ — ٢١٠ و ٢٩٦ و ج ٢ ص ٢٣ وابن هشام ج ٣ ص ٧٤ .
(٢) انظر ابن هشام ج ١ ص ٢٣٧
(٣) نفس الجزء ص ٣٤٠ . والمقصود من عبارة لا تخذه حناناً لاجل ان فيه مزارعاً للتبرك .

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ
بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَأَمَنْ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
الظَّالِمِينَ ١٠) ^١ .

والإشارة في الآية الى شخص واحد . ولكن هذا لا يمنع ان يكون الاسرائيليون في
مكة اكثر من شخص . ففي المدينة كتلة اسرائيلية كبيرة ونشطة على ما شرحناه في الجزء
السابق . ومن المعقول ان يتسرب منهم متسربون الى مكة للتعامل او الاستقرار . ولقد
جاء في سورة الشعراء المكية هذه الآية :

(أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ١٩٦) ^٢

وفي سورة النمل المكية هذه الآية :

(إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَنْقُضُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ
يَخْتَلِفُونَ ٧٦)

حيث تلهم هذه الآيات صحة ما قلناه . ولكن الاسرائيليين في مكة لم يكونوا على كل
حال كتلة كبيرة على ما يفيدته ظواهر الأحوال .

والقرآن المكي لم يحتو عفاً في مخاطبة الكتابيين نصراهم ويهودهم على السواء . فقد
احتوى قصة ولادة يحيى وعيسى عليهما السلام بأسلوب غير عنيف انطوى على انكار ان
يكون عيسى ابن الله وعلى اشارة الى ما كان من خلاف الاحزاب ^٣ . واحتوى آيات اخرى
فيها حكاية ما كان يدعو اليه عيسى عليه السلام من عبادة الله ومن كونه رسول الله
ومن كون الله ربه وربهم . ولا عنف فيها كذلك ^٤ . واحتوى آيات

(١) بعض الروايات تذكر ان هذه الآية المدنية . وسياقها وفحواها في صدد الحجاج مع كفار مكة مما
يجعل تلك الرواية موضع شك وتوقف .

(٢) وهذه الآيات تذكرها بعض الروايات انها مدنية . وما قلناه في صدد آية الاحقاف واردها بآية .

(٣) اقرأ آيات سورة مريم ١-٤٠ (٤) اقرأ آيات سورة الزخرف ٦٣-٦٥

فيها إشارة الى ما كان من اختلاف وتفرق الكتابيين بدون عنف ايضاً ١ واحتوى قصصاً عديدة ومتكررة مع شيء من الاختلاف في الاسلوب والبيان عن موسى عليه السلام وبني اسرائيل ذكر فيها ما كان من الاسرائيليين القدماء من انحراف وتعجز بأساليب غير عنيف كذلك ٢ .

ولقد احتوى القرآن المبكي الى هذا آيات عديدة انطوى فيها تقرير مواقفهم من الرسالة المحمدية والقرآن وجلها بل كلها ايجابية . منها ما استشهد فيه بأهل الكتاب وأهل العلم — الذين يتفق المفسرون على ان المقصود منهم أهل الكتاب ايضاً — بأسلوب يفيد ان شهادتهم ستكون ايجابية ٣ . ومنها ما حكى من فرحهم بما انزل الله على النبي عليه السلام ٤ ومنها ما حكى عليهم بأن القرآن منزل من الله بالحق ٥ ومنها ما حكى اتباعهم للنبي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل ٦ ومنها ما احتوى تقريراً بأنهم مؤمنون بالنبي والقرآن وحكاية لاعلانهم ذلك مع عدم مبالاتهم بالكفار الجاهلين الذين كانوا يعيبون عليهم او يسيئون اليهم بسبب ذلك ٧ . ومنها ما احتوى حكاية مشهد رائع من مشاهد خشوع فريق منهم حينما كان القرآن يتلى عليهم وسجودهم وبكاؤهم ٨ . ومنها آية احتوت خبر ايمان واحد من بني اسرائيل بالنبي والقرآن ٩ .

وهناك آية في سورة العنكبوت التي هي من اواخر السور المكية نزولاً جاء فيها :

(وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ٤٦)

وهي الوحيدة التي جاءت في هذا الفحوى . ولا يذكر المفسرون في صدها اي رواية او مناسبة وقد تكون هذه الآية من قبيل خطبة رسمها الله تعالى للنبي والمسلمين في مخاطبته أهل الكتاب بصورة عامة . وقد تكون احتوت واقعا اي ان يكون هناك فريق منهم

-
- (١) اقرأ آيات سورة الشورى ١٢—١٥ وآية سورة هود ١١٠ (٢) اقرأ آيات سورة الاعراف ١٣٨—١٦٢ وسورة طه ٧٩—٩٩ (٣) اقرأ آية سورة الرعد ٤٧ والانعام ٢٠ (٤) انظر آية سورة الرعد ٣٦ (٥) اقرأ آية سورة الانعام ١١٤ (٦) اقرأ آية سورة الاعراف ١٥٧ (٧) اقرأ آيات سورة النقص ٢—٥ (٨) اقرأ آيات سورة الاسراء ١٠٧—١٠٩ (٩) اقرأ آية سورة الاحقاف ١٠

امتنع عن الاندماج في الاسلام وكان يجادل ويحاجج . وإذا صح هذا فانه يكون بتأثير زعماء مكة الذين كانوا يبذلون كل جهد في الصد والمناوأة والتعطيل والتأليب . ولا يبعد ان يكون هذا الفريق من كان ملك يمين بعض الزعماء . على انه جاء في الآية التالية للآية هذه الآية :

(وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ ٤٧)

حيث احتوت تقريراً بأن الذين أوتوا الكتاب يؤمنون بالقرآن . وقد تؤيد هذه الآية ما ذهبنا اليه من احتمال ان تكون الآية الاولى خطية ربانية للنبي ﷺ والمسلمين . وفيها كل الحق والعدل . وقد تأيد هذا في آيات أخرى جاءت مطلقة لتكون خطة تجاه الناس جميعهم منها آيات سورة النحل هذه :

(ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُتَشَدِّينَ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ • وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ • إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ١٣٤-١٣٨)

والمبادر ان جملة (وَإِنْ عَاقَبْتُمْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ) تعني انكم إذا أردتم ان تقابلوا الجدال الشديد فلا تخرجوا عن نطاق ما فعله الذين تتجادلون معهم . والصبر مع ذلك خير وأحسن عاقبة ونتيجة ١ .

(١) روى بعض المفسرين ان الايات الثلاث الاخيرة مدنية نزلت بمناسبة بين حلفها النبي عليه السلام بأن يقتل ثلاثين في ثائرة عمه رضي الله عنه الذي استشهد في احد (انظر تفسيرها في تفسير ابن كثير مثلاً) والايات منسجمة مع الآية السابقة لها وتكاد تكون تعقيباً عليها ونتيجة لها . ولذلك نحن نتوقف في صحة الرواية ونرجح انها بقية الجملة الربانية وامل فعوى الايتين الاخيرتين يؤدي ما ذهبنا اليه اذا ما امعن فيه .

وواضح من كل ذلك ان جل الكتائين في مكة ان لم يكن كلهم قد آمنوا بالنبي عليه السلام والقرآن وأيدوهما ونصروهما واندجوا في المجتمع الاسلامي الجديد . وفي ذلك دلالة حاسمة على ان الكتائين الذين يتجددون من احقادهم ومظامعهم وآريهم وشهواتهم ومكابرهم يرون في الدعوة الاسلامية الحلول التي تنقذهم من مشاكلهم وعقدتهم فينضون إليها بطيبة خاطر . وهو ما وقع وما يزال يقع في كل ظرف ومكان على ما شرحناه في التمهيد .

تعليل لكثرة الآيات المكية في تثبيت النبي عليه السلام وتسليته



هذا وقبل ان نتقل إلى الفصل الثالث المعقود على سيرة النبي عليه السلام بعد الهجرة إلى المدينة نريد ان ننبه الى مسألة هامة . ففي السور المكية آيات لا تكاد تحصى^١ فيها تثبيت للنبي وتطمين وتسليّة وتبوين وأوامر بالخبر والصفح والانتظار وتنبية إلى انه ليس جبراً للناس ولا مسيطراً عليهم ولا مسؤولاً ووكيلاً عنهم وليس مطلوباً منه هدايتهم وليس عليه إلا التبشير والانذار وتلاوة القرآن وتبيان ما انطوى فيه من مبادئ وهدى ورحمة للعالمين .

وفي اعتقادنا ان ذلك لا يعني ان النبي عليه السلام كان مضطرب النفس جزوعاً قلقاً متودداً . فقد احتوى القرآن من الآيات واحتوت كتب الحديث والسيرة من الاحاديث والروايات ما فيه أقوى البراهين على ما كان عليه النبي من عظم الخلق وعمق الايمان وقوة الجنان والجرأة والثبات امام الخطوب والنوازل والاستغراق في مهمته ورسالته استغراقاً تاماً والفناء في ربه فناءً كاملاً . وكل ما هنالك ان الذين آمنوا به في العهد المبكي كانوا وظلوا قلة ضئيلة مستضعفة وكان هذا يجزؤه اشد الحزن لأنه كان شديد الحرص على هداية قومه وانتشار دعوته واحداث ما انطوت عليه من خطط اصلاحية عظيمة في مختلف أمور الدين والدنيا فاقنضت الحكمة الربانية موالاته بمثل تلك الآيات لتبث فيه القوة والصبر على المواقف العصيبة المستمرة التي كانت تتمثل في وقوف الاكثوية الساحقة من العرب موقف الجحود والصدام متابعة الزعماء وفي شدة لجاح وعناد هؤلاء الزعماء .

(١) لم ير ابراد امانة على ذلك فانها مبثوثة في كثير من الدور حتى لا تكاد سورة طوية او متوسطة او قصيرة إلا احتوت شيئاً من ذلك بأسلوب ما .

الفصل الثالث

السيرة النبوية في العهد المديني

الفصل الثالث

السيرة النبوية في العهد المدني

لقد امتد هذا العهد نحو عشر سنين جرى خلالها احداث متنوعة وكمل فيها نزول القرآن وتشريعاته ولم تنته حتى كمال دين الله عاماً في جزيرة العرب ومسبوع الصوت والأثر والدعوة في أطرافها والأقطار المجاورة لها . وتوطدت تحت لواء النبي عليه السلام الدولة العربية الإسلامية والمجتمع العربي الإسلامي الجديد . وكان تخلف عن النبي عليه السلام بعض المؤمنين في مكة فأخذوا يلحقون به ولم يتخلف إلا محبوس أو منتون ^١ .

وأخذ نزل أول قدومه في ضاحية قباء يومين ثم ارتحل إلى المدينة فبركت ناقته في محبة لبني النجار من الخزرج — وهم أخوال أبيه — فأخذ أبو أيوب خالد بن يزيد احدهم رحله إلى بيته فكان نزله ريثاً أنشأ مسجده ومسكنه ^٢ .

مسجد النبي عليه السلام ومسكنه

ولقد اعجبه أرض ليتيمين كانت مربداً فيها بعض القبور الجاهلية وبضع نخلات وخرب فاستراها بعشرة دنانير وأخرج رفات الموتى وسوى الأرض وأحاطها بجدار من ابن علي أساس من الحجارة . وكان الجدار مربع الاضلاع خلعه نحو مئة ذراع . وقد جعل له ثلاثة أبواب وسقف قسماً منه بالجريد وبنى في جانب منه حجرات من لبن سقفت بجذوع من النخل والجريد اتخذها مسكناً له ولزوجاته وكان يزيد فيها كلما تزوج زوجة جديدة . وجعل قسماً من الفناء لسكنى الفقراء الذين لا يملكون مساكن في المدينة . وقد تعاوت الأنصار والمهاجرون على البناء حتى تم ^٣ .

(١) ابن هشام ج ٢ ص ١١٦ (٢) نفس المصدر ١١٦ (٣) ابن هشام ١١٣—١١٥

وهكذا كان هذا البناء مسكناً له ومسجداً له ولاصحابه ومأوى للفقراء ومكاناً لاجتماعه
 باصحابه وعقد المجالس معهم للوعظ والارشاد والتعليم والمشاورة والقضاء والفتيا ولاستقبال
 الوافدين عليه سياسيين كانوا أم دينيين وعقد مجالس المناظرة والمفاوضة معهم وعقد المعاهدات الخ
 مما يمكن أن يعطي للمرء فكرة عما كان وعن ما ينبغي أن يكون عليه المسجد في الاسلام
 ومما نسج على منواله قليلاً أو كثيراً في كل وقت ومكان بقطع النظر عما دخل عليه من ضخامة
 وفخامة ورواء وزخارف ومظاهر من الداخل والخارج اقتباساً من الغير واتساقاً مع تطور
 السلطان الاسلامي والحياة الاسلامية التي تفاعلت مع غيرها .

الأذان ١



واحتاج المسلمون الى النداء الى الصلاة التي كانوا يؤدونها جماعة وراء رسول الله ﷺ في المسجد
 فألهمهم الله صيغة الأذان يبتف بها صوت جهوري من محل مرتفع فيكبر الله ويعلن أنه
 الاكبر من كل شيء ويشهد برسالة محمد ويدعو المسلمين إلى الصلاة والفلاح فكانت طريقة
 فذة في مداها ومعناها وأدائها .

المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار



وكان من أول ما فعله في مجال توطيد المجتمع الجديد مؤاخاته بين المهاجرين والأنصار
 على الحق والمواساة فدشن بذلك أساس مجتمع يقوم على عقيدة وحدة الله ونبذ ما سواه ثم
 على اكرم المبادئ الاجتماعية والخلقية والسلوكية وأفضلها دون العصبية القبلية التي كانت
 يقوم عليها المجتمع وتقاليدها ٢ .

وبما رواه ابن سعد ٣ دون ابن هشام في سياق ذلك ان المؤاخاة التي كانت تم بين

(١) ابن هشام ج ٢ ص ١٢٨-١٣٠

(٢) ابن هشام ج ٢ ص ١٢٣

(٣) ج ٢ ص ٣

رجل من المهاجرين ورجل من الأنصار كانت توجب التوارث بين المتأخين إلى أن نسخ ذلك بآية سورة الأنفال هذه (والذين آمنوا من بعدها وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله إن الله بكل شيء عليم ٧٥) وسورة الأنفال نزلت عقب وقعة بدر . فإذا حجت الرواية فيكون حكم الوراثة بين المتأخين استمر نحو سنة ونصف سنة . ومما ذكره ابن سعد أن عدد الذين آخى النبي عليه السلام بينهم تسعون نصفهم من المهاجرين ونصفهم من الأنصار وفي رواية أنهم كانوا مئة من المهاجرين وخمسين من الأنصار مع أن عدد المهاجرين والأنصار في أول أيام الهجرة كانوا أكثر من ذلك حتماً . وقد سمي ابن هشام^١ الذين آخى النبي بينهم ثم قال هؤلاء الذين سموا لنا ممن آخى رسول الله بينهم من أصحابه . ومما رواه ابن هشام أن النبي أخذ بيد علي بن أبي طالب فقال هذا أخي^٢ وروى هذا الخبر الطبراني في حديث وصف بعض رواة بالغدق^٣ ويبدو الخبر غريباً لأن المؤاخاة كانت لتوطيد الصلة الأخوية بين المهاجرين والأنصار . ونخشى أن يكون من غرائب روايات أو مصنوعات الشيعة مع اجلالنا لعلي ابن أبي طالب رضي الله عنه

كتاب الموادة او دستور المجتمع الجديد



ثم كتب النبي عليه السلام كتاباً سماه ابن هشام بكتاب الموادة بين المهاجرين والأنصار واليهود : مع أنه احتوى أحكاماً وشروطاً بالنسبة للمشركين والكفار في يثرب يستفاد من فحواها أنهم كانوا من جملة من تعلمهم الكتاب الذي يدل نصه على أن الإسلام كان هو الدين العام المتفوق في المدينة وأن النبي لم يكذب بل فيها حتى صار هو المرجع وصاحب الحكم والسلطان على جميع من فيها يحدد واجباتهم وحقوقهم ويضع كلاً منهم في موضعه من الدولة الجديدة الإسلامية التي قام على رأسها . والكتاب بذلك أولى أن يسمى دستور هذه الدولة .

فيموجب هذا الدستور أي نصوص الكتاب :

(١) ج ٢ ص ١٢٦

(٢) ١٢٤

(٣) مجمع الزوائد ج ٩ ص ١١١-١١٢

(٤) ابن هشام ج ٢ ص ١١٩-١٢٣

١ - النبي عليه السلام هو مرجع الناس وما اختلفوا فيه من شيء فمرده الى الله ورسوله والله ورسوله جار لمن بر واتقى .

٢ - المؤمنون المهاجرون والانصار معا جماعة واحدة على من بغى منهم أو ابتغى ظلماً أو أثماً أو عدواناً أو فساداً . يدهم عليه واحدة ولو كان ولد أحدهم . وبعضهم موالي بعض دون الناس . ذمتهم واحدة . وسلمهم واحد . يحير عليهم أديانهم . وبعضهم على بعض بمسا نال دماءهم في سبيل الله . وإذا اختلفوا في شيء فمرده الى الله ورسوله .

٣ - المهاجرون يتعاقلون بينهم ويفقدون عانيهم . وكل بطن من بطون الاوس والخزرج يتعاقلون بينهم ويفقدون عانيهم بالمعروف والقسط .

٤ - لليهود التابعين للمؤمنين النصر والاسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم . ومواليهم وبطانتهم كأنفسهم في ذلك . لهم دينهم وللمسلمين دينهم الا من ظلم وأثم وقتك قتيعة ذلك عليه وعلى اهل بيته ، وعليهم النصر مع المؤمنين على من حاربهم ، ويتفقون مع المؤمنين في الحرب . وعليهم النصح والنصيحة والبر دون إثم . ولا يخرج أحد منهم الا بإذن محمد .

٥ - ليس لمشرك في المدينة أن يحير مالا لقريش ولا يحول دونه على مؤمن . ومن قتل مؤمناً فعليه القود (القصاص) الا أن يرضى ولي المقتول . ولا يقتل مؤمن مؤمناً بكافر . ولا ينصر مؤمن كافرأ على مؤمن .

٦ - يثرب حرام جوفها على اهل هذه الصحيفة . والجار كالنفس غير مضار ولا آثم . ولا تجار حرمة الا باذن أهلها . وما كان بين اهل هذه الصحيفة من حرب أو اشتجار يخاف فسادة فمرده الى الله والى محمد . ولا تجار قريش ولا من نصرها . وبين اهل الصحيفة النصر على من دهم يثرب . وإذا دعوا الى صلح يصالحونه ويلبسونه فعليهم أن يفعلوا . وعلى المؤمنين ان يتقيدوا به الا ازاء من حاربهم في الدين . ومن خرج فهو آمن ومن قعد فهو آمن إلا من ظلم وأثم . وإن الله ورسوله جار لمن بر واتقى .

والمبتادر أن الدولة الجديدة قد اتسعت للمؤمنين والكتبايين والمشركين على السواء . وإن النبي عليه السلام اعتبرهم رعايا دولته فعين لهم حقوقهم وواجباتهم في نطاق الحق وعدم الظلم والاثم . وقد أنس غير المؤمنين ان ذلك وارتضوه . وهذا الوضع النموذجي الرائع قد استمر في ظل السلطان الاسلامي دائماً .

وليس في نص الكتاب إشارة ما الى النصارى مع أن هناك رواية^١ تذكر أنه كانت جماعة من النصارى يسكنون في مكان يقال له سوق النبط في يثرب وان بيتا من مرثية رثي فيها حسان بن ثابت رضي الله عنه النبي عليه السلام ذكر وجودهم وهذا نص :

فرحت نصارى يثرب ويهودها لما توارى في الضريح الملحد

والمبادر أن دستور الدولة الجديد قد شمل من كان في يثرب من النصارى وان عدم ذكرهم في كتاب المودعة دون اليهود آت من انهم لم يكونوا مثل هؤلاء كتبة كثيفة تشغل حيزاً واسعاً في يثرب اجتماعياً ودينياً وثقافياً واقتصادياً .

حركة المعارضة او النفاق



من اهم احداث هذا العهد وحركاته ما عرف بحركة النفاق والمنافقين . وقد ظهرت مبكرة جداً بل مع بداية العهد النبوي ثم استمرت الى نهايته .

ومع ان هناك بعض آيات مكية احتوت بعض صور من صور المنافقين وهي آية سورة العنكبوت (١٠) وآيات سورة الحج (١١ - ١٣) التي اوردناها في بحث الفتنة والاذى في الفصل السابق فان هذه الصور - ان صحت مكية الآيات على ما نرجحه - كانت مظهرأ من مظاهر بحنة الأذى والاضطهاد واثراً من آثارها على ما شرحناه في البحث المذكور بحيث يصح القول ان حركة النفاق والمنافقين كانت من حركات العهد المدني المميزة .

وعلة ظهور هذه الحركة في المدينة واضحة . فالنبي عليه السلام والمسلمون الأولون في مكة لم يكونوا من القوة والنفوذ في حالة تستدعي وجود فئة من الناس ترهبهم او ترجو خيرهم فتتعلقهم وتتألف اليهم وتظاهر انها منهم وعلى دينهم وتكون في الوقت نفسه غير مؤمنة ولا مخلصة وتتآمر عليهم وتكيد لهم وتمكر بهم في الخفاء كما كان شأن المنافقين في المدينة . ولقد كان اهل مكة وزعماءهم بخاصة ينادون النبي جباراً ويتناولون من استطاعوا من المسلمين بالأذى والاضطهاد ويقاومون الدعوة بكل وسيلة ودون اي تحرز او تحفظ . وكانت القوة لهم حتى اضطر المسلمون الى الهجرة فراراً بدينهم ودمهم الى الحبشة اولاً ثم الى يثرب ومعهم النبي ؛ وحتى فتن بعضهم عن دينه بالعنف والاكراه او بالاغراء والتهويش ، وحتى تزلزل بعضهم وقبرم وفاق المشركين ، وحتى مات بعض من ناله الأذى

(١) انظر تاريخ العرب قبل الاسلام جواد علي ج ٦ ص ١٩٩ وبمدها

من ثبت على دينه نتيجة للتعذيب كما مر تفصيله في الفصل السابق .

اما في المدينة فقد كان الأمر مختلفاً جداً . فالنبي عليه السلام استطاع قبل الهجرة اليها ان يكسب انصاراً اقوياء من الخزرج والاوس . ولم يهاجر إلا بعد ان استوثق من موقفه ولم يبق بيت عربي فيها لم يدخله الاسلام^١ ولم يكذب رجل فيها حتى صار نتيجة لذلك صاحب الحكم والمرجع لكل من فيها من مؤمنين وغير مؤمنين . ففي هذه الحالة لم يكن من الهين ان يقف الذين لم يؤمنوا به لما عن جهل وغباء واما عن غيظ وسخط وعناد موقف الجحود والعداء العلني للنبي والمؤمنين من المهاجرين والانصار . وكان للعصبية في الوقت نفسه اثر غير يسير في عدم الوقوف هذا الموقف . لأن سواد الخزرج والاوس ومعظم زعمائهم اصبحوا انصار النبي عليه السلام مرتبطين به بمواثيق الدفاع والنصر وغدوا يروث فيه رسول الله وقائدهم الاعلى الواجب الطاعة ومرشدكم الاعظم الواجب الاتباع . فلم يكن يسع الذين ضلت قلوبهم نزعة الشرك ويتحكم فيهم مرض القلب والحق ويحملهم على مناوأة النبي ودعوته ونفرذه ان يظهروا نزعتهم وعداءهم وحقدهم علناً . ولم يكن امامهم الا التظاهر بالاسلام والشهادة بالله وحده ورسالة محمد نبيه والقيام بركان الاسلام من صلاة وزكاة والحج والجهاد والتضامن مع قبائلهم وجنس مكرهم وكيدهم ودسهم ومؤامراتهم بأسلوب المراوغة والمواربة والحداع والتمويه .

ولقد وقفوا احيانا مواقف علنية فيها كيد ودس وعليها طبع النفاق بارز غير ان هذا كان منهم في بعض الظروف والازمات الحادة التي كانت تحدق بالنبي والمؤمنين والتي كانوا يتخذونها حجة لتلك المواقف بداعي المصلحة والمنطق والاحتياط على ماسوف ياتي شرحه وصوره بعد

ولم يكونوا على كل حال يعترفون بالكفر والنفاق . غير ان نفاقهم وكفرهم ومواقفهم في الكيد والدس والتآمر لم تكن تخفى على النبي ونبيه واصحابه من المهاجرين والانصار كما ان تلك المواقف العلنية التي كانوا يقفونها في فرص الازمات كانت مما تزيد كفرهم ونفاقهم فضيحة ومقناً . وقد كانت الآيات القرآنية تفضحهم المرة بعد المرة وتدل عليهم بما يفعلون او يمكرون وتدمغهم بشروهم وخبثهم ومكائدهم وتحذر النبي عليه السلام والمسلمين منهم في كل ظرف ومناسبة .

ولقد كانت مواقف المنافقين ومكائدهم بعيدة المدى والاثر على ما تلهمه الآيات

والمغضول المدنية حتى نكأنه نضال قوي يذكر بما كان من نضال بين النبي عليه السلام وزعماء مكة حينئذ وان اختلفت الادوار والنتائج . اذ ان النبي لم يلبث ان توطد مركزه وازدادت قوته وصار صاحب سلطان نافذ وجانب عزيز ولم تلبث دائرة الاسلام ان اتسعت وإذ لم يكن المنافقون كتلة متضامنة ذات شخصية خاجة بارزة . وكان ضعفهم وخآلة عددهم وشأنهم يسيران سيراً متناسباً عكسياً مع ما كان من تزايد قوة النبي عليه السلام واتساع دائرة الاسلام وتوطد عزته وسلطانه .

ويكفيك لأجل ان تشعر بخطورة الدور الذي لعبه المنافقون وبخاصة في اوائل العهد ان تلاحظ انهم كانوا اقوياء نسبياً بعضيائهم التي كانت ما تزال قوية الاثر في نفوس سواد قبائلهم والتي لم تضعف إلا بعد جهد وتنبيه وانذار متوال من القرآن والنبي كما انهم لم يكونوا مفضوحين فضيحة تامة ، وان تلاحظ كذلك ان النبي عليه السلام مع اصحابه ودعوته كان محوطاً بالمشركين الجاحدين من كل جانب وان اهل مكة خصومه الالاء وهم قبلة جزيرة العرب كانوا وظلوا يتربصون به الدوائر ويتحينون كل فرصة ووسيلة للقضاء عليه ، وان يهود المدينة ومن حولها قد تنكروا له ولدعوته منذ عهد مبكر وتطيطروا بها ثم جاهروا بالكفر والعداء والمكر والكيد ولم يلبث ان انعقد بينهم وبين المنافقين حلف طبيعي على توحيد المسعى والتضامن في موقف المعارضة والكيد على ما سوف نزيده شرحاً بعد حتى ليكن ان يقال ان المنافقين لم يقولوا ويشبثوا ولم يكن منهم ذلك الأذى الشديد والاستمرار في الكيد والدس إلا بسبب ما لقوه من اليهود من تعضيد وما انعقد بينهم من تضامن وتوافق ، ولم يضعف شأنهم ويخف خطرهم إلا بعد ان مكن الله للنبي من اليهود واظهره عليهم وكفاه شرهم .

والآيات التي تتضمن اوصاف واخبار ومواقف المنافقين والتي فيها حملات عليهم بسبب ذلك كثيرة جداً حتى لا تكاد تخلو سورة مدنية منها وبخاصة السور الطويلة والمتوسطة . وهذا يؤيد ما قلناه من ان هذه الحركة ظلت مستمرة طيلة العهد المدني وان كانت اخذت تضعف من بعد نصفه الاول . وفي روايات السيرة شيء من ذلك فيه اسماء وازمنة وامكنة .

والروايات تكاد تكون مجمعة على ان قائد لواء النفاق ومتزعم حر كته هو عبد الله بن ابي سائل احد زعماء بني عوف احد بطون الخزرج الاقوياء وقد روى ابن هشام عن ابن

اسحق ان اسيدا بن خضير رضي الله عنه زعيم الاوس قال للنبي عليه السلام في موقف من المواقف ارفق به فقد جاءنا الله بك وان قومه لينظّمون له الخرز ليتوجوه وانه ليرى انك قد استلبته ملكاً^١ . والراجح ان زعامته ضمنت لحركته شيئاً من العصبية والقوة فاستطاع ان يجمع حوله بعض افراد من عشيرته وغيرهم من المتشككين أو الحاقدين أو مرضى القلوب وان اليهود قد رأوا في حركته وقوته ما يجعلهم يعقدون معه حلفاً ضد النبي ودعوتـه . فازدادت حركته قوة ونشاطاً .

ولقد كان المنافقون في بدء أمرهم يتظاهرون بالقوة والاعتداد والترفع والحصافة مع المواربة والمخادعة . ولكن ذلك لم يغن عنهم شيئاً . لأن حالتهم لم تكن خافية . وقد والى القرآن حملاته عليهم ووصف حالتهم فانكشفوا وانفضحوا .

ومن أول وأبكر ما نزل من القرآن المدني فيهم ويؤيد ما قلناه من أن حركة النفاق قد بدأت منذ بدء العهد المدني آيات سورة البقرة هذه التي يكاد يتفق المفسرون على أنها أولى الآيات نزولاً في المدينة :

(وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ . يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يُخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ . فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ . وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ . أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ . وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ . وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنُوا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ . اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ . أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهَدَىٰ فَمَا رَبَّحَتْ تِجَارَتُهُمْ

وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ٨ — ١٦

وقد احتوت الآيات وصفاً قوياً شاملاً للمنافقين وافكارهم واعتدادهم وخداهم وإن لم تحتو كلمة (المنافقين) . وتلهم ان الموصوفين من الزعماء البارزين الذين تدفعهم عنجيتهم الى الترفع عن سواد الناس والاعتداد بأنفسهم وعقولهم والذين كانوا يرون في التفاني في النبي عليه السلام ودعوته غلوّاً بل سفهاً . والراجع ان ما حكته الآيات من اقوالهم قد صدر منهم لأناس من ذوي طبقتهم او من ذوي رحمتهم من المؤمنين . ولكن ايمان المؤمنين كان أقوى من العصبية ففضحوهم . وجمهور المفسرين على ان تعبير (شياطينهم) يعني اليهود الذين وقفوا بدورهم موقف المناوئة ضد النبي ودعوته منذ عهد مبكر وانعقد بينهم وبين المنافقين تحالف وتضامن كما قلنا .

وتعبر (في قلوبهم مرض) في الآيات يعني النفاق لأنه ناشيء عن خبث سرائرهم وسوء نواياهم .

ولقد تكرر هذا التعبير في آيات عديدة في معرض وصف المنافقين . كبديل عن كلمة النفاق والمنافقين . غير انه ورد في سورة الاحزاب آية جمعت هذا التعبير والمنافقين وفئة اخرى وهي المرجفون معاً وهي :

(لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِزُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا . مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثَقِفُوا أَخْدُوا وَقَتْلُوا بِقَتِيلٍ ٦٠ — ٦١)

والنعة والاذنار شاملان بقوة واحدة لفئات الثلاث المذكورة في الآية . غير ان ذكرها في آية واحدة قد يسوغ القول ان بينها بعض الفروق حيث كان منهم من هو كافر كل الكفر عدو كل العداوة ما كر كل المكر ومنهم من هو ميال مع منفعتهم راغب بنفسه عما يظنه خطراً وبخزافات ومشاكل مشكك في صدق رسالة النبي متردد في طاعته طاعة تامة ينجر الى الفريق الاول او يقع في شباكها فاعتبره القرآن بحق في حكم الأول ورتب عليه ما استحقه الاول من اذار وعقاب في الدنيا والآخرة .

وفي سورة البقرة أيضاً آيات اخرى فيها وصف قوي للمنافقين وان لم يرد فيها اسم النفاق والمنافقين وهي :

(وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ . وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ . وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْإِلَهَادُ ۚ ٢٠٤ — ٢٠٦)

وفيها صورة قوية الملامح لفريق من الناس يستثيرون الاعجاب بأقوالهم المنسقة وأيمانهم المنظمة ولكنهم لا يتورعون عن افطع الآثام ثم يغضبون اذا ما عوتبوا وطولبوا بتقوى الله وخوفه بما يقترونه ويعتبرون ذلك اهانة لكرامتهم ووسيلة للايغال في الشر والفساد والفتنة . والصورة وإن كانت مطلقة للتعبير عن فئة من الناس قد توجد في كل زمن ومكان لأنها متصلة . بطبائع البشر المختلفة . واحتوت بهذا الاعتبار تعميماً بجواب الحذر من هذه الفئة وعدم الانخداع بها . فها هم فيما نعتقد نزلت في أناس كانوا يتظاهرون بالاسلام ويبطنون الكفر رغبة في النفع وتقاديا للضرر وكانوا يعمدون الى تنميق الكلام مع انهم شديداً العداء لله ورسوله . ولا يتورعون عن الاثم والفساد .

وقد روي ^١ انها نزلت في الاخنس بن شريق الثقفي الذي كان يظهر الاسلام ويبطن الكفر كما روي ^٢ انها نزلت في فريق من المنافقين اظهروا شجاعتهم باستشهاد بعض المجاهدين في الوقعة التي عرفت باسم الرجيع وعابوهم .

ويتبادر لنا ان الصورة في الآيات اقوى من الروايات في صدد الفريق الذي اخذ يقف وجه النبي ودعوته في العهد المدني من المعارضين المنافقين وما كانوا عليه من اعتداد وجرأة على الاثم والعدوان .

وفي سورة الأنفال التي يجيء ترتيب نزولها بعد سورة البقرة والتي نزلت عقب واقعة بدر الكبرى هذه الآيات :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرُسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ

(١) انظر تفسيرها في تفسير الكشاف للزمخشري

(٢) انظر تفسيرها في تفسير ابن كثير

تَسْمَعُونَ . وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ . إِنَّ شَرَّ
الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ . وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا
لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (٣٠-٣١)

حيث احتوت الآيات تحذيراً للمخلصين من المؤمنين من ان يكونوا كالفريق الذي لا
يسمع ولا يطيع . والمقصود من ذلك هو الفريق المنافق على الأرجح . وفحوى الآية يدل
على ان المنافقين ما زالوا يعتدون بأنفسهم ولا يراعون عن الوقوف موقف اللامبالي من
النبي واولامره .

وفي نفس السورة هذه الآية أيضا :

(إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ
وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٨ - ٤٩))

والآية جاءت بعد سرد قصة ما كان من وقعة بدر التي كان انصر فيها للمسلمين . فذكر
ان المنافقين شعروا بخيبة امل من نصر المؤمنين وراوا ما كان من اعتزاز هؤلاء بما نالوه من
نصر فتطردوا وقالوا ما قالوه . وفي ما قالوه تعريض بالمؤمنين الذين أقدموا على انصر
اعتزازاً بدينهم في الوقت نفسه . ولم يخرج المنافقون مع المؤمنين الى بدر لأن النبي عليه
السلام ندب للخروج من رغب فيه فخرج المخلصون من المهاجرين والأنصار فحارب

وبعد سورة الأنفال يجيء في ترتيب النزول سورة آل عمران التي نزل شطر كبير منها
في صدد واقعة أحد . وقد احتوت آيات عديدة تدل على ان المنافقين وقفوا في ظروف هذه
الواقعة مواقف مؤذية عديدة قولا وفعلا .

فقد استشار النبي عليه السلام اصحابه حينما جاء جيش قريش الى خيبر والمدينة التمسقاً ما
لواقعة بدر فأشار فريق عليه بالبقاء في المدينة واتخاذ موقف الدفاع وأشار فريق بالخروج
لئلا يظن القرشيون فيهم ضعفا وخوفا وغلب رأي الفريق الثاني فأخذ النبي . . وكان رأي
عبد الله بن أبي وغيره من المنافقين مع الفريق الاول . وخرج النبي عليه السلام على رأس
المؤمنين وانضم اليهم المنافقون . غير ان هؤلاء لم يلبثوا ان التحلوا ورجعوا بتعريض ابن أبي
الذي قال اطاعهم وعصاني . وكانوا نحو ثلث الخارجين الذين بلغ عددهم نحو ثلث المسلمين . وقد

عَوَّبَ عَلَى تَرَاجُعِهِ فَقَالَ لَوْ نَعْلَمُ أَنَّهُ سَيَكُونُ قِتَالٌ لَاتَّبَعْنَاكُمْ^١ . وفي هذا نقول آيات في سورة آل عمران :

(وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّلَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ . وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكَفَرِ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ١٦٦-١٦٧)

ونسبة الثلث للمنافقين من الخارجين تدل على ما كانوا عليه من قوة وعدد في مبادئ العهد المدني . وإن كان من المحتمل أن يكون من الراجعين من انساق بعصيته القبلية أكثر من نفاقه .

واقعد انتصر المؤمنون في الجولة الاولى من معركة أحد ثم دارت الدائرة عليهم في الجولة الثانية على ماسوف نفسه بعد . فأخذ المنافقون يظهر وشمايتهم ويقولون أنهم لو اطاعونا ما قتلوا فحكمت آية جاءت بعد الآيات السابقة قورهم :

(الَّذِينَ قَالُوا لِلْإِخْوَانِ هُمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَأُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ١٦٨)

ويظهر أن هذا كان ديدنهم في الأحداث الجهادية التي حدثت قبل وقعة أحد أيضا على ما تفيد آية في سورة آل عمران وهي :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْزِيَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُخَيِّبُ وَهُيْمُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ١٥٦)

(١) ابن هشام ج ٣ ص ٣-٤

ويجيء بعد سورة آل عمران في ترتيب النزول سورة الأحزاب وفيها سلسلة آيات تحكي موقف المنافقين في ظروف غزو قريش واحزابها للمدينة بما عرف بواقعة الخندق . وكل ما قاله ابن هشام وابن سعد^١ عن هذا الموقف (ظهر النفاق) ولكن الآيات تعطي صورة قوية خطيرة له إذا ما أمعن فيها^٢ فلقد استند اضطراب المسلمين لقدمهم لأنهم قدموا

(١) انظر تفصيل وقعة الخندق في ابن هشام ج ٣ ص ٢٢٨-٢٥٢ وابن سعد ج ٣ ص ١٠٩-١١٦

(٢) هذه هي الآيات .

(يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا . إِذْ جَاؤُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظَّنُونَا . هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا . وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا . وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا . وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوُّهَا وَمَا تَلَبَّثُوا فِيهَا إِلَّا بَسِيرًا . وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُؤْثِرُونَ الْأَذْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا . قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تُمْتَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا . قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا . قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلْهُمْ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَاسَ إِلَّا

بعدد كبير بقصد استئصال شأفة النبي والمسلمين . وكان يورد المدينة قد ذهبوا الى مكة وجرضوا زعماءها وتحالفوا معهم على ذلك على ما ذكرته روايات السيرة وأيدته بعض الايات ١ فصار المسلمون بين نارين فما كان من المنافقين ومرضى القلوب إلا ان اخذوا يقولون بكل قحة وجرأة ان الله ورسوله قد غرروا بالناس وخدعوهم بوعودهم كما انهم اخذوا يشبطون من عزيمية المسلمين ويحرضونهم على الانصراف الى بيوتهم ويقولون كذبا ان بيوتنا عورة اي هدف مكشوف للخطر . وهذا في حين انهم بعد وقعة أحد جاؤوا الى النبي وتعهدوا له بأن لا يخذلوه ويفروا من الجهاد مرة أخرى . وكل هذا مما احتوت الايات اشارة اليه . وقد وصفت احدى الايات زيف ما يتظاهرون به من ايمان بحيث ان الكفار لو استولوا على المدينة وطلبوا منهم الارتداد لارتدوا حالا بدون تردد . وقد وصفتهم الايات وصفا طريفا قويا في حالتي الامن والخطر . ففي الحالة الثانية يستولي عليهم الخوف والفزع الشديدان فإذا ما زال الخطر طالت ألسنتهم ضد المسلمين . وهم على كل حال اسحاء على المسلمين وعلى كل دعوة الى الخير ...

ومع ان الظروف هي التي جعلت المنافقين يقفون موقفهم الذي وصفته الايات فلمتبادر انهم لم يكونوا يقفونه لو لم يكونوا يشعرون بشيء من القوة والعصبية أيضا . ولقد نكل النبي باليهود بعد ارتداد الاحزاب عن المدينة على ما سوف نشرحه بعد ولم يفعل بالمنافقين شيئا . بل وجعل الله امرهم اليه ان شاء تاب عليهم وان شاء عذبهم على ما جاء في آية بعد تلك السلسلة وهي هذه :

قَلِيلًا . أَشَجَّةَ عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَفُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشَجَّةَ عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا . يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا ٩ - ٢٠)

(١) انظر ابن هشام ج ٣ ص ٢٢٩ - ٢٣٠

(لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً ٢٤)

وفي سورة الاحزاب آيات أخرى في حق المنافقين منها هذه الايات :

(لَنْ يَنْتَهِيَ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلاً مَأْمُورِينَ أَنْ يَتَّقُوا أَنْفُسَهُمْ وَيَتَّقُوا اللَّهَ وَتَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلاً مَأْمُورِينَ أَنْ يَتَّقُوا أَنْفُسَهُمْ وَيَتَّقُوا اللَّهَ وَتَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ٦٠-٦١)

وقد احتوت الايات انذاراً قاصداً للمنافقين ومرضى القلوب والمرجفين أي الذين ينشرون الاخبار والروايات السيئة الفاحشة ضد المسلمين . وهذه الآيات مسبقة بآيات أخرى تضمنت ما يليهم ان المنافقين كانوا لا يألون جهدهم في الوقوف من النبي والمسلمين ونساء المسلمين مواقف مؤذية مسيئة وهي هذه :

(إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرُسُلَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً مُهِيناً . وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغْيٍ ظَاهِرٍ لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُفْلِحَهُمْ شَيْئاً وَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنَّ لَكُمْ آيَةٌ مِنَ اللَّهِ أَنْ يَأْتِيَ الْسَّاعَةَ أَنْ يَقُولُوا زَيْدٌ أَوْ فُلَانٌ أَمْ يَقُولُوا كَذِيبٌ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ قُلْ أَتَعْلَمُونَ مَنْ يَخْلُقُ الْحَيَاةَ وَالْمَوْتَ وَمَنْ يُحْيِي الْمَوْتَى وَيُمْسِكُ النَّفْسَ وَالْأَرْوَاحَ قُلْ أَتَعْلَمُونَ مَنْ يَخْلُقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَنْ يُمْسِكُ النَّفْسَ وَالْأَرْوَاحَ قُلْ أَتَعْلَمُونَ مَنْ يَخْلُقُ الْحَيَاةَ وَالْمَوْتَ وَمَنْ يُحْيِي الْمَوْتَى وَيُمْسِكُ النَّفْسَ وَالْأَرْوَاحَ ٥٧-٥٨)

والمبادر ان آيات الانذار السابقة قد نزلت نتيجة لمواقفهم المؤذية هذه .

وفي سورة النساء التي يجيء ترتيب نزولها بعد سورة واحدة من سورة الاحزاب آيات عديدة تحكي مواقف المنافقين ومكائدهم . منها هذه الآيات :

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ وَمَا نُزِّلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَكَّمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيداً . وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُوداً ٦٠-٦١)

وقد حكمت ما كان يفعل المنافقون حينما تكفرون لهم او لغيرهم قضية حيث كانوا يتجهون من التقاضي امام النبي ويصدون الناس عن ذلك ويتناخون امام قضاة من الكفار او اليهود .

ومنها هذه الآيات :

(وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيَبْطِشُ فَإِنْ أَصَابَكُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْنَا إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا . وَإِنْ أَصَابَكُمْ نَضْلٌ مِنْ اللَّهِ لَيَعُولَنَّ كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧٢-٧١))

وقد حكمت مواقفهم من الحركة الجهادية حيث كانوا يبطئون الناس ويثبطون عرائضهم عنهم ثم لا يستحون من حسد المسلمين اذا ما احابو نصرأ من الله وفضلا .

ومنها هذه الآيات :

(فَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا . وَذُوالِ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يَهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِخْذُؤْهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وُليَاءَ وَلَا نَصِيرًا (٨٨-٨٩))

ويظهر ان المسلمين المخلصين كانوا على رأيين في المنافقين وان منهم من كان يعتذر عنهم أو يأمل حلالهم ويظل على حلة وولاء معهم فاحتوت الآيات ما احتوته من تنديد وتنبية وتقرير لحقيقة كفرهم وحذرت المسلمين من اتخاذهم أولياء وحرصتهم على قتلهم اذا لم يخلصوا الله ودينه .

والذي نرجسه ان العصية القبلية كانت تلعب دوراً هاماً في الامر فجاءت الآيات لتكون حاسمة فيه .

ومنها هذه الآيات :

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ أَزْدَادُوا
كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا . بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ
لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا . الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ
أَبْتِغُونَ عَنْهُمْ الْجِزْيَةَ فَإِنَّ الْجِزْيَةَ لِلَّهِ جَمِيعًا . وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي
الْكِتَابِ أَنْ إِذَا تَجِئْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَعْدُوا
مَعَهُمْ حَتَّى تَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذَا مِنْهُمْ إِنَّا اللَّهُ جَامِعُ
الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا . الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ
لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ
قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعَكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا . إِنَّ الْمُنَافِقِينَ
يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَآؤُونَ
النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا . مُذَبِّذِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ
وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ۝ ١٣٧-١٤٣)

وقد تضمنت الآيات حكاية مواقف جديدة للمنافقين . فهم يوالون الكفار الذين قال
المفسرون انهم اليهود بقصد الاعتزاز بهم . ويقفون موقف المتربص المنتهز للفرصة من اي
ناحية جاءت . وإذا قاموا للصلاة قاموا كسالى وصلوا للراة . ويظهر ان بعض اقربائهم
واصدقائهم من المسلمين اتخلصين ظلوا على صلة بهم يغشون مجالسهم ويسمعون كلامهم الذي
فيه دس وأذى ضد النبي واستهزاء بالقرآن فنهتهم إحدى الآيات عن ذلك .

وعلى كل حال فالصور التي انطوت في الآيات تدل على انها نزلت قبل اقام التكميل
باليهود وفي وقت كان اليهود والمنافقون على شيء من القوة والاعتداد .

ونجىء بعد سورة النساء في الترتيب سورة الحديد وفيها هذه الآيات عن المنافقين

(يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ
 مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ لِيُنْشَأَ سُوْرَةُ
 لَدَى بَابٍ بِالْحِلَّةِ فِيهِهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ يُنَادُوْنَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ
 مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ
 وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ۝ ١٣)

والآيات بسبيل وحف ما كان من اعتداد المنافقين بأنفسهم واعتراهم . وذكر
 المنافقات مع المنافقين يدل كما هو واضح على أن حركة النفاق لم تكن قاصرة على الرجال
 فقد اشترك فيها النساء أيضا كما اشترك في الاستجابة إلى دعوة الله والايان برسوله والهجرة
 والجهاد في سبيل الله وتحمل الاذى والاضطهاد . وفي ذلك ما فيه من صورة رائعة للمرأة العربية
 في ابان البعثة النبوية .

وتجيء سورة محمد بعد سورة الحديد في الترتيب وفيها بضع آيات في صفات المنافقين
 اعلمهم منها ما فيه حكاية ما كانوا يظهرونه من جزع حينما يدعون إلى قتال وهي :

(وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ
 مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُنْظَرُونَ
 إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ لَهُمْ ۝ ٢٠)

ومنها ما فيه حكاية موالاتهم لليهود ووعدهم لهم بالتضامن معهم وهي :

(إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانِ
 سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ . ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ
 سَنْطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأُمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ۝ ٢٦)

ومنها ما فيه حكاية ظنهم أنهم استطاعوا أن يخدعوا الله ورسوله ورد عليهم وهي :

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ أَنْصَارُهُمْ
وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَتَعَرَّفْتَهُمْ بِسَيِّئَاتِهِمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ
يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ٢٩-٣٠)

وفي الآيات تنبيه الى ان المنافقين يعرفون بأقوالهم وأفعالهم بها ظنوا انهم غير معروفين
في النفاق وقد يكون فيها اشارة الى انه كان من المنافقين ومرضى القلوب فئة تحاول كتم
نفاقها . ولعل هذه الفئة من غير اولي قوبى زعماء المنافقين .

وعلى كل فالآيات تدل على انها نزلت في ظرف كان المنافقون لا يزالون يحتفظون فيه
باعتدادهم وجرأتهم .

ويجيء بعد سورة محمد في الترتيب سورة الحشر وفيها آيات تحكي موقف المنافقين في
ظروف تكليل النبي ببني النضير اليهود واجلائهم عن المدينة وهي هذه :

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ
أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ
وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ . لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ
قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلِّنَ الْأُذُنَ لَكُمْ لَا يُنصَرُونَ)

١١-١٢

ولقد كان بنو النضير اخلاف زعيم المنافقين عبد الله بن ابي وقومه من الخزرج فلما
حاصرهم النبي وطلب منهم الجلاء على ما سوف نشرحه في بحث آخر ارسلوا يستشيرونه في
الأمر فقال لهم ما حكته الآيات . فتقووا ورفضوا وضيع النبي عليه السلام الحناق والحصار
عليهم ولم يجزأ ابن ابي على الوفاء بوعدته لأن معظم عشيرته ومعظم قبيلته وقبيلة الأوس
كانوا مخلصين في ايمانهم ^١ وعلى كل حال ففي الآيات صورة لما افقههم التي فيها اعتداد ومناوأة
لنبي عليه السلام وخططه .

(١) انظر ابن هشام ج ٣ ص ١٩١ وما بعدها .

وتجيء بعد سورة الحشر في الترتيب سورة النور . وفي هذه السورة آيات تحكي مـ
كان من قذف أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها مما يعرف في السيرة النبوية بمحدث الافك على
ما سوف يأتي شرحه بعد ١ ومنها آية تعني المنافقين وهي :

(إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ
أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ١٩)

حيث تقيد ان المنافقين استغلوا الحادث وافاضوا فيه على سبيل الشتمة . وقد ذكرت
الروايات ٢ ان زعيم المنافقين عبد الله بن أبي كان على رأس هذه الفئة .

ويأتي بعد سورة النور سورة (المنافقون) وفيها أولا حكاية شهادتهم بأن النبي عليه
السلام رسول الله وحلفهم على ذلك مع انهم كاذبون يتخذون أيمانهم ستاراً . وتقرير كونهم
اعداء حقيقيين يجب الحذر منهم . ووصف حالتهم النفسية حيث كانوا بسبب ما يعرفونه
من نواياهم المريبة دائمي الخوف والقلق كلما هتف امرؤ ظنوا انه يهتف ضدهم وكلما أشار
أحد الى أحد منهم توهموا انه يحاول ان يفضحهم . وحكاية استكبارهم مع ذلك عن طلب
الاستغفار من النبي حينما يحاول بعضهم اصلاح حالهم والتوسط لهم ٣ . وفيها ثانياً هاتان

(١) انظر ابن هشام ج ٣ ص ٣٤١ وبعدها

(٢) المصدر نفسه ٣٤٥

(٣) (إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ
إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ . اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً
فَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا
ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ . وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ
أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشْبٌ مُسْنَدَةٌ يَحْسَبُونَ
كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتِلْتَهُمُ اللَّهُ أَتَى يُؤَفِّكُونَ . وَإِذَا
قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُؤُوسِهِمْ وَرَأَيْتَهُمْ

الآيتين التان تضمنتا موقفاً خطيراً وجريئاً من النبي عليه السلام واصحابه وهما :

(ثُمَّ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ . يَقُولُونَ لَوْ كُنَّا رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنَّا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْقِلُونَ (٧-٨)

وقد روى ابن هشام ^١ ان احد المهاجرين تلاحى مع احد بني عوف الخزرجيين رهط عبد الله بن ابي زعيم المنافقين في اثناء غزوة المريسيع التي جرت بقيادة النبي واستغاث كل منها بقومه وكادت تقع الفتنة بين المهاجرين والانصار والخزرجيين . فغضب عبد الله بن ابي واخذ يحرض قومه على امساك ايديهم عن مساعدة اصحاب النبي من المهاجرين حتى يتحولوا عن دارهم ويقولون انما حينما نرجع الى المدينة يجب ان نخرج الأعز منها الأذل وهو ظان انه الفريق الاول وان المهاجرين الفريق الثاني . وان الآيتين قد نزلتا لتحكيا هذه الواقعة .

ولتماماً للقصة نذكر ان ابن هشام روى ايضاً ان الكلام بلغ النبي عليه السلام واصحابه المهاجرين فثاروا وان عمر بن الخطاب حرض النبي على قتله ولكن النبي لم يستجب للتحريض وقال لعمر (كيف اذا تحدث الناس ان محمداً يقتل اصحابه) . وان الخبر لما بلغ أسيداً بن خضير احد زعماء الانصار قال للنبي عليه السلام (انت يا رسول الله تخرجه . هو الذليل وانت العزيز) ثم قال له (يا رسول الله ارفق به فوالله لقد جاءنا الله بك وان قومه لينظّمون له الحُرز ليتوجوه . وانه ليرى انك استلبته ملكاً) وان ابنه وكان مؤمناً مخلصاً جاء الى النبي فقال له (ان كنت آمراً بقتل ابي فمرني فأحمل رأسه اليك . فاني اخشى ان يقتله غيري فتأخذني العصبية فأقتله فأقتل رجلاً مؤمناً بكافر) فقال له النبي (بل نترقب به ونحسن صحبته ما بقي معنا . وكان من آخر ما فعله النبي معه من ذلك ان ابنه سأل النبي

يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ . سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ . إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٦-١)

(١) ج ٣ ص ٣٣٣-٣٣٧

ان يعطيه قميصه ليكفن به اياه فأعطاه ثم سأله ان يصلي عليه فصلى عليه رغم اعتراض عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقبل ان تنزل الآية التي جاء فيها ولا تصل على احد منهم مات ابداً . وكانت صلاة النبي عليه السلام سببا لنزول الآية المذكورة ١ .

وعلى كل حال فآيات السورة وما رواه ابن هشام يدل أولاً على ان المنافقين كانوا يشتركون في الاعمال الحربية التي كان يقودها النبي عليه السلام ضد اعداء الاسلام والمسلمين ويحلفون الايمان على صدق اسلامهم ويكتمون نفاقهم غير ان احوالهم ومواقفهم لازمة كانت تفضحهم . وكانوا يستغلون اي حادث ليكيدوا للنبي واصحابه ودعوته ، كما كانوا حينما نزلت الآيات يستشعرون بشيء من القوة ويعتدون بأنفسهم .

يبقي بعد سورة (المنافقون) سورة المجادلة وفيها هذه الآية :

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعودُونَ لِمَا نُهَوْا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوكَ بِمَا لَمْ يَحْيِكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصَلُّونَهَا فَمِئْسَ الْمَصِيرُ ٨)

ولقد انطوى في الآية صورة لموقف شديد الأذى والكيد فقد كان المنافقون يعتقدون المجالس الخفية ليضعوا خطط العصيان والتمرد على النبي فعاتبهم ونهاهم عن ذلك فلم يأبهوا وظلوا على خطتهم الآثمة . وإلى هذا فقد كانوا حينما يأتون الى النبي لا يسلمون عليه بالسلام المعتاد بسلام فيه غمز او سخرية ثم يتساءلون ساعرين جاحدين متى يقع عليهم عذاب الله الذي انذرهم به النبي جزاء ما يصدر منهم من اقوال وافعال .

وماروي ٢ ان هذه الحلقات كانت تعقد اكثر ما يكون في ظروف الأزمات الحادة التي كانت تلم بالنبي والمسلمين . وقد يدعم هذه الرواية آية جاءت بعد قليل وهي :

(إِنَّمَا التَّجَوَّى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيُحْزِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ

(١) انظر تفسير الآية ٨٤ من سورة التوبة في تفسير ابن كثير

(٢) انظر تفسير الآيات في تفسير ابن كثير والطبرسي

شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٠)

اذ احتوت تطميناً للمسلمين . فهذه النجوى من وساوس الشياطين بقصد ادخال الحزن والهم على المسلمين مع انها ليست بضارتهم شيئاً .

ولما كان من المرجح ان الحلقات كانت تعقد بتكتم فالمتبادر ان النبي قد جعل عليهم عيوناً يأتونه بأخبارهم وفي ذلك ان صح مشهد من مشاهد السيرة النبوية والتدبير النبوي . وعلى كل حال فالآية تدل على ما كان من شدة نفاق المنافقين وحقدهم على النبي والمسلمين والكيد لهم واستغلال الظروف العvisية للاخراج والشتمات والسخرية .

وبعد بضع سور قصيرة تأتي سورة المائدة وفيها هذه الآيات :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ . فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ . وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهْلُؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِيبَاتٌ لَأُحْمَاهُمْ فَاصْبِرُوا خَاسِرِينَ .

٥١ — ٥٢

وقد روي ^١ ان الآية الثانية نزلت بمناسبة مشادة بين كبير المنافقين ابن ابي واحد زعماء المؤمنين من الانصار اذ قال هذا بعد ان نزلت الآية الاولى اني بريء من اليهود وكان بينه وبينهم تحالف فقال الثاني اما انا فلا اتبرأ منهم لأنني اخشى الدوائر . وعلى كل حال ففي الآية الثانية سورة من التواتق الذي كان بين المنافقين واليهود بسبب ما جمع بينهم من الحقد على النبي عليه السلام ودعوته ونجاحه والتفاف الناس حوله . وتكون الآية قد نزلت قبل اتمام التنكيل في يهود المدينة .

(١) انظر تفسير الايات في تفسير ابن كثير والطبرسي

وتأتي بعد سورة المائدة سورة التوبة . وهي آخر سور القرآن المدني نزولا وترتيباً .
وفيها فصول عديدة في المنافقين . منها ما نزل في حدد تلكؤ منافقي المدينة عن
الاستجابة للاشتراك في غزوة تبوك وتهريبهم منها واستئذانهم النبي بالتخلف عنها باعذار
كاذبة .

فنددت بهم في سلسلة طويلة^١ وفضحت نفاقهم وكفرهم وسجلت عليهم سوء نواياهم
ومقاصدهم وذكرتهم بما كان من سابق أعمالهم وأقوالهم ومواقفهم المريبة .

وفي السلسلة آيات انطوى فيها صور محددة لمواقف منافقي المدينة منها هذه الآية :

(وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أُذْنُ لِي وَلَا تَفْتِنِّي إِلَّا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ
جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ٤٩)

وقد روي^٢ أنها نزلت في منافق استأذن النبي في التخلف عن السفر معه إلى غزوة تبوك
وقال له لاني اخاف إذا ذهبت معك ان تفتني بنات الروم ، وكان الروم أصحاب السلطان على
بلاد الشام .

ومنها هذه الآية :

(إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ فَنَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا
أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَقُولُوا وَهُمْ فَرِحُونَ ٥٠)

حيث انطوى فيها بيان ما كان من شدة حقدهم على النبي وتربصهم الدوائر فيه . ومنها
هذه الآيات :

(وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْزُقُونَ)

(١) الآيات ٤١ - ٨٩ .

(٢) انظر ابن هشام ج ٤ ص ١٢٠

لَوْ يَجِدُونَ مَلَجًا أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدْخَلَ لَوْلَا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ) .

٥٦ - ٥٧

حيث انطوى فيها حكاية ايمانهم بانهم مخلصون في الاسلام كلما عوتبوا على موافقهم وتكذيب لهم بأن الايمان التي يخلقونها هي تقية وخوفاً ولو استطاعوا ان يجدوا مكاناً يلجأون إليه أو يحتفون فيه لاسرعوا إليه . وقد تفيد الآيات أن المنافقين قلوا عدداً بعد الفتح المكي وضعفوا قوة ولم يعودوا يجدون في ذوي قرباهم من المخلصين سنداً وعوناً . نقول هذا ونحن نعرف أن ابن هشام روى أن النبي عليه السلام لما خرب معسكره خارج المدينة تأهباً للسفر خرب عبدالله بن أبي - قبل ان يستأذن ويتخلف هو وغيره من المنافقين -

على حدة معسكره بأسفل منه وان هناك من زعم أنه ليس بأقل العسكرين . وهذا غريب جداً إذا علمنا ان جميع القادرين على الحرب من المخلصين قد انضموا إلى غزوة تبوك ولم يتخلف منهم إلا ثلاثة على ما تفيد آيات في سورة تبوك : وصيغة ابن هشام نفسه تلهم أنه لا يصدق هذا الزعم لانه يقتضي ان يكون عدد المنافقين آلفاً عند التأهب لغزوة تبوك . وهو ما لم يروه أحد وما تنفيه آية سورة التوبة التي نحن في حدها . بل هناك رواية تذكر ان عدد المتخلفين نحو ثمانين^٢ . وهم الاغنياء ولا يعقل ان يكونوا أكثر من ذلك .

ومنها هذه الآية

(وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْتَخْطُونَ ٥٨)

حيث انطوى فيها حكاية اتهام بعضهم للنبي عليه السلام في توزيع الزكاة والغنائم وسخطهم إذا لم يعطهم ولو لم يكونوا من المستحقين الذين ذكرتهم آية جاءت بعدها وهم الفقراء والمساكين وعمال الصدقات والمؤلفة قلوبهم والمعسرون والارقاء وأبناء السبيل وسبيل الله أي الدعوة الاسلامية .

(١) ج ٤ ص ١٧٣

(٢) ابن هشام ايضاً ج ٤ ص ١٨٩

ومنها هذه الآية:

(وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أٌذُنٌ قُلْ أٌذُنٌ خَيْرٌ لَّكُمْ
يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ
رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٦١)

وقد روي^١ في صدد نزولها أن بعض المنافقين اجتمعوا سرّاً وأخذوا يستغيثون النبي
عليه السلام وأصحابه فقال بعضهم أمسكوا حتى لا يبلغه مما نقول فقال بعضهم بل نتحدث
بما نشاء فإذا بلغه وسألنا حلفنا له فيصدقنا فإنه أذن يصدق كل ما يقال له .

وقد تؤيد الآية والرواية ما خناه قبل استلهاً من آيات أخرى أن النبي عليه السلام
كان يضع على المنافقين عيوناً تأتيه بأخبارهم .
ومنها هذه الآية

(يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ
إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ
فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي
الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ٧٤)

وقد روي^٢ في صدها أن عبد الله بن أبي كبير المنافقين وقع في النبي فبلغه ذلك فعاتبه
فأخذ يحلف أنه لم يقل . والآية تفيد أن حالة أهل المدينة الاقتصادية قد تحسنت كثيراً
ببركة هجرة النبي إليها . والآية تفيد شيئاً عجيباً آخر وهو نقمة المنافقين بما نالوه هم وقومه
من خير وغنى ! والمتبادر أن نعمتهم كانت بسبب ما كان من إزدياد مركز النبي تمكناً

(١) انظر تفسيرها في تفسير الطبرسي

(٢) انظر تفسيرها في تفسير ابن كثير والطبرسي .

واستقراراً ومن اشتداد التفاف الناس حوله وإخلاصهم له لما نالوه من بركة هجرته إليهم .
ومنها هذه الآية

(الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا
يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ
لِيمٌ ٧٩) .

وقد تضمنت حكاية لزم المنافقين المتبرعين في الصدقات من المسلمين حينما كاتب النبي
يطلبها منهم فلم يكسده أحد يسلم من سخريتهم ولزمهم حيث كانوا يلزمون من يعطي
الكثير فيقولون إنه مرء ومن يعطي القليل حسب جهده فيقولون إن الله غني عن
هذا القليل .

والآية تفيد ان الايمان بالله ورسوله ودعوته قد ملأ المخلصين الذين كانوا الاكثوية
العظمى فكانوا يسارعون إلى تلبية أوامر النبي في كل شيء ويساهمون في التبرعات كل
حسب طاقته .

ولقد كان بعض الاعراب في البادية منافقين أيضاً . وكما تلكا منافقو المدينة وتهربوا
من غزوة تبوك تلكا منافقو البادية وتهربوا باعذار كاذبة فنزل في حقهم بدورهم فصل
يندبهم ويفضح كذبهم ويحذر النبي وأصحابه بعدم تصديقهم ويأمرهم بالاعراض عنهم
لأنه رجس وبعدم الرضاء عنهم مهما حلفوا لهم من الايمان . وقد جاء في آخر الفصل آيتان
تفيدان أنهم كانوا أشد كفراً ونفاقاً من منافقي المدينة وأنهم كانوا يعتبرون ما يؤدونه
من صدقات وينفقونه في الحركات الجهادية من نفقات خسارة وعبثاً ويتربصون بالنبي
والمسلمين الدوائر حتى يخلصوا من الأعباء وهما هاتان

(الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ
اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ . وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا

يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمْ الدَّوَابُّ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السُّوءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٩٧ - ٩٨).

وفي سورة التوبة آيات أخرى في حق المنافقين منها هذه الآية :

(وَمِنْ حَوْلِكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُّوا عَلَى النَّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ (١٠١)).

حيث تقرر أنه كان هناك طبقة من المنافقين من أهل المدينة ومن الأعراب استطاعت أن تتقن كتم نفاقها عن النبي والمسلمين. ويبدو أنه كان إذا هم أشد لأن الآية توعدتهم بالعذاب مرتين في الدنيا فوق ما ينتظرهم من عذاب الآخرة .

ومنها هذه الآيات :

(وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْضَاءً لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَيَخْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ . لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لِمَسْجِدٍ أُسَسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ، فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ . أَفَنْ أُسَسَ بُنْيَانُهُ عَلَى تَقْوَى مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٍ أَمْ مَنْ أُسَسَ بُنْيَانُهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارٍ يَوْمَ فِي نَارٍ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ . لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٠٧ - ١١٠))

وما روي في صدد هذه الآيات أن فريقاً من المخلصين استأذنوا النبي ببناء مسجد في ضاحية قباء مكان صلاة النبي حينما جاء مهاجراً إلى المدينة ونزل في هذه الضاحية مدة قصيرة

على ما ذكرناه قبل . وكان في هذه الضاحية جماعة من المنافقين فاستأذنوا بدورهم النبي ببناء مسجد لهم ليصلوا فيه في أيام الشتاء والليل فأذن لهم ورجوه أن يصلي فيه ليباركه فوعدهم بذلك حينما يعود من غزوة تبوك . وقد روي أن الآيات نزلت في أثناء هذه الغزوة . وقد فضحت خبث نواياهم ومقاصدهم فلما عاد النبي إلى المدينة أرسل من هدم المسجد وحرقه . وقد روى المفسرون^١ أن جملة (إرصاداً لمن حارب الله ورسوله تعني شخصاً اسمه أبو عامر الراهب .

وقد كان موحداً ثم تنصر قبل الهجرة فلما هاجر النبي عليه السلام إلى المدينة حسده واستكبر عن اتباعه وتنازع معه واقسم أن يحاربه ما وجد إلى ذلك سبيلاً . وقد استطاع أن يغري بعض أفراد من قبيلة الأوس التي ينتمي إليها ولما جاءت قريش تغزو المدينة وكانت الوقعة الكبرى التي عرفت بوقعة أحد انضم إليهم وحارب النبي والمسلمين وفيهم قومه . ولما انتهت الوقعة ظل على عناده وعداوته وصار يحبس المنافقين ويجرضهم .

وهو الذي طلب منهم أن يبنوا هذا المسجد ليكون مركزاً لاجتماعهم ثم ذهب إلى بلاد الشام لتحريض الروم على النبي والمسلمين واحضار جيش يغزو المدينة وطلب منهم انتظاره .

ومن الآيات الواردة في سورة التوبة فيهم هذه الآيات :

(يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ اسْتَهِزُوا إِنَّ اللَّهَ خُورٌ مَّا تَحْذَرُونَ . وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ . لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنَّ نَعْفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ يُعَذِّبُ طَائِفَةٌ بَأْسُهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ٦٤ - ٦٦) .

(١) انظر تفسير الآية في كتب تفسير الطبري وابن كثير ورشيد رضا . انظر أيضاً ابن هشام

وقد جاء في بعض الروايات ان هذه الآيات نزلت اثناء غزوة تبوك في حق جماعة من المنافقين اشتركوا في الغزوة وكانوا يقولون من باب السخرية ان محمداً يزعم انه سوف يغلب بني الأصفر - أي الروم - ويفتح مدائنهم . وجاء في بعضها انهم كانوا يذمون قراء القرآن ذمماً قبيحاً . وجاء في بعضها انهم كانوا يتآمرون على اغتيال النبي اثناء الرحلة . وفي الآية الأولى ما يفيد انهم كانوا يسخرون من النبي ويقولون هلا نزل عليه سورة فيهم !

وعلى كل حال فالآيات تفيد ان النبي علم بمواقفهم وأقوالهم وعاتبهم فأخذوا يعتذرون له ، وفي الآية الأخيرة ما يفيد ان منهم من كان اعتذاره صادقاً فوعده بعفو الله .

وفيها هذه الآية

(فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ۝۸۱)

حيث تذكر ما كان من فرح المنافقين حينما أذن لهم النبي بالتخلف بناء على اعتذارهم عن غزوة تبوك .

يظهر ان هذا كان ديدنهم في أكثر الغزوات حيث جاء بعد قليل من هذه الآية هذه الآيات :

(وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ . رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ) .

٨٦ - ٨٧

ولقد روى ابن هشام^١ ان أناساً من المنافقين كانوا يجتمعون في بيت يهودي اسمه

سويلهم ويبطون الناس عن رسول الله في غزوة تبوك . وقد بلغ النبي ذلك فأرسل اليهم طلحة بن عبيد الله في نفر من أصحابه وأمره ان يحرق عليهم البيت ففعل ^١ .

ولهذا كله اقتضت حكمة التنزيل أن تأمر النبي بإعلانهم أنهم ان يخرجوا معه للحرب بعد الآن إذا استأذنوه للخروج معه وبأن لا يصلي على أحد مات منهم ولا يقيم على قبره كما ترى في هاتين الآيتين :

(فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذِنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ . وَلَا تَصِلْ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا رُحْمًا فَلَا تُنْفِقُوا فِي الدُّنْيَا وَالدَّارِ الْآخِرَةِ وَأُولَادُهُمْ إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ٨٣ — ٨٥)

وهكذا امرت الآيات بنبذهم وإخراجهم من حظيرة الاسلام والمسلمين .

ومنها هذه الآيات :

(وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيْمَانًا فَآمَأَ الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيْمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ . وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ . أَوْ لَا يَرْوْنَ أَنَّهُمْ يُؤْتَمَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ . وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاهُمْ

(١) هذه الرواية تؤيد نفياً لزم كثرة عدد المنافقين في ظروف غزوة تبوك .

مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ أَنْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهِ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ

١٢٤ - ١٢٧

وفي الآيات صورة من صور المنافقين حيث كانوا يتساءلون تساؤل الساخر المستريب كلما نزلت سورة عن زادتهم إيماناً وقاؤوا بما نزل وحيث كانوا حينما تنزل السور على النبي ينظر بعضهم إلى بعض نظر الساخر المستريب كذلك ويسألون من المجلس النبوي .

وقد نددت بهم الآيات وفضحت خبث طواياهم وعجبت من عدم أرواحهم مع أنهم يفضحون في كل عام مرة بعد مرة .

تعليق على موقف النبي عليه السلام من المنافقين



وواضح من هذا الاستعراض الذي تعمدنا الاسهاب فيه لخطورة حركة المعارضة والنفاق أن هذه الحركة بدأت مع بداية العهد المدني واستمرت إلى آخره وان المنافقين لم يألوا جهداً طيلة هذا العهد في الكيد والدس والتآمر والتعويق عن الجهاد والسخرية بالله ورسوله وقرآنه والمسلمين والشتمات فيهم واستغلال الأزمات والظروف الحرجة في كل فرصة ومناسبة مع تحالفهم مع اليهود حتى بعد أن صاروا أعداء محاريين وكانت لهم مواقف وأعمال شديدة النكابة والخطورة والأذى على كيان الاسلام والمسلمين .

ومن العجيب الذي نراه ذا أهمية عظمى من ناحية السيرة النبوية والتشريع النبوي معاً أنه لم يرد روايات موثقة تفيد أن النبي عليه السلام اعتبر المنافقين أعداء محاريين أو عاملهم كذلك أو امر بقتلهم أو قتل بارزهم بسبب صفة النفاق أو بسبب أي موقف ناشئ عنه من تلك المواقف الكثيرة المتنوعة التي حكمتها الآيات التي نزلت في مختلف ادوار التنزيل المدني والتي احتوت صوراً كثيرة من الأذى والكيد والسخرية بالله ورسوله وآياته والمسلمين والتناجي بالاثم والعدوان ومعضية الرسول والتثبيط عن الجهاد والخامرة فيه ودس الدسائس وإثارة الفتن والاحقاد وإشاعة الفاحشة والارجاف بين المسلمين بما يثير قلقهم وفزعهم والتعرض لنساء المسلمين بل لنساء النبي بالأذى والكيد والنضامن مع اعداء الاسلام وموالاهم وتقرير كونهم آمنوا ثم كفروا مرة بعده وكونهم قالوا كلمة الكفر وكفروا

بعد إيمانهم وارتدوا الخ . وهذا في حين أن القرآن أمر بمجاهدتهم مع الكافرين والاغلاظ عليهم واعتبارهم أعداء الداء وأمر بقتل من لم ينته منهم عن موقف الأذى والارجاف وبنفية وبتقتيله ايما ثقف وبقتلهم ايما ثقفوا اذا لم يخالصوا دينهم اليه وصدقوا في الهجرة اليه فضلاً عما اندروا به من عذاب دنيوي وأخروي شديدين وبجعل منزلتهم في جهنم في الدرك الأسفل وقرنهم في الانذار مع الكافرين وأمره باخراجهم من حظيرة المسلمين وعدم الصلاة على موتاهم وعدم القيام على قبورهم على ما يفهم من نصوص الآيات التي أوردناه، معاً ثم في حين ان حكم المرتد عن دينه هو القتل استناداً الى احاديث نبوية صحيحة منها حديث رواه البخاري وابو داود والترمذي عن عكرمة (ان علياً حرق قوماً ارتدوا عن الاسلام فبلغ ذلك ابن عباس فقال (لو كنت انا لقتلتهم لقول رسول الله من بدل دينه فاقتلوه) .

ومنها حديث رواه الثلاثة مع مسلم والنسائي جاء فيه (لا يحل دم امريء مسلم يشهد ان لا إله إلا الله واني رسول الله الا باحدى ثلاث النفس بالنفس والشيب الزاني والمفارق لدينه التارك للجماعة)^٢ . ثم في حين ان القرآن حكى مواقف المنافقين مثل المواقف التي أمر النبي بقتلهم اذا لم ينتهوا عنها وبعد تلك الاوامر والانذارات الحاسمة .

فإزاء ذلك لا نعدو الصواب اذا قلنا أولاً ان النبي عليه السلام لم يعتبرهم أعداء محاررين فلم يقاتلهم فعلاً كما كان شأنه مع كفار العرب والكتابيين الذين بدأوا المسلمين بالعدوان . ولم يأمر بقتل احد منهم عقوبة على قوله كلمة الكفر وارتداده وجراته على الله ورسوله ولا سيما ان حرب النبي للكفر من عرب وكتابيين يهود ونصارى انما كان لبدئهم بالعدوان على المسلمين واستمرارهم فيه على ما سوف يأتي شرحه بعد . ولم يكن حال المنافقين على كل حال يشبه حال هؤلاء . وثانياً ان النبي قد اعتبر ما جاء في الآيات القرآنية بمثابة توجيهات متروكة اليه امر تقدير ظروف تنفيذها والسير فيها بما يوافق مصلحة الاسلام والمسلمين . لا سيما ان الآيات التي وردت في حق المنافقين في كثير من الفصول والسور تخللها جمل تلهم معنى التعليق على شرط مثل (فان يتوبوا يك خيراً لهم)^٣ و (لئن لم ينته المنافقون)^٤ و (والا الذين تابوا واصلحوا واعتصموا بالله واخلصوا دينهم لله فأولئك مع

(١) و (٢) انظر التاج الجامع للاصول ج ٣ ص ١٧

(٣) آية التوبة ٧٤

(٤) آية الاحزاب (٦٠)

المؤمنين وسوف يؤت الله المؤمنين أجراً عظيماً (و) فان تولوا فخذوهم واقتلوهم^٢ حيث وجدتموهم ولا تتخذوا منهم ولياً ولا نصيراً (كما تحلل الآيات الواردة فيهم إشارات إلى أنهم كانوا يصلون ويؤدون الزكاة ويشهدون ان النبي هو رسول الله ويشتركون في الحركات الجهادية احياناً مع المسلمين ولو ان ذلك كان منهم كذباً او نفاقاً . وانهم كانوا يحلفون الايمان على حسن نيتهم وصدق إسلامهم وينكرون ما ينسب اليهم من الأقوال والأفعال المنكرة في حق الله ورسوله وآياته والمسلمين في كل مرة يعاتبون فيها على تلك الأقوال والأفعال . وقد رأى النبي ان يعاملهم بسعة صدر وحلم وصبر الى النهاية لما كان بينهم وبين كثير من المخلصين من روابط القربى والرحم وان خلاف هذه الحطة قد يفتح في صفوف المسلمين والاسلام ثغرات واسعة ويثير ازمت حادة^٣ . ولا سيما انه كان مطمئن القلب بوعده الله بالنصر النهائي وإظهار دينه على الدين كله .

وقد اخذ يرى منذ اوائل النصف الثاني من العهد المدني وبعد ما خضدت شوكة اليهود وهو الوقت الذي صار في امكانه من جهة مادية شن حرب عملية على المنافقين مأمونة عواقبها بعض الامان ان صوت المنافقين اخذ يخفت ونشاطهم يحمى وعددهم يقل وتزلفهم يشتد ومداراتهم تزداد وخوفهم يبدو واضحاً .

وان كثيراً منهم ندموا وعادوا الى حظيرة الاسلام الصحيح فكانت هذه الظواهر

(١) آية سورة النساء ١٤٦

(٢) نفس السورة ٨٩

(٣) كما رواه ابن هشام (ج ٣ ص ٣٣٧) بعد رواية حادث مجيء عبد الله ابن ابي كبير المنافقين انطلق الى النبي وقوله له اذا اردت ان تقتل ابي فرني احمل اليك رأسه لاني اخشى ان اقتل من يقتله بأمرك فادخل النار في قتل مؤمن بكافر وقول النبي له بل نترقب به ونحن صعبته ان قوم المنافق صاروا الذين يمنعونهم كلما وقف موقفاً مؤذياً فقال النبي لعمر بن الخطاب الذي حرضه على قتله اما والله لو قتلت يوم قلت لي لارعدت له افع لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته . وما رواه كذلك في سياق حادث الافك والفذف في ام المؤمنين عائشة رضي الله عنها ان أسيد بن خضير رضي الله عنه احد زعماء الاوس قال للنبي عليه السلام ان يكن الغاذفون من الاوس تكفيكمهم وان كانوا من اخواننا الحزرج فرنا بأمرك فوالله انهم لاهل ان تضرب اعناقهم فقام سعد بن عباد زعيم الحزرج فقال له كذبت لعمر الله لا تضرب اعناقهم . اما والله ما قلت هذه المقالة إلا انك قد عرفت انهم من الحزرج . ولو كانوا من قومك ما قلت هذا . لم يلبث ان اشتد التلاحق بين الزعيمين حتى كاد يكون بين الحبيين شر (ج ٣ ص ٣٤٥)

بما ثبته في خطته وجعله يرى فيها الصواب والمصلحة .

ومع خصوصية الموقف الزمنية فإن في تصرف السيد الرسول عليه السلام تلقيناً مستمر المدى بليغ الروعة والجلال ، ومثلاً يحتذى في كل ظرف ومكان . كما ان فيه تنبيهاً شديداً للمتؤمنين الذين يضيّقون ما وسع الله ورسوله فلا يتورعون عن تكفير الناس وشتيمهم لأوهى الأسباب والمظاهر والحكم على الأمور بظواهرها ووصفها بالحلال والحرام دون بينة وترو .

الحركات الجهادية ضد اعداء الاسلام

تمهيد



شغل الجهاد حيزاً كبيراً في القرآن المدني وفي كتب السيرة .

والفصول القرآنية نوعان . نوع فيه حث على الجهاد في سبيل الله بالمال والنفس وتوضيح للاهداف المستهدفة منه والمبادئ التي يقوم عليها والحدود التي يقف عندها ، وبيان لما للمجاهدين عند الله من ثواب واجر عظيم ومنزلة كريمة وما لتجاهد بالمال والنفس من ضرورة وأثر في حفظ كيان المسلمين والاسلام والدفاع عنها وإرغام اعدائها .

ثم ما للمعوقين عن الجهاد بالمال والنفس والمتهربين منه عند الله من سخط وعقاب وخسران في الدنيا والآخرة وما يؤدي ذلك اليه من خطر وضرر وتهلكة على الاسلام والمسلمين .

ولقد تضمنت هذه الفصول تقرير القواعد والمبادئ التالية :

١ - إن الجهاد بالمال والنفس في سبيل الله واجب على المسلمين . يتولى قيادته والدعوة اليه اولياء الأمر فيهم . والتقصير فيه اثم عظيم عند الله يستوجب اشد العقاب كما انه خطر جسيم على الاسلام والمسلمين . والاستجابة اليه دليل من ادلة صدق الايمان والاسلام . وعدم الاستجابة اليه دليل على العكس .

٢ - ان هدف الجهاد هو دفع الظلم والبغي والاضطهاد عن المسلمين والانتقام ممن باداهم بالعدوان والأذى ومقابلته بالمثل وتأمين حرية الدعوة الى الله حتى لا يكون عدوان عليها ويكون الدين كله لله .

(١) انظر كتابنا سيرة الرسول عليه السلام من القرآن ج ٢ فصل الجهاد ص ٢١٧ - ٣٠٥ وكتابنا الدستور القرآني فصل النظام الجهادي ص ٢٢٤ - ٢٨٥ ففي الكتابين الايات انفرآنية الواردة في الجهاد وشرح ما احتوته من مبادئ وقواعد .

٣ - إن الجهاد لا يستهدف إجبار الناس على الاسلام لان الدعوة الى سبيل الله انما تكون بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن . كما قرره القرآن الذي قرر في الوقت نفسه ان لا اكراه في الدين فمن امتدى فانما يمتدي لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها وليس النبي وكيلا عن الناس ولا جباراً على الاسلام وانما هو نذير وبشير .

٤ - إن الغنائم ليست هدفاً من اهداف الجهاد ولا يجوز ان تجعل كذلك كما لا يجوز التشدد مع الناس لهذا القصد ويجب قبول ظواهرهم اذا ما جنحوا الى السلم واطهروا الاسلام .^٢

٥ - ليس من مانع قرآني يمنع ولي امر المسلمين من التعاهد والتهادن مع الكفار سواء أكانوا اعداء محاربين ام لا . وإذا انعقد صلح بينهم فيجب على المسلمين ان يوفوا بعهودهم ولا يجوز لهم ان ينقضوها إذا ظل الطرف الثاني وفياً لها^٣ .

٦ - إن من واجب المسلمين تجاه من كف يده ولسانه عن الاسلام والمسلمين ولم يقاتلهم ولم يتحرش بهم ولم يظاهر عليهم عدواً ولم يطعن في دينهم ولم يصد عنه ان يعاملوه بالبر والقسط وليس لهم ان يقاتلوه بسبب كونه على غير دينهم^٤ .

٧ - ليس من اهداف الجهاد إبادة العدو المحارب بل إرهابه وإرغامه وخضد شوكرته . فاذا ما تحقق هذا الغرض وجب الكف عن القتل . وإذا ما طلب عدو صلحاً فيجب إجابته الى طلبه^٥ .

٨ - استعداد المسلمين واعدادهم ما امكن من قوة هو واجب جهادي لان في ذلك ارباباً للعدو ومنعاً لعدوانه .

اما النوع الثاني من الفصول القرآنية الجهادية فهو ما تضمن إشارات مسبهة او مقتضبة

(١) إقرأ الايات التالية : سورة النحل ١٢٥ والبقرة ٢٥٥ ويونس ١٠٨ - ١٠٩ وق ٤٥ والناشئة ٢١ - ٢٦ .

(٢) إقرأ آية النساء ٩٤ .

(٣) إقرأ آية الانفال ٦١ و ٧٢ والتوبة ٤ و ٧ .

(٤) إقرأ آيات سورة الممتحنة ٧ - ٩ .

(٥) إقرأ آية سورة محمد ٤ والانفال ٦١ .

الى الوقائع الجهادية . مع التنبيه الى ان القرآن لم يذكر او يشر الى جميع الوقائع ولم يقصد تسجيل الوقائع التي ذكرها او اشار اليها تسجيلاً تاريخياً وإنما كان القصد في ذلك الموعظة والعبرة والتنبيه والتحذير والتشريع .

وما جاء في القرآن غفلاً من الاسماء والاعلام والمواقع والاسباب والنتائج والتفصيلات لوقائع قد أوضحته روايات السيرة التي ذكرت كثيراً مما لم تقتضِ حكمة التنزيل ذكره أو الإشارة اليه في القرآن .

وقد نعتت الروايات الوقائع التي كانت تحت قيادة النبي بنعت النزوة والتي كانت تحت قيادة قواد اختارهم بنعت السرية . ولقد بلغ عدد الغزوات سبعة وعشرين وعدده السرايا سبعة وأربعين أي بعدل سبع وقائع في السنة لان مدة العهد المدني عشر سنين^١ . حيث يدل العدد رغم انه لم يقع في اكثر السرايا والغزوات اشتباك وقاتل على ما شغله الجهاد ووقائعه من حين عظيم وعلى ما كان من نشاط النبي والمسلمين في سبيل ذلك . وقد كان النبي حينما يخرج على رأس غزوة من غزواته يستخلف واحداً من أصحابه ليحلي بالمؤمنين وليكون نائباً فيهم عن رسول الله ومرجعاً لهم في ما يطرأ من الشؤون .

والمتمعن في احداث الوقائع يرى أن جميعها قد جرت في نطاق المبادئ والتقارير القرآنية حيث يجد الاسباب المبررة لها في القرآن وفي الروايات معا .

وإذا كان هناك روايات فيها شذوذ عن ذلك فالواجب التوقف فيها لان النبي عليه السلام لا يمكن أن يكون قال قولاً أو فعل فعلاً مناقضاً للمبادئ والتقارير القرآنية . وإذا كان في بعض الآيات ما يوم ذلك فان التروي فيها يزيد الوهم . ففي سورة الفتح مثلاً هذه الآية :

(قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سُدُّعُونَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ١٦)

وقد يوم ظاهرها ان المقصود هو قتالهم إلى أن يسلموا . ولكن ليس في الآية ما يمنع ان

يكونون القوم الاولى البأس الشديد من اعداء الاسلام ومن الذين بينهم وبين المسلمين حالة حرب وعداء .

وفي سورة التوبة آيات تعلق بخلة سبيل المشركين والكف عنهم على توبتهم واسلامهم واقامتهم الصلاة وايتائهم الزكاة مثل هذه الآية :

(فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ٥)

وهذه الآية (٥) فان تابوا واقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فاخلواكم في الدين ٥ .

غير ان هاتين الآيتين قد نزلتا من جهة في حق فريق من المشركين اعتدوا على المسلمين بدءاً ثم عوهدوا ولكنهم ظلوا مبشرين نية الفدر والنكت ولم يروا انفسهم مقيدين نحو المسلمين بأي عهد ولاذمة على ما تفيد سلسلة الآيات التي نزلت فيهم . وهي (١٣-١١) من المورة . فليس من الشذوذ في شيء ان يشدد مع هذا الفريق وان لا يقبل منهم إلا التسليم بدون قيد وشرط والدخول في الاسلام حيث يصبحون اخوانا للمسلمين ويضمن بذلك عدم نكبتهم وغدرهم . ولا يتضمن هذا معنى الاكراه على الاسلام بالقوة قصد وهدفا او مبدءاً كما هو واضح . وهذا بقطع النظر عن ان الشرك يمثل مظاهر الخطا والانسانية ورضوخها لقوى وافكار وعقائد سخيفة مغايرة للعقل والمنطق والحق ، وبقطع النظر عن ان الشرك كان يمثل نظاما جاهليا فيه التقاليد الجائرة والعادات المستكرهة والعصبيات الممقوتة . بينما جاء الاسلام ليخرج الناس من الظلمات الى النور ويرتفع بهم من الخسوف الى ذروة الكرامة الانسانية . ثم يقطع النظر عما في ذلك معالم ذلك الشرك السخيف وهذا النظام الجاهلي من مبررات لا تتحمل مراء ، وبقطع النظر كذلك عن ان الآيات لا تمنع بصراحة التعاهد معهم ثانية لو رأى النبي من بعده مصلحة في ذلك . ولقد جاء في آيت في سورة الانفال نعي عن الكافرين الذين عاهدوا النبي ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون .

وامر النبي بمقاتلتهم اذا تحقق من خيانتهم بعد اعلانهم بذلك . ومع ذلك فقد جاء فيها امر للنبي بالجنوح الى السلم معهم اذا جنحوا اليها

ومن عجيب امر المبشرين والمستشرقين المغرضين انهم برغم حراصة الآيات القرآنية وتوافقها وقوتها في صدد الجهاد وأهدافه وحدوده حينما ينعم المنصف فيها ويفسر بعضها ببعض ثم برغم الروايات المتساوقة مع ذلك كل التساوق بالنسبة لجميع الحركات الحربية مع كل فريق من الفرقاء الذين وقعت بينهم وبين المسلمين وقائع حربية أي العرب المشركين واليهود ونصارى مشارف الشام يظنون يقولون ان هذه الحركات انما كانت بقصد الغنائم تظميناً للطبيعة البدوية الكامنة في العرب حيث كان النبي يغري بها المنضوين الى الاسلام من جهة وبقصد اجبار الناس على الخضوع والذخول في دين الاسلام من جهة أخرى ، وان النبي بعد ان كان يقول انه ليس جباراً ولا مسيطراً وليس هو إلا مذكراً ونذيراً وبشيراً انقلب إلى زعيم سياسي وقائد عسكري ينشئ دولة ديكتاتورية ويثير الرعب في غير المسلمين ويغري أصحابه بالنهب .

وتهافت هذه الأقوال وما فيها من غرض وسوء نية وأدب ازاء في ما للقرآن من تقارير ومبادئ قوية صريحة متساوقة وما في الروايات من تساوق وتأيد ما يغنينا عن الرد عليها . وليس من محل لدعوى ان الروايات التي تذكر أسباب كل وقعة المستقة مع تقارير القرآن وهي الدفاع ومقاومة العدو ان مثله هي مصنوعة للدفاع عن النبي عليه السلام لأنه لم يكن هناك قضية من نوع القضية التي يثيرها المغرضون . فلا بد من أخذها على حقيقتها ولا بد من التوقف مما قد يكون هناك من روايات شاذة عن ذلك لأن المنطق يؤدي إلى ان النبي لا يمكن ان يكون فعل فعلاً أو قال قولاً مناقضاً للقرآن .

وليس في القرآن المكي ما يفيد منعاً لما كان من تطور موقف النبي وحالة الاسلام والمسلمين بعد الهجرة إلى المدينة . وقد كان هذا التطور طبعياً ومتسقاً مع العقل والمنطق والظروف ثم مع جميع المبادئ والتقارير القرآنية كل التساوق . وكانت فيه كل الخير للعرب والمسلمين وللإنسانية عامة من مختلف النواحي الدينية والسياسية والاجتماعية .

أما مسألة الغنائم فان القرآن أقام التكبير على من جعلها في إحدى الوقائع الحربية هدفاً ونبه بكل شدة على انها ليست كذلك في هذه الآية من سورة النساء :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا

لَمَنْ أَتَى إِلَيْكُمْ السَّلَامَ لَسْتُمْ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمٌ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَتَّبِعُوا
إِنْ اللَّهُ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (٩٤)

وجميع الحركات الحربية كانت للدفاع والنار ومقابلة العدوان بثله وحماية الدعوة
الاسلامية وحسب على ما سوف يأتي شرحه في سياقها . وإذا كان هناك احتمال وجود
رغبة في نهب قوافل قريش في الحركات الحربية الاولى بنوع خاص فان ذلك يأتي في الدرجة
الثانية . وليس فيه عند أي منصف أية غضاظة ومأخذ . فزعماء قريش واهل مكة اضطهدوا
المسلمين وضيقوا عليهم وآذوهم وفتنوا بعضهم وأجأوهم على النزوح عن وطنهم والتخلي عن ما
لهم فيه من أملاك وأموال . فليس هناك أي مأخذ عليهم إذا هم رغبوا في نهب قوافلهم .
ولقد كان المجاهدون في هذه الحركات من المهاجرين فقط . فلو كان نهب القوافل هو الدافع
الأقوى او المقصد الاول لكان استترك معهم اخوانهم من الانصار .

وأما ما كان يصيبه المسلمون من أملاك وغنائم في سياق الحركات الحربية الاخرى فهو
أمر طبيعي جداً ولكنه ليس على كل حال الدافع الأقوى بل لم يكن هو الدافع قط على
ما سوف يأتي شرحه بعد .

هذا ولسوف نقتصر في هذا المبحث على ذكر الوقائع التي كانت مع أهل مكة والقبائل
العربية المشركة . اما ما كان مع اليهود والنصارى فسنذكره في مباحث خاصة نعقدها على
موقف الطائفتين في العهد النبوي المدني .

فاولا : الوقائع الحربية بين المسلمين واهل مكة

ان اولى الآيات القرآنية المدنية في القتال آيات سورة الحج هذه :

(إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ
كَفُورٍ . أُوذِيَ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَالِمُونَ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ .

الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَغْيًا إِنَّهُمْ قَوْمُ اللَّهِ وَلَوْلَا
دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفُتَّتْ صَوَامِعُ وَيَعُ وَصَلَوَاتُ وَمَسَاجِدُ
يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ .
الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا
بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (٣٨ - ٤١)

ثم نزلت آيات سورة البقرة هذه :

(وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا
يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ . وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ
أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ
حَتَّى يُقَاتِلَوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَأَقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ .
فَإِنْ أَنْتَبَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ . وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ
وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ أَنْتَبَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ . الشَّهْرُ
الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنْ أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاغْتَدُوا
عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَانْقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ
(١٩٠ - ١٩٤)

ثم نزلت آيات سورة البقرة هذه :

(كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا
وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ

لَا تَعْلَمُونَ . يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ
وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى
يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ
وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ
النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ . إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا
فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ
(٢١٦ - ٢١٨)

ولقد وقعت نتيجة لذلك وقائع عديدة بين المسلمين واهل مكة ، منها ما نعت في
روايات السيرة بنعت السرايا وهي ما كانت بقيادة بعض اصحاب رسول الله . ومنها ما نعت
بنعت غزوات وهي ما كانت بقيادة النبي عليه السلام . ثم منها ما كان ثانوياً بأعداد قليلة لم
يقع فيها احداث جسيمة ودماء كثيرة ومنها ما كان رئيسياً ذا أثر ودوي شديدين .

وأولى ما ذكرته الروايات من الوقائع الثانوية قبل وقعة بدر الكبرى سرية عبدة بن
الحرث الى بطن رابع على رأس ثمانية اشهر من الهجرة . ثم سرية سعد بن ابي وقاص الى
الحرار بعد شهر . ثم غزوة النبي الى الابداء بعد ثلاثة اشهر . ثم غزوته الى بواط في الشهر
الثالث عشر . ثم غزوته الى ذي العشيرة في الشهر السادس عشر . ثم سرية عبد الله بن جحش
الى بطن نخلة في الشهر السابع عشر التي سمي فيها عبد الله بن جحش بأمر المؤمنين لأول مرة
في تاريخ الاسلام . وكان التعبير يعني قائدهم . وكان جميع أفراد هذه السرايا والغزوات
من المهاجرين فقط ^١ .

والروايات تذكر ان هذه الغزوات والسرايا كانت تخرج لاعتراض قوافل قريش وان
القوافل كانت تنجو فلا يقع قتال الا في الأخيرة حيث وقع اشتباك فقتل المسلمون احد
المشركين وامروا اثنين وغنموا القافلة .

(١) انظر طبقات ابن سعد ج ٣ ص ٤٣-٤٩ ؛ وابن هشام ج ٣ ص ٢٢٣-٢٣٨

وفي آيات الحج جملة (أذن للذين يقاتلون) وفي آيات البقرة الاولى جملة (وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم) وفي آيات البقرة الثانية جملة (ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا) حيث تلهم هذه الجملة ان اهل مكة هم الذين بدأوا بالقتال بشكل ما لم تروه الروايات . وهذا لا يعني ان هذا هو المبرر الاوحد لما كان من تلاحق الحركات ففي ما كان من اهل مكة من ظلم وعدوات وبغي وأذى ضد المسلمين وازهاق لأرواح بعضهم وفتنة بعضهم عن دينه ومؤامرتهم على اغتيال النبي وإجاليهم النبي والمسلمين الى الخروج من وطنهم مبرر قوي لاعتبار حالة الحرب قائمة بينهم وبين المسلمين واقدام المسلمين على التحرش بهم ونهب قوافلهم وقتل من يمكن قتله منهم ولو لم يصح تخميننا بدء اهل مكة بالقتال . وفي آيات الحج والبقرة يبدو هذا المبرر قوياً .

ومن الاحداث التي يحسن تسجيلها موادة النبي عليه السلام لرئيس بني ضمرة مخشى بن عمرو وقومه في اثناء مسيره لغزوة الابداء على الوقوف موقف المجاهد المسالم فلا يغزون المدينة ولا يعينون عدواً ولا يكثررون عليه جمعاً فكان هذا اول عهد موادة بين النبي وبعض المشركين بدون سابق حرب وعداء . ومن ذلك ان الاشتباك الذي كان بين قافلة قريش وسرية عبد الله بن جحش كان في يوم اشبه انه اول رجب الذي كان من الاشهر الحرمه . فاستغلت قريش الحادث وأخذت تشيع بين العرب ان محمداً واحبابه استحلوا الشهر الحرام وسفكوا فيه الدم وأخذوا فيه الاموال وأسروا الرجال . وغضب النبي على قائد السرية وافرادها وقال لهم ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام وتوقف عند توزيع الغنيمة وتوتر الموقف حتى فرجه الله بآيات سورة البقرة التي أوردناها قبل قليل فيها تبوير لما وقع من المهاجرين المجاهدين .

والمبادران النبي عليه السلام لم ينتدب الانصار للخروج في هذه السرايا والغزوات لأنها تعد بشكل ما عملاً محرّشاً او هجوماً في حين ان العهد الذي بينه وبينهم ان يدافعوا عنه ويحموه بما يدافعون ويحمون نساءهم وأولادهم .

ولقد قال الدكتور هيكل^٢ انه يرى ان من اهم مقاصد هذه الغزوات والسرايا ازعاج قريش واجبارهم على التروي في موقفهم وحسبان حساب تعطل طرق تجارتهم فيجنحون الى

(١) ابن سعد ج ٣ ص ٤٦

(٢) حياة محمد طبعة ثانية ص ٢٣٨ وبعدها

المسألة والتفاهم مع النبي أكثر منها الحرب والانتقام لأن أكثرها كانت حركات خاطفة وبأعداد قليلة . وكانوا يعلمون ان قوة مكة كبيرة ليس لهم قبل بها .

وفي بعض هذا القول وجهة تؤيدها آيات القرآن حيث وردت في آيات البقرة التي أوردناها قبل جملة .

(فَإِنْ أَنْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

وجملة :

(فَإِنْ أَنْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ)

وقد وردت في آيات من سورة الأنفال التي نزلت بعد وقعة بدر حيث جاء في الآية ١٩ :

(إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا خَيْرٌ لَكُمْ)

وفي الآية ٣٨ :

(قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ)

والآيتان تعنيان اهل مكة .

غير ان هذا لا ينفي قصد وفكرة الحرب والانتقام ايضاً . والسرعة وقلة العدد ليستا مهمتين لأنها كانتا حسب الظروف . وكان العدد يكثر ويقل وفق الاخبار التي تتوفر عن قوة العدو .

ثم كانت وقعة بدر الكبرى في السابع عشر من رمضان من السنة الهجرية الثانية ١ :
وبدر ماء بين مكة والمدينة كان يقام عندها سوق . فقد علم النبي ان قافلة تجارية كبيرة ذاهبة الى مكة فقال لأصحابه اخرجوا اليها عسى الله ان ينجها لكم . فخرجوا تحت قيادته وكانوا نيفاً وثلاثمائة منهم نحو ٢٤٠ من الانصار وباقيهم من المهاجرين . وهي أول

(١) انظر ابن معدج ٣ ص ٥٠-٦٦ وابن هشام ج ٢ ص ٢٤٣-٤٣٣

مرة يخرج الانصار في حركة حربية . وعلم ابو سفيان رئيس الركب بخروجهم فأرسل يستنجد بمكة وسار في طريق آخر فنجت القافلة . وعرف النبي ان القافلة قد نجت وان نجدة كبيرة قد خرجت من مكة . ومع ان النجدة عانت بنجاة القافلة واقترح بعض زعماء مكة العودة بل وعاد بعضهم فان ابا جهل ابي وقال والله لا نرجع حتى نזור بدرأ فنقيم عليها ثلاثاً ننحر الجزور ونطعم الطعام ونسقي الخمر وتعزف علينا القيان وتسع العرب بمسيرنا وجمعنا فلا يزالون يهابوننا أبداً بعدها . ولقد اقترح بعض اصحاب رسول الله العودة مادامت القافلة وهي الغرض الاول قد نجت غير ان آخرين تحمسوا لما علموا ان حملة قريش لم ترجع وانها في موقف التحدي للمسلمين ورأوا في رجوعهم معنى الفرار وابدوا استعدادهم للقتال . وطلب النبي عليه السلام من الناس الرأي فكان المهاجرون يؤيدون فلم يكتف وظل ينشد الرأي من الناس فقام سعد بن معاذ رضي الله عنه احد زعماء الانصار الكبار وقال كأنك يا رسول الله تريدنا قال اجل — وعلل راوي الخبر ذلك بأن الانصار ائما عاهدوه على الدفاع عنه — فقال يا نبي الله امض لما أردت فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما بقي منا رجل واحد . فانشرح صدر النبي وقال سيروا على بركة الله فإن الله وعدني احدي الطائفتين . فوالله لكأنني انضرت الى مصارع القوم . وكان عدد حملة المشركين اضعاف حملة النبي عدداً . ووقع الاشتباك فثبت الله المسلمين وشملتهم عنايته وروحانيته حتى تم لهم النصر وقتل في المعركة نحو سبعين من المشركين فيهم عدد غير يسير من صناديدهم منهم ابو جهل وعتبة وشيبة ابنا ربيعة وامية بن خلف وزمعة بن الاسود واخواه والعاص بن عساف ونبیه ومنبه ابنا الحجاج وحظلة بن ابي سفيان والعاص بن سعيد العاص والحارث بن عامر والحارث الحضرمي وغيرهم . وأسر نحو سبعين . وكان عدد شهداء المسلمين اربعة عشر ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار .

وتعد هذه الواقعة من ناحية معناها ونتائجها بقطع النظر عن العدد فتحاً عظيماً في تاريخ الاسلام بسبب الخبرة الشديدة التي نزلت بها على صفوف مشركي مكة والدوي العظيم لحصر المسلمين عليهم .

ولقد روي ان النبي عليه السلام كان اثناء المعركة يضرع الى الله هائفاً (اللهم ان غلبت هذه الفئة فلن تعبد في هذه الارض) مما فيه دلالة على ما كان يعلق عليها من أهمية وعلى ما كان لانتصار المسلمين فيها من مدى خطير .

وسطر كبير من سورة الانفال تضمن الاشارة الى هذه الوقعة والتنويه بمداهما^١ .
والتعن في آيات هذه السورة يدعم ما قلناه من خطورة الوقعة ومداهما ونتائجها . وفيها
تنويه وتذكير بما كان من تأييد الله للمسلمين بعنايته وملائكته حتى تم لهم النصر على قلة
عددهم وكثرة عدوهم

والسورة استهلّت بذكر الانفال (الغنائم والاسلاب) بأسلوب يدل على ان المجاهدين
اختلفوا في كيفية توزيع الغنائم . وقد احتوت السورة تشريعاً أزال الخلاف وهو توزيع
اربعة اقسام الغنائم على المجاهدين والخمس الآخر لله ورسوله وذوي القربى واليتامى والمساكين
وابن السبيل حيث كان المجاهدون يجهزون ويمونون انفسهم بأنفسهم .

وبهذه الوقعة امتزج دم المهاجرين بدم الانصار واشتد توطد الوحدة الاسلامية بينهما .
وقد اثبت المسلمون فيها على ان الغنائم لم تكن الحافز على الاشتباك مع العدو ولكنه كان
قصد الارغام .

وبما روي في سياق وقعة بدر وفيه تشريع نبوي عظيم ان النبي عليه السلام نزل منزلاً
فسأله الجباب بن المنذر عما اذا كان ذلك بأمر الله ام بتدبير منه فقال له بل بتدبير مني
فقال له : هذا ليس بمنزل فانهمض بالناس حتى تأتي أدنى الماء فنزله ثم تغور ما وراءه من القلب
ثم نبني عليه حوضاً فذلاءه ماء ثم نقاتل القوم فتشرب ولا يشربون فقال له النبي (لقد
اسرت بالرأي) وفعل بالمشورة .

وتقد اعلن النبي عليه السلام استعداداه لأخذ الفداء عن الاسرى ومنع التمثيل بهم
ووصى بهم خيراً ولم يقتل منهم إلا عقبة بن معيط والنضر بن الحارث لشدة ما كان من
اذاهم للنبي والدعوة . وكان فداء الاسرى برأيه ورأي ابي بكر خلافاً لرأي عمر الذي
اقترح قتلهم وقد عاتب الله النبي على هذا الرأي في آيات سورة الانفال هذه :

(مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يُشْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ
عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . كَوْلَا كِتَابٌ مِنْ
اللَّهِ سَبَقَ لَكُمْ فِيهَا أَخَذْتُمْ عَذَابَ عَظِيمٍ . فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالاً

(١) الايات ١ - ١٩ و ٤١ - ٤٨ :

طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٦٧ - ٦٩)

وواضح ان التنزيل القرآني لم يمنع الأسر وإنما به إلى أنه لا ينبغي أن يكون إلا في ظرف تكون هيئة النبي والمسلمين قد توطدت . ولقد جاء في هذا الظرف . فأنزل الله هذه الآية في سورة محمد :

(فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ . فَإِذَا أَثْنَتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوِثَاقَ فَمَا مَنَّا بَعْدُ وَإِنَّا فِدَاءٌ حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا
الخ ... « ٤ »)

وقد تراوح الفداء بين أربعة آلاف وألف درهم إلا من لا شيء معه ولم يفاده أهله فمن النبي عليه . ومنهم من فعل معه ذلك لقاء تعليم عدد من أطفال المؤمنين القراءة والكتابة .

ولقد كان وقع الهزيمة وهلاك من هلك من المشركين عظيماً على قريش حتى لقد دفع الغيظ صفوان بن أمية إلى الاتفاق مع عمير بن وهب على ان يسد عنه دينه مقابل تعهده بالذهاب الى المدينة واغتيال النبي عليه السلام . ولقد ذهب فعلاً فاستبته المسلمون فيه فأخذه إلى النبي معتقلاً فأخبره النبي بما جاء من أجله فلم يسعه إلا أن يعترف بصلة النبي بالله لأن امر الاتفاق كان سرّاً بينه وبين صفوان فقط ثم أسلم واستأذن في العودة الى مكة لقضاء مصالحه . وقد أسلم على يديه ناس كثير^١ .

وبعد أيام من وقعة بدر ذهب عمير بن عدي في جوف الليل الى بيت امرأة من بني أمية اسمها عصماء بنت مروان زوجة يزيد بن زيد الخطمي . وكانت تعيب الاسلام وتؤذي النبي وتحرض عليه وتقول الشعر فوضع سيفه على صدرها حتى انقذه من ظهرها ثم صلى الصبح مع النبي فسأله أقتلت ابنة مروان قال نعم فهل علي من ذلك شيء فقال له : (لا ينتطح فيها عنزان)

(١) انظر ابن هشام ج ٢ ص ٣٠٦ - ٣٠٩

وقد اورد ابن سعد هذا الحادث الطريف بعنوان سرية بن سعد^١ . وظاهر الحال يدل على ان عصماء كانت تقيم في المدينة أو في إحدى ضواحيها .

ولقد أراد أبو سفيان الذي كان يتولى قيادة جيش مكة ان ينتقم من هزيمة بدر بغارة خاطفة على المدينة فيخرج في مني راكب حتى بلغها فحرق بعض نخيلها وقتل رجلين وجدهما في حرث لهما وانصرف . وندد الناس بهم فخرج النبي في اثره على رأس ثلثة من أصحابه فلم يدركه . وسميت هذه الغزوة بغزوة السويق لأن ركب ابي سفيان اخذوا يلقون ما معهم من سويق لتخفف عوجر المسامون في طريقهم كثيراً منه . وكانت الوقعة في الشهر الثاني والعشرين من الهجرة^٢ .

وبعد قليل خرج النبي على رأس حملة يريد قريشاً رداً على غارة ابي سفيان فوصل الفرع واقام بها شهرين متربصاً ثم عاد ولم يلتق كيداً^٣ .

بعد قليل ارسل النبي حملة بقيادة زيد بن حارثة لاعتراض عير لقريش في ارض نجد . فلما اقبلت على العير فر رجالها الذين كان منهم صفوان بن امية وحويطب بن عبد العزى وعبد الله بن ابي ربيعة من رجال قريش البارزين . وقد فروا بأرواحهم واستولى زيد على العير الذي بلغت قيمة ما يحمله مئة الف درهم . وقد اسرت الحملة دليل العير فعرض عليه الاسلام فأسلم^٤ .

ثم كانت الوقعة الكبرى التي عرفت بوقعة احد وهو اسم جبل قريب من المدينة وقعت الوقعة في سفحه الجنوبي . وكانت في الشهر الثاني والثلاثين من الهجرة وفي شهر شوال ، حيث جمعت قريش جموعها وزحف على المدينة بثلاثة آلاف محارب فيهم ٧٠٠ دارع و ٢٠٠ فرس و ٣٠٠٠ بعير لأخذ ثأرها .

والمستفاد من الروايات^٥ ان النبي عليه السلام حينما بلغه خبر الزحف المكي استشار

(١) ابن سعد ج ٣ ص ٦٦—٦٧

(٢) ابن سعد ج ٣ ص ٦٩ وابن هشام ج ٢ ص ٤٢٢—٤٢٣

(٣) ابن هشام ج ٤ ص ٤٢٠—٤٢٦

(٤) ابن سعد ج ٣ ص ٧٥

(٥) ابن سعد ج ٣ ص ٧٨—٩١ وابن هشام ج ٣ ص ٣—١٥٩

المسلمين فأشار بعضهم بالتحصن في المدينة واتخاذ خطة الدفاع وأشار آخرون بالخروج وعدم الظهور بمظهر الخائف . وكان كبير المنافقين وبعض رجاله من الرأي الاول . وقد جنح النبي في اول الأمر الى هذا الرأي غير ان الاكثريّة مالت الى الرأي الثاني فوافقهم النبي وتنبأ بالحرب وأمر الناس بالتهيؤ والخروج فخرجوا في نحو الف ومعهم المنافقون ثم انسحب كبير المنافقين ابن ابي وقال انه اطاعهم وعصاني ولا أرى أن قتالا سيقع وعاد فعاد معه نحو ثلاثئة . وكاد بطنان من الخزرج ان يتأتوا وينسحبوا مع المنسحبين ولكن الله ثبتهم . وكان عدد الثابتين نحو ربع عدد الغرّة . ولقد رتب النبي صفوف المسلمين وأمر الرماة باحتلال مكان مرتفع من وراء الميدان وشدد عليهم بعدم مزايلة مكانهم لحماية ظهر اخوانهم . ودارت رحى القتال فوقع الرعب في قلوب المشركين ولاحت عليهم امارات الهزيمة والاضطراب . ورأى الرماة ذلك فوسوس الشيطان لبعضهم بالنزول حتى ينالوا نصيباً من الاسلاب . ولما رأى قائد فرسان المشركين خلو مكان الرماة اغتتم الفرحة فدار بجيده من وراء المسلمين وفاجأهم فاضطربوا وذعروا ثم انهزموا لا يلبون على شيء ووقع النبي في حفرة واصابه بعض الجروح في رأسه وأسنانه . وظن الناس انه قتل فازداد المسلمون اضطراباً وذعراً .

ولقد تجلّت شجاعة النبي في هذا الظرف فثبت في ميدان المعركة رغم ما اصابه وحوله بعض اصحابه واخذ يهتف بالمنهزمين حتى عادوا ووقفوا موقف المستميت . والقى الله في قلوبهم الامن وفي قلوب اعدائهم الخوف فاكتفوا بما كان ولم يقع اشتباك آخر بين الفريقين . وقد استشهد من المسلمين نحو ثمانين اكثرهم من الانصار ومن أبرز الشهداء حمزة عم النبي .

وقد روي ان هنداً زوجة ابي سفيان حرّضت عبداً لها اسمه وحشي على قتله مقابل عتقه وكان بارعاً في رمي الحربة فقتله انتقاماً لأبيها وعمها وابنها الذين قتلوا في بدر . وقتل من المشركين نحو ثلاثة وعشرين فيهم بعض حناديد قريش مثل هشام بن امية بن المغيرة والوليد ابن العاص بن هشام وامية بن ابي حذيفة واي بن خلف الجمحي وغيرهم . والاخير قد قتله رسول الله بحربة رماء بها فكسرت اضلاعه فلم يلبث ان هلك .

وبما روي ان ابا سفيان هتف قائلاً يوم بيوم بدر واخذ يرتجز (اعل هبل . اعل هبل) فرد عليه المسلمون بأمر النبي (الله اعلى واجل) فهتف (لنا العزى ولا عزى لكم) فردوا عليه (الله مولانا ولا مولى لكم) وانصرف الفريقان عن بعضها بعد تواعد على اللقاء في العام القابل على بدر . ولقد جاء من اخبر النبي عليه السلام ان قريشاً توقفت واعترمت الكرة

ثانية فنادى النبي بالخروج وخروج على راس اصحابه وهو مجروح حتى بلغوا حمراء الاسد فوجدوا قريشاً قد انصرفت فعادوا بدون لقاء^١ ، ويدل هذا على ما كان النبي واصحابه يشعرون به من قوة نفس وجنان وايمان وان ما كان في الجولة الثانية من وقعة احد من هزيمة منوا بها انما كانت بسبب الخطأ الذي اخطأه الرماة ومزايلتهم لمكانهم الذي امرهم النبي بالتزامه .

ومما روي ان بعض الذين ايدوا فكرة الخروج ظنوا انهم استكروها النبي فقالوا له ما كان لنا ان نكرهك على الخروج فافعل ما ترى فلن نخالفك . وكان قد لبس عدة الحرب فقال (لا ينبغي لنبي اذا لبس لأمته ان يضعها حتى يحكم الله بينه وبين اعدائه فانظروا ما امرتكم به فافعلوه وامضوا على اسم الله فلكم النصر ما صبرتم .

حتى مما روي انه كان مع قريش بعض نساءهم وفي طبيعتهم هند زوجة ابي سفيان فكان يضربن بالدخول ويحرضن ازواجهن ويدكرنهم بقتلى بدر .

ولقد نزل فصل طويل من سورة آل عمران في هذه الواقعة^٢ . وما اقتبسناه من ابن هشام وابن سعد آنفاً متسق مع مضامين الفصل الذي احتوى على ما يدل على ان المسلمين قد الم بهم حزن والم شديدان من نتائج المعركة . وفي الفصل تقرير بأن انقلاب المعركة ضد المسلمين بعد ان صدقهم الله وعده ونصرهم على عدوهم في جولاتها الاولى انما كان بسبب ما بدا من بعض المجاهدين من مخالفة النبي وطمع في الغنيمة واختلاف وتنازع . وفيه حملة شديدة على المنافقين الذين لم يكتفوا بالانسحاب بل استغلوا ما الم بالملخصين فصاروا يقولون لهم لو اطعتمونا ما قتلتم على ما جاء في الفصل .

ولقد احتوى الفصل آيات عديدة فيها معالجة شافية بجميع الحالات التي نشأت من ظروف الواقعة وتناجها المضة يمكن ان تكون معالجة شافية لكل حالة مماثلة تلم بالمسلمين في كل ظرف حيث احتوت بأسلوب رائع قوي تطميناً وبشرى وتهدة وتعلية ثم استنكاراً لما كان من هزيمة وفوضى بسبب شائعة قتل النبي وبثاً للقوة والعزيمة والاقدام في نفوس المسلمين وتلقيناً لهم ان واجب الاستمرار في الدفاع عن الاسلام ونشره ورفع شأنه واجب عام دائم لا يجوز ان يقعدهم عنه او يجعلهم يقصرون فيه اي حادث حتى قتل النبي او موته .

(١) ابن سعد ج ٣ ص ٩٠—٩١

(٢) الايات ١٦٤—١٧٩

هذا وفكرة غزو المكين للمدينة والحشد الكبير الذي حشدوه والحشد القليل الذي قوبلوا به ، كل ذلك يدل على ان المسلمين ما يزالون في حالة ضعف وقلة وعلى ان المكين يعرفون ذلك حق المعرفة فضلا عن دلالة على تفوق مكة على المدينة في القوة والبأس بصورة عامة . ولعل تفكير بعض زعماء المدينة بالتحصن والدفاع وعدم الخروج لقاء الغزاة على ان اهل المدينة يعرفون كل ذلك حق المعرفة ايضا .

وموقف المنافقين في ظروف الواقعة تردأً وتخلفأً وانسحاباً وتأثيراً وتهويشاً وتظاهراً على غير ما يليق ووسوسة للمخلصين واستغلال المهم كل ذلك يدل على انهم كانوا اقوياء الى حد ما وانهم كانوا مستشعرين بقوتهم وان المخلصين كانوا يشعرون بذلك ايضا .

ولقد كان من نتائج صدمة الواقعة الشديدة ان تزلزل بعض المخلصين الذين كان من رايهم عدم الخروج حتى اخذوا يقولون (لو كان لنا من الامر شيء ما قتلنا ههنا) على ما جاء في الفصل الذي جاء فيه امر للنبي عليه السلام بالعفو عنهم والاستغفار لهم ومشاورتهم في الأمر وتنويه بما كان من رحمة الله بالنبي ان جعله ليناً بعيداً عن الغلظة والفضاضة وان ذلك هو الذي جعلهم يظنون ملتفين حوله في اية حال . وفي ذلك تعليم رباني مستمر التلقين في كل ظرف ولكل زعيم .

وبعد عام خرج النبي على رأس ألف وحسنة من اصحابه لقاء قريش حسب الموعد الذي تواعدوا عليه بطلب ابي سفيان . وكان العام عام جذب فافترح بعض المخلصين عدم الخروج فأبى النبي حتى لا يظن العدو فيهم ضعفاً . والعدد قد يدل على نمو القوة الاسلامية خلال العام . وقد خرج ابو سفيان في الفين فلما وصل الجنة قل ارجعوا فاني راجع فان العام جذب ولا يصلح لنا الا عام خصب غدياق . وقد انتظر النبي اياماً في بدر فلما لم يأت جيش مكة عاد بدون ان يلقى كيداً^١ .

وبعد سنة كانت وقعة الخندق او الاحزاب الكبرى^٢ حيث جمعت قريش جميع قوتها واحزابها وحلفاءها حتى بلغ عددهم عشرة آلاف اربعة آلاف منهم من مكة والباقيون من حلفائها واحزابها وزحفت نحو المدينة لاستئصال شأفة النبي والمسلمين . وسُميت بوقعة الخندق

(١) ابن سعد ج ٣ ص ١٠٠—١٠٢

(٢) انظر ابن سعد ج ٣ ص ١٠٨—١١٦ وابن هشام ج ٣ ص ٢٢٩—٣٠١

لأن النبي والمسلمين التزموا خطة الدفاع وحفروا خندقاً حول المدينة ليحولوا دون اقتحام الغزاة والاستبناك مع العدو لكثرة عدده وعدده .

وقد كان اليهود خلع كبير في هذه الحركة . فان الامر بينهم وبين النبي قد تطور حتى صار موقف عداء صريح هدد المسلمين بالخطر على امنهم وسلامتهم فاجلى النبي نتيجة لذلك يهود بني قينقاع ثم يهود بني النضير عن المدينة ، وقد ذهب بعض زعمائهم من بقي في المدينة من بني قريظة ومن جلا الى خيبر ووادي القرى الى مكة ثم الى قبائل غطفان وسلم فحرضوا زعماءها وتحالفوا معهم فصار المسلمون بين نارين من امامهم ومن خلفهم فاضطربوا وزلزلوا ووقف المنافقون موقف الشامت المعوق على ما ذكرناه في فصلهم فازداد الامر شدة وحرجاً ، وكان ذلك مما جعلهم يفضلون خطة الدفاع ويحفرون الخندق ويتبيثون من ورائه لقتال ويرفعون النساء والاولاد الى الآكام في الهضاب والجبال . وكان عددهم ثلاثة آلاف حيث يدل على ازدياد قوتهم خلال هذه السنة ايضاً .

ونتيجة لهذه الخطة لم يقع بين الطرفين إلا مبارزات فردية وتراشق بالنبال . وقد امتد حصار الزاحفين نحو شهر وازعجتهم العواصف ودب بينهم وبين اليهود ريبة ونفور بسبب سعي سعاد زعيم مسلم بكم اسلامه من غطفان اسمه نعيم بين الطرفين فنادى منادي ابي سفيان اني راحل ثم ركب ناقته وسار فارتحل الناس في اثره وكفى الله المؤمنين القتال .

وفي سورة الأحزاب آيات^١ تشير الى هذه الواقعة وما ألم بالمسلمين من الزحف من هم وفرع وما كان من المنافقين من موقف لئيم وما كان من تأييد الله وفرجه فيما كان من الريح والجنود الربانية التي سلطها الله على العدو وارتداده بغيظه دون ان ينال خيراً .

ولقد كان ارتداد الاحزاب عن المدينة نصراً عظيماً بل من اعظم ما تم للنبي عليه السلام ودعوته من نصر وتوفيق .

وبما لا رتاب فيه انه كان ذا اثر كبير فيما تم من تعالي الاسلام واتساع نطاقه وازدياد قوته فيما بعد ، وانه كان له اثر سلبي وإيجابي في آن واحد . اذ جعل العرب المتربصين والاعداء والمنافقين في المدينة يرون فيه دلالة تأييد الله لرسوله واتباعه ودينه ، فيقف الاعداء عند حدهم ويكف المنافقون عن موافقهم او الغلو فيها ويبدل المتربصون موقفهم من التربص

الى الاقبال .

ومن حقائق وقائع السيرة النبوية ان الدعوة الاسلامية والقوة الاسلامية قد اخذتا بعد هذه الواقعة وبعد التكنيل الساحق ببني قريظة الذي تم عقبها وشم آخر من بقي في المدينة بالازدياد وان قوة المنافقين قد اخذت بالضمف والتضاؤل وان لمكيين لم يفكروا في متابعة غزوهم وان النبي عليه السلام قد رأى من نفسه القوة وفي الميدان مجالا في السنة التالية على اعتزام زيارة الكعبة وان المكيين قد رأوا فيه القوة ففتحوا الى مسالته وعقدوا معه صلح الحديبية . وكل هذا يدعم ما نوهنا به من اثر هذا النصر العظيم السلمي والايجابي .

وبعد ارتداد الاحزاب علم النبي بمسير عير لقريش فارسل سرية بقيادة زيد بن حارثة فلقبها في مكان اسمه العيص فاستولى عليها . وكان فيها لعصفوان بن امية فضة كثيرة ١ .

وبعد قليل اتفق ابو سفيان مع اعرابي على ان يذهب الى المدينة ويقتال النبي . ولمسا وصل هذا ودخل على رسول الله استب به فامسك به بعض اصحاب رسول الله فاذا خنجر يسقط منه فقال له النبي اصدقني من انت وانت آمن فاجبره بخره واسلم ٢ .

ورأى النبي ان يقابل الكيد بمثل فارسل عمرو بن امية الصخري وسلمة بن اسلم ليقتلا ابا سفيان ولكن معوية بن ابي سفيان عرف عمروا فاجبره فريشا فخره وطلبوه وكان فاتكاً في الجاهلية فاستطاع ان ينجو مع رفيقه وفي الطريق التقى بمشركين فقتلها ثم التقى برسولين لقريش ارسلتهما ليتجسسا اخبار النبي فقتل احدهما وامر الآخر ٣ .

صلح الحديبية ومداد

اما نبا الزيارة وصلح الحديبية فالمستعاد عنهما من الروايات ٤ وآيات سورة الفتح التي نزلت في صددهما ان النبي عليه السلام رأى في منامه انه دخل المسجد الحرام مع المسلمين آمنين وأدوا الزيارة وتحملوا من الاحرام بحلق الشعر او تقديده حسب تقاليد الزيارة والحج

(١) ابن سعد ج ٣ ص ١٣٠

(٢) نفس المصدر ص ١٣٦—١٣٧

(٣) نفس المصدر ص ١٣٧

(٤) ابن سعد ج ٣ ص ١٣٩—١٥٠ وابن هشام ج ٣ ص ٣٥٥—٣٧١

فاعتبر ذلك إلهاماً من الله وأعلن للمسلمين عزمه على الزيارة وأنتدبهم الى صحبته . وقد خرج معه نحو الف واربعمئة سائقين امامهم الانعام التي سوف ينجزونها قربته والتي كانت تسمى « الهدي » ولما وصلوا قرب مكة أرسل اليه المكبيون ينذرونه بالتوقف وصدوا الهدي عن الوصول الى محله حيث كبر عليهم ان يتحداهم .

ومما روي ان ناقته بركت في الحديبية التي سميت الرقعة باسمها والتي كانت منزلاً فيه ماء فاستلمه من هذا وجوب التوقف وقال « والذي نفسي بيده لا تدعوني قريش اليوم الى خطة فيها تعظيم حرمان الله وضلة رحم إلا اجبتهم إليها . وحاولت قريش ان تصده بالوعيد والتخويف فإرسلت اليه اكثر من زعيم كأنهم آتون من عند أنفسهم منهم زعيم خزاعة ومنهم زعيم الاحابيش ومنهم زعيم ثقيف يخبرونه بجمع قريش جموعاً وتصميمهم على منعه وينصحونه بعدم العناد والاصرار فكان يجيبهم انه انما جاء للزيارة وليس للقتال وانه يطلب من قريش التهادن والسماح له بالزيارة والتخلى بينه وبين العرب فإن هلك كفوا مؤمنته وان اظهره الله كانوا في الحيار وان امكنوا في العناد وارادوا القتال فسوف يقاتلهم حتى تنفرد سافقته » حتى يقتل « لينفذ الله امره . وأرسل من جانبه عثمان بن عفان ليخبر الناس برغبته عن القتال ورغبته في الزيارة فأبطأ في العودة وشاع ان قريشاً قتلته او حبسته . وحينئذ دعا النبي المسلمين الى مبايعته على الثبات والتضامن تحت شجرة آوى اليها وعرفت البيعة ببيعة الشجرة وبيعة الرضوان وظهر على المسلمين وهم يبايعون الحماس والعزيمة والتصميم على الموت في سبيل نصر الله ورسوله ودينه مما جعلهم مظهر ثناء الله ورضائه في آية الفتح هذه « لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم وأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً ١٨ »

ولم يلبث عثمان ان عاد وتيفت قريش من قوة عزيمة النبي واصحابه وتصميمهم فلانته وارسلت احد زعمائها سهيلاً بن عمرو الى النبي لمفاوضته في عقد هدنة مزوداً بشروط شديدة مثل تأجيل الزيارة الى العام التالي واعادة من يأتي النبي مسلماً من مكة على رغم امله وعدم اعادة من يلحق بمكة من المسلمين مرتداً وقبل النبي الشروط بعد مفاوضات وجذب ودفع واتفق على ان تكون مدة الهدنة عشر سنين . وكتب بذلك عهد ختمه النبي بخاتمه ووقعه سهيل عن قريش وحينئذ امر النبي بذبح الهدي وحلق الشعر او تقصيره تحللاً من الاحرام ثم نادى بالعودة الى المدينة . وفي اثناء المفاوضة حاول بعض فرسان قريش اخذ المؤمنين على غرة فعلم النبي بمركتهم وارسل من كمن لهم في الطريق واجبط الحركة واسر المسلمون

ثم من عليهم وأطلقهم . وفي أثناء كتابة العقد جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو ويرسف بالحديد وكان شاباً مسلماً حبسه ابوه عن الهجرة وقيده فقال الأب للنبي لقد تم الاتفاق قبل أن يأتيك فليس لك أن تجيره فقال له صدقت وسلمه إلى أبيه .

ولقد أملى النبي العهد على علي بن أبي طالب فكتب باسم الله هذا ما صالح عليه محمد رسول الله فقال سهيل لا تعرف هذا فاكتب « باسمك اللهم هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله » فمحا النبي ما كتب أولاً وأمر بكتابة ما طلب سهيل أن يكتب . حيث انطوى في الحادثين تشريع نبوي عظيم .

وهذا ما روي من الاتفاق الذي تم توقيعه (هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله وسهيل ابن عمرو . واصطاحا على وضع الحرب عشر سنين . يأمن فيها الناس ويكف بعضهم عن بعض على انه لا إسلال ولا إغلال . وان بيننا عيبة مكفوفة . وانه من احب ان يدخل في دين محمد وعقده فعل . ومن احب أن يدخل في عهد قريش وعقدها فعل . وانه من أتى محمداً منهم بغير اذن وليه رده اليه . وانه من أتى قريشاً من اصحاب محمد لم يردوه . وان محمداً يرجع عامه هذا باصحابه ويدخل قابلاً في اصحابه فيقيم بمكة ثلاثاً لا يدخل بسلاح إلا سلاح المسافر . السيف في القرب . شهد ابو بكر بن ابي قحافة وعمر بن الخطاب وعبد الرحمن بن عوف وسعد ابن ابي وقاص وعثمان بن عفان وابو عبيدة بن الجراح ومحمد بن مسleme وحويطب بن عبد العزى ومكرز بن حفص بن الأحنف . وكتب علي) وحفظت نسخة من هذا العقد . عند النبي واخذ نسخة منه سهيل بن عمرو ١ .

ولا نشك في ان هذا النص مقارب لما كتب ان لم يكن بحروفه وان الروايات ظلت تتداوله الى ان دون في أول ما دون من النصوص في القرن الاول أو الثاني .

ولقد كبر على بعض المخلصين ومنهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه هذه الشروط فأنزل الله سورة الفتح التي سمت الصلح نصراً مبيناً ونوهت به تنويهاً عظيماً مؤيدة للنبي عليه السلام فيما أبرم .

ولقد كان حقاً فتحاً عظيماً بل انه ليصح ان يعد من الاحداث الحاسمة الكبرى في السيرة النبوية وفي تاريخ الاسلام وقوته وتوطده . فقد اعترفت قريش بالنبي والاسلام وقوته

(١) ابن سعد ج ٣ ص ١٤١—١٤٢ (لا إسلال ولا اغلال) لا سرقة ولا غزو وظاهراً وخفياً .

وكيانهما واعتبرت النبي والمسلمين انداداً لها بل دُفِعَتْ عَنْهَا بِالنَّبِيِّ هِيَ أَحْسَنُ فِي حِينِ انْهَازَتْ
 الْمَدِينَةَ فِي سَنَتَيْنِ مَرَّتَيْنِ وَكَانَتْ الْغَزْوَةُ الْأُخِيرَةُ قَبْلَ سَنَةِ مِنْ هَذِهِ الزَّيَارَةِ وَبِحُشْدٍ عَظِيمٍ
 لِنَسَاحِلِ شَأْفَتِهِمْ بِمَا أَثَارَ فِي نَفُوسِهِمُ الْمَلْعَ وَالْأَضْطِرَابَ . وَلِهَذَا شَأْنٌ عَظِيمٌ فِي نَفُوسِ الْعَرَبِ
 الَّذِينَ كَانُوا يَرُونَ فِي قَرِيشِ الْأَمَامِ وَالْقُدُورَةِ وَالَّذِينَ كَانُوا مُتَأَثِّرِينَ بِمُوقِفِهِمُ الْجُحُودِيِّ وَالْعِدَائِيِّ
 كُلِّ النَّاتِرِ . وَفِي إِحْدَى آيَاتِ سُورَةِ الْفَتْحِ حَكَى مَوْقِفَ الْأَعْرَابِ الْمُسْلِمِينَ وَتَخَلُّفَهُمْ عَنْ
 مِشَارَكَةِ النَّبِيِّ فِي الزَّيَارَةِ وَاعْتِزَارِهِمْ . وَقَدْ كَشَفَتِ الْآيَةُ عَنْ مَا فِي قُلُوبِهِمْ حَيْثُ كَانُوا
 يَقْدِرُونَ أَنَّ النَّبِيَّ وَالْمُسْلِمِينَ لَنْ يَعُودُوا مِنْ هَذِهِ الرَّحْلَةِ سَالِمِينَ ١ . وَفِي إِحْدَى آيَاتِ السُّورَةِ
 حَكَى مَوْقِفَ الْمُنَافِقِينَ وَأَنَّهُمْ كَانُوا يَظُنُّونَ أَسْوَأَ الظَّنِّونَ حَيْثُ يَبْدُو مِنْ ذَلِكَ نَاحِيَةٌ مِنْ نَوَاحِي
 خُطُورَةِ هَذَا الْفَتْحِ وَبَعْدَ مَدَاهِ .

وَلَقَدْ اثْبَتَ الْأَحْدَاثُ صَدَقَ الْهَامُ النَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِيمَا فَعَلَ وَأَيَّدَهُ فِيهِ الْقُرْآنُ وَأُظْهِرَتْ
 عَظِيمُ الْفَوَائِدِ وَالْبَرَكَاتِ الْمَادِيَةِ وَالْمَعْنَوِيَةِ وَالسِّيَاسِيَةِ وَالْحَرْبِيَّةِ وَالِدِينِيَّةِ الَّتِي عَادَتْ مِنْهُ عَلَى
 الْمُسْلِمِينَ وَالْإِسْلَامِ إِذْ قَوَّوْا فِي عَيُونِ الْقِبَائِلِ وَبَادَرِ الْمُتَخَلِّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ إِلَى الْإِعْتِزَارِ وَازْدَادَ
 صَوْتُ الْمُنَافِقِينَ خَفَوْتاً وَشَأْنُهُمْ ضَالَّةً . وَإِذَا صَارَ الْعَرَبُ يَفْدُونَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ مَنْ أَنْجَاءَ
 الْجُزَيْرَةَ الْمُخْتَلِفَةَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ بَلْ فَعَلَ ذَلِكَ بَعْضُ زُعَمَاءِ مَكَّةَ وَتَابِعِيهِمْ مِثْلَ عُمَرُو بْنِ

(١) سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا
 فَاسْتَغْفِرُوا لَنَا يَقُولُونَ بِأَفْوَهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ
 مِنْ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرّاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعاً بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا
 تَعْمَلُونَ خَبِيراً . بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى
 أَهْلِيهِمْ أَبَداً وَزَيَّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِهِمْ وَظَنَّتُمْ ظَنّاً السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْماً بُوراً
 (١٢-١٣)

(٢) (وَيُعَذِّبُ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ
 الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ
 لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ٦)

العاص وخالد بن الوليد رضي الله عنهما حيث خرج كل منهما بدافع من نفسه والتقيا في طريقهما الى المدينة .

وبما رواه ابن هشام^١ انها لما التقيا سأله عمرو الى ابن قال له الى المدينة فأسلم فان الرجل انبي وحتي متى . فقال له وانا كذلك قد خرجت لهذا . وإذ وجد النبي الفرصة لا بلاغ دعوته إلى العالم فأرسل رسله وكتبه الى ملوك وامراء الأرض في الجزيرة وخارجها من عرب وعجم^٢ . وإذ شعر المهاجرون في الحبشة بالقوة فعسّادوا ليشاركوا اخوانهم في حركتهم ونشاطهم . واذ تمكن النبي من يخضد شوكة اليهود في خير وغيرها من قراهم المنتشرة على طريق الشام . واذ سار يبعث بسرّايه الى انحاء قاصية كنجد واليمن والبلقاء . واذ استطاع بعد سنتين ان يغزو مكة ويفتحها وكان في ذلك النهاية الحاسمة . إذ جاء نصر الله وفتحته ودخل الناس في دين الله أفواجا .

وهذا التطور في حالة مكة والمكيين من القوة والهجوم والتفوق والايغال في البغي والرغبة في الاستئصال تجاه النبي والمسلمين الى شيء من الوهن وجنوح الى المسالمة والاعتراف بهم نداء لاقت تلتظر من دون ريب . وقد يخطر على البال انه قد طرأ طارئ مادي او سياسي او حربي او معنوي او شقاق فيما بينهم لسبب من الاسباب او هن تضامنهم وصلابتهم فكان هذا الموقف الذي عاد منه على الاسلام فتح عظيم كان له تلك الآثار الخطيرة المتنوعة .

ولعل هلاك عدد كبير بل العدد الأكبر من زعماء المناوأة وصناديد قريش كانت من جملة الأسباب . ولقد اعتدى واحد من خزاعة احلاف قريش على واحد من بني بكر احلاف النبي فخافت قريش ان يعتبر النبي ذلك ناقضاً لصلح الحديبية فأوفدت ابا سفيان الى المدينة ليعتذر ويوثق عقد الصلح . وهذا يدعم ما تخناه من تبدل حالة مكة والمكيين كما هو ظاهر .

على ان هذا لا يعني فيما يتبادر لنا ان لا يكون لارتداد الاحزاب عن المدينة ذلك الارتداد الحاسر الذي زلزل ثقتهم في قدرتهم على النبي عليه السلام ، ولخضد شوكة يهود المدينة نهائياً ولضالة شأن المنافقين وازدياد اقبال الناس على الاسلام وتعاليمه بعد هذا وذاك آثار ايجابية في هذا التطور .

(١) ج ٣ ص ٣١٩

(٢) ابن هشام ج ٤ ص ٢٧٨-٢٨٠

ومن الوقائع الهامة والطريقة معاً ان بعض المحبوسين من المسلمين في مكة تمكن من الفرار الى المدينة فأرسل زعماء مكة يطلبون اعادته وفقاً لعهد الصلح مع رسولين ارسلوهما فسلمه النبي اليهما وفاء بالعهد . وقد استطاع المسلم واسمه ابو بصير ان يقتل احد الرسولين في الطريق وينجو ويعود الى المدينة فأبى النبي ان يدعه يقيم فيها لئلا يكون في ذلك اخلال بالعهد فخرج الى نواحي مكة وأرسل يدعو اليه أمثاله المحبوسين المساهمين في مكة فيخرجون اليه واحد بعد آخر حتى تجمعوا سبعين رجلاً فصاروا يقطعون الطريق على مكة وينهبون قوافلها ولا يدعون أحداً منها إلا قتلوه ولا عيراً إلا أنهبوها حتى اضطر زعماء قريش الى الكتابة الى رسول الله يستجيرون به منهم ويلحون عليه بايوائهم عنده وحجزهم عنهم^١ .

ولقد كان في مكة نساء مسلمات محبوسات عن الهجرة أيضاً . فاستطاع بعضهن ان يفلت ويفر الى المدينة فجاء ذووهم يطلبون ردهن عملاً بالعهد . ويظهر ان اجتهاد النبي عليه السلام ان نص العهد لا يلزمه اعادة النساء فتردد في تسليمهن ثم انزل الله آيات مؤيدة لاجتهاده تنهى عن اعادتهن لانهن لا يحملن للكفار^٢ . وقد أمرت بدفع تعويض لذويهن منعاً لكل ظن بالاخلال بالعهد فقبل ذووهم ذلك . وفي هذا وذلك مثل رائع على الوفاء النبوي بالعهد ودليل في الوقت نفسه على حالة مكة التي ذكرتها .

ولقد حاول بعض المؤمنين في المدينة تعطيل حركة الحج الى مكة ومنع بعض الحجاج مقابلة لما كان من منع اهل مكة اياهم من الزيارة فأنزل الله آيات تأمر المسلمين بالوفاء بالعهد والتعاون على البر والتقوى لا على الاثم والعدوان وعدم تعطيل شعائر الحج ولو كان ذلك مقابلة لصد اهل مكة اياهم ، وان لا يحملهم عداؤهم لأهل مكة على مثل ذلك . وفي ذلك ما فيه من الروعة والجلال^٣ .

زيارة النبي والمسلمين للكعبة في السنة السابعة

وفي العام القابل خرج النبي عليه السلام ومعه اصحابه لأداء الزيارة حسب العهد^٤

(١) انظر ابن هشام ج ٣ ص ٣٧٢ — ٣٧٤

(٢) آيات سورة الممتحنة ١٠ — ١١ وانظر ابن هشام ج ٣ ص ٣٧٥ — ٣٧٧

(٣) آيات سورة المائدة ١ — ٢

(٤) ابن سعد ج ٢ ص ١٦٧ — ١٦٩

وكانت عدتهم الفين فدخلوا مكة في لباس الاحرام وسيوفهم الى جنوبهم مهلين مكبرين
واخذ عبد الله بن رواحة رضي الله عنه يرتجز بهذه الابيات :

خلوا بني الكفار عن سبيله خلوا فكل الخير مع رسوله
نحن ضربناكم على تأويله كما ضربناكم على تنزيله
ضرباً يزيل الهام عن مقيله ويذهل الحليل عن خليله
يا رب اني مؤمن بقبيله

فقال له النبي عليه السلام بل قل (لا إله إلا الله وحده صدق وعده ونصر عبده وأعز
جنده وهزم الأحزاب وحده) فقالها ورددها الناس معه بصوت اهتزت له جنبات مكة
ثم امر النبي بلالا فأذن للصلاة من على ظهر الكعبة ثم صلى النبي باصحابه وقفل الى المدينة
معتزين شاعرين بما آتاهم الله من نصر وبما كان من كبت لأعداء الله والاسلام .

استطرد وبحث فيما اذا كان المسلمون ادوا فرض الحج قبل فتح مكة

•

والعمرة في التقاليد الاسلامية هي زيارة الكعبة والطواف حولها بثياب الاحرام سواء
كان ذلك في موسم الحج أم غيره . وهي تقليد من تقاليد ما قبل الاسلام على ما ذكرته
الروايات وتلهمه آية من آيات سورة البقرة ^١ . وقد اقر الاسلام هذا التقليد مثل معظم
تقاليد الحج السابقة للاسلام ومن جعلتها الاشهر الحرم وتحريم الصيد بعد ان جردها من
سوائب الشرك والوثنية والمناظر القبيحة التي كان منها الطواف في حالة العري .

واعتراف النبي عليه السلام على زيارة الكعبة واداء العمرة مع اصحابه يجرنا الى سؤال عما
اذا كان النبي والمسلمون قبل الهجرة والمسلمون بعد الهجرة وقبل فتح مكة كانوا يؤدون
مناسك الحج .

فبأنسبة الى العهد المكي فانه ليس في القرآن ولا في الروايات ما يثبت ذلك او ينفيه

(١) ان الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت او اعتمر فلا جناح عليه ان يطوف بها ومن تطوع
خيراً فان الله شاكر عليم (١٥٨)

بصراحة . ولقد قال بعض المفسرين في سياق آية (فصل لربك وانحر) في سورة الكوثر ان النحر هو نحر الاضحية عقب الطواف . فاذا صح هذا ففيه اشارة الى ان النبي واصحابه كانوا يقومون ببعض مناسك الحج وهم في مكة لأن سورة الكوثر من السور المكية بل ومن ابكرها نزولا . وفي سورة الحج آيات اختلف في مكيتها ومدنيتها^١ فيها دلالات كثيرة على ان المسلمين كانوا يقومون بكثير من مناسك الحج اذ فيها خطاب لهم بذكر اسم الله على القرابين التي تقرب في الحج ويحل اكلها واطعام المعوزين منها وبالطواف حول البيت وتعظيم حرمت الله وشعائره واجتناب الاوثان والتوجه الى الله وحده وترك بعض العادات الجاهلية من تلطيخ جدار الكعبة بدماء القرابين لان الله لا يعنيه إلا التقوى منهم .

وفي هذه الآيات اشارة الى اصل تقليد الحج وكونه من امر الله لابراهيم عليه السلام ليأتي الناس إلى حج البيت من كل فج ويشهدوا منافع لهم . فان صحت مكية الآيات فيكون فيها دلالة حاسمة على ان النبي واصحابه كانوا يؤدون مناسك الحج في الحدود التي رسمها الله لهم . حتى ولو لم تصح رواية مكيتها فاننا نميل الى ترجيح كون النبي واصحابه قبل الهجرة كانوا يقومون بكثير من المناسك مع تجنب مظاهر الشرك والوثنية . ولا سيما ان مكة في موسم الحج تكون آمنة مزدهة بالناس . وهي فرصة لا يعقل ان النبي يفوتها بالاضافة الى عبادة الله باداء هذه المناسك له خاصة . ولقد كان بعض الزعماء الذين يرون في دعوة النبي هدى لا يتابعونه ولا يشجعونه خوفا من انها قد تذهب بتقاليد الحج وامتيازات اهل مكة في ظلها فطمأنهم القرآن المكي على ذلك على ما تلهمه آية سورة القصص المكية هذه :

(وَقَالُوا إِن نَّتِمَسَّعَ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُنْخِطِفُ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَمْ يُمْكِنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٥٧)

ولا بد من ان النبي عليه السلام لا يفوته ما في مشاركته مع اصحابه في مناسك الحج من معنى التطمين ايضا بالاضافة الى ما فيها من عبادة الله ومن فرصة الدعوة الى سبيل الله . وفي سورة الحج آيات تدل يقينا على انها نزلت بعد الهجرة بقليل . وهي التي احتوت اذنا

للمسلمين بمقابلة العدو الذي يقاتلهم لأنهم مظلومون اخرجوا من ديارهم بغير الحق ووعدهم
من الله بالنصر والتي نوهت بالذين هاجروا في سبيل الله ثم ماتوا او قتلوا ووعدهم بتكريم
الله ورزقه ١ .

فإذا لم تكن آيات الحج السابقة مكية فتكون قد نزلت مثل هذه الآيات بعد الهجرة
بقليل ايضا وهذا قد يفيد انها نزلت لتشجيع المسلمين على الاستمرار على اداء مناسك الحج
بعد الهجرة ما استطاعوا الى ذلك سبيلا .

وفي سورة البقرة آيات عديدة ٢ في مناسك الحج وما يجب فيها على المسلمين وما يجوز
لهم وما لا يجوز . وقد نزلت في وقت مبكر من العهد المدني وعلى كل حال قبل غزوة النبي
عليه السلام على الزبارة ، والمتبادر انها نزلت لتعليم المسلمين الذين يستطيعون ان يؤدوا
مناسك الحج بعد الهجرة . وبعبارة اخرى فيها دلالة على ان منهم من كان يفعل ذلك . وفي
احداها دلالة قوية خاصة على ذلك وهي :

(وَاتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ
وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ فَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى
مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسْكِ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ
بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ... الخ ١٩٦)

وفي بعضها حكاية لنوعين من دعاء الناس بعد قضاء مناسك الحج احدهما دعاء المؤمنين
والثاني دعاء غير المؤمنين على الارجح وهي :

(فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَادْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ
ذِكْرًا فَمَنْ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَالَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ
خَلْقٍ . وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً

(١) الايات ٣٨-٤٠ و ٥٨-٥٩

(٢) الايات ١٨٩ و ١٩٦-٢٠٣

وَقَنَا عَذَابَ انْتَار . أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ
(١٩٩—٢٠٢)

وفي الآيات دلالة على ان من المسلمين من كان يؤدي مناسك الحج إلى جانب غير المسلمين بعد الهجرة كما هو المتبادر .

وعبرة آية آل عمران التي اعتبرت اصل فرض الحج على المسلمين وهي :

(وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حَجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ٩٧)

والتي نزلت قبل صلح الحديبية تسوغ القول انها نزلت من حيث الأحل لحد المسلمين المستطيعين على الحج في العهد المدني ثم صارت مطلقة التوجيه لجميع المسلمين .

وفي آية من آيات البقرة^١ ما يلهم ان المسلمين تخرجوا من السعي بين الصفا والمروة لأنه كان عليها صنمان وكانت القرابين تقرب في الجاهلية عندهما فأذن الله لهم بالسعي لأنه من شعائر الله .

وفي آية أخرى^٢ منها ما يلهم ان المسلمين تخرجوا من التكسب والأعمال الدنيوية اثناء الحج فأذن الله لهم في ذلك ابتغاء فضل الله .

وفي آية أخرى^٣ منها ما يلهم ان المسلمين تخرجوا من الاستظلال بالسقوف حسب تقاليد الجاهلية فأذن الله لهم فيها ونبههم الى ان البر عنده هو التقوى .

وهذه الآيات بما نزل قبل صلح الحديبية حيث ينطوي فيها دلالات على ان المسلمين كانوا يذهبون الى مكة في موسم الحج لأداء مناسكه .

وفي سورة المائدة آية^٤ نزلت بعد صلح الحديبية تنهى المسلمين في المدينة عن تعطيل شعائر الله والحج والهدي والشهر الحرام نكاية بأعدائهم اهل مكة حيث تفيد انهم أرادوا ان يقابلوا اهل مكة بالمثل لقاء مدهم اياهم عن زيارة الكعبة وتعطيل ما يعود عليهم من المنافع من الحج وذلك في صد اخوانهم الذين يريدون الذهاب للحج عن الذهاب وفيها دلالة على ان

(١) ١٥٨ (٢) ١٩٨ (٣) ١٨٩ (٤) الآية الثانية

المسلمين كانوا يذهبون للحج قبل صلح الحارثية ايضاً .

وقد حج المسلمون حجاً رسمياً ان صح التعبير في السنة التاسعة بقيادة ابي بكر الصديق رضي الله عنه وفي السنة العاشرة بقيادة النبي ﷺ^١

هذا ويلفت النظر الى ما في اقرار معظم تقاليد الحج السابقة بعد تهذيبها من شوائب الشرك والوثنية والمناظر القبيحة من معان متصلة بالمجتمع الاسلامي الذي كان اذ ذاك هو المجتمع العربي بوجه عام . فالعرب على مختلف منازلهم ونحلمهم وثقافتهم كانوا متحدين في هذه التقاليد تقديساً وممارسة . وكان لهم في ظروفها منافع عظيمة متنوعة . وكانت راسخة فيهم رسوخاً شديداً من المتعذر التغلب عليه . وكان اهل مكة وهم أئمة العرب يتخوفون من انتشار الدعوة الاسلامية ظناً منهم انها ستلغي هذه التقاليد ويفقدون بذلك مركزهم الممتاز ومنافعهم الكثيرة . وهذه التقاليد في اصلها مما هو متصل بآلة ابراهيم التي دعا اليها القرآن . وكان العرب يعرفون هذه الصلة ويبنون تقاليدهم عليها . ولقد استهدف القرآن فيما استهدف توسيع افق العرب واخراجهم من نطاق القبيلة الضيقة الى كيان الامة الموحدة بما كانت تقاليد الحج بدأت تساعد على تحقيقه فيما كان من انضواء جميع العرب من حضر وبدو ومن مختلف انحاء الجزيرة اليها وقدمهم من كل صوب الى مكة في موسم الحج لممارستها ثم فيما كان نتيجة لذلك من تهذيب لهجات العرب وتقريبها حتى تصفى منها لغة واحدة يتكلمها ويفهمها جميع العرب على ما شرحناه في الجزء السابق لهذا الجزء . فكل هذا بما يفسر حكمة ذلك الاقرار ويوضح المعاني التي اشرنا اليها كما هو المتبادر .

فتح مكة ومداها



وبعد عام من زيارة العمرة زحف النبي على رأس المسلمين على مكة لأنها تقضت العهد^٢ وقد ذكرت الروايات ان بطناً من بني بكر بن كنانة الداخلين في عهد مكة استعانوا بقريش على اعدائهم بني خزاعة بالرجال والسلاح ففعلوا فبيتوا بني خزاعة وهم غارون فقتلوا منهم عشرين رجلاً . وذهب وفد خزاعي الى المدينة يخبر النبي بما وقع عليهم ويستنصره .

(١) ابن هشام ج ٤ ص ٢٠٠ و ٢٧٢

(٢) انظر تفصيل فتح مكة الذي لحسنه في هذه النبذة في ابن هشام ج ٤ ص ٣—١٦٧ وابن سعد ج ٣

ص ١٨١—١٩٨

فوعدهم خيرا . وادركت قريش ان عملها نقض للعهد فسارع ابو سفيان الى المدينة ليوثق العهد . فكلّم النبي فلم يرد عليه فطلب من ابي بكر التوسط فأبى ثم من عمر فأبى ثم اتى علياً ابن ابي طالب وفاطمة فأبيا فجاء الى باب المسجد يائساً وهتف (ايها الناس اني قد اجرت بين الناس) ثم عاد . ومما رواه ابن هشام ان ابا سفيان حينما قدم المدينة دخل على ابنته ام حبيبة زوجة رسول الله فلما اراد ان يجلس على فراش رسول الله طوته عنه فسألها ارغبت بي عنه ام رغبت به عني فقالت هذا فراش رسول الله وانت رجل مشرك نجس فلم احب ان تجلس عليه . حيث يبدو من ذلك مظهر رائع من مظاهر التفاني في دين رسول الله وغدو ذلك فوق الارحام مهما قربت .

ولما تم ما اراده النبي من حشد زحف على رأسه وقد بلغ عدته عشرة آلاف فيهم كثير من مساهمي القبائل مثل اسلم وغفار ومزينة وجهينة واشجع وسليم وفزارة الخ . وكانت الزحف لعشر ليال خلون من رمضان من السنة الثامنة للهجرة . ولما علم المكيون بسيوره استنفروا حلفاءهم من هوازن وثقيف وبني بكر والاحابيش . ووصل النبي مكة قبل ان يصل القسم الاقوى من الحلفاء اي هوازن وثقيف . فرأى اهل مكة ان لا قبل لهم بما جاءهم واستسلموا للنبي وحكمه ولم يقع إلا اشتباك جزئي في ناحية من انحاء مكة مع فريق من القوة الزاحفة واسفر عن بعض القتلى فأرسل النبي خبراً بالكف حالما بلغه الخبر .

ومما روي في سياق ذلك ان قريشا بعثت ابا سفيان ليتجسس اخبار الزحف فلقي العباس عم النبي وكان قد اسلم بعد وقعة بدر وظل في مكة يكمّ اسلامه فسأله ما وراءك فقال له هذارسول الله في عشرة آلاف فأسلم ثكلتك امك وعشيرتك ثم قال له انت في جوارى واردفه واردفه ورائه وذهب به الى النبي فأسلم على يديه . وكرمه النبي فأمر مناديا ينادي (من دخل بيت ابي سفيان فهو آمن) ولقد رأى ابو سفيان ما لا قبل له به وما لم يخطر بباله حتى قال للعباس لقد اصبح ملك ابن اخيك عظيماً .

ولما دخل النبي مكة عمد تَوّاً الى الكعبة فطهرها من الاصنام وكان في جوفها وفنائها ٣٦٠ صنماً . ووجد على جدرانها صوراً لابراهيم وهو يستقسم بالازلام وصوراً لعيسى والملائكة فأمر بطمسها . وفي ثاني يوم احتشد الناس حول الكعبة فخطب النبي فيهم خطبة بدأها بقوله (لا إله إلا الله وحده ولا شريك له . صدق وعده . ونصر عبده . وهزم الاحزاب وحده . ثم خاطب قريشا فقال يا معشر قريش ان الله قد اذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالاباء . الناس من آدم وآدم من تراب . وتلا قول الله (يا ايها الناس انا

خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم
ثم قال ما ترون اني فاعل فيكم قالوا خيراً اخ كريم وابن اخ كريم فقال اذهبوا فانتم
الطلاء .

وقد تم الفتح في العشرين من شهر رمضان من السنة الثامنة للهجرة . واقبل الناس بعد
ذلك على مبايعة النبي حتى عم دين الله وظهر على الدين كله .

وقد ارسل الله خالداً بن الوليد فهدم العزى وعمرأ بن العاص فهدم سواعا وسعداً بن زيد
الاشهلي فهدم مناة .

وفي اثناء اقامة النبي في مكة عدا خزاعي على مشرك من هذيل فقتله فقام رسول الله
خطيباً فقال (يا ايها الناس ان الله حرم مكة يوم خلق السماوات والارض فهي حرام من
حرام الى يوم القيامة ، فلا يجزى لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر ان يسفك فيها دماً ولا
يعضد فيها شجراً . لم تحلل لأحد من قبلي ولا تحل لأحد بعدي ولم تحلل لي إلا ساعة من
نهار غضبا على اهلها ثم رجعت كحرمتها بالأمس فليبلغ الشاهد منكم الغائب . ثم قال
يا معشر خزاعة ارفعوا ايديكم عن القتل . لقد قتلتم قتيلاً ولأدينه . فمن قتل بعد مقامي
هذا فاهله بخير النظرين ان شاؤوا فدم قاتله وان شاؤوا فعقله)

وبما روي ان النبي امر بقتل اشخاص ولو رأوهم متعلقين بأستار الكعبة . منهم عبد الله
ابن خطل الذي اسلم ثم ارتد وعدا على رجل مسلم فقتله . وكان له قنيتان بهجاء
رسول الله . ومنهم الحويرث بن وهب وكان شديد الاذى لرسول الله . وقد تعرض لابنتيه
حينما ارتحلنا للحاق بالنبي في المدينة فنخس راحلتها فسقطتا عنها الى الارض . ومنهم عبد الله
بن سعد لأنه ارتد وفر الى مكة وكان يكتب الوحي لرسول الله . وهذا لم يقتل فقد اتى به
عثمان بن عفان وكان اخوه من الرضاعة الى رسول الله مستغفراً فسكت فعد سكوته عفواً
وقد روي انه قال لمن حوله سكت لعل واحداً منكم يقوم فيقتله فقالوا له هلا او مات
الينا فقال ان النبي لا يقتل بالإشارة .

وقد فر صفوان بن امية وعكرمة بن ابي جهل وكانا من رؤساء المناوئين للنبي . فقال
عمير بن وهب يا رسول الله ان صفوان سيد قومه وقد خرج هارباً منك ليقتد في
البحر فقال هو آمن . فلحق به فأخبره فلم يصدق لكثرة ما كان من اذاه للنبي . ثم اقبل
بعد قليل فأسلم . وكذلك كان شأن عكرمة الذي فر الى اليمن . وقد اسلمت زوجته

وطلبت الامان لزوجها فأعطاه النبي الامان فلحقته به وجاءت به فأسلم . وابقى النبي نكاحه على ما كان .

وانقد انهدم بفتح مكة السد الذي كان بين النبي والاسلام وسائر العرب فتدفق سيل وفودهم بعده على النبي من كل ناحية من انحاء الجزيرة . ودخل معظم اليمن في دين الاسلام وسلطانه بالاضافة الى معظم شمال الجزيرة . وسار النبي عليه السلام على رأس ثلاثين الفا نحو مشارف الشام فيما سمي في تاريخ السيرة بغزوة تبوك فوطد هبة السلطان الاسلامي في هذه المشارف واخذ الاسلام ينتشر بين قبائلها . وكانت هذه الغزوة من خطوات حركة الفتح الكبرى التي تمت بعد وفاة النبي ﷺ .

وما روي ان الانصار اخذوا يتساءلون عما اذا كان النبي وقد نصره الله على قریش ويسر له فتح مكة ام القرى يعود ثانية الى المدينة او يبقى في مكة ويتخذها مقراً له فبلغ ذلك النبي فجمع زعماءهم وقال لهم (معاذ الله المحيا محياكم والممات مماتكم ثم عين واليا على مكة وعاد الى يثرب مع اصحابه من المهاجرين والانصار وكثير ممن اسلم من اهل مكة ورجالها .

واسم الوالي الذي عينه هو عتاب بن اسيد بن العيص بن امية ابن عبد شمس . وكان فتي ناهيا . وانتبادر انه اختار هذا الفتي بدلا من رجل مسن من رجال مكة وزعمائها لاعتبارات متنوعة فيها الحكمة والسداد . وقد اراد مع ذلك ان يتألف قلوب بني امية بتوسيده الحكم الى احد فتيانهم . وقد خلف معه معاذاً بن جبل رضي الله عنه ليعلم الناس القرآن ويفقههم في الدين .

ومن طريق ما رواه ابن هشام ان النبي عين لعتاب درهما كل يوم لنفقته وانه قام خطيبا في الناس فقال ايها الناس اجاع الله كبد من جاع على درهم . فقد رزقني رسول الله درهما كل يوم فليست لي حاجة الى احد . ويبدو ان الفتي الوالي لم يكن من الاغنياء ولعل هذا من اسباب اختياره .

ويروي ابن سعد ان النبي ارسل خالد بن الوليد عقب فتح مكة في سرية لهدم صنم العزى وعمر بن العاص في سرية لهدم صنم سواع وسعداً بن زيد الاشيلي في سرية لهدم صنم مناة او بيوتها في اطراف مكة ففعلوا وكان سدة هذه الاحصان يظنون انها سوف تؤذي الهادمين فلما لم تفعل اعلنوا اسلامهم ^١ .

ثانياً

الوقائع الحوية مع القبائل العربية

باستثناء وقعة واحدة كانت جميع هذه الوقائع بعد وقعة بدر الكبرى . ومنها ما كان غزوات بقيادة النبي ومنها ما كان سرايا . وجميعها كانت إما رداً على عدوان وقع او استباقاً لعدوان مييت .

والوقعة الأولى كانت في الشهر الثالث عشر للهجرة . فقد اغار كرز الفهري على سرح المدينة فاستاقه فسارع النبي في اثره ولم يدركه فعاد بدون استباك^١ .

ثم غزوة غطفان في نجد حيث علم النبي ان بعض بطونها تتجمع لغزو المدينة . فخرج النبي على رأس حملة كبيرة في الشهر الخامس والعشرين . ولم يلق عدواً فعاد بدون استباك . وغطفان من احزاب قريش ومن المحتمل ان يكون تجمعهم بتحريض منها^٢ .

ثم غزوة بني سليم ببجران لنفس السبب ولم يلق النبي فيها عدواً . وكانت في الشهر السابع والعشرين^٣ .

ثم سرية ابي سامة الخزومي الى بني اسد في الشهر الخامس والثلاثين اي بعد وقعة احد لسبب نفسه . وقد خاف العرب لما بلغهم خبر الحملة فتفرقوا ووجدت السرية لهم ابلا وشاء فاستاقها وعادت سالمة^٤ .

ثم سرية عبد الله بن انيس في نفس الشهر لاغتيال سفيان بن خالد الهذلي الاحباني حيث علم النبي انه يجمع جموعه لحربه . وقد تمكن عبد الله من خديعة الرجل حتى اذا اصاب منه غرة قتله وحمل رأسه إلى رسول الله^٥ .

(١) ابن سعد ج ٣ ص ٤٦-٤٧

(٢) نفس الجزء ص ٧٣-٧٤

(٣) ص ٧٤

(٤) ابن سعد ج ٣ ص ٩١-٩٢

(٥) ص ٩٢-٩٣

ثم سرية المنذر بن عمر الساعدي في الشهر السادس والثلاثين . ولم تخرج هذه السرية لحرب ولكن للدعوة فغدر بها وقتل معظم رجالها في مكان عرف ببئر معونة .

وكان من قصتها ان احد زعماء بني عامر بن كلاب الذي يوصف بملعب الأسنة قدم على النبي في الشهر السادس والثلاثين من الهجرة فعرض النبي عليه الاسلام فلم يبعد وقال له لو بعثت معي نفرأ إلى قومي رجوت ان يجيبوا فقال له إني اخاف عليهم اهل تجمد فقال انا جار لهم . فبعث معه سبعين رجلا من قرار الانصار الشباب . واعطاهم كتاباً لرعيم بني عامر بن الطفيل يدعوه فيه وقومه الى الاسلام وقد نزلوا في مكان يعرف ببئر معونة وارسلوا الكتاب إلى عامر بن الطفيل فوثب هذا على حامل الكتاب وقتله ثم استصرخ قومه بني عامر لقتل باقي افراد السرية فأبوا حتى لا يخفروا ذمة ابي براء فاستصرخ بني سليم فأجابه بعض بطونهم رعل وذكوان وعصية وأحاطوا بالمسلمين وقتلوهم جميعاً عدا عمرو بن أمية الصخري حيث قال عامر ان على امي عتق رقبة فأنت حر عنها وجز ناصيته . وقد كانت هذه المفاجعة موجعة جداً للنبي واصحابه حتى لقد روي انه لم يجد على احد ما وجده على اصحاب بئر معونة . وقد دعا على قائلهم في الركعة الثانية من صلاة الصبح فقال (اللهم اشد وطأنك على مضر . اللهم سنين كسني يوسف . اللهم عليك ببني لحيان وعضل والقارة وزغب ورعل وذكوان وعصية فإنيهم عصوا الله ورسوله ^١ .

ثم سرية مرثد بن ابي مرثد . وهذه مثل تلك لم تخرج للقتال وانما الدعوة . فقد جاء إلى النبي رهط من عضل والقارة فقالوا يا رسول الله ان فينا اسلاماً فابعث معنا نفرأ من اصحابك يفقهونا ويقرؤونا القرآن ويعلمونا شرائع الاسلام فبعث معهم ستة نفر من اصحابه بقيادة ابي مرثد فلمّا وصلوا إلى ماء يعرف بالرجيع استصرخ الرهط بني هذيل فجأؤوهم وهاجموا اصحاب رسول الله فاستل هؤلاء سيفهم للدفاع فقالوا لهم لا نريد ان نقتلكم ولكننا نريد ان نصيب بكم شيئاً من اهل مكة فأبى ثلاثة منهم الاستسلام وقاتلوا حتى قتلوا واستسلم ثلاثة فأمروا . وفي الطريق حاول أحدهم الفرار فقتل . وذهبوا بالاثنتين إلى مكة فاشتراها صفوان بن أمية وشخص آخر فقتلوهما انتقاماً من قتلى لهم في وقعة بدر . وكانت الوقعة في نفس الشهر الذي وقعت فيه الوقعة السابقة . وهذا ما يفسر جمع النبي للمجرمين في الوقعتين ودعاه عليهم معاً ^٢ .

(١) ابن سعد ج ٣ ص ٩٣—٩٦

(٢) ابن سعد ج ٣ ص ٩٧—٩٨ وابن هشام ج ٣ ص ١٦٠—١٦٦

وبما روي في سياق قتل احد الاثنين واسمه زيد بن الدثنة انه اجتمع رهط من قریش ليشهدوا قتله فقال له ابو سفيان : انشدك الله يا زيد ان محمداً عندنا الآن مكانك نضرب عنقه وانت في اهلك ؟ فقال له والله لا احب ان محمداً تصيبه شوكة في مكانه الذي هو فيه الآن واني جالس في اهلي فقال منذهلاً : ما رأيت من الناس احداً يحب احداً كحب اصحاب محمد محمداً . وكان الذي استوى زيدا رضي الله عنه صفوان بن امية فأمر غلاماً له فقتله .

وبما روي في سياق قتل الثاني واسمه خيب بن عدي انه سأل من قاتليه ان يدعوه يركع ركعتين فأذنوا له فركعها ثم قال للقوم اما والله لولا ان تظنوا اني طولت جزعاً من القتل لاستكثر من الصلاة . وقد صلبه الكفار ثم قتلوه مصلوباً ١ .

ثم غزوة ذات الرقاع في الشهر السابع والاربعين حيث بلغ النبي ان انماماً وثعلبة قد جمعوا الجموع لغزو المدينة فقاد حملة وبادر اليهم فوجدهم قد فروا فسبى بعض نسايتهم وعاد ولم يلق كيداً ٢ .

ثم غزوة دومة الجندل حيث بلغ النبي ان فيها جموعاً وانهم يظلمون من مر بهم من قوافل الميرة وانهم يريدون ان يدنوا من المدينة فخرج على رأس الف من اصحابه في الشهر التاسع والاربعين فنذر العرب بهم فهربوا واصاب النبي بعض ماشيتهم وعاد ولم يلق كيداً . وفي هذه الغزوة وادع النبي عليه السلام عيينة بن حصن زعيم فزارة ٣ .

ثم غزوة المريسيع حيث بلغ النبي ان بني المصطلق يتجمعون لغزو المدينة فبادر النبي اليهم على رأس حملة كبيرة خرج فيها كثير من المنافقين حتى روي انه لم يخرج منهم في غزاة اخرى في كثرتهم . وقد اغار النبي عليهم بمحلمته فقتلوا عشرة رجال واسروا كثيراً آخرين وسبوا النساء والذرية وغنموا ما لهم من نعم وشاء . وفر باقي الرجال . وقد من النبي على بعض السبايا فأطلقهم بدون فداء واقتدى بعضهم اهلهم ووزع الباقي كغنيمة . وكانت جويرية بنت زعيم المصطلق الحارث في سهم احد المسلمين فكاتبته على نفسها وجاءت الى النبي تستعينه على كتابتها ٤ فقال لها هل لك في خير من ذلك قالت ما هو قال اقضي عنك

(١) نفس المصدر المذكوران آنفاً

(٢) ابن سعد ج ٣ ص ١٠٢-١٠٣ (٣) ص ١٠٣-١٠٤

(٤) اي اشترت نفسها من الذي صارت ملكاً له

واتزوجك فوافقت ففرضي عنها وتزوجها ولما بلغ الناس الخبر قالوا اصهار رسول الله فاعتقوا ما وقع في اسهمهم من السبايا . واقبل بنو المصطلق فأسلموا . فما كان من امرأة اعظم بركة على قومها منها . وكانت هذه الواقعة في الشهر السابع والاربعين من الهجرة ١ .

وفي هذه الغزوة تلاهى احد المهاجرين مع واحد من الانصار واستصرخ كل منهما بقومه وكاد الحيان يقتتلان استجابة للتنفرة القبلية الجاهلية اولا ان النبي تدارك الامر . وفيها قال كبير المنافقين عبد الله بن ابي (لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا) و (لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل) على ما شرحناه في بحث حركة المنافقين .

وفي هذه الغزوة قذفت عائشة ام المؤمنين بما عرف في تاريخ السيرة بحديث الافك الذي منشرحه في مبحث خصوصيات النبي عليه السلام بعد البعثة في آخر الفصل .

وكان بعد هذه الواقعة سرية محمد بن سلمة الى احد بطون بني بكر بن كلاب حيث كانوا يزجون القوافل فأغار عليهم وقتل بعضهم وفر الباقون فاستاق بعض نعمهم وشأهم ٢ .

ثم كانت غزوة النبي لبني حيان انتقاماً لحادث الرجيع وشهادته . وكانوا في ناحية عسفان . ففروا من جهة وتمتعوا في رؤوس الجبال فعاد بدون قتال وكانت الغزوة في السنة الهجرية السادسة ٣ .

ثم غزوة الغابة في نفس السنة . حيث اغار عيينة بن حصن الفزاري مع بعض قومه على ابل الصدقة في مكان يسمى الغابة فاستاقوها وقتلوا حاميا فجاء الصربخ فنودي يا خيل الله اركبي وخرج النبي على رأس كتيبة من اصحابه ، وعليه الدرع والمقفر وهو شاهر سيفه فأدركت طليعة الكتيبة التي ارسلها النبي فرساناً بقيادة المقداد بن الاسود اخريات الغزاة فاستنقدت نصف الابل وتراشقت معهم بالنبال ثم فروا ونجوا بعد ان قتل منهم عدد غير يسير ، وما روي ان احد المسلمين واسمه سلمة بن الاكوع قتل وحده برمييه ثلاثين رجلا منهم ٤ .

ثم سرية عكاشة بن محصن الاسدي الى الغمر ليغير على بني اسد لموقفهم العدائي . ففعلوا

(١) ابن سعد ج ٣ ص ١٠٤-١٠٧ (٢) ص ١٢١

(٣) ابن سعد ج ٣ ص ١٢١-١٢٢

(٤) نفس المصدر ١٢٣ - ١٢٧

بالامر وفروا واستاقت السرية ما وجدوه من ماشية وعادت سالمة ١

ثم سرية محمد بن سلمة الى بني ثعلبة لاستمرارهم في موقفهم العدائي . وكان افراد السرية عشرة فتكاثروا عليهم العرب وقتلواهم . فبعث النبي سرية اخرى بقيادة ابي عبيدة بن الجراح فهرب العرب من وجهه فاستاق ما وجدته من نعمهم وغنمهم . وكان ذلك في السنة السادسة ايضاً ٢ . وقد عاد النبي فبعث عليهم سرية اخرى بقيادة زيد بن حارثة ففروا ثانية واستاق ما وجدته من نعم وغنم ٣ .

ثم سرية زيد بن حارثة الى بني ثعلبة ايضاً فهرب العرب واستاق ما وجدته لهم من نعم وغنم وكانت في نفس السنة ٤ .

ثم سرية زيد ايضاً الى بني سليم بالجموم فأغاروا عليهم واصابوا إبلا وغنماً واسرى . وكانت في نفس السنة ٤ .

ثم سرية زيد في السنة نفسها الى بني ثعلبة في الطرف فأغاروا عليهم واستاقوا بعض ابلهم ٥ .

ثم سرية علي بن ابي طالب الى بني سعد في فدك لتجمعهم لامداد يهود خيبر فأغار عليهم هربوا واستاق ٥٠٠ بعير و ٢٠٠ شاة لهم وعاد بدون قتال . وكان ذلك في السنة السادسة ايضاً ٦ .

ثم سرية زيد بن حارثة الى بني فزارة في وادي القرى حيث كانوا سلبوا قافلة تجارية كان يقوده زيد نفسه الى بلاد الشام وضربوه وضربوا اصحابه . وقد اغار عليهم وقتل بعض رجالهم ونسائهم . وكان ذلك في نفس السنة المذكورة آنفاً ٧ .

ثم سرية كرز بن جابر في السنة نفسها الى بني عرنة . وكان ثمانية منهم قدموا على رسول الله فأسلموا واستوبأوا المدينة فأرسلهم الى ضاحية فيها ابل الصدقة . فلم يصحوا وممنوا استاقوا الابل ولحق بهم يسار مولى رسول الله ومعه نفر فقاتلهم ولكنهم تغلبوا عليه وقتلوه وقطعوا رجله ويده . وجاء الصويخ فبعث النبي السرية في اثرهم فأدركوهم واسروهم واتوا بهم الى النبي مع الابل فأمر بصلبهم وقتلهم وقطع ايديهم وارجلهم من خلاف وتسميل

(١) نس المصنوع ١٢٨ ابن سعد ج ٣ ص ١٢٨ (٣) ١٣٢-١٣٣

(٢) ١٣٢، ١٣٣ (٥) ١٣٢-١٣٣ (٦) ص ١٣٣-١٣٤

عيونهم^١ وما ذكرته الرواية ان النبي لم يسئل عيوناً بعد ان نزلت الآية (انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الارض فساداً ان يقتلوا او يصلبوا او تقطع ايديهم وارجلهم من خلاف او ينفوا من الأرض .. المائدة ٣٣) والمتبادر ان ما فعله النبي كات بقصد الارهاب للآخرين ولا سيما ان ما فعله العرنيون كان غدرآ شديداً .

ثم سرية عمر بن الخطاب الى عجز هوازن في تربة لموقفهم العدائي ففروا من وجهه وعاد بدون قتال . وكان ذلك في السنة السابقة^٢ .

ثم سرية ابي بكر الصديق الى بني كلاب في نجد في نفس السنة انتقاما لشهداء بنو معونة فأغار عليهم وقتلت واسرت وغنمت بعض الماشية وعادت سالمة^٣ .

وبما روي ان النبي استوهب امرأة منهم وهبها ابو بكر الى احد افراد السرية من المسلمين كانوا في ايدي المشركين .

ثم سرية بشير بن سعد الى بني مرة في فلك لموقفهم العدائي . وقد اغزت السرية عليهم واستاقت مشيتهم فلحق بهم المريون وقتلوا معظمهم واسترجعوا المشية ونجا بشير جريحاً وكان ذلك في السنة السابعة^٤ .

ثم سرية غالب بن عبد الله الليثي الى بني حلبة في نفس السنة فقتلت بعضهم وفر الباقي . واستاقت بعض ابلهم وغنمهم^٥ .

وبما وقع في هذه الوقعة ان اسامة بن زيد الذي كن في السرية لقي رجلا منهم في الطريق فما كان منه إلا ان نطق بالشهادة ولكن اسامة ظن ذلك خداعا وتقية فقتله . ولما عاد قص ما وقع على النبي فاستنكر فعلته وقال له (ألا شققت قلبه فتعلم صادق هو أم كاذب) فتاب اسامة وعاهد النبي على أن لا يعود الى مثل ذلك^٦ .

ثم سرية بشير بن سعد الى غطفان حيث بلغ النبي انهم يتجمعون لغزو المدينة ومعهم زعيم فزارة عينة بن حصن . وقد هرب العرب واستاقت السرية ما وجدته لهم من نعم وغنم^٧ .

(١) ابن سعد ج ٣ ص ١٣٦ (٢) ١٦٤
(٢) ابن سعد ج ٣ ص ١٦٥ (٤) ١٦٦ (٥) ١٦٦ ايضاً
(٦) ١٦٦-١٦٧ (٧) ١٧٠

ثم سرية ابن أبي العوجاء الى بني سليم في السنة الثامنة . وقد تكاثر العرب عليهم فقتلهم
الا قائدهم الذي عاد جريحا .

ثم سرية غالب الليثي الى بني الملوخ في نفس السنة لموقفهم العدائي ، وقد اغارت السرية
عليهم واستاقت نعمهم فلحقوا بها وكانوا اكثر من السرية وفيهم براعة بالرمي . ولكن
السرية اغذت السير . وجاء سيل دافق فيجال بينهم وعادت السرية سالمة غائمة ^١ .

ثم سرية غالب ايض الى بني مرة في فدك للانتقام لسرية بشير بن سعد فأغار عليهم
وقتل بعضهم وغنمت بعض انعامهم ^٢ .

ثم سرية شجاع بن وهب الى بني عامر في نفس السنة . فأغار عليهم واصابت نعمها وغنا
كثيراً . وعادت سالمة ^٣ .

ثم سرية ابي عبيدة في نفس السنة الى حي من جهينة بما يلي ساحل البحر . ولم يقع لقاء .
وقد اصاب السرية جوع شديد فأكلوا الخبط . وسميت السرية بسرية الخبط ^٤ .

ثم سرية ابي قتادة الانصاري الى غطفان في نجد فأغار عليهم وقتل من اشرف منهم
وامتاقت النعم . وكنت في نفس السنة ^٥ .

ثم سرية ابي قتادة ايض في نفس السنة الى بطن من اخم بين مكة والمدينة . وكانت
هذه السرية تعمية لقريش حيث كان النبي يتهاى لغزو مكة .

وفي الطريق وجدوا رجلا من اشجع فسلم عليهم بتحية الاسلام ولكن احد افراد
السرية وثب عليه فقتله وسلبه بعيره ومتاعه وقربة ابن كانت معه . وقد غضب النبي لقتل
الرجل بعد ان حيا بتحية الاسلام ونزل في ذلك آية النساء هذه (يا ايها الذين آمنوا اذا
ضربتم في سبيل الله فتبينوا ولا تقولوا لمن ألقى اليكم السلام لست مؤمنا تبتغون عرض
الحياة الدنيا فغند الله مغائم كثيرة كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم فتبينوا ، ان الله
كان بما تعملون خبيرا) ^٦ حيث انطوى في ذلك تشريع رائع من تشريعات الجهاد في
الاسلام على ما نوهنا به في مطلع البحث .

ثم سرية خالد بن الوليد الى بني جذيمة من كنانة وكانوا في اسفل مكة . وذلك

(١) ابن سعد ج ٣ ص ١٧٢-١٧٢ (٢) ١٧٣-١٧٣ (٣) ١٧٣

(٤) ابن سعد ج ٣ ص ١٧٨ (٥) ص ١٧٨-١٧٩

(٦) ابن سعد ج ٣ ص ١٧٩

عقب فتح مكة . وكانت لأجل دعوتهم إلى الاسلام . فلما انتهى اليهم قالوا له نحن مسلمون قد صلينا وصدقنا بمحمد وبنينا المساجد في ساحاتنا وأذننا فيها . فقال لهم فما بال السلاح عليكم قالوا ان بيننا وبين قوم من العرب عداوة فنحن ان تكونوا هم . قال فضعوا السلاح فوضعه ثم قال لهم استأثروا فاستأثروا وأمر بعضهم فكتف بعضاً وفرقهم في أصحابه فلما كان السحر نادى خالد من كان معه أسير فليدافته بمعنى الاجهاز عليه بالسيف . فقتل بنو سليم الذين كانوا في السرية من كان في أيديهم . اما المهاجرون والأنصار فأرسلوا أسارهم إلى النبي . ولما بلغ النبي ما فعل خالد قال (اللهم اني أبرأ اليك مما صنع) ثم بعث علياً بن ابي طالب فودى قتلاهم وما ذهب منهم ^١ .

وإذا صح الخبر كما روي فيكون خالد كما هو المتبادر ظن انهم كانوا يتقونه تقية لأنه وجدهم سأكى السلاح متهيئين للقتال فأمر بما أمر اجتهداً منه .

ومن الجدير بالذكر ان ابن سعد يروي في سياق الخبر ان خالداً وسريته أغاروا على بني جذيمة غارة وان ثلاثة رجال ارادوا انقاذ نسوة لهم ونهريهن فقاتلوا من تصدى لهم من المسلمين حيث يبدو شيء من التناقض .

ورواية قتال الرجال الثلاثة دون النسوة متوافقة بشعر ارتجزه كل منهم فيه شيء من التوافق وبوحي بأنه مصنوع ^٢ . وابن هشام يروي اربع اراجيز لأربعة رجال . ويروي الى

(١) ج ٣ ص ١٩٥-١٩٦ انظر ابن هشام ج ٤ ص ٥٥ - ٦٣

(٢) هذه هي الارجيز الاربع :

١ « ارحن اذبال الحفاء وارمن مشى حيات كأن لم يفرعن .

ان يمنع القوم ثلاث قمعن

٢ « قد علت بيضاء حراء الاطل يحوزها ذو ثلة وذو ابل

لاغنين اليوم ما اغنى رجل

٣ « قد علت بيضاء للهى العرسا لا قلا العيين منها نهسا

لاضربن اليوم ضربا وعسا ضرب المذيدن الخاض القعا

٤ « اقسمت ما ان حادر ذو لبده شئن البنان في غداة برده

جهم الحيا ذو سبال ورده يرزم بين ايكلة وجعده

ضار بتأكال الرجال وحده بأمدق الغداة مني نجده

هذا ان بعض اصحاب رسول الله اهتموا خالداً بأنه فعل في بني جذيمة ما فعل انتقاماً لدم عمه
الفاكه كان بنو جذيمة قتلوه في الجاهلية .

وقد يكون الخبر عن خالد كله مصنوع بدليل ان هناك اخباراً مثله في مقامات اخرى
سوف نذكرها في مناسباتها لا تبعث على الثقة ومن المحتمل ان تكون مصنوعة للنكاية به او
باسمه لاسباب نفسية او قبلية .

ثم كانت وقعة او غزوة هوازن الكبرى في وادي حنين^١ وكانت هوازن من حلفاء
قريش فلما زحف النبي على مكة استصرختهم قريش فأمرعوا الى نجدتهم ولكنهم وصلوا بعد
ان تم فتح مكة ودان اهلها للاسلام وسلطان النبي . فتحشدوا في وادي حنين فخرج اليهم
النبي في ١٢٠٠٠ منها الفان من اهل مكة حتى قال ابو بكر لن تغلب اليوم عن قلة^٢ .
والتقى الجمعان في وادي حنين ودارت المعركة فتزعزع جانب المسلمين وانهزموا وثبت
رسول الله ﷺ في الميدان كعادته وحوله ابو بكر والعباس وعمر وعلي والفضل وغيرهم من
اهل بيته واصحابه رضي الله عنهم واخذ ينادي الناس يا انصار الله يا انصار رسول الله . فلم
يلبث المسلمون ان هدا روعهم وانزل الله السكينة عليهم وعادوا الى الميدان هاتقين لبك
ليك . وحلوا على المشركين فقال النبي الآن حمي الوطيس وجعل يرتجز وهو على ظهر بغلته في
الميدان .

انا النبي لا كذب انا ابن عبد المطلب

وايد الله المسلمين وقذف في قلوب المشركين الرعب فانهمزوا لا يلوون على شيء .
واستولى المسلمون على انعامهم وماشيئهم ونسائهم واطفالهم . وكان عدد السبي ٦٠٠٠
والابل ٢٤٠٠٠ والغنم ٤٠٠٠٠ والفضة ٤٠٠٠٠ اوقية .

وكانت ثقيف ايضا قد مارعت الى نجدة مكة حينما استصرختها فلم تصل في الوقت فعادت
وتحصنت في مدينتها الطائف فزحف النبي عليها وحاصرها وضربها بالمنجنق حيث كانت
مسورة . ولم يقدر عليها ولم يخرجوا من المدينة . وتراشق الطرفان بالنبال ثم انصرف
النبي عنها^٣ .

(١) انظر تفصيل الواقعة في ابن سعد ج ٣ ص ٢٠٠ - ٢٠٨ وابن هشام ج ٤ ص ٦٥ - ١٢١

(٢) اشارت آية في سورة التوبة الى هذا المعنى حيث جاء فيها (ويوم حنين اذ اعجبكُم كثرتكم)

(٣) ابن سعد ج ٣ ص ٢١٠ - ٢١٢

وفي طريق عودته توقف في الجعرانة لقسمة اموال هوازن وسبيها . وقد ارتأى النبي ان ينعم منها على بعض زعماء مكة والقبائل زيادة على الاسهم العادية تألفاً لقلوبهم لحداثة عهدهم بالاسلام فمنهم من اعطاه مئة من الابل ومنهم الخمسين ومنهم من اعطاه فضة ومنهم من اعطاه شاة . ثم وزع الباقي على سائر الناس بعد افراز الخمس لبيت المال . وفعل كذلك بالسبي . ولقد ارسلت هوازن وفدأ الى النبي تعلنه باسلامها وتطلب منه رد اموالها وسبيها . فسألهم رسول الله ابناؤكم ونساؤكم احب اليكم من اموالكم . فقالوا له بل ابناؤنا ونساؤنا . فقال اما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم واذا ما صليت الظهر فقوموا فقولوا انا نستشفع برسول الله الى المسلمين وبالمسلمين الى رسول الله . ففعلوا . فقال النبي اما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم . فقال الانصار والمهاجرون وما كان لنا فهو لرسول الله . وقال بنو سليم كذلك . وابى بعض زعماء القبائل فقال رسول الله (أما من نسك منكم بحقه من هذا السبي فله بكل انسان ست فرائض من اول سي اصابه) فقبل الممتنعون وردوا ما في ايديهم من السبايا ايضاً .

ولقد روى ابن هشام في سياق توزيع غنائم هوازن ان الانصار وجدوا في انفسهم ان لم يعط النبي زعماءهم منجاً كالتى اعطاها لزعماء مكة والقبائل حتى قال قائلهم ان رسول الله نقي قومه ودخل عليه سعد بن عبادة فقال يا رسول الله ان هذا الحي من الانصار قد وجدوا عليك في انفسهم في هذا الفياء الذي اصب . قسمت في قومك واعطيت عطايا عظاماً في قبائل العرب ولم يك في هذا الحي من الانصار منها شيء ، فقال له اجمع لي قومك فخرج فجمع الانصار فاتاهم رسول الله فقال بعد حمد الله (يا معشر الانصار ما قاله بلغني عنكم وجدة وجدتموها علي في انفسكم . ألم آتكم خلافاً فهداكم الله . وعالة فأغناكم الله . وأعداء فألف الله بين قلوبكم) قالوا بلى . الله ورسوله أمن وأفضل . ثم قال (ألا نجيبوني يا معشر الانصار) قالوا بماذا نجيبك يا رسول الله الله ورسوله المن والفضل فقال لهم (اما والله لو شئتم لقلتم فلصدقم ولصدقم : اتيتنا مكذباً فصدقناك ، ونخذولاً فنصرناك : وطريداً فأويناك ، وعائلاً فأسيناك . اوجدتم يا معشر الانصار في انفسكم في لعاعة من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا ووكلتكم الى اسلامكم . ألا ترضون يا معشر الانصار ان يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله الى رحالكهم . فوالذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرءاً من الانصار . ولو سلك الناس شعبا وسلكت الانصار شعبا سلكت شعب الانصار ، اللهم ارحم الانصار وابناء الانصار وابناء ابناء الانصار) فبكى القوم حتى اخضلوا لحاهم وقالوا رضينا برسول الله قسماً وحظاً . فكان مشهداً من اروع مشاهد السيرة . وننبه الى امرهام

وهو ان النبي لم يعط احداً من اصحابه المهاجرين منعا وعطايا ، وانما كان الذين اعطاهم زعماء القبائل الذين كان اكثرهم حديث عهد بالاسلام .

وبما رواه ابن هشام في سياق خبر هوازن ان بعض جفافة اهل مكة قال حينما انهزم المسلمون ألا بطل السحر اليوم فقال له صفوان بن امية (امكت فض الله فاك فوائده لأن يربني رجل من قریش احب الي من ان يربني رجل من هوازن) وان اباسفيان قال لا تنتهي هزيمتهم دون البحر . وقد تكون الرواية مصنوعة لأسباب حزبية واسروية مؤخرأ .
ثم سرية الطفيل الدوسي لمدم صنم قومه المسمى ذا الكفين ثم اتى بقومه الى النبي فاسلموا على يده ^١ .

وقد روي عن الطفيل شعر يهجو به هذا الصنم بعد هدمه وهو :

يا ذا الكفين لست من عبادك ميلادنا اقدم من ميلادك
اني حششت النار في فؤادك

ثم سرية عينة بن حصن الفزاري الى بني تميم في السنة التاسعة فاغار عليهم واستاق ماشيتهم وسبى بعض رجالهم ونساءهم . فجاءه زعماء تميم يعلنون اسلامهم ويطلبون رد سبيهم فردده عليهم ^٢ .

ثم سرية قطبة بن عامر الى جماعة من خنعم في ناحية تربة فاغار عليهم واستاقوا ما قدروا عليه من ابلهم وغنمهم ونساءهم ^٣ .

ثم سرية الضحاك بن سفيان الكلابي الى قومه ايدعوهم الى الاسلام واول من دعا كان اباه فسبه وسب دينه فضرب احد رجال السرية عرقري في فرس الاب فسقط فجاء واحد آخر فقتله ^٤ .

ثم حادث استسلام الطائف واهلها ، فكان ذلك في السنة التاسعة وبعد عودة النبي من غزوة تبوك . فان احد زعماء ثقيف عروة بن مسعود جاء الى النبي بعد عودته الى المدينة فأسلم واستأذن النبي بالذهاب الى الطائف ليدعو قومه فاذن له فلما وصل حيا الناس بتحية الاسلام فاستكروا فلما طلع الفجر اذن للصلاة من فوق غرفة له فخرجت ثقيف من كل

(١) ابن سعد ج ٣ ص ٢٠٨ (٢) ص ٢١٢-٢١٣

(٣) ابن سعد ج ٣ ص ٢١٤ (٤) ص ٢١٤-٢١٥

ناحية ورماء احدثهم بسهم فكان يودي ذلك الى شر بين الناس فقال عروة رضي الله عنه
 تصدقت بدمي لأصلح بين الناس وهي كرامة اكرمني الله بها وشهادة ساقها إلى وصى
 بدفته مع الشهداء الذين قتلوا مع رسول الله : وبعد موته جاء ابنه قارب الى النبي مع رفيق
 له فاسلما . واستدعى النبي مالكا بن عوف زعيم هوازن فرد عليه ماله واهله واعطيته فقال
 له انا اكفيك ثقيفا اعير على سرحهم حتى ياتوك مسلمين . فاستعمله على قومه وعلى من اسلم
 من القبائل فصار يغير على سرح ثقيف ويقاثلهم حتى اعجزهم فاتفقوا على ارسال وفد الى
 النبي ليفاوضه على الاسلام والتسليم وجاء النبي وفدهم وعلى رأسه زعماءهم عبد ياليل وابناؤه
 وغيرهم . وقد سر النبي والمسلمون بقدومهم وضرب لزعماهم قبة في المسجد وكان يأتيهم كل
 ليلة بعد العشاء فيحدثهم . وقد حاولوا الحصول على بعض الامتيازات فلم يتساهل النبي
 فاستغفوه من هدم اصنامهم بأيديهم فاعفاهم فاسلموا واستعمل عليهم النبي عثمان بن ابي العاص
 وارسل معهم من يعلمهم ويفقههم وقد حسن اسلامهم حتى روي عن المغيرة بن شعبة انه قال
 لا اعلم قوما من العرب كانوا اصح اسلاما ولا ابعده ان يوجد فيهم غش لله وكتابه
 منهم ^١ .

نشاط النبي عليه السلام في نشر الدعوة

بين العرب ورسله ورسائله

إلى ملوكهم وزعمائهم والنجاح العظيم في ذلك



من الحقائق التاريخية أن أكثرية العرب ظلت في العهد المدني منكشمة عن الاسلام إلى فتح مكة . وأن موقف كثير من القبائل العربية في شمال الجزيرة الى الحجاز ونجد ومشارف الشام كان موقفاً عدائياً من النبي ودعوته على ما تفيد سلسلة الوقائع الحربية التي جرت بين المسلمين وهذه القبائل في هذه الحقبة .

غير أن هذا لا يعني بطبيعة الحال أن نطاق الاسلام لم يتسع في هذه الحقبة ففي كتب السيرة روايات كثيرة عما كان من ذلك فيها كما أن في القرآن آيات عديدة تلهم ذلك .

ولم يكن الاسلام قد عم الأوس والخزرج قبل هجرة النبي عليه السلام إلى المدينة رغم أنه دخل كل بيت كما ذكرت الروايات . وقد تم ذلك بعد هجرة النبي إليها . ولقد كان عدد محاربي الأوس والخزرج في وقعة بدر مئتين وأربعين وفي وقعة أحد نحو ستائة وفي وقعة الخندق أكثر من الفين مما فيه دلالة على الاتساع التدريجي لنطاق الاسلام فيهم . ولقد كان عدد المنافقين منهم غير يسير فأخذ يتضاءل تدريجياً ويتغلب الاخلاص على النفاق حتى صار المنافقون يعدون عدداً .

وفي سورة الحشر التي نزلت في السنة الهجرية الثالثة وبعد قليل من وقعة أحد آيات تنوّه بالمهاجرين والأنصار السابقين للاسلام ثم جاءت بعدها آية تقول :

(وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا
الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ ۖ (١٠)

حيث تلهم أن جماعات كثيرة انضمت الى لواء الاسلام بعد السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار .

وبعد هجرة النبي عليه السلام إلى المدينة . والمرجح أنهم من أهل المدينة وحولها .
وفي سورة الانفال التي نزلت في السنة الهجرية الثانية وبعد وقعة بدر هذه الآية (والذين
آمنوا من بعدو هاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم ٧٥) حيث تفيد أن جماعة من خارج
المدينة والبعدين عنها آمنوا بعد هجرة النبي إلى المدينة وانضموا إلى النبي بالهجرة والجهاد .
ومن المحتمل كثيراً أن يكونوا من أهل مكة وما حولها . وفي سورة الفتح التي نزلت في
السنة السادسة عقب صلح الحديبية هذه الآية :

(سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ ^(١) مِنْ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا
فَأَسْتَغْفِرْ لَنَا ... (١١)

ثم هذه الآيات :

(سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَائِمٍ لِنَاخُذُوهَا ذَرُونَا
نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكَ قَالَ
اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَتَنَبَّهُونَ إِلَّا قَلِيلًا .
قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعُونَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ
تَقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسَالِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤَيِّدْكُمْ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا
كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ١٥ — ١٦)

حيث تفيد أنه كان جماعات كثيرة من الأعراب قد دانوا بالاسلام وتخلفوا عن
الانضمام للنبي والمسلمين في غزيتهم على زيارة الكعبة . والآية الاخيرة تفيد أنهم كانوا على
شيء من القوة حيث أمرت النبي بأن يخبرهم أنهم سيدعون إلى حرب قوم أولي بأس شديد
كأمتحان لايمانهم .

(١) بنى المخلفون .

ومن المحتمل أن يكونوا من الذين ذكرت الوقائع الحربية اسلامهم ومن المحتمل ان يكونوا غيرهم .

ولقد ذكر ابن سعد^١ ان وفداً كبيراً من قبيلة مزينة جاء إلى المدينة في السنة الخامسة للهجرة فبايع النبي على الاسلام وكانوا اربعمائة . وان النبي امرهم بالرجوع إلى بلادهم واموالهم وقال لهم أنتم مهاجرون حيث كنتم ، والمتبادر أن بقية قومهم ونسائهم واطفالهم قد اسلموا ايضاً . وقد اشترك من مزينة في الزحف على مكة في السنة الثامنة نحو الف رجل^٢

وقد ذكر المؤلف نفسه^٣ ان رهطاً من بني عبس قدموا على النبي في عهد مبكر فأسلموا وانه ارسلهم ليعترضوا عيراً لقريش اقبلت من بلاد الشام . وان ثلاثة نفر من بني عبس قدموا على النبي فقالوا له إنه قدم علينا قرأونا فأخبرونا انه لا اسلام لمن لا هجرة له ولنا اموال ومواش هي معاشنا فقال لهم اتقوا الله حيث كنتم فلن يملككم من اءالكم شيئاً ولو كنتم بصمد وجازان^٤ . حيث يفيد هذا ان الاسلام قد انتشر في بني عبس في عهد مبكر ولم يقتصر على الذين قدموا على النبي عليه السلام .

وقد ذكر ان ضمام بن ثعلبة من سعد بن بكر وفد على النبي في السنة الخامسة فسأله مسائل كثيرة (وعبارة الرواية (سأله فاغلظ له المسألة) فأجابه على كل ما سأله فاسلم ورجع إلى قومه فأخبرهم فما امسى ذلك اليوم في حاضره رجل ولا امرأة إلا مسلماً . وبنوا المساجد واذنوا بالصلوات^٥ .

وقد ذكر^٦ ان وفداً من بني عبيد بن عدي وفد على النبي قبل الفتح فقالوا له نحن اهل الحرم ومساكنه واعز من به ولا نريد قتالك ونحبك ونريد ان نقاتل معك إذا قاتلت غير

(١) ج ٢ ص ٥٦ .

(٢) الصدر السابق ص ٥٧ .

(٣) ص ٦١ - ٦٢ .

(٤) لا يملككم بمعنى لا ينتقمكم وصمد وجازال في بلاد اليمن ومد اراد النبي ذكرهما ضرب المثل على البعد .

(٥) ص ٦٤ .

(٦) ابن سعد ج ٢ ص ٧٠ .

قريش ولكننا لا نقاتل قريشا فقبل منهم شرطهم فاسلموا . والمتبادر ان قومهم قد اسلموا
باسلامهم .

وقد ذكر^١ ان وفداً من اشجع مؤلف من مئة رجل في رواية وسبعمئة في رواية
قدموا على النبي عام الخندق (في السنة الخامسة) فنزلوا شعب سلع فامر النبي لهم باحمال
التمر ثم خرج اليهم فقالوا له لا نعلم احداً من قومنا قرب داراً منك منا ولا اقل عدداً . وقد
ضقنا بجربك وحرب قومك فجننا نؤادعك فؤادعهم ثم لم يلبثوا ان اسلموا .

وقد ذكر ان وفداً من بني سليم قدم على النبي قبل الفتح اسمه قيس بن نسيه قبل
الفتح فاسلم ثم عاد إلى قومه فقال لهم قد سمعت ترجمة الروم وهينة فارس واشعار العرب
وكهانة الكهان وكلام مقال حير فما يشبه كلام محمد شيئاً من كلامهم فاطيعوني وخذوا
نصيبتكم منه فلما كان عام الفتح خرجوا إلى رسول الله فادركوه في قديد في طريقه إلى مكة
وهم تسعة فاسلموا وشهدوا فتح مكة وحصار الطائف ويوم حنين مع هوازن^٢ .

وقد ذكر^٣ خبر اسلام الاجنح بن عمرو الكلبي وقومه وكانوا نصارى في انحاء دومة
الجندل نتيجة لسرية سيرها النبي عليه السلام بقيادة عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه
للدعوة . في السنة السادسة للهجرة .

وقد ذكر ان وفداً من الاشعرين اليمنين برئاسة ابي موسى رضي الله عنه ركبوا
البحر ونزلوا جده ثم جاؤوا إلى المدينة في السنة السادسة وكان النبي في غزوة خيبر فاسلموا
واقاموا عنده . وكانوا خمسين رجلاً فيهم رجلان من قبيلة عك^٤ .

وقد ذكر ان وفداً من اسلم جاء إلى النبي فقال له قد آمنا بالله ورسوله واتبعنا منهاجك
وانا اخوة الانصار ولك علينا الرفاء والنصر في الشدة والرخاء فقال لهم اسلم سلمها الله

(١) ٧١

(٢) ابن سعد ج ٢ ص ٧١ — ٧٢

(٣) ابن سعد ج ٣ ص ١٣٢

(٤) ١١١

وغفار غفر الله لها وكتب لاسلم ومن اسلم من قبائل العرب من يسكن السيف^١ والسهل كتابا يبين لهم فيه مقادير الصدقة والفرائض في المواشي . ولقد ذكرت روايات السيرة^٢ ان قبيلتي اسلم وغفار كانتا مع النبي في زحفه على مكة حيث يفيد هذا وذاك ان قبيلتي اسلم وغفار وغيرهما من قبائل العرب الذين كانوا يسكنون السيف والسهل قد اسلموا سلمياً قبل الفتح بمدة ما وإن لم تذكر الروايات وقت ذلك وكيفيته^٣ .

ولقد ذكرت الروايات^٤ أن من جملة من اعطاهم النبي عليه السلام عطايا كبيرة من غنائم هوازن تألفا لقلوبهم من زعماء القبائل نوفل بن معاوية من بني بكر بن عبد مناة بن كنانة . وعلقمة بن علاثة وليد بن رفاعه من بني عامر بن صعصعة من كلاب . وخالد بن هوذة وجرملة بن هوذة من بني عامر بن ربيعة . وعيينة بن حصن بن حذيفة زعيم بني فزارة والاقرع بن حابس زعيم بني نعيم حيث يفيد هذا ان هؤلاء الزعماء كانوا في حملة الفتح وانهم اسلموا سلمياً وقبائلهم او جماعات من قبائلهم قبل الفتح بمدة ما وان لم تذكر الروايات وقت ذلك وكيفيته .

وقد ذكر ابن سعد ان وفدا من جهينه قدم على النبي قبل الفتح فاسلموا واقاموا في احدى ضواحي المدينة وخط لهم النبي فيها مسجداً وانه بعث منهم رجلا اسمه عمرو بن مرة الى قومه فاسلموا الا رجلا واحداً رد عليه فدعا عليه عمر فسقط فوه^٥ وقد ذكر ايضا ان جهينه كانت من القبائل التي اشتركت في الزحف على مكة مما فيه تأييد للخبر السابق^٦

وقد ذكر المؤلف نفسه ان النبي عليه السلام ارسل سرية الى ما وراء وادي القرى لان جمعا من قضاة يريدون ان يغزوا المدينة وقال له استعن بمن تمر به من قبائل بلى وعذرة

(١) السيف ساحل البحر او ساحل الوادي

(٢) انظر ابن سعد ج ٤ ص ١٨٢

(٣) ابن سعد ج ٢ ص ١١٦

(٤) ابن هشام ج ٤ ص ١٤٢ — وابن سعد ج ٧ ص ٢٠٣

(٥) ج ٢ ص ٩٧

(٦) ص ١٨٢

وبلقين^٢ ، واشتباها ان هؤلاء كانوا اسماوا سامياً حتى يصح ان يوصي النبي قائله بالاستعانة بهم .

ولقد كان من جملة من ارسل النبي عليه السلام اليهم كتباً ورسلا من ملوك العرب وزعمائهم في السنة السادسة جيفر وعبد ابني الجلندي ملكي عمان . والمندر بن ساوي ملك البحرين . فاجابوا الى الاسلام وكتبوا للنبي بذلك .

وقد اورد ابن سعد نص كتاب المنذر وجواب النبي عليه وهذا الاول (اني قد قرأت كتابك على اهل هجر فمنهم من احب الاسلام واعجبه ودخل فيه ومنهم من كرهه ، وبارضي بمجوس ويهود فاحدث لي امرك في ذلك) وهذا نص جواب النبي (انك مهما تصلح فلن نزالك عن عملك . ومن اقام على يهودية او مجوسية فعليه الجزية) .

وقد ارسل النبي عمرو ابن العاص الى عمان والعلاء بن الحضرمي الى البحرين لجباية الصدقات من اغنياء المسلمين وتوزيعها على فقرائهم وجباية الجزية من اليهود والمجوس^٣ . والسياق والنصوص تدل في الوقت نفسه على ان البحرين قد دخلت تحت سلطان النبي وحكمه ودولته على طريقة الاستقلال المحلي . وهذا يقال بالنسبة لعمان ولغيرها من الإمارات اليمنية التي اسلم امراؤها واقروهم النبي على ما في ايديهم ، بحيث يسوغ القول ان هذا النوع من الحكم سنة نبوية .

كذلك كان من جعلتهم ثامة بن اثال الحنفي ملك اليمامة ولم يسلم وقتئذ . ولكنه اسلم بعد قليل كما رواه ابن هشام في خبر طريف^٤ حيث ذكر ان خيلا لرسول الله مرت ببني حنيفة فاخذت رجلا وجاءت به الى النبي فاذا هو ثامة . فامر النبي بإحسان معاملته وهو في الاسر وارسل اليه طعاما ثم صار يدعوه الى الاسلام فيجيبه يا محمد ان تقتل تقتل ذادم وان ترد الفداء فسل ما شئت . فمكث ما شاء الله ان يمكث ثم قال النبي يوما اطلقوا ثامة فلما اطلقوه اتى البقيع فتطهر فاحسن الطهور واقبل على النبي فبايعه على الاسلام ثم خرج معتمراً (لاداء واجب زيارة العمرة الى الكعبة) فدخل مكة وهو يليي فاخذته قريش

(١) ج ٣ ص ١١٧

(٢) ابن هشام ج ٤ ص ٢٤٣ و ٢٧٩ وابن سعد ج ٢ ص ٢٧ — ٢٨

(٣) ابن هشام ج ٤ ص ٣١٥

وقالت : لقد اجترأت علينا وارادوا قتله فحذروهم بعضهم من ذلك لان اليامة مصدر حطامهم وطريق قوافلهم . وقد اورد بن هشام في السياق رواية اخرى جاء فيها ان رجال قريش قالوا له اصبوت يا ثمام قال لا ولكني اتبع خير الدين دين محمد . ولا والله لا تصل اليكم حبة من اليامة حتى يأذن فيها رسول الله ثم خرج الى اليامة فمنعهم من ان يجهلوا الى مكة شيئاً فكتبت قريش الى رسول الله وكان ذلك في أثناء قيام هدنة الحديبية تقول له (قتلت الآباء بالسيف والأبناء بالجوع) فكتب النبي اليه ان يخلي بينهم وبين أهل . ويبدو من ذلك ما كان من نشاط النبي العظيم في الدعوة الى سبيل الله وما كان من استجابة لها من مختلف أنحاء جزيرة العرب ومن حضر والبسو على السواء .

وهذا ما يفسر لنا ما ذكرته الروايات من ان عدد الذين اشتركوا في غزوة تبوك قد بلغ ثلاثين ألفاً^١ . وهو عدد عظيم في ذلك الوقت يمثل ما لا يقل عن مئة الف لأنه لا يمكن ان يكون قد اشترك فيها كل مسلم من رجال ونساء وأولادهم . ولقد شك المستشرق كاتيانى في هذا العدد الذي روي انه احتشد لغزوة تبوك . وما شرحناه كاف لرد على هذا الشك . ومهما يكن من المحتمل ان يكون منهم من اسلم بعد الفتح المكي فان المدة القصيرة التي مرت بين الفتح وغزوة تبوك وهي عشرة اشهر حيث كذبت في وجب السنة الهجرية التاسعة لا تسوغ القول انه كان قسم كبير من هذا الحشد ممن اسلم بعد الفتح .

اما بعد الفتح فقد غدا انتشار الاسلام كاسحاً . وقد نوهت بهذا المعنى سورة النصر الذي جاء فيها (إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله افواجا ...) حيث دانت قريش ومن في مكة ومن حول مكة بالاسلام ثم دانت به سوازن وهي من كبريات القبائل ثم دانت به ثقيف اهل الطائف ثم اخذت وفود العرب تتدفق على النبي من كل صوب نتيجة لما كان من ذوي اخباره وانتصاره على قريش وفتحه مكة ثم نتيجة لما بعث به من كتب ورسل فيبايعونه على الاسلام باسمهم واسم قومهم ويتلقون تعليقاته ووصاياه ويسالونه المسائل المتنوعة ويسمعون اجوبته ومنهم من كان يناظر شعراؤهم شعراء المسلمين وخطبائهم خطباء المسلمين . وكان النبي يرسل معهم القراء وجباة الصدقات ويوصيهم باخذها من الاغنياء وتوزيعها على فقراء القوم بعد افراز حصة بيت المال . ومن الوفود من اتى من مختلف أنحاء اليمن ، ومنهم من

اتى من تهامة واليامة والبحرين وعمان ونجد ومنهم من اتى من مشارف الشام ومنهم من
اتى من اطراف الحجاز ومنهم جماعات كان بعض قومهم قد اسلموا دونهم .

ومن ذكرت الروايات ^١ وفودهم في السنة التاسعة للهجرة التي سميت عام الوفود وفي
السنة التالية لها وفود بني اسد وقيم وفزارة ومرة وثعلبة ومخارب وكلاب وعقيل وجعدة
وقشير والبكاء وكنانة وباهلة وعامر وثقيف وربيعة وبكر بن وائل وتغلب وخنيقة وشيبان
وطيء وتجييب وخولان وجعفى وصداء ومراد وزبيد وكندة والصدف وخشين وسعد
هذيم وبلي وهبراء وعذرة وسلامان وكتب وجرم والازد وغسان وبنو الحارث ومحمدان
وسعد العشيرة وعنس والداريين والمذحجين وغامد والتخع وبجيلة وخشم وحضرموت وازد
عمان وغافق وبارق ودوس وثالة والحدان ومهرة وحمير وجيشان والسباع .

وقد اورد ابن سعد ^٢ نصوص كتب كثيرة كتبها النبي عليه والسلام الى عدد كبير من اقبال
اليمن والزعماء وغير اليمن دون ذكر تاريخ ارسالها . منها ما يفيد يقينا انه كتب بعد الفتح
بسنة او سنتين ومنها ما لا يفيد شيئا غير اننا نرجح من اسلوبها انها هي الاخرى كتبت بعد
انفتح : وبعضها يدل على انه مرسل الى اناس قد اسلموا حيث يعطيهم النبي ذمته وجواره
ويقرهم على ما في ايديهم وعلى ما لهم من رسوم وعوائد وامارات ومراكز وارض ما قاموا
الصلاة وآتوا الزكاة ويعلمهم براءة ذمته ممن يرجع عن دينه . وقد ذكر المؤلف في سياق
بعض من ارسلت له كتب دعوة خبر اسلامهم مع قومهم او جماعة من قومهم وخبر ارسال
النبي عليه السلام اليهم من يعلمهم القرآن ويحيي منهم الصدقات . وفي بعضها تعليقات واوامر
نبوية في شؤون متنوعة بحيث يسوغ القول ان النبي قد اعتبرهم داخلين في حكمه وسلطانه
وعاملهم على هذا الاعتبار .

ومن كتب اليهم الحارث بن عبد كلال وشريح بن عبد كلال ^٣ ونعيم بن عبد كلال

(١) ابن سعد ج ٢ ص ٥٩ — ١٢١ وابن هشام ج ٤ ص ٢٢١ — ٢٧١

(٢) ج ٢ ص ٣٠ — ٥٦

(٣) هذا النموذج مما روى ابن سعد ان النبي كتبه لجماعات اليمن . كتبت لربيعة بن ذي مر حب الحضرمي
واخوته واعمامه (ان لهم اموالهم وغلهم ورقيقهم وآبارهم وشجرهم ومياهم وسواهم وبنيتهم وشراجمهم
وحضرموت . وكل مال لآل ذي مر حب . وان كل رهن بأرضهم يعحب ثروه وسوره وفضبه من رهنه الذي
هو فيه وان كل ما كان من ثمارهم من خير فانه لا يسأله احد عنه ، وان الله ورسوله براء منه . وان نصر

ونعمان قبل ذي يزن ، ومعافو ، وهمدان وزرعة ذي وعين وبنو معاوية من كندة وبنو عمرو من حمير وذو الكلاع التبعي ومعدي كرب بن ابرهة وربيعة بن ذي مرحب الحضرمي واخوته واعمامه ومن اسلم من حدس من لحم وخالد بن ضماد الأزدي وبنو قررة بن عبد الله النبهانيون وبنو الضباب من بني الحارث ويزيد بن الطفيل الحارثي وبنو قنان بن ثعلبة وبنو زياد الحارثيين ويزيد بن المحجل وقيس بن الحصين ذو الغصة وبنو قنان بن يزيد الحارثيين وعاصم بن الحارث وبنو معاوية بن جرول الطائيون وعامر بن الاسود الطائي وقومه وبنو جوين الطائيون وبنو معن الطائيون وبنو اسد وجفاعة الأزدي وقومه وقبيلتي سعد هذيم من قضاء وجذام وبنو زرعة وبنو الربعة من جهينة وبنو جعيل من بلي وخزاعة وعوسجة بن حرملة الجهني وبنو شنخ من جهينة وبنو الجرهمي من ربيعة من جهينة وبنو الحرقمة من جهينة وبلال بن الحارث المازني وبديل وبسر وسروات بني عمرو والعداء بن خالد بن هوذة وسلمة بن مالك السلمي والعباس بن مرداس السلمي وحرام بن عبد عوف من بني سليم ونعيم بن مسعود الاشجعي وجعيل بن رزام العدوي وحسين بن نضلة الاسدي وبنو غفار وبنو صخرة واهل هجر وقبيلة جراح في تهامة وبنو زهير بن اقيش من عكل وابو ظبيان الأزدي وقومه والحبيب بن عمرو وقومه وبنو بخت من طي وسمعان بن عمرو والعري والسعير بن عداء والحارث ومسروح ونعيم بن عبد كلال من حمير وبنو عبد القيس في عمان واقبال حضرموت وعظاؤهم زرعة وفهد والبسي والبحيري وعبد كلال وربيعة والمطرف بن الكاهن الباهلي ونهشل بن مالك الوائلي وبنو حناب من كلب ومهري بن الابيض وقومه وقبيلة خنعم وبطن بارق من الازد ووائل بن حجر قبل حضرموت ...

ومن مشاهير العرب الذين اهتمت الروايات بذكر اسلامهم في هذه الفترة ايضا عدي بن حاتم الطائي .

آل ذي مرحب على جماعة المسلمين . وان ارضهم بريئة من الجور . وان اموالهم وانفسهم وزافر حائط الملك الذي كان يسيل الى آل قيس ، وان الله ورسوله جار على ذلك . وكتب معاوية (ابن سعد ج ٢ ص ٣١)

وهذا نموذج ثان : (كتب رسول الله لمن اسلم من حدس من لحم وانام الصلاة وآتى الزكاة واعطى حظ الله وحظ رسوله وفارق المشركين . فانه آمن بذمة الله وذمة رسوله محمد . ومن رجع عن دينه فان ذمة الله وذمة محمد رسوله بريئة . ومن شهد له مسلم باسلامه فانه آمن بذمة محمد وانه من المسلمين . وكتب عبد الله ابن زيد)

ابن سعد ج ٢ ص ٣١

وروى خبر ذلك ابن هشام في قصة طريفة^١، حيث روى أنه كان يقول ما من رجل من العرب كان أشد كراهة لرسول الله مني وكنت امرءاً شريفاً ونصرانياً وملكاً على قومي فوصيت راعياً لي بأنه إذا سمع بجيش محمد وطىء البلاد فاخبرني فأتاني ذات يوم فقال لي أقبلت جيوش محمد فاحتملت أهلي بقصد الحقوق بأهل ديني من النصارى في الشام وفي الطريق خلفت اختاً لي في الحاضر وأتمت بالشام متربصاً . وقد أصابت خيل رسول الله اختي فاخذوها إليه في سبايا طي فلما رآته قالت له هلك الوالد وغاب الوافد فامتن علي فقال لها : من الوافد قالت اخي عدي قال الفار من الله ورسوله . ثم تركها فاعادت الكلام عليه مرة ثم مرة فقال لها قد فعلت فلا تعجلي بخروج حتى تجدي ثقة من قومك تخرجين معه ، فاخبرت النبي فكساها وحملها واعطاها نفقة فقدمت الشام واجتمعت باخيها وعاتبت وحضته على الحقوق بالنبي وقالت ان كان الرجل نبياً فللسابق اليه فضله وان كان ملكاً فلن تذل في عز اليمن وأنت أنت . قال حاتم فخرجت حتى قدمت الى المدينة فأقبلت وسلمت عليه . فسألني من الرجل قلت له حاتم بن عدي فأخذني إلى بيته . وفي الطريق استوقفته امرأة ضعيفة لحاجتها فوقف لها طويلاً فقلت والله ما هذا بملك ثم مضى بي حتى إذا دخل بي بيته تناول وسادة من ادم محشوة ليفاً ففقدتها بي وقال اجلس على هذه قلت بل انت اجلس عليها فقال بل انت فجلست عليها وجلس على الأرض فقلت في نفسي والله ما هذا بملك ثم اقبل علي فقال يا عدي ألم تك ركوسياً (طائفة نصرانية على ما هو المتبادر) قلت بلى قال أو لم تكن تسير في قومك بالمرباع (اي تأخذ منهم ربع غنائمهم) قلت بلى قال فإن ذلك لم يكن بجل لك في دينك . قلت اجل والله . ثم قال لعلك يا عدي انما يمنعك من دخول الاسلام ما ترى من حاجة اهله (فقر اهله) فواته ليوشكن المال ان يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه . ولعلك انما يمنعك من دخوله ما ترى من كثرة عدوهم وقلة عددهم فواته ليوشكن ان تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعيرها حتى تزور هذا البيت لا تخاف . ولعلك انما يمنعك من دخوله انك ترى الملك والسلطان في غيرهم وايم الله ليوشكن ان تسمع بالتصور البيض من ارض بابل قد فتحت والمراة تخرج من القادسية على بعيرها لا تخاف حتى تخرج البيت . وايم الله لتكونن الثالثة ليفيضم المال حتى لا يوجد من يأخذه .

ومن مشاهيرهم كذلك فروة بن مسيك المرادي حيث روى ابن هشام^١ انه كان مفارقاً للملوك كندة فأقبل النبي فأسلم فاستعمله على مراد وزيد ومذحج كلها وبعث معه خالداً بن سعد العاص على الصدقة .

ولقد اسلم بجير بن زهير بن ابي سلمى الشاعر المشهور عقب الفتح وكان اخوه كعب يهجو النبي ففر كثيره من الشعراء المهاجرين للنبي فكتب له اخوه قائلاً ان كان لك حاجة في نفسك فطر الى رسول الله فانه لا يقتل احداً جاءه تائباً . فنظم قصيدته المشهورة (بانث سعاد) وقدم الى المدينة وغدا مع صاحب له على النبي فسلم عليه ثم قال له ان كعبا بن زهير جاء تائباً مسلماً يستأمن منك فهل انت قابل منه ان جئت بك به قال نعم قال انا كعب يا رسول الله . ثملقى قصيدته : فقبل توبته وعفا عنه ومنحه برده تقديراً لقصيدته التي هي من غرر الشعر العربي^٢ .

وكان آخر ما فعله النبي عليه السلام ارساله سرية بقيادة خالد بن الوليد رضي الله عنه الى بني الحارث بن كعب في نجران اليمن وسرية او اثنتين بقيادة علي بن ابي طالب رضي الله عنه الى اليمن للدعوة الى الاسلام وقد دخلت سرية على بلاد مذحج . ونجحت السرايا في مهمتها حيث دخل اهل الناجيتين في دين الله^٣ .

وهذه الجهود العظيمة التي بذلها النبي عليه السلام بعد الفتح مضافا اليها ما بذله قبل الفتح في الدعوة الى سبيل الله تفسر لنا مدى صحة ما روي من ان عدد الذين رأوا رسول الله وعدوا من اصحابه بالمعنى الواسع^٤ قد بلغ مئة الف يمثلون فيما نعتقد اربعمئة الف او خمسمئة الف وبكلمة ثانية غالبية سكان جزيرة العرب مما يسوغ القول ان الهدف العاجل الذي قلنا في مطلع الجزء ان النبي عليه السلام اهتم له كمرحلة اولى وهو جمع كلمة العرب تحت

(١) ج ٤ ص ٢٥١ - ٢٥٢

(٢) ابن هشام ج ٤ ص ١٤٩ - ١٦٩ لم يذكر ابن هشام في سياق خبر منع النبي البردة . ولكن ذلك من الاخبار المشهورة وننبه الى ان في ابن هشام وغيره قصص طريفة في اسلام غير من ذكرنا من مشاهير العرب فاكثفنا بالتأرجح التي اوردناها

(٣) ابن سعد ج ٣ ص ٢٢٢ - ٢٢٣ وابن هشام ج ٤ ص ٢٦٢ - ٢٦٥ و ٣١٩

(٤) اردنا بتعبير (المعنى الواسع) تمييز الفريق الذين صحبوا النبي صعبة طويلة من السابقين الاولين من المهاجرين والانصار والذين اتبعوهم باحسان والذين هم الذين عناهم النبي في احاديثه المروية في التنازل والنهي عن التعرض لهم على ما سوف نذكره بعد قليل

لواء الاسلام قد تحقق اجمالاً في حياته ، وما فيه دلالة على نجاح الدعوة الاسلامية العظم وما فيها من قوة عناصر الاستجابة حينما تزول من طريقها العقبات الناجمة عن العناد والمكابرة والاستكبار والحقد والمنافسة والحسد والخوف على المصالح الشخصية والقبلية وسوء النية .

ولقد كان ممن كتب اليهم النبي عليه السلام مسيامة الحنفي --- المعروف بالنبي الكذاب - وكان الشيطان قد أغره وأغراه ونفخ في انفه فكتب جواباً يقول فيه للنبي انه نبي مثله وانه يشترط ان يكون له نصف الارض فكتب النبي اليه يقول ان الارض لله يورثها من يشاء من عباده ^١ . فركب رأسه واثّر على كثير من قومه وجعلهم يلتفون حوله تأثراً بالنعرة القبلية حتى كان من شره ما كان على ما سوف نشرحه بعد .

ولقد اسلم معظم زعماء بني عامر وتابعهم قومهم عدا زعيم اسمه عامر بن الطفيل . وقد قال له قومه اسلم فالناس قد اسلموا فكان جوابه والله لقد كنت آليت ان لا انتهي حتى تتبع العرب عتبي أفأنا اتبع عتب هذا الفتى من قريش . ثم وفد على النبي مع زعماء قومه فطلب منه ان يخاله فقال له حتى تؤمن بالله وحده لا شريك له فقال له إذاً والله لأملأها عليك خيلاً ورجلاً ^٢ .

ولقد كان من جملة من كتب اليهم النبي من ملوك العرب هود بن علي الحنفي ملك اليمامة فاجاب النبي بقوله (ما احسن ما تدعو اليه واجمله . وانا شاعر قومي وخطيبهم والعرب تهاب مكاني فاجعل لي بعض الامر أتبعك) فقال النبي الرسول الذي حمل كتابه (لو سألني سيابة من الارض ما فعلت . باد وباد ما في يديه ^٣ .

ففي هذه الامثلة وامثالها التي مر منها كثير في سياق مباحث العهد المبكي ومواقف زعماء قريش ومباحث المنافقين ما قد يكون داعماً لما قلناه .

ولقد قلنا ان غالبية سكان جزيرة العرب قد غدت منضوية تحت راية الاسلام لأنه كان هنا وهناك وهنالك فئات من العرب المشركين ظلت تحتفظ بشركها منها من كان في انحاء نائية ومنها من كان في انحاء دانية ولكن بينها وبين النبي عهد وهدنة . هذا الى جانب من احتفظ بدينه من نصارى الجزيرة ويهودها ومجوسها معاهدات على المواد واداء الجزية .

(١) ابن هشام ج ٤ ص ٢٧٢

(٢) ابن هشام ج ٤ ص ٢٣٣-٢٣٤

(٣) ابن سعد ج ٢ ص ٢٦-٢٧

استدراك وتعليق على بنیان المجتمع الاسلامي الذي وطده رسول الله

③

وقد يكون محل لاستدراك بحق خدمة الحق والتاريخ وهو ان من المحتمل ان يكون الاسلام لم يرسخ في قلوب كثير من البدو الذين دانوا به بداهة العميق وأن لا تكون التقاليد العصبية القبلية الضيقة قد زالت بالمرّة بسبب قصر عهد الإشعاع النبوي الشخصي بما كان له آثار ونتائج أليمة في تاريخ العرب والاسلام .

ولقد كان هذا ملموحاً في أواخر عهد النبي واحتوى القرآن بعض إشارات إليه حيث جاء في سورة الحجرات المدنية :

(قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ١٤)

وحيث جاء في سورة التوبة :

(الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَنْ لَا يَغْفُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ . وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمْ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السُّوءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٩٧ - ٩٨)

(١) في الآية تشريع وتلقين رائعان . فالله ورسوله قد قبلوا من الاعراب الاسلام كظهر من مظاهر الاستسلام والخضوع لله ورسوله وسلطانه ولو لم يكن ذلك عن ايمان راسخ في قلوبهم مع شرط طاعة الله وطاعة رسوله . ولهم على ما يفعلون من اعمال اجرم دون نفس . وحكمة هذا ظاهرة وهي الامل في تطور حالتهم ورسوخ الايمان في قلوبهم مع الایام .

وهذا بالإضافة إلى ما كان من فئة منافقة غير مكشوفة تماماً في المدينة وما حولها من الأعراب اشارت اليها آية سورة التوبة هذه:

(وَمِنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۖ (١٠١)

وإلى ما كان من منافقين معروفين لا يتورعون عن التآمر عن رسول الله وعهده بما شرحناه في مبحث المنافقين ، ، ثم إلى ما كان من فئة أخرى ذكرتها آية في سورة التوبة هكذا :

(وآخَرُونَ مُّرْجُونَ لِلَّهِ إِذَا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَإِنَّا يُعَذِّبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٠٦)

بما يكن أن يكون وصفاً لجماعة كانوا يظهرون غير ما يبطنون مما فيه اثم وعدم إخلاص ، وإلى ما كان كذلك من فئة أخرى خلطت عملاً صالحاً وآخر سيئاً على ما ذكرته آية التوبة هذه (وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم ان الله غفور رحيم ١٠٢) ثم بالإضافة الى من كانت تعنيهم آيات مدنية عديدة احتوت تنديداً بسبب التناقل عن النفرة في سبيل الله واظهار الجزع والشغب حينما تصيبهم بعض المصائب او يحق عليهم موقف ووصفوا في الآيات بوصف المؤمنين مثل آيات الصف هذه :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ . كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ٢-٣)

وآيات سورة النساء هذه:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَهُمْ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ

اللَّهُ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَلَا تُظَاهَمُونَ قَلِيلًا (٧٧) .

وهذه :

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا (٦٠))

وهذه :

(فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا بَعَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَئِمُوا تَسْلِيمًا . وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيثًا . وَإِذْ آلَا تَبْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا . وَلَهْدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا)

٦٥ - ٦٨

وهذه :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا (١٤٤))

وآيات سورة آل عمران هذه :

(أَوَلَمْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنِى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ١٦٥)

وآيات سورة التوبة هذه :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّا قُلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ . إِلَّا تَنْفَرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ٣٨ — ٣٩).

غير ان من الحق ان نقول أيضا ان هذا أمر طبيعي في كل مجتمع وبخاصة في مراحل التطور الخطر في كل مجتمع كما كان شأن المجتمع العربي في عهد النبي عليه السلام ونتيجة لرسالته ودعوته ونشاطه في سبيلها . وانه لم يكن لينقض ما قلناه من تحقق الهدف العاجل وتوطيد المجتمع العربي الجديد والدولة العربية الجديدة تحت راية الاسلام ونبيه . لان الأساس الذي كان يقوم عليه سليم قوي . حيث كان هناك طبقة عميقة الإيمان والإخلاص والاستغراق في الدعوة . كثيرة العدد نوعا ما تتألف من مسلمي المهاجرين السابقين الذين وصفتهم آيات مكية ومدنية اروع وصف^٢ ومن مسلمي الأنصار السابقين الذين وصفتهم آية في سورة الحشر كذلك اقوى وصف^٣ ومن العدد العديد الذين آمنوا بعدهم وهاجروا وجاهدوا واتبعوا هؤلاء واولئك بإحسان من اهل مكة والمدينة والطائف واليمن والقبائل

(١) هناك آيات عديدة اخرى من بينها مثل آيات سورة محمد ٢٠ و ٣٥ — ٣٨ والجمعة ١١ والمنعنة ١ — ٢ وآل عمران ١١٧ — ١٢٢ و ١٣٨ — ١٤٤ و ١٥١ — ١٥٦

(٢) اقرأ مثلاً آيات سورة المؤمنون ١ — ١٠ وفاطر ٢٩ — والثورى ٣٦ — ٤٣ والذاريات ١٦ — ١٩ والماعرج ٢٢ — ٣٥ والانسان ٧ — ١٢ والذرفان ٦٢ — ٧٦ والمزمل ٢٠ والحشر ٨ والبقرة ٢١٨ والفتح ٣٠

(٣) آية سورة الحشر ٩ .

الذين اندمجوا في الدعوة ايماناً وعملاً والذين جمعتهم آية سورة التوبة هذه :

(وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ
بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ) (١٠٠)

والذين وصفتهم آيات مدينة عديدة اروع وصف ونعتهم بالصادقين واهابت بسائر المسلمين بأن يكونوا معهم^١ . ومنهم الذين يوصفون بأصحاب رسول الله الحقيقيين الذين عناهم حديث نبوي رواه الترمذي^٢ جاء فيه (الله الله في اصحابي . لا تتخذوهم غرضاً بعدي فمن احبهم فحببي احبهم ومن ابغضهم فببغضي ابغضهم ومن آذاهم فقد آذاني ومن آذاني فقد آذى الله ومن آذى الله فيوشك ان يأخذه) وحديث نبوي آخر رواه البخاري ومسلم وابو داود وابن ماجه^٣ جاء فيه (لا تسبوا اصحابي فإن أحدكم لو اتفق مثل احد ذهباً ما ادرك 'مد' أحدكم ولا نصيفه) وبسبب وجود هذه الطبقة التي كان جمهرة منها في الحجاز (مكة والطائف والمدينة وما حولها من قرى وقبائل) وفتات كثيرة وشخصيات بارزة منها في مختلف انحاء الجزيرة والتي تكشف عن طبقة موهوبة في عقولها وعبقريتها واقدامها وثباتها وكان لها المواقف العظيمة في مختلف الظروف والعصبة التي مرت بالمسلمين في حياة النبي وكانت العامل الاقوى في حفظ الكيان الاسلامي العربي والدولة الاسلامية العربية اللذين وطدهما النبي حينما نجمت بحنة الردة بعد وفاته وفي جعلها حقيقة قائمة راسخة قوية الاساس والبنیان .

ومن الجدير بالتنبيه اليه ان الوصف الذي انطوى في آيتي التوبة (٩٧ - ٩٨) للأعراب مستمد من طبيعتهم كما يبدو من تعن مضمونها غير انه جاء بعدها آية نوهت بفريق من الاعراب تنوياً يفيد ان هذه الطبيعة قد اخذت تتطور بقوة الاشعاع النبوي كما ترى فيها :

(١) انظر مثلاً آيات سورة آل عمران ١٧٠ - ١٧٤ و ١١٩ - ١٩٨ والانفال ٧٢ و ٧٤ والتوبة ٧٢ - ٧٣ و ٨٨ و ٩٧ و ١١٩ والاحزاب ٢٢ - ٢٣ والمزمل ٢٠ والشعراء ٢٣٧ . وآيتا المزمل والشعراء مدينتان .

(٢) انظر التاج الجامع للاصول في احاديث الرسول ج ٣ ص ٢٧٢

(وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ٩٩)

وقد جاء هذا التطور مصداقاً للحكمة المنطوية في آية سورة الحجرات ١٤) التي أوردناها سابقاً ونبينا إلى ما انطوى فيها من حكمة . .

واقد كان لهذا التطور أثر بالغ عقب وفاة النبي عليه السلام وفي أثناء محنة الردة التي ألمت بالاسلام والدولة الإسلامية حيث ثبت فريق كبير من الأعراب في الحجاز وغـسير الحجاز تجاه هذه المحنة وتضامنوا مع خليفة النبي وأصحابه السابقين الأولين واتبعواهم بإحسان تضامناً أمكن به التغلب على تلك المحنة وخروج الإسلام والدولة الإسلامية منها وطيدين سليمين على ما سوف نشرحه في الفصل التالي .

رسل النبي عليه السلام وكتبه إلى الملوك والأمراء خارج الجزيرة

⑤

يضاف إلى ذلك النشاط العظيم الذي بذله النبي صلوات الله عليه في الدعوة إلى سبيل الله في جزيرة العرب وكتبه ورسله إلى أمراء وملوك وأقيال وزعماء وقبائل العرب ونتائجهم الكبرى فقد أرسل في السنة السادسة أيضاً وبعد صلح الحديبية إلى ملوك وأمراء البلاد المجاورة والقريبة رسلاً يحملون كتباً منه بالدعوة إلى الإسلام . وكان رسوله إلى قيصر الروم الذي كان حينئذ في بلاد الشام دحية الكلبي وإلى كسرى الفرس عبد الله بن حذافة السهمي وإلى النجاشي ملك الحبشة عمرو بن أمية الضمري وإلى المقوقس ملك الإسكندرية وهذا وصف ابن هشام — حاطب بن أبي بلتعة . وإلى أبي ثمر الغساني وجبله بن الإيهم الغساني شجاع بن وهب الأسدي .

وقد ذكر الخبر ابن سعد وابن هشام رواية عن من قبلهم سماعاً ومدونات^١ . ورواه كذلك الامام المحدث ابو عبيد القاسم بن سلام في كتابه الأموال^٢ . وهو مثلها مولود في أواسط القرن الثاني للهجرة ومات في أوائل القرن الثالث (١٥٤ - ٢٢٤ هـ) ولم يورد ابن سعد وابن هشام نص الكتب . ولكن ابا عبيد روى روايات عديدة عن رواية مختلفين في نصوص عديدة فيها بعض الخلاف . من ذلك هذا النص لكتاب الى قيصر صاحب الروم مروي عن عبد الله بن صالح عن الليث بن سعد عن يونس الايلي عن ابن شهاب عن عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس عن ابي سفيان (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله الى هرقل عظيم الروم السلام على من اتبع الهدى^٣ . اما بعد فاني ادعوك بدعاية الإسلام . أسلم تسلم واسلم يؤتلك الله اجره مرتين فإن توليت فإن عليك اثم الاريسيين ويا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم الا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً الا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون) وقد فسر أبو عبيد الاريسيين بالخدم والأعوان .

وروى الكلمة بصيغة الاريسيين ايضاً^٤ ومن ذلك برواية عباد بن العوام عن حصين بن عبد الرحمن عن عبيد الله شداد (من محمد رسول الله الى صاحب الروم . فاني ادعوك الى الإسلام فإن أسلمت فلك ما للمسلمين وعليك ما عليهم . فإن لم تدخل في الإسلام فأعط الجزية فإن الله تبارك وتعالى يقول (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين اتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون) والا فلا تحل بين الفلاحين وبين الإسلام ان يدخلوا فيه او يعطوا الجزية^٥ ومن ذلك برواية يحيى بن سعيد عن عبد الرحمن بن حرملة عن سعيد بن المسيب هذا النص الذي ارسل الى كسرى وقيصر والنجاشي (بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله .

(١) ابن سعد ج ٢ ص ٢٣ — ٢٧ وابن هشام ج ٤ ص ٢٧٨ - - ٢٨٠

(٢) ص ٢٠ — ٢٣

(٣) ص ٢٢ — ٢٣

(٤) ص ٢١ — ٢٢

اما بعد تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم الا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا أشهدوا بأنا مسلمون^١ .

وقد ذكر الخبّر الطبري أيضا كما ذكره ابن سعد وابن هشام أي أسماء الرسل الذين أرسلهم النبي وأسماء الملوك الذين أرسلهم اليهم وروى نص الكتاب المرسل مع دحية إلى هرقل برواية بن حميد عن سلمه عن محمد بن اسحق عن ابن شهاب الزهري عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن عبد الله بن عباس عن أبي مفيان هكذا :

(بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم السلام على من اتبع الهدى . اما بعد أسلم تسلم وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين وإن تول فإن اثم الاكافرين عليك^٢) .

وفي كتاب تاريخ الاسلام السياسي^٣ صورة فوتوغرافية لكتاب موجه من النبي إلى المقوقس بخط بين الكوفي والرقعة كتب تحتها (كشفه مسيو ارتين برتليسي ويعتقد كثير من العلماء أنه الكتاب الأصلي . نقله الاستاذ مرجوليوت عن مجلة الهلال نوفمبر سنة ١٩٠٤) وهذا نصه :

(بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى المقوقس عظيم القبط . سلام على من اتبع الهدى . اما بعد فأني أدعوك بدعاية الإسلام فأسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين . يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا أشهدوا بأنا مسلمون) وفي قرنة الصورة خاتم لم نستطع قراءة نقشه) .

وقد روى ابن عبد الحكم مؤلف كتاب فتوح مصر نص كتاب النبي للمقوقس بنص مماثل لنص الطبري أي بدون الآية القرآنية التي جاءت في نص أبي عبيد الثالث .

(١) ص ٢٣

(٢) ج ٢ ص ٢٨٨ — ٢٩١

(٣) ج ١ ص ١٩٨

(٤) تاريخ الاسلام السياسي لحسن ابراهيم طبة اولى ج ١ ص ١٩٨ — ١٩٩

وقد روى الطبري^١ نص كتاب النبي لنجاشي هكذا :

(بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله الى النجاشي الأصم ملك الحبشة . سلام أنت . فإني أحمد اليك الله الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته القاها الى مريم البتول الطيبة الحصينة . فحملت بعيسى فخلق الله من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده ونفخه . وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له والموالاتة على طاعته . وأن تبغني وتؤمن بالذي جاءني فإني رسول الله . وقد بعثت اليك ابن عمي جعفرأ ونفراً معه من المسلمين فإذا جاءك فأقرهم ودع التجبر فإني أدعوك وجنودك إلى الله . فقد بلغت ونصحت فاقبلوا نصحي والسلام على من اتبع الهدى) .

وقد روى الفلقشندي نص كتاب النبي لكسرى هكذا :

(بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله . وشهد أن لا إله إلا الله وإني رسول الله إلى الناس كافة لينذر من كان حياً . أسلم . تسلم . فإن أبيت فعليك اثم الجوس^٢)

وقد ذكرت الروايات خبر سلام النجاشي وجبله بن الأيهم الغساني وكتابتهم بذلك إلى النبي كما ذكرت أن القيصر هرقل الذي كان في بلاد الشام ووصله كتاب النبي عن طريق عامله على بصرى أراد أن يحمل بطاركته وأهل ملته على قبول الدعوة وقال لهم إنه النبي المنتظر أو على مسالته ومصالحته على الجزية أو قسم من بلاد الشام فقابلوه بالاحتجاج فانصرف عن ذلك^٣ .

(١) ج ٢ ص ٢٩٤

(٢) لتاريخ الاسلام السياسي ج ١ ص ١٩٩

(٣) ابن سعد ج ٢ ص ٢٤ — ٣٠ وانظر الطبري ج ٢ ص ٢٨٨ — ٢٩٣ وقد روى الطبري في سياق ذلك رواية عجيبة تخشى ان تكون مصنوعة عن مقابلة ومحاورة بين ابي سفيان وهرقل . فقد كان ابي سفيان ويض رفاقه في رحلة تجارية في غزوة خرجوا اليها بعد صلح الحديبية فجاءتهم شرطة قيصر فأخذتهم الى حمص حيث كان . وكان هرقل قد سمع بخبر النبي فأخذ يسأله عن صفته وأخلاقه وسيرته والناس الذين يبعونه ومقدار إيمانهم به وقال رفاقه ان كذب في جوابه ردوا عليه. وصدقه ابر سفيان في كل ما سأل فقال له هرقل لكن صدقتني ليقطن على ما تحت قدمي هاتين . ولوددت ان اكون عنده فأغسل قدميه . ولم يلبث يقصر ان

وذكرت كذلك^١ أن كسرى مزق الكتاب وأرسل إلى باذاث عامله في اليمن يأمره بإرسال من يستطيع خبر هذا الرجل (أي النبي) فبعث برجلين فقال النبي لهما ابلغا صاحبكما ان ربي قد قتل ربه كسرى فلما عادا وأخبراه وتحقق من صحة الخبر أسلم هو والأبناء (أي أبناء الفرس الذين ولدوا في اليمن) باليمن ، وان المقوقس أخذ كتاب النبي فجعله في حق من عاج وأرسل إلى النبي يخبره انه أكرم رسوله وبعث اليه بجاريتين لهما مكان عظيم في القبط وكسوة وبغلة لركوبه وانه قد علم أن نبياً بقي وكان يظن أنه يخرج بالشام ولم يزد على ذلك . وقد تسرى النبي باحدى الجاريتين وهي مارية رضي الله عنها أم ابراهيم . وأن النجاشي وضع كتاب النبي على عينيه ونزل من سريته فجلس على الأرض تواضعاً ثم أسلم وشهد شهادة الحق وقال لو كنت أستطيع ان آتية لأتيته وكتب بذلك إلى النبي . وأن جبلة بن الأيهم ملك غسان أسلم وكتب باسلامه إلى رسول الله وأهدى له هدية . وان حاجب ابن ابي شمر الغساني الرومي واسمه مري استوضح من شجاع عن صفة رسول الله ثم اعلن له إيمانه وتصديقه . وبعض المستشرقين ومنهم كاتباني ينكرون خبر رسائل النبي ورسله إلى الملوك وبخاصة إلى الكبار منهم الاعاجم أي هرقل وكسرى والنجاشي والمقوقس . وقد حاولوا ان يؤيدوا رأيهم بما وجدوه من ثغرات وعلل في النصوص والتواريخ والأيام والأسماء . ولا بعد هذا في الحقيقة سوغاً جدياً لإنكار الخبر . فمثل هذه الثغرات يمكن ان يقع في سياق كل حادث . ولم يدون الحادث إلا بعد مدة ما ظل خلالها متداولاً على الألسنة يزيد الرواة في تفصيله ونصوحه وإيامه واسمائه وينقصون ويبدلون ويغيرون . بل كثيراً ما يقع اصحاب حادث ما في مثل ذلك إذا ارادوا ان يرووا تفاصيله بعد مدة ما من حدوثه ولا يقتضي ذلك ان يكون الحادث كادباً . ولقد ورد الخبر في اقدم ما وصل الينا من كتب كتبت في القرن الثاني والقرن الثالث والقرن الرابع وروى كتابها

جاءته رسالة انني فلما قابل قومه رأيته في الاجابة والمصالحة بالرفض قال لدحية اني لاعلم ان صاحبك نبي مرسل وانه الذي كنا نتظره ونجده في كتابنا ولكنني اخاف الروم على نفسي فاذهب الى الاسقف صفاطر : هو اجوز قولاً عندهم مني فذهب دحية اليه فخرج هذا على الروم فقال لهم قد جاءنا كتاب من احد يدعوننا الى الله واني اشهد ان لا إله إلا الله وان احمد عبده ورسوله فوثبوا عليه وثبة رجل واحد فضربوه حتى قتلوه .

(١) ابن سعد ج ٢ ص ٢٢ - ٢٦ وكتاب الاموال لابي عبيد ص ٢٠ - ٢٤

ما كتبه عن رواية معينين إلى ان اوصلوه إلى احد اصحاب رسول الله او تابعيهم . وفي النصوص تقارب كبير مع اختلاف الرواة بما يمكن فيه تأييد لصحة الخبر .

ومن الأسباب التي ايدوها لانكار الخبر انه لم يرد في القرآن نص صريح بعموم رسالة النبي وأنه ورد فيه نص صريح بأن القرآن أنزل عربياً لينذر أم القرى ومن حولها وأن النبي إنما أرسل عربياً للعرب وأنه لم يكن ليفكر قط ببناء على ذلك ثم بناء على ظروفه الخاصة والعامة في خارج الحجاز وعلى الأكثر في خارج الجزيرة كما أنه لم يكن ليجراً على ارسال رسل ورسائل إلى أكبر ملوك الأرض إذ ذاك .

وفي هذه الأقوال أخطاء فظيعة . ففي القرآن المكّي والمدني آيات صريحة بعموم الرسالة النبوية للناس كافة وللعالمين ولجميع الناس كما أن فيه آيات وجهت الدعوة إلى اليهود والنصارى بصرامة^١ وما ورد في القرآن من الآيات التي تأمر النبي بإنذار أم القرى وما حولها أو تذكر ان الله أنزل عليه القرآن عربياً لينذر أم القرى وما حولها إنما كانت بسبيل المواقف الحجاجية والجحودية التي كان العرب يقفونها من الدعوة أولاً وبسبب كون العرب والحجازيين بخاصة أول من خوطبوا بالدعوة ثانياً . وإذا كان النبي بذل جهوده الأولى في العهد المكّي وقسم من العهد المدني في نشر الدعوة وتوطيد سلطانها في الحجاز خاصة والعرب عامة فإن هذا طبيعي جداً ولا يعقل غير ذلك .

وزمن ارسال الرسل والرسائل المروي يدل على صحة الحادث حيث يصادف لوقت فراغ قلب النبي من اعداء الدعوة الألداء وهم اليهود وأهل مكة . فقد تم التنكيل بيهود المدينة وأجلوا عنها وخضت شوكتهم في خيبر ووادي القرى وقد انعقد الصلح أو الهدنة بين النبي وأهل مكة لمدة عشر سنين . فليس في الحادث ارتجال يجعل خبره منكراً او موضوعاً كما هو واضح . وفي سورة المائدة آية ذات مغزى خاص في هذا الصدد فيما نعتقد وهي :

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا

(١) انظر آيات سورة الاعراف ١٥٨ والمائدة : ١٥ و ١٩ و ٦٧ والنساء ٤٦ و ١٧٦ وسبأ ٧٨ والانبيا ١٠٧ والفرقان ١

بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَخْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ (٦٧)

وآيات النوراة نزلت عقب صلح الحديبية وهو الظرف الذي تروي الروايات أن النبي أرسل رسله ورسائله إلى الملوك والأمراء .

والآية المذكورة جاءت عقب آيات طلب فيها من أهل الكتاب أن يقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إلى النبي من الله حتى يسعدوا ويفتح الله لهم بركات كل شيء^٢ . ولعلها كانت نقطة الانطلاق في هذا المجال . ولقد أرسل النبي رسله وكتبه يبلغ رسالة ربه إلى أمراء العرب وزعمائهم وقبائلهم في الحضر والبدو في جزيرة العرب فمن المنطقي جداً أن يرسل رسله وكتبه لا بلاغها لمن هم خارج الجزيرة من ملوك وأمراء أيضاً .

ولقد كانت هناك أحداث منبثقة عن هذا الحادث ورويتها الروايات في سياق آخر مثل سلب دحية الكلبي رسول رسول الله إلى قيصر من قبل بعض بني جذام ترتب عليها توجيه سرية لقتالهم بقيادة زيد بن حارثة^٣ . ومثل قتل رسول رسول الله الحارث بن عيمر إلى ملك بصرى من قبل عامل مؤتة الغساني عمرو بن شرحيل ترتب عليه توجيه سرية إلى مؤتة للانتقال بقيادة زيد بن حارثة أيضاً^٤ . والحادثان وقعا في السنة السادسة . وبعد إرسال النبي رسله وكتبه إلى الملوك ولم ينكر المستشرقون أي الحادثين . ثم مثل حادث قدوم مارية واختها من مصر هدية من المقوقس فتخطى النبي عليه السلام مارية وولدت له ابنة إبراهيم والحادث يصادف السنة السادسة .

(١) بعض مفسري الشيعة (انظر الطوسي مثلاً) ورواتهم ومؤلفهم يؤولون الآية بأنها امر رباني للنبي يبلغ الناس ما أمر بتبليغه وهو وصاية علي ابن أبي طالب وخلافته من بعده وإن النبي أعلن ذلك في موقف له عند غدير خيم في طريق عودته من مكة إلى المدينة بعد الفتح أو بعد حجة الوداع . وهو من غرائب ما كثر من هذا الباب من تفسيراتهم وتأويلاتهم . والتهاوت منا ظاهر ولا يوجد بين هذا التأويل وبين الآية وسياقها أية مناسبة بعيدة أو قريبة على ما ذكرته في المتن (انظر المتقي من منهاج السنة ص ٤٢٢ وبعدها) .

(٢) انظر آيات سورة المائدة ٦٥ - ٦٧

(٣) ابن سعد ج ٣ ص ١٣١

(٤) نفس المصدر ١٧٤

ومات ابراهيم وعمره ستة عشر شهراً او ثمانية عشر شهراً في السنة العاشرة للهجرة^١ . ومثل اسلام باذان عامل كسرى على اليمن . فهذه الأحداث تكاد ان تكون حقائق تاريخية نجحت عن حادث ارسال النبي رسله وكتبه الى الملوك . اما القول ان النبي صلوات الله عليه لم يكن ليجرأ على ارسال رسله ورسالته لا كبر ملوك الارض اذ ذاك فهو هراء بالنسبة الى صاحب دعوة مؤمن بدعوته اعمق الايمان ومستغرق فيها اشد الاستغراق ومعتقد بواجبه بنشرها في مشارق الارض ومغاربها وابلغاها لجميع البشر تنفيذاً لامر ربه القرآني اقوى الاعتقاد . وقد رأى علماء اليهود الراسخين بالعلم قد آمنوا بها ورأى النصارى الذين هم في الحجاز قد آمنوا بها ورأى وفود النصارى الذين فيهم القيسيون والرهبان قد آمنوا بها وقد فاضت اعينهم بالدموع مما عرفوا فيها من الحق على ما اشارت اليه الآيات القرآنية العديدة التي اوردنا نصوصها في مناسبة سابقة^٢ فضلاً عما كان من شهادتهم بأن رسالة النبي حق وصدق وأن القرآن منزل من عند الله ومن فرحهم به على ما اشارت اليه الآيات القرآنية العديدة كذلك التي اوردنا نصوصها هي الاخرى في مناسبة سابقة^٣ فليس هناك أي محل لاستغراب هذا الحادث وانكاره والمكابرة فيه . وارسال النبي كتباً ورسلاً الى ملوك وامراء العرب في الجزيرة واطرافها يكاد يكون يقيناً لان له آثاراً يقينية . والمستشرقون الذين يكابرون في ارسال النبي كتباً ورسلاً الى الملوك الكبار لا يكابرون في ذلك . وليس من فرق في نظر صاحب الدعوة المؤمن بها . وليس غريباً بل وانه لمن المعقول ان يفكر النبي في جعله رسله وكتبه شاملة للملوك العرب وملوك العجم معاً . هذا الى انه لا يبدو ان هناك اية ضرورة دينية او سياسية او حزبية او قبلية تحمل احداً في القرن الاول او القرن الثاني للهجرة على خلق هذا الخبر وروايته وتدوينه .

ولعل من النتائج الايجابية الرائعة لدعوة النبي في خارج الجزيرة قدوم وفد نصراني من بلاد الشام او الحبشة على اختلاف الروايات فيه القيسيون والرهبان لاستطلاع النبا العظيم شخصياً والاتصال بصاحبه مباشرة . فاستمع النبي وهو يتلو القرآن ففاضت عيونهم من الدمع

(١) انظر ابن سعد ج ١ ص ١١٦ - ١٢٦

(٢) اقرا آيات سورة آل عمران ١١٣ - ١١٥ و ١٩٩ والنساء ١٦٢ والمائدة ٨٢ - ٨٥ والاعراف ١٥٧ والاسراء ١٠٧ - ١٠٩ والنقص ٥٢ والمنكوت ٤٨ والاحقاف ١٠

(٣) اقرا آيات سورة الانعام ٢٠ و ١١٤ والرعد ٣٦

واعلن الايمان برسالة والتصديق بما انزل الله عليه في موقف رائع احتوت وصفه آيات
سورة المائدة هذه .

(وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةَ الَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ
بَأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيَّيْنَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ . وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ
إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ بِمَا عَرَفُوا مِنْ الْحَقِّ
يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ . وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا
جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ)

٨٢ - ٨٤

وسورة المائدة كما قلنا قبل قد نزلت عقب صلح الحديبية . وهو الوقت الذي ارسل
فيه الرسول كتبه ورسله الى الملوك والامراء .

ولعل من النتائج التي يصح ان تعد ايجابية قدوم وفد نصراني آخر من نجران اليمن
لنفس القصد لان النبي ارسل اليهم كتاباً ورسولا . وكان مؤلفاً من اربعة عشر شخصا من
اشرافهم فيهم اميرهم وصاحب شورتهم الملقب بالعاقب واسمه عبد المسيح . وامقفهم وحبرهم
وامامهم وصاحب مدارسهم واسمه ابو الحارث . وقد تناظروا مع النبي في شأن المسيح
وتلا عليهم آيات القرآن فيه ودعاهم الى الايمان برسالة المصدقة لما بين يديه من الكتب
والانبياء ، ونصحهم عبد المسيح بالاستجابة لانهم يعلمون حقاً صدق دعوى النبي ونبوته
فأبوا وكابروا لان ذلك يفقدهم ما يستمعون به من مركز وفوائد ، واقترح عليهم النبي
المباهلة بأمر القرآن أي يجتمع مع الطرفين افراد أسرته الاقربين فيستهلان الى الله ان يجعل
لعنته على الكاذب منها فأبوا . واطهروا استعدادهم للدخول في ذمة النبي وامانه مع الاحتفاظ
بدينهم فأجابهم الى ذلك وصالحهم على ألفي حلة في السنة وإعارة المسلمين ثلاثين درعاً وثلاثين
رحماً وثلاثين بعيراً وثلاثين فرساً حينما يكون حرب في اليمن وكتب لهم عهداً فيه جوار
الله وذمة محمد على انفسهم وملتهم وارضهم واموالهم وغائبهم وشاهدتهم وبيعهم . لا يغير
اسقف عن سقيفاه ولا راهب عن رهبانيته ولا واقف عن وقفانيته على ما جاء في طبقات
ابن سعد وفي فتوح البلدان للبلاذري نص كامل لكتاب رسول الله لهم وهو هذا :

(بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما كتب النبي رسول الله محمد لنجران إذا كان له عليهم حكمه في كل ثرة وصفراء وبيضاء وسوداء ورقيق فأفضل عليهم وترك ذلك ألفي حلة حلل الاواقي في كل رجب الف حلة وفي كل صفر الف حلة . كل حلة اوقية . وما زادت حلل الحراج او نقصت عن الاواقي فبالحساب وما قصوا من درع او خيل او ركاب او عرض اخذ منهم بالحساب . وعلى نجران مائة رسل شهرأ فدونه . ولا يجبس رسل فوق شهر وعليهم عارية ثلاثين درعاً وثلاثين فرساً وثلاثين بعيراً إذا كان كيد باليمن ذو مفدة . وما هلك بما اعاروا رسل من خيل او ركاب فهم ضمن حتى يردوه اليهم . ولنجران وجاشيتها جوار الله وذمة محمد النبي رسول الله على انفسهم وملتهم وارضهم واموالهم وغائبهم وشاهدهم وغيرهم وبعثهم وامثلتهم لا يفتن اسقف من اسقفية ولا راهب من رهبانية ولا واقه من وقاهية على ما تحت ايديهم من قليل او كثير . وليس عليهم رهق ولا دم جاهلية . ولا يعشرون ولا يحشرون ولا يبطأ ارضهم جيش . من سأل منهم حقاً فينهم النصف غير ظالمين ولا مظلومين . ومن اكل منهم ربا من ذي قبل فذمى منه بريئة . ولا يؤخذ منهم رجل يظلم آخر ولهم على ما في هذه الصحيفة جوار الله وذمة محمد النبي ابدأ حتى يأتي امر الله ما نصحوا واصلحوا فيا عليهم غير مكلفين شيئاً بظلم . شهد ابوسفيان بن حرب وغيلان بن عمرو ومالك بن عوف من بني نصر والاقرع بن حابس الحنظلي والمغير وكتب) .

(١) ص ٧١ - ٧٢ وهذا النص بتمامه تقريباً وارد في كتاب الحراج لابي يوسف الذي كتب في الثالث من القرن الهجري الثاني . حيث يبدو ان انعقاد الصلح بين النبي ونصارى نجران وفق الشروط المذكورة حقيقة تاريخية لا مراء فيها (انظر كتاب الحراج ص ٤٠)
وتقول بمناسبة وفد نجران ان هناك رواية جاء فيها ان النبي عليه السلام غداة اليوم الذي اقترح فيه المباحلة علي الوفد غدا ومعه علي وفاطمة والحسن والحسين رضي الله عنهم للمباحلة تنفيذاً لامر الله . فلما جاء الوفد خاف - اي الوفد - واعتذر . والرواية لم ترد في كتابي ابن هشام وابن سعد اللذين رويا خبر وفد نجران (ابن سعد ج ٢ ص ١١٩ - ١٢٠ وابن هشام ج ٢ ص ٢٠٤ - ٢١٦) ولا في الطبري وانما وردت في كتب تفسير الشيعة وكتب تفسير متأخرة في سياق تفسير سورة آل عمران (انظر تفسير الطوسي والطبرسي وابن كثير) ونرجع انما من غريب ما اعتاد الشيعة روايته وتنميته لتأييد هواهم . فان سعد وابن هشام رووا ان النبي لما عرض على الوفد المباحلة طلبوا امهالهم للنظر في الامر ثم غدوا فاعتذروا فلم يكن هناك والحالة هذه اتفاق على المباحلة حتى يستمد النبي لها . وتاويلات مفسري الشيعة الفرية تؤيد ما ذهبنا اليه حيث قالوا ان معنى دعوة النبي لابي ان علياً هو نفس النبي لان الآية تأمر بدعوة (انفسنا) والدعوة انما توجه تغير وعللوا عدم احضار النبي لنسائه او بعضهن على صراحة الآية بدعوة (نسائنا) فقالوا ان ذلك يعني ان النبي اعتبر الآية امراً باحضار اخص اخصائه من اهل بيته فاخرج نسائه من هذا النطاق واقتصر على احضار علي وفاطمة والحسن والحسين ! مع ان آيات سورة الاحزاب (٢٧ - ٣٣) صريحة بأن تبشير اهل البيت إنما يعني نساء النبي (انظر تفسير الطوسي للآية)

وفصول سورة آل عمران ١ - ٩ و ١٨ - ٢٧ و ٣٣ - ٦٤ مما نزل في صدد هذا الوفد على ما رواه غير واحد من المفسرين^١ حيث يبدو ان الاستكبار وحب المصلحة الخاصة جعلت هذا الوفد يأبى بينما تجرد الوفد الاول من ذلك وارتفع الى مستوى الحق والحقيقة فأمن وصدق .

موقف اليهود في العهد المدني



لقد شرحنا قصة قدوم الأمراةيليين اليهود من فلسطين الى الحجاز وما تيسر لهم من استقرار في يثرب والقرى الواقعة في طريق الشام كخيبر ووادي القرى وفدك وتبء وما كان لهم من مركز ديني وثقافي واقتصادي وما كانوا عليه من اخلاق وانحرافات وما كان بينهم وبين الأوس والخزرج من علاقات في الجزء الخامس من هذا الكتاب شرحاً يغني عن التكرار .

ولقد كان لهم في عهد النبي المدني شأن كبير متعدد النواحي . ولقد كانوا من أول من اصطدم بهم أيضاً . فبالرغم من انه اقر قبائلهم الثلاث في يثرب بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة في عهد المودة الذي كتبه عقب حلوله في المدينة المنورة وشرحنا خبره في مطلع الفصل على ما هم عليه وضمن لهم الحرية الدينية وأمنهم على أموالهم ومعابدهم وأبقاهم على محالقاتهم مع بطون الأوس والخزرج وارجب لهم النصرة والحماية مشروطاً عليهم ألا يغدروا ولا يفجروا ولا يتجسسوا ولا يعينوا عدواً ولا يمدوا يداً بأذى . وبالرغم من انهم كانوا يبشرون ببعث النبي العربي ويتفاخرون على العرب بأنهم سيكونون معه حزباً واحداً^٢ فإنهم لم يلبثوا ان طيطروا من هجرته الى المدينة واستقراره فيها وأخذوا ينظرون بعين التوجس الى احتمال رموخ قدمه وانتشار دعوته واجتماع شمل الأوس والخزرج تحت لوائه وعواقب ذلك في مركزهم وما يتمتعون به من امتيازات متنوعة .

(١) انظر تفسير سورة ال عمران في كتب تفسير الطبري والطبرسي والخازن وابن كثير وغيرهم وانظر الجزء الثاني من كتابنا حيرة الرسول ص ١٤٧ و ١٥٨

(٢) جاء في سورة البقرة هذه الآية (ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا يستفتون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين ٨٩

ولقد كان ظنهم على ما بدا ان يجعلهم النبي خارج نطاق دعوته معتبرين أنفسهم أهدي من ان تسلمهم وامنع من ان يأمل النبي دخولهم فيها وانضواءهم الى رايته بل لقد كانوا يرون ان من حقهم ان ينتظروا انضمامه اليهم على ما تلهيه آيات قرآنية عديدة ^١ . ولا سيما حيناً وأوهم يترك استقبال الكعبة فور وصوله ويستقبل المسجد الأقصى - قبلتهم - في صلاته ويعلن تصديقه بأنبيائهم وكتبهم ويجعل ذلك جزءاً لا يتجزأ من دعوته فغاب ظنهم ورأوه يدعوهم في جملة الناس بل ويختصهم بلسان القرآن بالدعوة ، ويندد بهم لعدم مسارعتهم الى استجابتها وموقفهم المتكرر المتردد اليهودي منها ^٢ . فكان هذا على ما هو المتبادر باعنا على تنكرهم له وتطيروهم منه وحقدهم عليه منذ الخطوات الاولى . ثم رأوا الناس قد أخذوا ينصرفون عنهم ويتخذون النبي مرجعهم الاعلى ومرشدهم الاعظم وقائدهم المطاع فاستشعروا بالخطر العظيم يحقد بر كزمهم فكان هذا عاملاً على اندفاعهم في خطة التنكر والحقد والصد والدس والمكر والتآمر الى نهايتها .

ولقد كان من المتوقع على ما تلهيه الآيات المكية والمدنية في القرآن ان يجد النبي في اليهود سنداً وعضداً وان يكونوا اول من يؤمن به ويصدقوه ويلتف حوله لما كان بين دعوته وأسس دينهم من وحدة ولما احتواه القرآن من تقريرات متنوعة وكثيرة بأنه مصدق لما بين يديه ومحتو لحلول المشاكل والخلافات التي يتعثر بها او يرتكس فيها الكتابيون ومن استشهادهم على صحة رسالة النبي وصدق صلة القرآن بالله استشهاداً ينطوي على الثقة فيهم والتنويه بهم وما كان من حسن استجابة الكتابيين وفيهم اسرايليون الى دعوته وایمانهم برسالته وشهادتهم بصدق صلة القرآن بالله في مكة فيكون في تحقق هذا المتوقع منهم تيسير لانتشار وحسن استقبالها من سائر العرب الذين كانوا ينظرون الى اليهود نظرة الراضين بعقلهم وبصيرتهم الدينية فلما رأى النبي منهم ما رأى من الانقباض اولا والتنكر والصد والعداء والدس والمكر ثم العداء تأثر تأثراً عميقاً من خيبة امله فيهم وددته آيات القرآن الكثيرة ^٣ .

ولقد احتوى القرآن المدني فصولاً كثيرة فيهم تبدو من خلالها قوة الدور الذي قاموا به ضد النبي ودعوته وعهده وشدة نكايته وشدة البغض له وللمخلصين من اتباعه والغيط

(١) اقرأ آيات سورة البقرة ١١١ و ١٢٠ و ١٣٥

(٢) اقرأ آيات البقرة ٤١ و ٤٤ و ٨٧ و ٩٢ والنساء ٤٤ و ٥٢ والمائدة ١٩

(٣) اقرأ آيات البقرة ٧٤ - ١٤٦ وآل عمران ٦٩ - ١٢٠ والنساء ٤٤ - ٥٢ والجمعة ٥ - ٨ مثلاً

منهم ودمسهم الى هذا بين الاوس والخزرج حتى كادوا يثيرون بينها الحرب تأثراً بالنعرة الجاهلية على ما حكته آيات كثيرة^١ . وكل هذا رغم ما ظل بعض المسلمين يظهرونه لهم من محبة وولاء حكته آيات عديدة ايضا^٢ فاستحقوا بذلك وصف القرآن بأنهم اشد الناس عداوة للمؤمنين^٣ .

ولقد رفضوا الدعوة الموجهة إليهم بلسان القرآن بأسلوب بليغ الحجة . وكفروا بما كانوا يبشرون به حسداً وغيظاً ومكابرة . وكانوا يستنحون كل فرصة للدس على النبي والتشكيك فيه وطرح الاسئلة التعجيزية والتحلية عليه ومحاجته بحجة تبدو فيها المكابرة وسوء النية وقصد السخرية بكل قوة . ولا يبالون ولا يرتدعون ولا يدخلون حينئذ تكشف مكابرتهم وسوء نيتهم وتدمغهم الآيات القرآنية وتذكرهم بمائلة مواقفهم لمواقف آبائهم الأولين^٤ . وكان الأمر يصل بهم إلى مخاطبته بألفاظ فيها سوء ادب ووقاحة بل ودعاء عليه بما حكته آيات سورة النساء هذه :

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتُرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا .
مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا
وَأَسْمَعُ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِالسِّنِّهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا
سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَسْمَعُ وَأَنْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ
اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ٤٤ - ٤٥)

ولقد شجعوا حركة النفاق منذ ظهور بوادرها في اول العهد المدني وكانوا من اقوى العوامل فيما كان من المنافقين من مواقف الكيد والدس والازعاج حتى وصفهم القرآن

(١) انرا آيات سورة آل عمران ٩٧-١٠٢ وتفسيرها في كتب تفسير الطبري وابن كثير

(٢) اقرا آيات آل عمران ١١٩ - ١٢٠

(٣) اقرا آية المائدة ٨٢ وفي آيات آل عمران ١١٩-١٢٠ سورة نوبة لشدة ما كان يعمل اليهود في نفوسهم من عداوة وبغضاء وغيظ للمسلمين .

(٤) آيات السور المذكورة في الذيل السابق

بأنهم شياطينهم فضلا عما كان بين الفريقين من تضامن في التآمر على الدعوة وصاحبها على ما شرحناه في مبحث المعارضة والمنافقين .

وإذا لاحظنا الدور الباغي الذي قام به المنافقون وما كان لهم من آثار ضارة ثم لاحظنا ما كان يربط بين المنافقين والمخلصين من الاوس والخزرج من اوشاج القربى وما كان لعصية القربى من قوة في المجتمع العربي وما كان ينتج عن وقوف بعض ذوي القربى ضد بعضهم من مشاكل ومواقف محرجة ومؤذية في الوقت نفسه للكيان الاسلامي وحركة الدعوة الاسلامية بدت شدة النكابة وبعد مدى الأذى فيما كان من اندفاع اليهود في تغذية جبهة النفاق وتقويتها ونجاحهم في سعيهم وقيام حالة التضامن والتآمر بينهم وبين المنافقين منذ الوقت المبكر .

ولقد ظل النبي عليه السلام يتحمل من اليهود مواقفهم هذه على شدة أذاها وبعد نكايتهما لأنه كان يراها على ما يبدو في نطاق الجدل والحجاج والمباحثات ، وكان يرى ان عهده لهم يحتم عليه التحمل ما داموا لم يعلنوا من جانبهم نقض هذا العهد بصورة صافرة .

على انهم لم يتأخروا كثيرا في الاقدام على هذا ايضا منذ عهد مبكر حيث اشارت آيات مبكرة في النزول الى خيانتهم ونقضهم العهد مرة بعد مرة ومظاهرتهم لأحزاب المشركين المسلحة حينما غزت المدينة ^١ . فكان هذا من الاسباب التي جعلت النبي يرى التحلل من ذلك العهد ومعاللتهم بذلك والاقدام على التنكيل بهم وتطهير بيئته منهم وازالة عقبة كأداء من طريق الحركة العربية الاسلامية الجديدة .

ومن الجدير بالتنبيه والاستدراك في هذا المقام ان بعض يهود المدينة وفيهم الراسخون في العلم قد تمكنوا من التغلب على الانانية والمكابرة والحسد والذس ودعوى الباطل والانحراف فأمنوا برسالة النبي عليه السلام واندمجوا في الاسلام على ما اشارت اليه بعض آيات القرآن المدنية بما فيه دلالة مؤيدة اخرى على ان موقف اليهود في المدينة انما كان موقف حسد وغيظ وعناد وان الدعوة الاسلامية قد وجدت طريقها الى كل من رغب في الحق والهدى وتجرد من الانانية والحقد والهوى في اليهود كما كان شأن بعضهم في العهد المكي وكما كان

(١) آيات سورة البقرة ٩٩-١٠٠ والانفال ٥٨ والاحزاب ٢٧ والحشر ٢٥؛

شأن غيرهم من الكتابيين ، فكانوا محل تنويه وثناء ^١ .

وفي القرآن آيات قد تدل على ما كان من تطور في حالة اليهود الاقتصادية كان من اسباب ما كان من مواقفهم العدائية نحو النبي والاسلام والمسلمين . ففي سورة آل عمران هذه الآيات :

(وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ . لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاهُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ١٨٠ — ١٨١)

وقد نزلت هذه الآيات في بعض اليهود الذين ذهب اليهم النبي ليستعين بهم بهربا على اعراف التحالف وقال لهم اقرضوا الله فقالوا له ان الله فقير يستقرض منا ^٢ ، حيث تعبر فضلا عن سوء أدبهم نحو الله عن ما كان من اعتدادهم بغناهم وفقر النبي واصحابه وتعبوا بالتعبية عما كانت عليه حالتهم الاقتصادية من صلاح . وكان ذلك في اوائل العهد المدني على ما يلهمه ترتيب نزول سورة آل عمران التي نزلت بعد وقعة احد . وفي سورة المائدة هذه الآيات :

(وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَالْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ . وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَرْنَا عَنْهُمْ

(١) انظر آيات سورة البقرة ٤٢ و٧٦ و٨٩ و١٠٩ وال عمران ١١٣ و١١٥ و١٩٩ والنساء ١٥٩

و١٦٢ والمائدة ١٣ والاحقاف ١٠

(٢) انظر تفسير الآيات في الطبري وابن كثير وغيرها

سَيِّئَاتِهِمْ وَلَاذْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ . وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ
وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ
أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءٌ مَا يَعْمَلُونَ (٦٥ — ٦٦)

والآية الاولى فضلا عما فيها من سوء ادب اليهود نحو الله فيها تعبير عن حقهم بما حاورت
اليه حالتهم الاقتصادية من سوء . وقد روي ^١ ان النبي ذهب الى بعضهم ليستعين بهم جريا
على اعراف التحالف فشكروا اليه العسر وقالوا ما قالوه . وسورة المائدة نزلت في اواسط
العهد المدني .

والمبتادر ان هذا التطور كان نتيجة لاتساع نطاق الاسلام في المدينة وانصراف الناس
عن التعامل معهم وضيق مجال استغلالهم له . وقد نددت بهم الآيات قنديداً شديداً ووصفت
ما يعتزل في نفوسهم من غيظ شديد من تطور حالة النبي والمسلمين نحو القوة والصلاح
واهابت بهم الى الايمان به حتى ينقذوا انفسهم مما حاروا اليه من عسر في الدنيا وما كتب
عليهم من شقاء في الآخرة .

للتنكيل باليهود في المدينة

ولقد كانت وقائع التنكيل باليهود متعددة . وكان لكل وقعة مبرراتها المتسقة مع
المبادئ والتقريرات القرآنية الجهادية التي شرحناها في مطلع مبحث الوقائع الحربية بل لقد
كان موقف النبي موقف المتساهل المتحمل فلم يتخذ لها الا المبررات الشديدة الخطر والاذى .
وكان كل منها موجهاً الى فريق دون فريق مما قد يدل على ان اليهود لم يقدموا جميعهم على
الخروج من نطاق الكلام والهدوء والكيد والمكر الى العداء العملي والغدر السافر في وقت واحد .

(١) انظر تفسير الآيات في كتب تفسير الطبري وابن كثير وغيرهما ايضاً . وقد يلحظ ان ذكر الانجيل
يحمل الكلام شاملاً لليهود والنصارى ويجهل بالتمية عاما . والتبادر لنا ان السياق والموضوع في اصله حكاية
عن موقف اليهود وان ذكر الانجيل جاء اضطراراً يشمل الكلام بعمومه ومقتضاه اهل الكتاب عامة واذا
كانت صحت الروايات انه كان في المدينة نصارى فمن المحتمل ان يكون ضيق الحالة الاقتصادية قد شلهم
ايضاً بسبب التناقص في المواد الاضطرار من اهل المدينة على النبي صلى الله عليه وسلم

ولعل من اسباب ذلك انهم لم يكونوا كتلة واحدة متماسكة سياسياً وحربياً واجتماعياً بل كان كل منهم في ذلك مستقلاً عن الآخر على ما تلهمه آيات القرآن وتوضحه الروايات ومن مظاهر ذلك او دلائله ان كلا منهم كان يسكن في محلة خاصة به .

ولقد أعمى الهوى والحقد بعض المستشرقين من يهود وغير يهود عن حقائق الواقع والآيات والروايات فزعموا ان النبي عليه السلام قد بيت نية التنكيل باليهود وإثارة حرب عنصرية دينية ضدهم منذ البدء وانه إذا لم ينفذ نيته فيهم مرة واحدة فلانه لم يكن له قبل بهم جميعاً ثم غزوه بالنكت والميل إلى سفك الدم والطمع في اموال اليهود .

فالقرآن ذكر في آيات سورة البقرة ٨٤-٨٥ ما كانوا يقومون فيه من مخالفات دينية في قتل بعضهم بعضاً وامر بعضهم بعضاً في معرض الذم والتنديد بما فيه دلالة على ما كان بينهم من خصومات اوضحتها الروايات فلم يبق أي محل للارتياح في ان ظروفهم الاجتماعية المتقدمة على البعثة كانت هي العامل في عدم تكتلهم . والروايات تذكر^١ ان بني قينقاع وبني النضير كانوا حلفاء للخزرج وبني قريظة كانوا حلفاء للاوس وكان ذلك امتداداً لما قبل الهجرة بل لما قبل البعثة . وكان بين كل من الاوس والخزرج في الوقت نفسه عداً ودماء ممتدان إلى قبل الهجرة وقبل البعثة . وكان كل فريق من الفريقين يقاتل الفريق الآخر هو وحلفاؤه معاً . فيقتل اليهودي حليف الاوس اليهودي حليف الخزرج وبالعكس . وفي القرآن إشارة صريحة الى ان نقض العهد وقع منهم متفرقاً . حيث جاء هذا النص في آية سورة البقرة (١٠٠) :

(أَوْ كَلِمًا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ).

ولقد احتوى القرآن المدني فصولاً عديدة في مختلف ادوار تنزيهه حكمت مواقف متنوعة وكثيرة لليهود فيها تعجيز وتحد وجدل وسخرية ودس ومؤامرات ومساجلات وبماحكات وسوء أدب ووقاحة وإثارة نعرات جاهلية بين الاوس والخزرج فلم يكن كل هذا ليجعل النبي كما قلنا قبل ينقض عهده معهم . وفي القرآن والروايات ما فيه الدلالة على ان وقائع التنكيل انما كانت بسبب مواقف الغدر والحيانة والنقض والعداء السافرة المهددة لسلامة

(١) انظر طبقات ابن سعد ج ٣ ص ٩٩ و ١١٨ والعرب قبل الاسلام جواد علي ج ٤ ص ٣٥٤-٣٥٥

المسلمين وكيانهم والتي لا يمكن السكوت عليها ، ويكون التشكيل بهم بسببها دفاعاً عن النفس لا يتحمل مرء ، كما ان في الآيات والروايات ما يدل على ان ذلك كان منهم متفارقاً فجاء التشكيل فيهم متفارقاً تبعاً له .

ونقول من قبيل المساجلة انه لم يكن في وقت نزول القرآن وتدوين الروايات قضية من نوع ما يثيره المستشرقون حتى يصح ان يقال ان الدلائل والمبررات التي انطوت فيها قد اخترعت اختراعاً للدفاع عما فعله النبي والمسلمون في اليهود . وهذا وحده كاف لاسكات كل افاك مغرض . هذا فضلاً عن ان جبهة اليهود واخلاقهم تجاه الامم الاخرى المشهورة منذ تاريخ خروجهم من مصر الى اليوم في غنى عن اختراع المبررات للتشكيل بهم في كل ظـاـر ومكان . ولقد عاد على المسلمين من اليهود مغاغم كثيرة حقاً من حقول وبساتين وسلاح ومواش ودواب ومتاع . وهذا نتيجة طبيعية للوقائع . ولقد قتل معظم بني قريظة صبراً حقاً ولكن هذا كان متناسباً مع عظم الجرم الذي اقترفوه على ما سوف نشرحه بعد . ومن مؤيدات ذلك ان النبي اكتفى باجلاء يهود بني قينقاع وبني النضير عن المدينة واجلاء الخطرين من يهود خيبر ووادي القرى دون قتل عام بل وسمح لفريق منهم ان يحمل كل امواله ومتاعه ولقربى آخر بعضاً من ذلك على ما سوف نشرحه بعد ايضاً .

تحويل القبلة عن بيت المقدس الى الكعبة

وقبل ان نسرد اخبار وقائع التشكيل نرى ان نشير الى حادث له علاقة بموقف اليهود وهو تحويل القبلة عن بيت المقدس الى الكعبة .

وا . . . ان النبي يستقبل الكعبة في صلاته حينما كان في مكة . فلما هاجر الى المدينة اخذ يستقبل بيت المقدس ولعله فعل ذلك تأثراً من موقف اهل مكة الجحودي المؤذي الذي انجاه واصحابه الى هجرة وطنهم من جهة . وتألفا لليهود الذين كانوا يستقبلون بيت المقدس ايضاً وتسهيلاً لاجابتهم الى دعوته من جهة ثانية . ولكن اليهود وقفوا منه موقف الانكار والجحود والدس من جهة واخذوا يزهدون عليه وعلى المسلمين بأن اتجاهمهم الى قبلتهم هو اعتراف بأنهم على الهدى وبأن النبي والمسلمين انما يقتبسون الهدى منهم وبأنهم اولى من يتبعوهم ويندجوا فيهم لا العكس فحز هذا في نفس النبي عليه السلام وانبتت فيها امنية

التحول عن سمت بيت المقدس وقد ظهر من اليهود ما أياسه منهم ، وقد ووى ابن سعد
حديثنا جاء فيه ان رسول الله قال لجبريل وددت ان الله صرف وجهي عن قبة يهود^١ .

ولقد ورد في تحويل القبلة فصل طويل في سورة البقرة^٢ جاء فيه هذه الجملة :

(قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ كُنْتُمْ فَوَلُّوا وَجُوهَكُمْ شَطْرَهُ)

حيث يمكن ان يكون فيها قرينة قوية على ما اعتلج في نفس النبي من ازمة بسبب
الاتجاه نحو بيت المقدس وزهو اليهود وموقفهم من ذلك وعلى ما قام فيها من رغبة في
التحول عنها . وجملة (فلنولينك قبلة ترضاها) يمكن ان تلهم ان النبي صار يائسا او
كاليائس من اليهود وثارت في نفسه تلك الازمة وقامت فيها هذه الرغبة تراءى له ان
اتجاهه الى قبلتهم مما يضعف قوة دعوته وان عودته الى قبلته الاولى بما يؤلف قلوب العرب
كما ان ذلك هو الاولى لأنها بيت الله العربي القديم الذي يعرفه العرب ويرتبطون به والذي
هو من عوامل وحدتهم الروحية بسبب اشتراكهم جميعا في حجه . فكان يتنى ان يتحول
اليها في صلاته . ولعله كان يسمع تألما او انتقاداً او يرى حيرة من العرب مسلمين وغير
مسلمين من الاتجاه الى بيت المقدس وإهمال الكعبة فكان هذا مما قوى ما في نفسه من الرغبة
والامنية . وفي آخر الفصل القرآني هذه الجملة (لئلا يكون للناس عليكم حجة) التي يمكن
ان تلهم او تتضمن قرينة على ذلك .

ولقد رأى اليهود في هذا التحول ضربة شديدة توجه الى مكانتهم الدينية ووسيلتهم الى
الزهو على النبي والمسلمين فنشطوا على ما تلهمه آيات الفصل التي وصفتهم بالسفهاء الى الدس
واللجاج وتشكيك المسلمين فقالوا اذا كان سمت بيت المقدس غير حق فقد اضاع النبي
عبادة الذين صلوا اليه . واذا كان حقا فلا معنى للتحول عنه وتكون الصلاة الى الكعبة
ضائعة . وقالوا ان افعال النبي لو كانت مستندة الى وحي رباني لما نسخ اليوم ما فعله
بالأمس ولما قال اليوم قولا ثم نقضه في الغد لا سيما في الأمور التبعية ، وتناسوا ان هذا
شأن انبياء الله جميعهم والكتب المنزلة اليهم وان في اسفار التوراة الاربعة المنسوبة الى موسى
شؤنا كثيرة منسوبة الى الله فيها اوامر ينسخ بعضها بعضا . ولعل هذا مما جعلهم يستحقون

وصف السفهاء الذي جاء في مطلع الفصل القرآني .

وفي هذا الفصل ما يدل على ان هذه الدسائس والدعايات والمواقف الحجاجية قد اثرت بعض الاثر في بعض المسلمين فاحتوت آيات الفصل ثم آيات اخرى جاءت مقدمة له^١ تطميناً للمسلمين وحملة على اليهود وتثبيتاً للنبي عليه السلام . مثل تقرير ان المسألة ليست في الاتجاه نحو الشرق والغرب وإنما هي في الاتجاه الخالص الى الله . وان تبديل القبلة الاولى بالثانية هو اختبار رباني لقوة ايمان المؤمنين واتباعهم الرسول فيما يفعله . وان من نعمة الله عليهم ان بعث فيهم رسولا منهم يعلمهم ويذكرهم فحق عليهم شكره وذكركه والثبات على ما رسمه وعدم جحود نعمته والتردد في اتباع او امره . وان الله لا يمكن ان يضيع ايمانهم وصلاتهم . وانه لا ينبغي لهم ان يستمعوا لدسائس اليهود الذين يعلمون ان ما وقع حق وان كتموه . وان انتقادهم واقوالهم سنة لا ينبغي لهم ان يعاوا بها . وانه لا امل في اتباعهم دعوة النبي وقبلته فلم يبق محل لاتباعه قبلتهم واهواءهم . وانهم لا يودون ان ينزل عليهم خير من الله . .

ويظهر ان اليهود كانوا يعترفون للعرب في الجاهلية بأن الكعبة اقدم بيوت الله اوان اغناهم اياها محجا وقبله حق وصواب فجاءت آية في فصل القبلة تدمغهم بذلك حيث احتوت هذا النص :

(وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ)

وبما لانشك فيه ان تبديل القبلة بالذات كحادث من حوادث السيرة في العهد المدني قد اكسب الدعوة الاسلامية شخصية مستقلة بعد ان كان في شخصيتها شيء من التموج او التمازج في افق ومدار شخصية اهل الكتاب وقبلتهم : وقد خلد قدسية الكعبة ومرتبتها . إذ لم تلبث ان صارت متجه العرب في حياتهم الدينية الجديدة في جميع انحاء الجزيرة بصورة اشد واقوى وألزم بما كانت قبل هذه الحياة اولا ، ومتجه المسلمين في جميع انحاء العالم وناظرا لوحدهم الروحية ثانيا . وكان كذلك عنوانا على الابقاء على مناسك الحج والكعبة . اذ صارت ركنا معروضا من اركان الاسلام بعد تصفيتهما من شوائب الوثنية ومشاهدها .

(١) آيات البقرة ١٠٥-١٣١

وقد تعددت الروايات في تاريخ التبديل و كفيته ^١ وتراوح التاريخ بين الشهر السادس عشر والسابع والثامن عشر للهجرة ، وان ذلك كان اثناء صلاة ظهر من يوم الاثنين في مسجده في رواية وفي بيت ام بشر بن معرور من بني سلمة في رواية فصلى ركعتين نحو بيت المقدس ثم استدار فصلى الركعتين الاخرين نحو الكعبة .

ونأتي الآن الى تفصيل الوقائع التنكيلية فنقول ان اولى الوقائع قتل ابي علفك اليهودي بعد حرب بدر بشهر . وكان هذا شيخا كبيرا يقول الشعر ويهجو النبي ويحرض قومه عليه فنذر احد المؤمنين سالم بن عمير ان يقتله او يموت دونه ثم تربص به حتى وافته الفرصة فدخل عليه وهو نائم بفناء بيته فوضع السيف على كبده ثم اعتمد عليه حتى خشن في الفراش وزهقت روحه ^٢ .

وكانت ثانية الوقائع اجلاء بني قينقاع عن المدينة الى الشام . وقد كان لهؤلاء سوق خاصة . وكان بدء وقتهم ان امرأة من العرب جاءت يجلب لها فباعته في سوقهم ثم جلست الى صائغ منهم فجعل بعضهم يريرونها على كشف وجهها فأبى فعمد الصائغ الى طرف ثوبها فعقده بظهرها فلما قامت انكشفت سرائرها فضحكوا منها فصاحت فوثب رجل من المسلمين فقتل الصائغ فشد اليهود على المسلم فقتلوه فاستصرخ اهله المسلمين فوقع الشر بينهم وبين بني قينقاع . وانتهى الأمر الى ان حاصروهم النبي حتى نزلوا على حكمه فأجلاهم الى اذرعات ببلاد الشام وسمح لهم بأخذ اموالهم وانقلاهم وخفيف سلاحهم . وكان ذلك بعد قليل من وقعة بدر ^٣ .

وفي سياق ابن سعد وابن هشام ثم في بعض الآيات القرآنية وروايات تفسيرها ما يمكن ان يدل على ان هذه الحادثة كانت السبب المباشر وحسب وان بوادر الغدر والحيانة اخذت تبدر من بني قينقاع قبل ذلك بصور متنوعة . ففي آية سورة البقرة (١٠٠) اشارة الى نبذ فريق من اليهود عهده . والآية بما نزل مبكراً والاشارة اولى الاشارات الى نقض اليهود والارجح انها في صدد بني قينقاع لأنهم اول من وقع عليهم التنكيل .

وفي آيات سورة الانفال ٥٥ - ٥٨ اشارة اخرى الى نقض اليهود للعهد مرة بعد مرة .

(١) انظر ابن سعد ج ٢ ص ٦-٩ وابن هشام ج ٢ ص ١٧٦-١٨٨

(٢) ابن سعد ج ٣ ص ٦٧ وجعل ابن سعد عنواناً لهذا الحادث (سرية سالم بن عمير الى ابي علفك

اليهودي

(٣) انظر ابن سعد ج ٣ ص ٦٧-٦٨ وابن هشام ج ٢ ص ٤٢٦-٤٢٩ والطبري ج ٢ ص ١٧٢

المأذون به عبدة لغيرهم من اليهود بما ينطوي فيه فكرة تفادي الحرب مع غيرهم بقدر ما يمكن . ولقد جاء في السورة بعد هذه الآيات آيات تأمر النبي والمسلمين بأعداد ما استطاعوا من قوة ومن رباط الخيل لارهاب اعداء الله واعدائهم ممن يعلمون ولا يعلمون وبالجنوح الى السلم إذا جنحوا اليها أيضاً . وجملة (فانبذ اليهم على سواء) تتضمن تلقيناً رائعاً بعد المبادرة إلى قتال من يبيتون الغدر والخيانة بدون اعلان ما دام هناك عهد قائم بوجوب انذارهم بالوقوف منهم نفس الموقف الذي يقفونه وهو حل العهد القائم . وكل هذا متصل بما قررناه ومؤيد له بما لا يدع محلاً للمهارة .

وكانت ثلاثة الوقائع قتل كعب بن الأشهر في الشهر الخامس والعشرين . فقد كان هو الآخر شاعراً يهجو النبي واصحابه ويحرض عليهم ويؤذيهم . وقد ذهب إلى مكة بعد وقعة بدر فرثى قتلى قريش وبكاهم وحرض قومهم على النبي فقال النبي اللهم اكفني ابن الأشرف ثم قال من لي بابن الأشرف فقد آذاني . فتعهد محمد ابن مسleme ونفر من الأوس بقتله واستأذنوا النبي باستعمال الخدعة معه فأذن لهم فذهبوا اليه وأظهروا له تشاورهم من استفحال امر النبي حتى اطمأن لهم ثم عقدوا معه صفقة حتى تمكنوا في النهاية من قتله . وقد احتزوا رأسه واتوا به إلى النبي الذي تهلل وسر سروراً عظيماً واثني على المجاهدين وقال لهم افلحت الوجوه^١ .

وكانت رابعة الوقائع اجلاء بني النضير . وكان سببها المباشر على ما روته الروايات^٢ ان النبي عليه السلام ذهب مع بعض اصحابه إلى محلتهم ليستعينهم على دية بعض القتلى — وهذا تقليد عربي — فتآمر واعلى اغتياله وارتاب في الأمر فنتجا بنفسه ثم ارسل في اليوم التالي اليهم إنذاراً بالجللاء على ان يقيموا وكلاء على بساتينهم ومزارعهم . وقد كان لهم حصون قوية لم يكن المسلمون يأملون في التغلب عليها وكان اليهود يحسبون انها مانعتهم على ما أشارت اليه الآيات القرآنية . وكانوا إلى هذا حلفاء الخزرج الذين كان زعيم المنافقين من زعمائهم . وقد شجعهم هو ورفاقه ووعدهم بالنصر والقتال والخروج معهم إذا قوتلوا أو أخرجوا . فتشجعوا ورفضوا إنذار النبي فحاصروهم وضيق عليهم الخناق وامر بقطع بعض غراسهم للارغام والالوهاب .

ولم يف المنافقون بما وعدوهم به من النصر والتعصيد فاستولى الرعب واليأس عليهم

(١) ابن سعد ج ٣ ص ٧٠-٧٢ وقد عنوان الحادث بعنوان سرية محمد بن مسleme الى كعب بن الأشرف ايضاً انظر ابن هشام ايضاً ج ٢ ص ٤٢٨-٤٣٠ وفي سياق ابن هشام بعض قصائد كعب

(٢) ابن سعد ج ٣ ص ٩٨-١٠٠ وابن هشام ج ٣ ص ١٩٩-٢١٣ والطبري ج ٢ ص ٢٢٣-٢٢٩

ورضوا بالجلاء بشروط أشد من الأولى بسبب ترددهم وهي أخذ منقولاتهم فقط وتسليم سلاحهم والتنازل عن ما لهم من حقول وبساتين . وكانت الواقعة في السنة الهجرية الرابعة .

وقد نزل في صدد هذه الواقعة شطر كبير من سورة الحشر التي كان ابن عباس يسميها سورة بني النضير ، وما جاء فيها متسق مع الروايات إجمالاً وإن جاء بأسلوب العظة والتشريع ومضمون إحدى الآيات ^١ يدل على أنه كان لبني النضير مواقف مؤذية مزعجة مما يسوغ القول أن حادث محاولتهم اغتيال النبي كان النقطة الأخيرة التي فاض بها الكأس . ولقد كان منهم كعب الأشرف الذي مر شرح ما كان من هجوه وأذاه وقتله .

وهكذا يبدو أن هذا التنكيل أيضاً لما كان رداً على غدر وخيانة ومشاقة ومواقف مؤذية تجاوز اليهود فيها نطاق الكلام إلى التآمر على المسلمين وكيانهم ثم على حياة النبي وهو في محلتهم .

ولقد ذهب بعض بني النضير إلى بلاد الشام وبعضهم إلى خيبر . ومن هؤلاء زعمائهم سلام بن أبي الحقيق وكنانة بن الربيع ابن أبي الحقيق وحي بن اخطب . وقد ران يهود خيبر لهم ففقدوا زعماء اليهود في خيبر وما بعدها من القرى اليهودية .

وقد أظهر النازحون التجلد فخرجوا بزينتهم بين عزف القيان ودق الدفوف والمزامير . وقد خربوا بيوتهم وحصونهم حتى لا ينتفع بها المسلمون .

وقد ذكر ابن سعد في سياقه أن بني قريظة اعتزلتهم فلم تعنهم . وبنو قريظة كانوا حلفاء للأوس . في حين كان بنو النضير حلفاء للخزرج امتداداً لما كان عليه الأمر قبل الهجرة النبوية . وكان التحالف في التحالف مظهراً من مظاهر الخصومة التي كانت بين بني قريظة وبنو النضير على الأرجح والمتبادر أن موقف بني قريظة من واقعة بني النضير متصل بذلك وامتداد له .

وكان بما أخذه النبي عليه السلام من بني النضير ٥٠ درعاً و ٥٠ بيضة (غطاء للرأس من

(١) هذا نصها (وَلَوْ لَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبْنَاهُمْ فِي الدُّنْيَا وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ . ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ٣-٤)

النحاس او الحديد) ٣٤٠ سيفاً عدا البسيتين والحقول . واعتبر ذلك فيئاً منحصر بأبائه ورسوله وذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل لأنه تم بدون حرب وقتال على ما احتواه التشريع القرآني في آيات سورة الحشر ٦- ١٠ الذي اقتضت حكمة الله ان لا يكون للاغنياء نصيب فيه حتى لا تكون الثروة متداولة في ايديهم وحسب . وفيه تلقين رائع مستمر المدى من تلقينات التشريع القرآني البليغة الحكيمة .

وكانت خامسة الوقائع التكميل ببني قريظة . والمستفاد من الروايات ١ ان زعماء بني النضير الذين استقروا في خير على ما ذكرناه قبل قليل ذهبوا الى مكة وخرضوا قريشاً على النبي والمسلمين على استئصال شأفتهم وتحالفوا معهم واقسموا لهم على الوفاء امام اصنامهم حتى لقد ارتكسوا بسبيل ذلك في ابشع جريمة دينية حيث دفعهم الحقد والحسد والعدا للني ودعوته الى عدم التورع في شهادة فاجرة حينما ناشدهم بعض زعماء مكة اهم اهدى ام محمد فقالوا بل انتم اهدى على ما ذكرته احدي آيات النساء التي ذكرت بالاضافة الى هذا انهم يؤمنون بالجبت والطاغوت تعبيراً على الأرجح عما فعلوه من تسجهم بأصنام قريش وحلفهم لقريش بها على الوفاء بعهدهم لهم ٢ . حيث انطوى في ذلك إنكار لأساس دينهم الذي هو الايمان بالله وحده في سبيل حمل المشركين على محاربة النبي الذي يؤمن مثلهم بالله وحده ويدعو اليه !

وفي هذا الموقف ما يدفع ذلك الجيل من اليهود بطابع من العار لا ينسى ! ولقد ذهبوا بعد مكة الى قبائل غطفان وخرضوهم وتحالفوا معهم أيضاً . وقد أدلى ذلك الى زحف الحشد العظيم من قريش واحزابها على المدينة على ما فصلناه تحت عنوان وقعة الخندق في الوقائع الحربية مع العرب . وهي الوقعة التي تزلزل المساهون لها أشد زلزلة وبلغت قلوبهم

(١) ابن سعد ج ٣ ص ١٠٨-١٢١ وابن هشام ج ٣ ص ٢٣٥-٣١٢ والطبري ج ٢ ص ٢٤٥-٢٥٤

(٢) هذا نص الآية (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحاً مِنْ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا دُؤْلَاءُ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً . أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيراً . سورة النساء ٥١-٥٢)

الحنابجر ، وتظاهر المنافقون بما في سرائرهم من نفاق ولؤم ، وأدرك النبي والمسلمون انهم صاروا بين نارين من ورائهم اليهود ومن امامهم احزاب العرب فضلا عن ما بينهم من المنافقين . فكان ذلك اسباب ما حل فيهم من اضطراب وفزع .

ولقد كان بنو قريظة حلفاء الاوس . وقد بقوا محافظين على عهدهم مع النبي . فجاءهم ابن اخطب الى زعيمهم كعب بن اسد وبشره بما كان من نجاح مسعاه ومسعى رفاقه مع قريش وغطفان وقرب زحف احزاب العرب لاستئصال شأفة النبي والمسلمين وما زال به حتى وعده بنقض عهده .

ولقد بلغ النبي تغير نية بني قريظة وتبیتهم الغدر حين زحف الاحزاب على المدينة . فأرسل زعيم الاوس والخزرج الى محلتهم . وكانت وراء بيوت اهل المدينة ليعرف احق ما بلغه عنهم فأتياهم فوجداهم على أخبت ما بلغهم ونالوا من رسول الله وقالوا من هو رسول الله وانكروا العهد الذي بينهم وبينه . فشتهم سعد بن معاذ زعيم الاوس وكان حليفهم فقابلوه بالمثل فقال له سعد بن عبادة زعيم الخزرج دع مشاققتهم فما بيننا وبينهم أربى منها وقد اخبروا النبي بما كان . فلما ارتد الأحزاب عن المدينة وكفى الله المؤمنين القتال نادى النبي بالتوجه نحو محلة بني قريظة وحاصره حصاراً ضاق به الحناق عليهم واضطروا الى النزول على حكم سعد بن معاذ حليفهم فحكم بقتل المقاتلين وسبي النساء والأطفال والاستيلاء على اموالهم واملاكهم وحقوقهم وبساتينهم . ولقد حاول بعض رجال الاوس اقناع زعيمهم بالتوفيق بالحكم حينما نزل اليهود احلافهم على حكمه حتى يكون مصيرهم مثل مصير حلفاء الخزرج من اليهود وهم بنو النضير وبنو قينقاع الذين اكتفى النبي بإجلائهم فقال كلمة بليغة (آن لسعد ان لا تأخذه في الله لومة لائم) .

وفي سورة الاحزاب آيتان فيها إشارة وجيزة الى هذه الواقعة وتناجها وهذا نصها :

(وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا . وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَّأُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا . ٢٦ - ٢٧)

وعبارة (ظاهرهم) في الآية الاولى تلهم انه بدا من اليهود انشاء حصار الاحزاب للمدينة انمال مؤذية للمسلمين او بالاحرى اعمال تمت إلى الحرب تضرر المسلمون منها واثارت في نفوسهم السخط فوق ما اثاره موقف الغدر والخيانة فيهم . ولم يذكر الرواة تفصيلا لهذا الذي اشارت إليه الآية .

ويلحظ ان التنكيل ببني قريظة كان اشد منه في بني قينقاع وبني النضير . ولا ريب في ان ظروف غدر بني قريظة كانت مبررة له كل التبوير . ولا سيما انهم لم يعتبروا بما كان من اجلاء بني قينقاع وبني النضير . وقد انطوى في كلمة سعد بن معاذ هذا المعنى ببلاغة رائعة .

وبالتنكيل ببني قريظة تم القضاء على يهود المدينة الذين كانوا هم الاشد والاقوى والأبعد نكاية وأذى . ولم يبق فيها من اليهود إلا افراد قلائل اظهروا الاستسلام والمسألة فتوكت لهم حرية الإقامة والدين مما فيه دليل على ما كان من دقة النبي في التزام خطط القرآن الجهادية . ومقابلة من وقف من الاسلام ودعوته والمسلمين موقف المودة والمسألة بنفس موقفه دون ان يكون لجريرة قومهم اثر في ذلك عملا بالمبدأ القرآني العام (ولا تزور وزارة وزر أخرى) وفي هذا ما فيه من روعة وجلال ترشحان الشريعة الاسلامية للخلود فيما ترشحه له من مرشحات لا تحصى .

ولقد كان هذا فاتحة عهد جديد للاسلام والدعوة الاسلامية . فالمنافقون الذين فقدوا محرهم القوي ومدبرهم الأملعي الحبيث لم يلبثوا ان ضول شأنهم وخفت صوته وتناقص عددهم . وزعماء مكة الذين غزوا المدينة تلك الغزوة العظمى بتحريك اليهود لم يعودوا يفكرون في غزوها بل ان الموقف تطور من قوة مكة الى ضعفها ومن ضعف المسلمين الى قوتهم على ما نبهنا اليه في سياق بحث صلح الحديبية وفتح مكة .

التنكيل باليهود خارج المدينة وخضد شوكتهم

كان لليهود كما قلنا قبل في طريق الشام من ناحية المدينة عدة قرى اهمها خيبر ثم وادي القرى . ومنها فدك والجرباء وتيماء . فلما تم التنكيل بيهود المدينة اخذ النبي عليه السلام

يفكر لأنها هي الأخرى وصلت الى مرحلة العداء الصريح ضد النبي والمسلمين ودعوته .
وقد قتل هذا خاصة فيما كان من تزعم زعماء بني النضير في خيبر وفي ذهابهم الى مكة وغطفان
وتحريضهم لهم على الزحف على المدينة لاستئصال شأفة النبي والمسلمين وتحالفهم معهم واغرائهم
بني قريظة بنقض العهد الذي بينهم وبين المسلمين وإدخالهم في جبهة العداء الصريح معهم
ضدهم ، ثم كان ما رواه ابن سعد^١ من تجديد ابي رافع بن ابي الحقيق احد الزعماء مساعيه
مع غطفان ومن حوله من مشركي العرب لحرب رسول الله ووعده لهم بالجهل العظيم وعلان
هؤلاء استعدادهم للاستجابة له .

وكانت اولى خطوات النبي ان بعث سرية من اربعة أشخاص بقيادة عبد الله بن عتيك
لقتل ابي رافع . وقد تمكنوا من الدخول عليه بفضل قائدهم الذي كان يرطن باليهودية^٢
وقته . فصاحت امرأته فسارع اليهود الى البعث عن المسلمين ومطاردتهم ولكن الله نجاهم
وعادوا سالمين ليبشروا النبي بما وقع ولتلقوا نحيته الكريمة في قوله (افلحت الوجوه)^٣
وكانت الخطوة الثانية قتل اسير بن زارم الذي امره يهود خيبر مكان ابي رافع والذي
سارع الى تأليب غطفان وغيرها من القبائل المشركة وجمعهم لحرب النبي والمسلمين . فبعث
النبي سرية بقيادة عبد الله بن رواحة لقتله وتمكنت من القيام بمهمتها هي الأخرى^٤ .

وكان الحادثان قبل صلح الحديبية . والمتبادر ان النبي قد اخر الزحف على خيبر لأنه
لم يكن فارغ البال من ناحية مكة وقريش . فلما انعقد ذلك الصلح زحف فور عودته
من الحديبية على خيبر اولاً . وقد لقي المسلمون جهداً ومشقة فيها لأنها كانت كثيرة
السكان قوية الاستعداد غير ان الامر انتهى بانتصار المسلمين بعد مجاهدة دامت نحو شهر .
وقد قتل المسلمون كثيراً من مقاتلتهم واستولوا على امراهم وسلاحهم وحقوقهم وبساتينهم
وسبوا كثيراً على نساءهم . وقد أبقي النبي على من لم ير في بقائه خطراً من الذين استسلموا منهم

(١) ج ٣ ص ١٣٤-١٣٥ وابن هشام ج ٣ ص ٣٨٠-٣٨١ وابن هشام روى ان غطفان سارعت إلى
مكة خيبر حينما غزاها النبي ولكن حيل بينها وبين ذلك انظر ايضا الطبري ج ٢ ص ٢٩٨-٣١١

(٢) في هذا دليل الى الادلة التي أوردناها في الجزء السابق على ان قبائل يهود الحجاز كانت إسرائيليان
رواية كون بني النضير وبني قريظة قبائل عربية مشهورة غير صحيحة .

(٣) المصادر السابقة نفسها

(٤) فليس المصادر

وولاهم رعاية البساتين والحقول مقابل نصف الغلة وأجلى من رأى في بقائه خطراً إلى الشام^١
وفي أثناء وقعة خيبر عاد المهاجرون الاولون من الحبشة بقيادة جعفر بن أبي طالب رضي
الله عنهم فلهقوا بالنبي فيها . وفي أثناءها كذلك جاء الأشعريون من اليمن بقيادة أبي موسى
الأشعري وجاء الدرسيون وعلى رأسهم الطفيل بن عمرو وفيهم أبو هريرة فبايعوا النبي على
الاسلام . وكلم النبي اصحابه ان يشركوهم في الغنيمة ففعلوا .

ويظهر أن بعض المسلمين أخذوا يقعون على سبابا اليهود فتنادى منادي النبي (من كان
يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يسقي ما زرع غيره . ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا
يقعن على امرأة من السي حتى يستبرئها) مما فيه تشريع مستمر المدى .

وبما حدث بعد نهاية المعركة واستسلام خيبر أن أهدت امرأة سلام بن مشكم احد زعماء
اليهود للنبي شاة مشوية دس فيها السم فلاك شيئاً منها فاستكرهها وقال ان هذه الشاة
لتخبرني انها مسمومة واستدعى المهدي فاعترفت وقالت بلغت من قومي ما لم يخف عليك
فقلت ان كان ملكا استرحنا منه وان كان نبياً فسيخبر .

ولقد مات من الشاة المسمومة أحد اصحاب رسول الله بشر بن البراء ولقد ظل النبي
متأثراً بما لأكه منها حتى انه قال في مرضه الذي توفي فيه لأخت بشر إن هذا الأوان وجدت
فيه انقطاع أنبري من الأكلة التي أكلت مع أخيك ولذلك كان المسلمون يرون ان رسول
الله مات شهيداً . ومع ذلك فإن النبي تجاوز عن اليهودية التي أهدته الشاة^٢ .

وبما رواه ابن هشام ان نسوة من غفار جئن إلى رسول الله فقلن له اردنا أن نخرج معك
فنداي الجرحى ونعين المسلمين بما استطعنا فقال على بركة الله . . . وقد رضى لمن
من الغنائم .

ومن طريف ما رواه أيضاً ان شخصاً اسمه الحجاج من المسلمين استأذن النبي في السفر
إلى مكة لاقتضاء دين له وفي التصرف لبعض القول ليسهل عليه ذلك فأذن فلما بلغ مكة
سأله بعض رجال قريش عن أخبار النبي وكانوا قد عرفوا انه سار إلى خيبر ولم يعرفوا ان

(١) انظر تفصيل غزوة خيبر في ابن سعد ج ٣ ص ١٥٢-١٦٣ وابن هشام ج ٣ ص ٣٧٨-٤٢٣
والطبري ج ٢ ص ٢٩٨ وما بعدها

(٢) خبر تجاوزها عنها مذكور في تاريخ الطبري ج ٢ ص ٣٠٣ والحبر كله مذكور فيه وفي ابن هشام.

الحجاج قد اسلم فقال لهم عندي من الخبر ما يسركم انه هزم هزيمة لم تسمعوا بمثلها قط وقتل اصحابه وامره اليهود وهم يهيمون بارساله اليكم فسروا أعظم سرور وسهل عليه هذا اقتضاء دينه . وجاءه العباس فرعاً يسأله الخبر فأخبره الحقيقة وطلب منه كتابها إلى أن يخرج وينجو فلما خرج لبس العباس حلة وتخلق (تطيب بالطيب) واخذ عصاه وجاء الى الكعبة فطاف بها فقال له بعض رجال قريش يا ابا الفضل والله هذا التجلد لحرم المصيبة فقال وأي مصيبة . كلا والذي حلفتهم به لقد فتح محمد خير واحرز أموالهم وتزوج بنت ملكهم^١

وقد انصرف النبي عليه السلام بعد خير إلى وادي القرى وكان فيها حصون عديدة لليهود فلقي هنا أيضاً بعض المقاومة ثم صار الأمر إلى ما صار اليه أمر خير . وقد دب الرعب في قلوب اهل فذك والجرباوتياء^٢ فأرسلوا رسلهم إلى النبي يعاهدونه على المسالمة فقبل منهم وصالحهم على نصف أملاكهم فغدت فينا لأن المسلمين لم يوجفوا عليها خيلا ولا ركابا .

وفي سورة الفتح اشارات غير صريحة روى المفسرون انها^٣ في صدد وقائع ومغانم خير والقرى اليهودية الاخرى . منها حكاية طلب المتخلفين من الأعراب المسلمين من النبي الاذن لهم بالانضمام اليهم إذا ما انطلقوا إلى مغامر يأخذونها وأمر له برفض ذلك . ومنها تذكيو المسلمين بفضل الله بما وعدهم به من مغامر كثيرة يأخذونها وكون ذلك من أسباب أو نتائج صلح الحديبية . ومنها الاشارة إلى ما دخل في حوزتهم من أراض لم يجوزوها بقدرتهم . ومن المحتمل الذي قد يلهمه مضمون الآيات ان آيات هذه السورة المتصلة بوقائع خير والقرى الاخرى ان صحت روايات المفسرين وليس هناك ما يمنع صحتها قد نزلت بعد الوقائع .

ولقد غمز المستشرقون المغرضون النبي ايضاً بسبب غزوة خير وقرى اليهود الأخرى وقالوا ان الباعث الوحيد لها هو منح غنائمها وخيراتها للذين شهدوا واقعة الحديبية . ولعل مما استندوا اليه حصر الحملة في الذين شهدوا هذه الواقعة فعلا وعدم الاذن لغيرهم بالانطلاق معهم .

(١) ذلك إن ابن هشام وابن سعد ذكرا ان النبي عليه السلام أعقب صبية بنت حيمي بن اخطب ونزوها .

(٢) ابن هشام وابن سعد ذكرا استسلام فذك . والثاني ذكر الجرباء . اما الذي روى استسلام تياء مع وادي القرى فهو البلاذري في فتوح البلدان ص ٤١-٤٢ ؛ الطبعة الاولى بالقاهرة .

(٣) انظر تفسير سورة الفتح في كتب تفسير الطبري وابن كثير وغيرهم

ولو كان رائدهم الحق لرأوا في ما ذكره الرواة القدماء كابن سعد وابن هشام والطبري من الحركات العدائية الساخرة الصريحة التي بدت من يهود خيبر والقرى الأخرى بزعامة زعمائهم النضيريين ما فيه المقنع . أما الغنائم التي أحرزها المسلمون فقد كانت نتيجة لا هدفا . وأما حصر الحملة بالذين شهدوا وقعة الحديبية وعدم الاذن للاعراب المتخلفين عن هذه الوقعة على ما أشارت اليه إحدى سور الفتح ففيه كل المنطق والحق . فالمتخلفون قد تخلفوا بأعذار واهية وكان إيمانهم ضعيفا والذين ساروا مع النبي إلى مكة قد ساروا وهم يحملون أرواحهم على أيديهم متفانيين كل التفاني في تأييد دين الله ورسوله . فاعتماد النبي عليهم في حملته دون ضعاف الايمان طبعي جداً . ولا يحتمل أن يكون ما روي عن تلك الحركات والمواقف العدائية قد اخترع للتبرير . فليس هناك في ذلك الوقت قضية من الذوع الذي يشيروه المستشرقون كما قلنا في مناسبة سابقة .

ولم يبق لليهود في الحجاز قوة يصطدم بها العرب في دورهم الجديد . وقد كان لهم قرى نائية أخرى أقرب إلى بلاد الشام منها إلى المدينة مثل اذرح ومقنا وبني جنبه وبني عريض وبني غاريا . فلما صار النبي عليه السلام إلى تبوك في السنة التاسعة على ما سوف نذكره بعد . سارع زعماء هذه القرى إلى إعلان خضوعهم وولائهم للنبي وتعهدوا بالمسالمة والنصح واداء الجزية . ولقد كان مع ذلك لبعض اليهود الذين تظاهروا بالخضوع مواقف عدائية ومربية ضد المسلمين في زمن أبي بكر وعمر رضي الله عنهما كانت من أسباب إجلاء الخليفة الثاني من بقي من اليهود عن جزيرة العرب وتطهيرها من رجسهم على ما سوف نذكره بعد .

النصارى في العهد المدني



في السور القرآنية المدنية آيات كثيرة في النصارى وعقائدهم ، وما كان بينهم من خلاف ونزاع . وفي عيسى عليه السلام وامه والحواريين ، وقد جاء بعضها بأسلوب محب وثناء جميل . وفي بعضها تحذير وتنبيه وتنديد ، وفي بعضها جدل ومناظرة وحكاية صد وكيد . وفي بعضها شيء من العنف وأمر بالقتال واستنفار اليه ومشاهد رحلة بسيله .

ومعنى هذا ان النبي ﷺ قد لقي في العهد المدني نصارى ودعاهم واحتك بهم ، وات بعضهم أظهر روحا طيبة وتلقى الدعوة بالاقبال ، وان بعضهم تردد أو نأى أو جادل وكابر

وان بعضهم قد صدر منه ما تجاوز حد الجدل والمكابرة الى البغي والعدوان .

والآيات في النصارى وعقائدهم ومواقفهم في القرآن المدني اكثر واصرح منها في القرآن المكي . بل إن هذا القرآن - اذا استثنينا آيات سورة الزخرف ومريم التي هي تقريرية والتي كانت الاشارة فيها الى انحراف النصارى في عقيدتهم بالمسيح والتنديد به بأسلوب عام وغير عنيف - لم يذكر الكتاب المعاصرين للنبي بصورة عامة ومنهم النصارى الا بالخير على ما شرحناه في بحث الكتابيين في العهد المكي وهذا الفرق يلهم ان دائرة الاتصال بين النبي والنصارى في العهد المدني كانت اوسع كما يلهم ان المؤثرات التي كان يخضع لها النصارى الذين لقيهم النبي واحتك بهم اكثر تنوعاً وان الذين لقيهم في العهد المكي كانوا اكثر تجرداً عن الهوى والرغبات المادية واقل خضوعاً للمؤثرات الخارجية واكثر استعداداً نتيجة لذلك للاستجابة للدعوة الاسلامية والاندماج فيها .

وننبه الى ان المروى عن وجود نصارى مستقرين في المدينة ظلوا متمسكين بنصرانيتهم قليل . فهناك بيت في مريّة حسان بن ثابت رضي الله عنه للنبي عليه السلام جاء فيه ^١

فرحت نصارى يثرب ويهودها لما توارى في الضريع الملحد

وهناك رواية تذكر ان النصارى في يثرب كانوا يسكنون في موضع يقال له سوق النبط ^٢

ولقد احتوى القرآن المدني آيات فيها وصف لحالة النصارى عامة في عصر النبي عليه السلام يمكن ان تنطبق على من كان منهم في بيئة النبي وخارجها . منها آية فيها وصف مواقع اهل الكتاب من لدن عيسى خاصة وما آل اليه امرهم من خلاف ونزاع وقتال ^٣ وهذا الوصف يشمل اليهود والنصارى . وما لا يكاد يحتل تردداً ان هذه الحالة مما كان يشاهدها الناس ومنهم العرب . ولقد كان يقع في ظروف البعثة النبوية وقبلها قتال وثورات بين النصارى واليهود في بلاد الشام نتيجة لما كان من نزاع وعداء بينهم ولما كانت البلاد فيه من اضطراب حيث كان يتداول الحكم فيها الروم والفرس فيقوى النصارى بالاولين ويقوى

(١) و(٢) العرب قبل الاسلام جواد علي ص ٢١٠

(٣) هذا نصها (تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفعنا بعضهم درجات واتينا عيسى ابن مريم البينات وايدناه بروح القدس ولو شاء الله ما اقتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد سورة البقرة ٢٥٣)

اليهود بالآخرين وهلم جرا . كما كان اليهود والنصارى مختلفين فيما بينهم ومنقسمين فرقا ومذاهب وكان الامر يصل بين النصارى بخاصة قبيل البعثة الى الثورات والاضطهادات الدامية مما ذكرته المدونات القديمة .

وبما لا ريب فيه ان هذه الحالة مما كان له اثر ايجابي في استعلاء الموقف النبوي والدعوة الاسلامية في الكتابيين وغير الكتابيين على السواء كما ان هذه الحالة تفسر بعض حكمة الله في البعثة المحمدية التي استهدفت فيما استهدفته انهاء النزاع والخلاف والقتال بين الكتابيين وفرقهم وحل مشاكلهم المذهبية والذهنية وجمعهم تحت راية القرآن مع غيرهم .

وفي سورة المائدة آيات فيها تقرير لما كان من انحراف اليهود والنصارى ولما كان من عداوهم وبغضاء دعوة لهم لاتباع الرسول العربي الذي جاءهم ليبين لهم كثيراً مما كانوا يخفونه ويعقون عن كثير مما كانوا يرتكبون فيه والذي جاءهم من الله بنور وكتاب مبين يهدي به الله من اراد رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور والى صراطه المستقيم^١ وفي السورة نفسها آية اخرى تخاطب اهل الكتاب بأن الله قد بعث رسوله العربي ليبين لهم طريق الهدى والصواب بعد ان مر فترة طويلة من ارساله الرسل حتى لا يقولوا انه لم يأتنا بشيء ونذير بين لنا ذلك الطريق بعد تلك الفترة الطويلة^٢ مما فيه توكيد للانحراف من جهة ولما استهدفته البعثة المحمدية من دعوة النصارى واليهود الى الانضواء الى الحق والنور الذي جاء بها النبي والتخلص مما هم فيه من انحراف وخلاف .

ومن تلك الآيات آية في سورة الحديد^٣ تضمنت تنوعاً محبباً وشاملاً بما جعله الله في قلوب اتباع عيسى من رافة ورحمة وبما كان من جنوحهم الى الرهبانية ابتغاء رضوان الله اقرهم الله عليه . كما تضمنت استدراكاً وهو عدم رعايتهم لأحكام الرهبانية وانحراف كثير منهم عن جادة الحق والهدى . ومع اطلاق الكلام في الآية فان روحها تلهم ان ما فيها من وصف كله او بعضه هو كحالة النصارى المعاصرين للنبي .

واحتوى القرآن المدني كذلك آيات^٤ فيها تنديد بعقيدة النصارى في المسيح وتقرير لكفر الذين قالوا ان الله هو المسيح او ان الله ثالث ثلاثة وحكاية تنصل المسيح يوم القيامة حينما يسأله الله عما اذا كان هو الذي قال للناس اتخذوني وامي الهين من دون الله وتقريره

(١) الآيات ١٢-١٦ (٢) الآية ١٩ (٣) الآية ٢٧

(٤) آيات سورة المائدة ١٧ و٢٦ و٢٧ و٢٨ و٢٩ و٣٠ و٣١ و٣٢ و٣٣ و٣٤ و٣٥ و٣٦ و٣٧ و٣٨ و٣٩ و٤٠ و٤١ و٤٢ و٤٣ و٤٤ و٤٥ و٤٦ و٤٧ و٤٨ و٤٩ و٥٠ و٥١ و٥٢ و٥٣ و٥٤ و٥٥ و٥٦ و٥٧ و٥٨ و٥٩ و٦٠ و٦١ و٦٢ و٦٣ و٦٤ و٦٥ و٦٦ و٦٧ و٦٨ و٦٩ و٧٠ و٧١ و٧٢ و٧٣ و٧٤ و٧٥ و٧٦ و٧٧ و٧٨ و٧٩ و٨٠ و٨١ و٨٢ و٨٣ و٨٤ و٨٥ و٨٦ و٨٧ و٨٨ و٨٩ و٩٠ و٩١ و٩٢ و٩٣ و٩٤ و٩٥ و٩٦ و٩٧ و٩٨ و٩٩ و١٠٠ و١٠١ و١٠٢ و١٠٣ و١٠٤ و١٠٥ و١٠٦ و١٠٧ و١٠٨ و١٠٩ و١١٠ و١١١ و١١٢ و١١٣ و١١٤ و١١٥ و١١٦ و١١٧ و١١٨ و١١٩ و١٢٠ و١٢١ و١٢٢ و١٢٣ و١٢٤ و١٢٥ و١٢٦ و١٢٧ و١٢٨ و١٢٩ و١٣٠ و١٣١ و١٣٢ و١٣٣ و١٣٤ و١٣٥ و١٣٦ و١٣٧ و١٣٨ و١٣٩ و١٤٠ و١٤١ و١٤٢ و١٤٣ و١٤٤ و١٤٥ و١٤٦ و١٤٧ و١٤٨ و١٤٩ و١٥٠ و١٥١ و١٥٢ و١٥٣ و١٥٤ و١٥٥ و١٥٦ و١٥٧ و١٥٨ و١٥٩ و١٦٠ و١٦١ و١٦٢ و١٦٣ و١٦٤ و١٦٥ و١٦٦ و١٦٧ و١٦٨ و١٦٩ و١٧٠ و١٧١ و١٧٢ و١٧٣ و١٧٤ و١٧٥ و١٧٦ و١٧٧ و١٧٨ و١٧٩ و١٨٠ و١٨١ و١٨٢ و١٨٣ و١٨٤ و١٨٥ و١٨٦ و١٨٧ و١٨٨ و١٨٩ و١٩٠ و١٩١ و١٩٢ و١٩٣ و١٩٤ و١٩٥ و١٩٦ و١٩٧ و١٩٨ و١٩٩ و٢٠٠ و٢٠١ و٢٠٢ و٢٠٣ و٢٠٤ و٢٠٥ و٢٠٦ و٢٠٧ و٢٠٨ و٢٠٩ و٢١٠ و٢١١ و٢١٢ و٢١٣ و٢١٤ و٢١٥ و٢١٦ و٢١٧ و٢١٨ و٢١٩ و٢٢٠ و٢٢١ و٢٢٢ و٢٢٣ و٢٢٤ و٢٢٥ و٢٢٦ و٢٢٧ و٢٢٨ و٢٢٩ و٢٣٠ و٢٣١ و٢٣٢ و٢٣٣ و٢٣٤ و٢٣٥ و٢٣٦ و٢٣٧ و٢٣٨ و٢٣٩ و٢٤٠ و٢٤١ و٢٤٢ و٢٤٣ و٢٤٤ و٢٤٥ و٢٤٦ و٢٤٧ و٢٤٨ و٢٤٩ و٢٥٠ و٢٥١ و٢٥٢ و٢٥٣ و٢٥٤ و٢٥٥ و٢٥٦ و٢٥٧ و٢٥٨ و٢٥٩ و٢٦٠ و٢٦١ و٢٦٢ و٢٦٣ و٢٦٤ و٢٦٥ و٢٦٦ و٢٦٧ و٢٦٨ و٢٦٩ و٢٧٠ و٢٧١ و٢٧٢ و٢٧٣ و٢٧٤ و٢٧٥ و٢٧٦ و٢٧٧ و٢٧٨ و٢٧٩ و٢٨٠ و٢٨١ و٢٨٢ و٢٨٣ و٢٨٤ و٢٨٥ و٢٨٦ و٢٨٧ و٢٨٨ و٢٨٩ و٢٩٠ و٢٩١ و٢٩٢ و٢٩٣ و٢٩٤ و٢٩٥ و٢٩٦ و٢٩٧ و٢٩٨ و٢٩٩ و٣٠٠ و٣٠١ و٣٠٢ و٣٠٣ و٣٠٤ و٣٠٥ و٣٠٦ و٣٠٧ و٣٠٨ و٣٠٩ و٣١٠ و٣١١ و٣١٢ و٣١٣ و٣١٤ و٣١٥ و٣١٦ و٣١٧ و٣١٨ و٣١٩ و٣٢٠ و٣٢١ و٣٢٢ و٣٢٣ و٣٢٤ و٣٢٥ و٣٢٦ و٣٢٧ و٣٢٨ و٣٢٩ و٣٣٠ و٣٣١ و٣٣٢ و٣٣٣ و٣٣٤ و٣٣٥ و٣٣٦ و٣٣٧ و٣٣٨ و٣٣٩ و٣٤٠ و٣٤١ و٣٤٢ و٣٤٣ و٣٤٤ و٣٤٥ و٣٤٦ و٣٤٧ و٣٤٨ و٣٤٩ و٣٥٠ و٣٥١ و٣٥٢ و٣٥٣ و٣٥٤ و٣٥٥ و٣٥٦ و٣٥٧ و٣٥٨ و٣٥٩ و٣٦٠ و٣٦١ و٣٦٢ و٣٦٣ و٣٦٤ و٣٦٥ و٣٦٦ و٣٦٧ و٣٦٨ و٣٦٩ و٣٧٠ و٣٧١ و٣٧٢ و٣٧٣ و٣٧٤ و٣٧٥ و٣٧٦ و٣٧٧ و٣٧٨ و٣٧٩ و٣٨٠ و٣٨١ و٣٨٢ و٣٨٣ و٣٨٤ و٣٨٥ و٣٨٦ و٣٨٧ و٣٨٨ و٣٨٩ و٣٩٠ و٣٩١ و٣٩٢ و٣٩٣ و٣٩٤ و٣٩٥ و٣٩٦ و٣٩٧ و٣٩٨ و٣٩٩ و٤٠٠ و٤٠١ و٤٠٢ و٤٠٣ و٤٠٤ و٤٠٥ و٤٠٦ و٤٠٧ و٤٠٨ و٤٠٩ و٤١٠ و٤١١ و٤١٢ و٤١٣ و٤١٤ و٤١٥ و٤١٦ و٤١٧ و٤١٨ و٤١٩ و٤٢٠ و٤٢١ و٤٢٢ و٤٢٣ و٤٢٤ و٤٢٥ و٤٢٦ و٤٢٧ و٤٢٨ و٤٢٩ و٤٣٠ و٤٣١ و٤٣٢ و٤٣٣ و٤٣٤ و٤٣٥ و٤٣٦ و٤٣٧ و٤٣٨ و٤٣٩ و٤٤٠ و٤٤١ و٤٤٢ و٤٤٣ و٤٤٤ و٤٤٥ و٤٤٦ و٤٤٧ و٤٤٨ و٤٤٩ و٤٥٠ و٤٥١ و٤٥٢ و٤٥٣ و٤٥٤ و٤٥٥ و٤٥٦ و٤٥٧ و٤٥٨ و٤٥٩ و٤٦٠ و٤٦١ و٤٦٢ و٤٦٣ و٤٦٤ و٤٦٥ و٤٦٦ و٤٦٧ و٤٦٨ و٤٦٩ و٤٧٠ و٤٧١ و٤٧٢ و٤٧٣ و٤٧٤ و٤٧٥ و٤٧٦ و٤٧٧ و٤٧٨ و٤٧٩ و٤٨٠ و٤٨١ و٤٨٢ و٤٨٣ و٤٨٤ و٤٨٥ و٤٨٦ و٤٨٧ و٤٨٨ و٤٨٩ و٤٩٠ و٤٩١ و٤٩٢ و٤٩٣ و٤٩٤ و٤٩٥ و٤٩٦ و٤٩٧ و٤٩٨ و٤٩٩ و٥٠٠ و٥٠١ و٥٠٢ و٥٠٣ و٥٠٤ و٥٠٥ و٥٠٦ و٥٠٧ و٥٠٨ و٥٠٩ و٥١٠ و٥١١ و٥١٢ و٥١٣ و٥١٤ و٥١٥ و٥١٦ و٥١٧ و٥١٨ و٥١٩ و٥٢٠ و٥٢١ و٥٢٢ و٥٢٣ و٥٢٤ و٥٢٥ و٥٢٦ و٥٢٧ و٥٢٨ و٥٢٩ و٥٣٠ و٥٣١ و٥٣٢ و٥٣٣ و٥٣٤ و٥٣٥ و٥٣٦ و٥٣٧ و٥٣٨ و٥٣٩ و٥٤٠ و٥٤١ و٥٤٢ و٥٤٣ و٥٤٤ و٥٤٥ و٥٤٦ و٥٤٧ و٥٤٨ و٥٤٩ و٥٥٠ و٥٥١ و٥٥٢ و٥٥٣ و٥٥٤ و٥٥٥ و٥٥٦ و٥٥٧ و٥٥٨ و٥٥٩ و٥٦٠ و٥٦١ و٥٦٢ و٥٦٣ و٥٦٤ و٥٦٥ و٥٦٦ و٥٦٧ و٥٦٨ و٥٦٩ و٥٧٠ و٥٧١ و٥٧٢ و٥٧٣ و٥٧٤ و٥٧٥ و٥٧٦ و٥٧٧ و٥٧٨ و٥٧٩ و٥٨٠ و٥٨١ و٥٨٢ و٥٨٣ و٥٨٤ و٥٨٥ و٥٨٦ و٥٨٧ و٥٨٨ و٥٨٩ و٥٩٠ و٥٩١ و٥٩٢ و٥٩٣ و٥٩٤ و٥٩٥ و٥٩٦ و٥٩٧ و٥٩٨ و٥٩٩ و٦٠٠ و٦٠١ و٦٠٢ و٦٠٣ و٦٠٤ و٦٠٥ و٦٠٦ و٦٠٧ و٦٠٨ و٦٠٩ و٦١٠ و٦١١ و٦١٢ و٦١٣ و٦١٤ و٦١٥ و٦١٦ و٦١٧ و٦١٨ و٦١٩ و٦٢٠ و٦٢١ و٦٢٢ و٦٢٣ و٦٢٤ و٦٢٥ و٦٢٦ و٦٢٧ و٦٢٨ و٦٢٩ و٦٣٠ و٦٣١ و٦٣٢ و٦٣٣ و٦٣٤ و٦٣٥ و٦٣٦ و٦٣٧ و٦٣٨ و٦٣٩ و٦٤٠ و٦٤١ و٦٤٢ و٦٤٣ و٦٤٤ و٦٤٥ و٦٤٦ و٦٤٧ و٦٤٨ و٦٤٩ و٦٥٠ و٦٥١ و٦٥٢ و٦٥٣ و٦٥٤ و٦٥٥ و٦٥٦ و٦٥٧ و٦٥٨ و٦٥٩ و٦٦٠ و٦٦١ و٦٦٢ و٦٦٣ و٦٦٤ و٦٦٥ و٦٦٦ و٦٦٧ و٦٦٨ و٦٦٩ و٦٧٠ و٦٧١ و٦٧٢ و٦٧٣ و٦٧٤ و٦٧٥ و٦٧٦ و٦٧٧ و٦٧٨ و٦٧٩ و٦٨٠ و٦٨١ و٦٨٢ و٦٨٣ و٦٨٤ و٦٨٥ و٦٨٦ و٦٨٧ و٦٨٨ و٦٨٩ و٦٩٠ و٦٩١ و٦٩٢ و٦٩٣ و٦٩٤ و٦٩٥ و٦٩٦ و٦٩٧ و٦٩٨ و٦٩٩ و٧٠٠ و٧٠١ و٧٠٢ و٧٠٣ و٧٠٤ و٧٠٥ و٧٠٦ و٧٠٧ و٧٠٨ و٧٠٩ و٧١٠ و٧١١ و٧١٢ و٧١٣ و٧١٤ و٧١٥ و٧١٦ و٧١٧ و٧١٨ و٧١٩ و٧٢٠ و٧٢١ و٧٢٢ و٧٢٣ و٧٢٤ و٧٢٥ و٧٢٦ و٧٢٧ و٧٢٨ و٧٢٩ و٧٣٠ و٧٣١ و٧٣٢ و٧٣٣ و٧٣٤ و٧٣٥ و٧٣٦ و٧٣٧ و٧٣٨ و٧٣٩ و٧٤٠ و٧٤١ و٧٤٢ و٧٤٣ و٧٤٤ و٧٤٥ و٧٤٦ و٧٤٧ و٧٤٨ و٧٤٩ و٧٥٠ و٧٥١ و٧٥٢ و٧٥٣ و٧٥٤ و٧٥٥ و٧٥٦ و٧٥٧ و٧٥٨ و٧٥٩ و٧٦٠ و٧٦١ و٧٦٢ و٧٦٣ و٧٦٤ و٧٦٥ و٧٦٦ و٧٦٧ و٧٦٨ و٧٦٩ و٧٧٠ و٧٧١ و٧٧٢ و٧٧٣ و٧٧٤ و٧٧٥ و٧٧٦ و٧٧٧ و٧٧٨ و٧٧٩ و٧٨٠ و٧٨١ و٧٨٢ و٧٨٣ و٧٨٤ و٧٨٥ و٧٨٦ و٧٨٧ و٧٨٨ و٧٨٩ و٧٩٠ و٧٩١ و٧٩٢ و٧٩٣ و٧٩٤ و٧٩٥ و٧٩٦ و٧٩٧ و٧٩٨ و٧٩٩ و٨٠٠ و٨٠١ و٨٠٢ و٨٠٣ و٨٠٤ و٨٠٥ و٨٠٦ و٨٠٧ و٨٠٨ و٨٠٩ و٨١٠ و٨١١ و٨١٢ و٨١٣ و٨١٤ و٨١٥ و٨١٦ و٨١٧ و٨١٨ و٨١٩ و٨٢٠ و٨٢١ و٨٢٢ و٨٢٣ و٨٢٤ و٨٢٥ و٨٢٦ و٨٢٧ و٨٢٨ و٨٢٩ و٨٣٠ و٨٣١ و٨٣٢ و٨٣٣ و٨٣٤ و٨٣٥ و٨٣٦ و٨٣٧ و٨٣٨ و٨٣٩ و٨٤٠ و٨٤١ و٨٤٢ و٨٤٣ و٨٤٤ و٨٤٥ و٨٤٦ و٨٤٧ و٨٤٨ و٨٤٩ و٨٥٠ و٨٥١ و٨٥٢ و٨٥٣ و٨٥٤ و٨٥٥ و٨٥٦ و٨٥٧ و٨٥٨ و٨٥٩ و٨٦٠ و٨٦١ و٨٦٢ و٨٦٣ و٨٦٤ و٨٦٥ و٨٦٦ و٨٦٧ و٨٦٨ و٨٦٩ و٨٧٠ و٨٧١ و٨٧٢ و٨٧٣ و٨٧٤ و٨٧٥ و٨٧٦ و٨٧٧ و٨٧٨ و٨٧٩ و٨٨٠ و٨٨١ و٨٨٢ و٨٨٣ و٨٨٤ و٨٨٥ و٨٨٦ و٨٨٧ و٨٨٨ و٨٨٩ و٨٩٠ و٨٩١ و٨٩٢ و٨٩٣ و٨٩٤ و٨٩٥ و٨٩٦ و٨٩٧ و٨٩٨ و٨٩٩ و٩٠٠ و٩٠١ و٩٠٢ و٩٠٣ و٩٠٤ و٩٠٥ و٩٠٦ و٩٠٧ و٩٠٨ و٩٠٩ و٩١٠ و٩١١ و٩١٢ و٩١٣ و٩١٤ و٩١٥ و٩١٦ و٩١٧ و٩١٨ و٩١٩ و٩٢٠ و٩٢١ و٩٢٢ و٩٢٣ و٩٢٤ و٩٢٥ و٩٢٦ و٩٢٧ و٩٢٨ و٩٢٩ و٩٣٠ و٩٣١ و٩٣٢ و٩٣٣ و٩٣٤ و٩٣٥ و٩٣٦ و٩٣٧ و٩٣٨ و٩٣٩ و٩٤٠ و٩٤١ و٩٤٢ و٩٤٣ و٩٤٤ و٩٤٥ و٩٤٦ و٩٤٧ و٩٤٨ و٩٤٩ و٩٥٠ و٩٥١ و٩٥٢ و٩٥٣ و٩٥٤ و٩٥٥ و٩٥٦ و٩٥٧ و٩٥٨ و٩٥٩ و٩٦٠ و٩٦١ و٩٦٢ و٩٦٣ و٩٦٤ و٩٦٥ و٩٦٦ و٩٦٧ و٩٦٨ و٩٦٩ و٩٧٠ و٩٧١ و٩٧٢ و٩٧٣ و٩٧٤ و٩٧٥ و٩٧٦ و٩٧٧ و٩٧٨ و٩٧٩ و٩٨٠ و٩٨١ و٩٨٢ و٩٨٣ و٩٨٤ و٩٨٥ و٩٨٦ و٩٨٧ و٩٨٨ و٩٨٩ و٩٩٠ و٩٩١ و٩٩٢ و٩٩٣ و٩٩٤ و٩٩٥ و٩٩٦ و٩٩٧ و٩٩٨ و٩٩٩ و١٠٠٠ و١٠٠١ و١٠٠٢ و١٠٠٣ و١٠٠٤ و١٠٠٥ و١٠٠٦ و١٠٠٧ و١٠٠٨ و١٠٠٩ و١٠١٠ و١٠١١ و١٠١٢ و١٠١٣ و١٠١٤ و١٠١٥ و١٠١٦ و١٠١٧ و١٠١٨ و١٠١٩ و١٠٢٠ و١٠٢١ و١٠٢٢ و١٠٢٣ و١٠٢٤ و١٠٢٥ و١٠٢٦ و١٠٢٧ و١٠٢٨ و١٠٢٩ و١٠٣٠ و١٠٣١ و١٠٣٢ و١٠٣٣ و١٠٣٤ و١٠٣٥ و١٠٣٦ و١٠٣٧ و١٠٣٨ و١٠٣٩ و١٠٤٠ و١٠٤١ و١٠٤٢ و١٠٤٣ و١٠٤٤ و١٠٤٥ و١٠٤٦ و١٠٤٧ و١٠٤٨ و١٠٤٩ و١٠٥٠ و١٠٥١ و١٠٥٢ و١٠٥٣ و١٠٥٤ و١٠٥٥ و١٠٥٦ و١٠٥٧ و١٠٥٨ و١٠٥٩ و١٠٦٠ و١٠٦١ و١٠٦٢ و١٠٦٣ و١٠٦٤ و١٠٦٥ و١٠٦٦ و١٠٦٧ و١٠٦٨ و١٠٦٩ و١٠٧٠ و١٠٧١ و١٠٧٢ و١٠٧٣ و١٠٧٤ و١٠٧٥ و١٠٧٦ و١٠٧٧ و١٠٧٨ و١٠٧٩ و١٠٨٠ و١٠٨١ و١٠٨٢ و١٠٨٣ و١٠٨٤ و١٠٨٥ و١٠٨٦ و١٠٨٧ و١٠٨٨ و١٠٨٩ و١٠٩٠ و١٠٩١ و١٠٩٢ و١٠٩٣ و١٠٩٤ و١٠٩٥ و١٠٩٦ و١٠٩٧ و١٠٩٨ و١٠٩٩ و١١٠٠ و١١٠١ و١١٠٢ و١١٠٣ و١١٠٤ و١١٠٥ و١١٠٦ و١١٠٧ و١١٠٨ و١١٠٩ و١١١٠ و١١١١ و١١١٢ و١١١٣ و١١١٤ و١١١٥ و١١١٦ و١١١٧ و١١١٨ و١١١٩ و١١٢٠ و١١٢١ و١١٢٢ و١١٢٣ و١١٢٤ و١١٢٥ و١١٢٦ و١١٢٧ و١١٢٨ و١١٢٩ و١١٣٠ و١١٣١ و١١٣٢ و١١٣٣ و١١٣٤ و١١٣٥ و١١٣٦ و١١٣٧ و١١٣٨ و١١٣٩ و١١٤٠ و١١٤١ و١١٤٢ و١١٤٣ و١١٤٤ و١١٤٥ و١١٤٦ و١١٤٧ و١١٤٨ و١١٤٩ و١١٥٠ و١١٥١ و١١٥٢ و١١٥٣ و١١٥٤ و١١٥٥ و١١٥٦ و١١٥٧ و١١٥٨ و١١٥٩ و١١٦٠ و١١٦١ و١١٦٢ و١١٦٣ و١١٦٤ و١١٦٥ و١١٦٦ و١١٦٧ و١١٦٨ و١١٦٩ و١١٧٠ و١١٧١ و١١٧٢ و١١٧٣ و١١٧٤ و١١٧٥ و١١٧٦ و١١٧٧ و١١٧٨ و١١٧٩ و١١٨٠ و١١٨١ و١١٨٢ و١١٨٣ و١١٨٤ و١١٨٥ و١١٨٦ و١١٨٧ و١١٨٨ و١١٨٩ و١١٩٠ و١١٩١ و١١٩٢ و١١٩٣ و١١٩٤ و١١٩٥ و١١٩٦ و١١٩٧ و١١٩٨ و١١٩٩ و١٢٠٠ و١٢٠١ و١٢٠٢ و١٢٠٣ و١٢٠٤ و١٢٠٥ و١٢٠٦ و١٢٠٧ و١٢٠٨ و١٢٠٩ و١٢١٠ و١٢١١ و١٢١٢ و١٢١٣ و١٢١٤ و١٢١٥ و١٢١٦ و١٢١٧ و١٢١٨ و١٢١٩ و١٢٢٠ و١٢٢١ و١٢٢٢ و١٢٢٣ و١٢٢٤ و١٢٢٥ و١٢٢٦ و١٢٢٧ و١٢٢٨ و١٢٢٩ و١٢٣٠ و١٢٣١ و١٢٣٢ و١٢٣٣ و١٢٣٤ و١٢٣٥ و١٢٣٦ و١٢٣٧ و١٢٣٨ و١٢٣٩ و١٢٤٠ و١٢٤١ و١٢٤٢ و١٢٤٣ و١٢٤٤ و١٢٤٥ و١٢٤٦ و١٢٤٧ و١٢٤٨ و١٢٤٩ و١٢٥٠ و١٢٥١ و١٢٥٢ و١٢٥٣ و١٢٥٤ و١٢٥٥ و١٢٥٦ و١٢٥٧ و١٢٥٨ و١٢٥٩ و١٢٦٠ و١٢٦١ و١٢٦٢ و١٢٦٣ و١٢٦٤ و١٢٦٥ و١٢٦٦ و١٢٦٧ و١٢٦٨ و١٢٦٩ و١٢٧٠ و١٢٧١ و١٢٧٢ و١٢٧٣ و١٢٧٤ و١٢٧٥ و١٢٧٦ و١٢٧٧ و١٢٧٨ و١٢٧٩ و١٢٨٠ و١٢٨١ و١٢٨٢ و١٢٨٣ و١٢٨٤ و١٢٨٥ و١٢٨٦ و١٢٨٧ و١٢٨٨ و١٢٨٩ و١٢٩٠ و١٢٩١ و١٢٩٢ و١٢٩٣ و١٢٩٤ و١٢٩٥ و١٢٩٦ و١٢٩٧ و١٢٩٨ و١٢٩٩ و١٣٠٠ و١٣٠١ و١٣٠٢ و١٣٠٣ و١٣٠٤ و١٣٠٥ و١٣٠٦ و١٣٠٧ و١٣٠٨ و١٣٠٩ و١٣١٠ و١٣١١ و١٣١٢ و١٣١٣ و١٣١٤ و١٣١٥ و١٣١٦ و١٣١٧ و١٣١٨ و١٣١٩ و١٣٢٠ و١٣٢١ و١٣٢٢ و١٣٢٣ و١٣٢٤ و١٣٢٥ و١٣٢٦ و١٣٢٧ و١٣٢٨ و١٣٢٩ و١٣٣٠ و١٣٣١ و١٣٣٢ و١٣٣٣ و١٣٣٤ و١٣٣٥ و١٣٣٦ و١٣٣٧ و١٣٣٨ و١٣٣٩ و١٣٤٠ و١٣٤١ و١٣٤٢ و١٣٤٣ و١٣٤٤ و١٣٤٥ و١٣٤٦ و١٣٤٧ و١٣٤٨ و١٣٤٩ و١٣٥٠ و١٣٥١ و١٣٥٢ و١٣٥٣ و١٣٥٤ و١٣٥٥ و١٣٥٦ و١٣٥٧ و١٣٥٨ و١٣٥٩ و١٣٦٠ و١٣٦١ و١٣٦٢ و١٣٦٣ و١٣٦٤ و١٣٦٥ و١٣٦٦ و١٣٦٧ و١٣٦٨ و١٣٦٩ و١٣٧٠ و١٣٧١ و١٣٧٢ و١٣٧٣ و١٣٧٤ و١٣٧٥ و١٣٧٦ و١٣٧٧ و١٣٧٨ و١٣٧٩ و١٣٨٠ و١٣٨١ و١٣٨٢ و١٣٨٣ و١٣٨٤ و١٣٨٥ و١٣٨٦ و١٣٨٧ و١٣٨٨ و١٣٨٩ و١٣٩٠ و١٣٩١ و١٣٩٢ و١٣٩٣ و١٣٩٤ و١٣٩٥ و١٣٩٦ و١٣٩٧ و١٣٩٨ و١٣٩٩ و١٤٠٠ و١٤٠١ و١٤٠٢ و١٤٠٣ و١٤٠٤ و١٤٠٥ و١٤٠٦ و١٤٠٧ و١٤٠٨ و١٤٠٩ و١٤١٠ و١٤١١ و١٤١٢ و١٤١٣ و١٤١٤ و١٤١٥ و١٤١٦ و١٤١٧ و١٤١٨ و١٤١٩ و١٤٢٠ و١٤٢١ و١٤٢٢ و١٤٢٣ و١٤٢٤ و١٤٢٥ و١٤٢٦ و١٤٢٧ و١٤٢٨ و١٤٢٩ و١٤٣٠ و١٤٣١ و١٤٣٢ و١٤٣٣ و١٤٣٤ و١٤٣٥ و١٤٣٦ و١٤٣٧ و١٤٣٨ و١٤٣٩ و١٤٤٠ و١٤٤١ و١٤٤٢ و١٤٤٣ و١٤٤٤ و١٤٤٥ و١٤٤٦ و١٤٤٧ و١٤٤٨ و١٤٤٩ و١٤٥٠ و١٤٥١ و١٤٥٢ و١٤٥٣ و١٤٥٤ و١٤٥٥ و١٤٥٦ و١٤٥٧ و١٤٥٨ و١٤٥٩ و١٤٦٠ و١٤٦١ و١٤٦٢ و١٤٦٣ و١٤٦٤ و١٤٦٥ و١٤٦٦ و١٤٦٧ و١٤٦٨ و١٤٦٩ و١٤٧٠ و١٤٧١ و١٤٧٢ و١٤٧٣ و١٤٧٤ و١٤٧٥ و١٤٧٦ و١٤٧٧ و١٤٧٨ و١٤٧٩ و١٤٨٠ و١٤٨١ و١٤٨٢ و١٤٨٣ و١٤٨٤ و١٤٨٥ و١٤٨٦ و١٤٨٧ و١٤٨٨ و١٤٨٩ و١٤٩٠ و١٤٩١ و١٤٩٢ و١٤٩٣ و١٤٩٤ و١٤٩٥ و١٤٩٦ و١٤٩٧ و١٤٩٨ و١٤٩٩ و١٥٠٠ و١٥٠١ و١٥٠٢ و١٥٠٣ و١٥٠٤ و١٥٠٥ و١٥٠٦ و١٥٠٧ و١٥٠٨ و١٥٠٩ و١٥١٠ و١٥١١ و١٥١٢ و١٥١٣ و١٥١٤ و١٥١٥ و١٥١٦ و١٥١٧ و١٥١٨ و١٥١٩ و١٥٢٠ و١٥٢١ و١٥٢٢ و١٥٢٣ و١٥٢٤ و١٥٢٥ و١٥٢٦ و١٥٢٧ و١٥٢٨ و١٥٢٩ و١٥٣٠ و١٥٣١ و١٥٣٢ و١٥٣٣ و١٥٣٤ و١٥٣٥ و١٥٣٦ و١٥٣٧

انه لا يمكن ان يقول لهم ما ليس من حقه ولا يمكن ان يقول الا ما امره به ان اعبدوا الله ربي وربكم ، وتنديد بهم لعبادتهم ما لا يملك لهم في الحقيقة ضراً ولا نفعاً ودعوة لهم بالانتهاء من ذلك وترك الغلو في الدين وعدم قول غير الحق على الله .

والمبادر ان هذه الآيات كانت تنزل لتوجيهها للنصارى الذين كانوا يلتقي النبي بهم في العهد المدني ايضاً .

ولقد كانت مواقفهم تجاه الدعوة المحمدية متنوعة اذ كان منهم المستجيب المقبل احسن اقبال . والمتعصب المتمسك بما هو عليه ، بل المجادل المشاق الصاد عن سبيل الله والمعتدل والمعتدي .

وقد مر ذكر امثلة من كل ذلك في مبغضي انتشار الاسلام ورسول النبي وكتبه الى الملوك . وهناك امثلة اخرى . فقد كان في وفد عبد القيس من عمان زعيمهم نصراني اسمه الجارود اسلم مع قومه حينما وفد على النبي عليه السلام في السنة التاسعة^١ ولعل من الصواب ان يضاف الى الامثلة رفاعه بن زيد الجذامي وقومه الذين كانوا في مشارف الشام . فقد وفد على النبي في السنة السادسة فأسلم وقابله فريق من قومه على ذلك . وزجج انهم كانوا يدينون بالنصرانية مثل بني كلب . وقد كان فروه بن عمر الجذامي وهو منهم عاملاً للروم او للفسانيين في معان والبلقاء وهو الذي قتله الروم بسبب اسلامه على ما ذكرناه قبل^٢ . ويضاف اليها ايضاً وفد الداريين بقيادة تميم بن اوس واخيه نعيم من بني الدار من لحيم وكانوا نصارى ينزلون مع قومهم في جهة الخليل في فلسطين . وقد استوهب تميم من النبي قريتي حبري وعينون اذا فتح الله عليه الشام فقال له همالك . واقام الوفد في المدينة الى ما بعد وفاة النبي وجدد ابو بكر العهد لتييم بما وهبه له النبي^٣ .

ومن ذكرت الروايات خبر اسلامهم من النصارى رافع بن ابي رافع الطائي وكانت يسمى مرجيس على اسم احد القديسين ، ولقد كان ممن ارسل النبي اليهم كتباً ورسلاً الا كيدر ملك دومة الجندل فاحتفظ بنصرانيته الى السنة التاسعة ثم اسلم بعد غزوة تبوك او نتيجة لها فكتب له عهداً باقراره على ما في حوزته من ملك^٤ ولقد ذكر ابن سعد في عداد الوفود التي وفدت على النبي في السنتين التاسعة والعاشرة وفود غسان وبراء وجذام وبكر وتغلب

(١) ابن سعد ج ٢ ص ٧٨ - ٧٩ (٢) نفس المصدر ص ١١٧

(٣) نفس المصدر ص ١٠٧ (٤) ابن هشام ج ٤ ص ٢٩٩ (٥) ابن سعد ج ٢ ص ٥٤

وشيبان^١ وقد ذكر ان الروم استجاشوا الحرب سرية مؤتة التي قادها زيد بن حارثة على ما سوف نذكره بعد قبائل بهراء وبكر وجذام^٢ واستجاشوا الزحف على المدينة في السنة التاسعة فبين استجاشوه من قبائل العرب غسان^٣ وهذا قد يدل على ان بهراء وبكر وغسان من القبائل النحرانية الموالية للروم وقد اعلنت الوفود التي جاءت الى النبي منها اسلامها . ولقد كانت قبائل تغلب وشيبان نصرانية . وقد اعلنت وفودها اسلامها هي الاخرى .

ونعتقد ان هذا ليس كل شيء وان هناك نصارى آخرين استجابوا للدعوة الاسلامية . وفي سورة آل عمران التي نزلت عقب وقعة بدر هذه الآيات :

(لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ . يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ)

(١١٢ - ١١٤)

وهذه الآية (وإن) من أهل الكتاب لمزبوثون بالله وما أنزل اليكم تحاشين الله لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً أولئك لهم أجرهم عند ربهم إن الله سريع الحساب (١٩٩)

حيث يمكن ان يكون فيها قرينة على ما نقول .

الاصطدام والغرب بين النبي والمسلمين من ناحية والنصارى
من ناحية



والى هذا فقد روت الروايات المؤيدة بقرائن قرآنية اخبار صدام حربي بين النبي والمسلمين من ناحية والنصارى من ناحية . وكان ذلك خارج المدينة لأنه لم يكن فيها

(١) نفس المصدر ص ٢٩ - ١٠٢ (٢) ابن سعد ج ٣ ص ٥٧٤ - ١٢٥

(٣) نفس المصدر ص ٢١٨ - ٢١٩

على كل حال كتلة كبيرة يمكن ان يحصل معها حدام وقتال كما كان شأن اليهود .

ولقد كان الجانب الاسلامي في هذا الصدام في موقف الدفاع ومقابلة العدوان بمثل اي في نطاق القرارات القرآنية الجهادية بصورة عامة وفي نطاق الآية الخاصة التي نزلت في قتال اهل الكتاب وهي :

(قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ٢٩ سورة التوبة)

والتي لا تشمل جميع اهل الكتاب وانما الفريق الذي لا يؤمن بالله واليوم الآخر ولا يحرم ما حرم الله ورسوله ولا يدين دين الحق منهم .

ولقد قتل والي مؤتة الغساني الحارث بن عمر الازدي رسول الله الى ملك بصرى^١ وقتل الروم فروة بن عمر بن نفاته الجذامي عامل معان بسبب اسلامه^٢ وشلح جماعة من بني جذام الذين رجحنا نصرانيتهم رسول الله الى قيصر دحية الكلبي^٣ وكانت القبائل الضاربة في النحاء دومة الجندل التي كانت او كان اكثرها يدينون بالنصرانية مثل بني كلب وجذام وقضاعة الخ تظلم من يمر بها من قوافل الميرة الاسلامية وتتهيا للدنو من المدينة^٤ وارسل النبي سرية بقيادة كعب بن عيمر الغفاري الى من وراء وادي القرى بقصد الدعوة الى الاسلام فوصلت الى مكان يعرف بذات اطلاق ووجدت جموعا ترجح انها نصرانية لان معظم قبائل مشارف الشام كانت كذلك فدعاهم فأبوا ورشقهم بالنبال وقابلهم افراد السرية بقتال شديد حتى قتلوا الا واحدا نجح جريحا^٥ ونبي للنبي ان قضاء النازلة وراء وادي القرى والتي ترجح كذلك انها نصرانية تتجمع لتدنو من المدينة^٦

(١) ابن سعد ج ٣ ص ١٧٤ (٢) ابن سعد ج ٢ ص ١١٧ و ٤٦ (٣) ابن سعد ايضا ج ٣ ص ١٣١

(٤) قد يكون من الادلة على ذلك ما روي من نصرانية ملك دومة الجندل الاكيدر وما روي من نصرانية بني كلب احدى القبائل المهمة النازلة في ناحية دومة الجندل ، وقد ذكرنا ذلك ومصادره في مناسبات سابقة .

(٥) ابن سعد ج ٣ ص ١٧٣ - ١٧٤

(٦) نفس المصدر ص ١٧٧ - ١٧٨

وهذه الاحداث قبل الفتح المكي . وبلغ الامر اشده في السنة التاسعة حيث بلغ النبي عليه السلام ان الروم قد جمعوا جموعاً كثيرة بالشام وان هرقل قد رزق اصحابه لسنة وان لحماً وجذاماً وعاملة وغساناً من قبائل العرب المنتصرة اجلبت معهم للزحف على المدينة^١

واولى حوادث الصدام غزوة قادها رسول الله ﷺ الى دومة الجندل في الشهر التاسع والاربعين من هجرته حيث بلغه ان بدومة الجندل جمعاً كثيراً وانهم يظهرون من مر بهم من قوافل الميرة وانهم يريدون ان يدنوا من المدينة . وقد علم اهل الناحية بمسير النبي اليهم فتفرقوا فلما نزل بساحتهم لم يجد احداً فأقام اياماً وبث سرايا ثم عاد دون كيد . ووجد رجلاً فسأله فأخبره بقرائهم وعرض عليه الاسلام فأسلم^٢

ثم سرية زيد بن حارثة الى بني جذام في مسمى وراء وادي القرى لان بعضهم سلب رسول الله الى قيصر دحية الكلبي فأغار عليهم وقتل واوجع واستاق الف بغير و٥٠٠٠ شاة لهم وسبى مئة امرأة وصبي . وجاء رفاعه بن زيد الجذامي الذي كان اسلم مع بعض قومه قبل فاستشفعه فقبل شفاعته ورد الى قومه كل ما اخذ منهم^٣

ثم سرية عبد الرحمن بن عوف الى بني كلب في دومة الجندل في السنة السادسة . وهي على الارجح قد استهدفت ما استهدفه النبي من غزوته الى دومة الجندل حيث يظهر ان قبائل هذه الناحية ظلوا على خطئهم . وقد عمم النبي عبد الرحمن بيده وقال له : (أغزب اسم الله في سبيل الله فقاتل من كفر بالله ولا تغل ولا تغدر ولا تقتل وليداً) فلما وصل دعا بني كلب الى الاسلام فاستجاب اليه الاصبغ بن عمرو رئيسهم وتابعه كثير من قومه . ومنهم من احتفظوا بدينهم فضربت عليهم الجزية^٤

ثم سرية زيد بن حارثة الى مؤته في السنة الثامنة وقبل فتح مكة . وكان عدتها ثلاثة آلاف . وقد روي ان النبي وصى بقياتها اذا قتل زيد لجعفر بن ابي طالب فاذا قتل فعبد الله بن رواحه فاذا قتل يختار المسلمون من يرضون عنه واوصاهم بدعوة من هناك الى الاسلام اولا فان لم يجيبوا استعانوا عليهم بالله وقتلهم . والرواية تذكر صراحة سبب ارسال السرية وهدفها وهو مقتل الحارث بن عمير الازدي رسول الله الى ملك بصري

(١) ابن سعد ج ٣ ص ٢١٨-٢١٩ (٢) نفس المصدر ١٠٣-١٠٤

(٣) ابن سعد ج ٣ ص ١٣١-١٣٢

(٤) ابن سعد ج ٣ ص ١٣٢

الذي قتله شرحبيل بن عمرو الغساني والانتقام له^١ . وسبع العامل الغساني بسير السرية فجمع الجموع الكثيرة التي انضوى اليها نصارى العرب من قبائل بهراء ووائل وبكر وحُم وجذام حتى بلغ عددهم مئة الف على ما ذكرته الروايات التي تدل على كل حال على كثرة العدد. وتردد المسلمون واقترح بعضهم الكتابة للنبي واخباره بالامر . فشجعهم عبد الله بن رواحة على المضي وقال لهم والله ان التي تكرهون لمي التي خرجتم تطلبون اي الشهادة . وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة ولا نقاتلهم الا بهذا الدين الذي اكرمنا الله به فانطلقوا فانما هي احدى الحسينين اما ظهور (نصر) زاما (شهادة) فقالوا صدق ابن رواحة ومضوا الى لقاء الحشود العظيمة من اعدائهم ، بما يمثل الروح الجياشة المؤمنة التي كانت تسير الطبقة الاولى من المسلمين والتي ظلت تظهر في كل موقف من مواقف جهادهم رضي الله عنهم . ودعوا من لقوه فأجيبوا بالرغص ثم اشتبكوا مع ما لا يقاس على ما معهم من عدد وسلاح وكراع وابهة . وحمل زيد اللواء فقاتل وقاتل معه المسلمون حتى قتل فأخذه جعفر بن ابي طالب ونزل عن فرسه وقاتل على الارض حتى قتل بدوره . واصطلح المجاهدون بعده على قيادة خالد بن الوليد الذي استطاع ان يكسب جولة في موقف ثم يتقهقر ويعود بمن بقي من المسلمين الى المدينة . ولما بلغ المسلمين في المدينة خبر انسحاب بقية المجاهدين بقيادة خالد حزنوا وسخطوا وحينما وصلوا قابلوهم بالثريب والتعنيف هاتفين بهم (يا فرار . افررت في سبيل الله) لانهم آثروا الحياة على الموت حتى بلغ الامر في بعضهم ان حبسوا انفسهم في بيوتهم حياء وفراراً من التقرع لولا ان تدخل النبي عليه السلام ومنع التريب وقال (انهم كرار ان شاء الله لا فرار) وهذا موقف رائع مستمد من تلك الروح الجياشة التي جعلت الثلاثة آلاف يقابلون اضعافا مضاعفة متفوقة عليهم في كل شيء وهم على مسافة شاسعة جداً من ارضهم !

ثم كانت سرية عمرو بن العاص التي وصلت الى ذات السلاسل من وراء وادي القرى بينها وبين المدينة عشرة أيام . وكانت في السنة الثامنة . وكان سببها تجمع جمع من قضاة المرجع نصرانيتهم للزحف على المدينة . وقد امره بالامتناع بمن يمر به من بلي وعذرة وبلقين . فلما قرب بلغه ان الجمع كبير فأرسل رسولاً للنبي يستمده فبعث اليه بمدد بقيادة ابي عبيدة بن الجراح ومد سرة المهاجرين والانصار . وقد طوى بلاد بلي وعذرة وبلقين حتى

(١) ابن سعد ج ٢ ص ١٧٤-٢٧٧ انظر ايضاً ابن هشام ج ٣ ص ٤٢٧-٤٤٧ وفي المصدرين تفصيل الواقعة الذي اوردنا خلاصته في المتن .

اتى الى اقصى البلاد فدوخها وهرب منه العرب وتفرقوا^١ .

وكانت هذه الوقائع قبل فتح مكة . وبعد فتح مكة ببضعة أشهر قاد النبي عليه السلام حملة كبيرة وصل بها الى تبوك . والروايات تذكر^٢ انه بلغ النبي ان الروم قد جمعوا جموعا كثيرة بالشام بقصد الزحف على المدينة وانضوى اليها المنتسرون من قبائل حُم وجذام وعاملة وغسان وانهم ارسلوا طلائع الى مشارف الشام فكان ذلك من اسباب حملة تبوك . والذي نرجحه ان النبي قد فكر في ثار مؤتة فتلاحقت الاحداث في الحجاز فتأخر في تنفيذ عزمته الى ان فرغ منها . وهذا مستلهم مما جرت عليه عادة النبي وهي ملاحقة ثار المسلمين ومقابلة العدوات بالمثل بدون ملل الى ان يخضع شوكة العدو ويرغمه على الاستسلام .

وحملة تبوك هي آخر الحملات التي قادها النبي بنفسه واعظمها وابعدا مدى ومعنى . وقد بلغ عدد المشتركين فيها ثلاثين الفا وعدد الخيل عشرة آلاف . وعللها كانت اعظم جيش اجتمع تحت راية واحدة في شمال الجزيرة . وظاهر ان النبي حشد كل ما امكن حشده لتكون حملته متكافئة مع ما يمكن ان تلقاه من العرب النصارى والكنائس الرومانية التي قد تكون معهم ولتحقق غرضا عظيما آخر فيما نعتقد وهو القضاء الرهبة في قلوب العرب وغيرهم في الجزيرة وما جاورها واظهار ما صار اليه امر المسلمين من قوة وعدة .

وقد روى ابن هشام ان النبي قال للجد بن قيس هل لك العام في جلاذ بني الاصفر يعني الروم بما قد يكون قرينة على ما انتواه من عزيمة سابقة . ومن المحتمل ان يكون النبي قد ارسل سرية عمرو بن العاص كطليعة او كشافة . وهذا ينبغي طبعا ان يكون قد بلغ النبي تجمع جموع من قضاة فأرسل حملة عمرو من اجلها ، ولا ان يكون قد بلغ النبي استعداد الروم وارسالهم طلائع الى مشارف الشام فكان ذلك من الاسباب المباشرة للحملة .

ولقد سار النبي على رأس حملته الكبرى في السنة التاسعة للهجرة فوصل الى تبوك على مسافة خمس عشرة ليلة من المدينة فحل فيها ولم يتجاوزها . واقام نحو عشرين يوما . ولم يقع بينه وبين احد اشتباك ما حيث انه لم يجد الجموع التي انبىء عنها .

على ان الايام التي قضاها النبي في تبوك لم تكن فارغة . فقد بعث الى دومة الجندل

(١) ابن سعد ج ٣ ص ١٧٧-١٨٨

(٢) انرا تفصيل وقعة تبوك في ابن سعد ج ٣ ص ٢١٨-٢٢١ وابن هشام ج ٤ ص ١٦٩ و ٢٢١ والطبري ج ٢ ص ٣٦٦-٣٧٣ والبلاذري ص ٦٦-٦٩ ومنها لحصنا ما كتبناه .

سرية بقيادة خالد بن الوليد فاستطاع ان يأسر صاحبها أو ملكها الاكيدر بن عبد الملك وأن يضطوره إلى الخضوع وتقديم فدية صلح النبي بعير وثمينة عبد وأربعة درع وأربعة رمح . ثم اخذه معه إلى المدينة حيث كان النبي قد عاد اليها فأسلم على يده وكتب النبي كتاباً أورد ابن سعد نصه هكذا :

(بسم الله الرحمن الرحيم : هذا كتاب من محمد رسول الله لاكيدر حين أجاب إلى الاسلام وخلع الانداد والاصنام مع خالد بن الوليد سيف الله في دومة الجندل واكتافها ان له الضاحية من الضحل والبور والمعامي واغفال الأرض والحلقة والسلاح والحافر والحصن ولكم الضامنة من النخل والمعين من المعبور وبعد الحس لا تعدل سارحتكم ولا تعد فاردتكم ولا يحظر عليكم النبات ولا يؤخذ منكم إلا عشر الثبات . تقيمون الصلاة لوقتها وتؤتون الزكاة بحقها . عليكم بذاك العهد والميثاق ولكم بذلك الصدق والوفاء . شهد الله ومن حضر من المسلمين ١ .

ونقول استطراداً ان كاتباتي الطلياني انكر اسلام الاكيدر لأن هناك رواية أخرى ذكرت خبر قتال خالد بن الوليد لأهل دومة والاكيدر وقتله حينما سافر من العراق إلى الشام في خلافة ابي بكر الصديق . ولقد ذكر هذا الخبر البلاذري ولكنه ذكر معه انه نقض العهد وارتد ومنع الصدقة وان ابا بكر امر خالداً بقتاله وقاتل قومه حيث يظهر من هذا ان لا تناقض بين الخبرين ، وننبه الى ان البلاذري ذكر الخبر الاول ايضاً ٢ .

وقدم على النبي وهو في تبوك ليوحنا بن ربيعة ملك الأيلة وتعهد باداء الجزية له واخذ منه كتاب عهد وامان . وجاء الى لقاء النبي ايضاً يهود بني جنبه وبني عاديا وبني العريض ومدن اذرح والجربا ومقنا فوجدوه قد عاد الى المدينة فلحقوا به اليها واعلنوا خضوعهم له وتعهدوا باداء الجزية واخذوا منه كتب عهد وامان .

وهذا نص كتاب رسول الله ليوحنا بن ربيعة :

(بسم الله الرحمن الرحيم : هذا امانة من الله ومحمد النبي رسول الله ليوحنا بن ربيعة واهل

(١) ج ٢ ص ٤٤ قال ابن سعد وهو يورد هذا النص ان محمد بن عمر الاسلمي اخبره ان شيخا من اهل دومة حدثه ان رسول الله كتب لاكيدر هذا الكتاب وجاءه بالكتاب فقرأه واخذ منه نسخته

اية لسفنهم وسيارتهم في البر والبحر . لهم ذمة الله وذمة محمد رسول الله وبمن كان معهم من اهل الشام واهل اليمن واهل البحر . ومن احدث حدثاً فانه لا يحول ماله دون نفسه وانه طيبة لمن اخذه من الناس وانه لا يحل ان يمنعوا ماء يردونه ولا طريقاً يريدونه من بر وبحر هذا كتاب جهيم بن الصلت وشرحيل بن حسنة باذن رسول الله (١) .

وقد كانت الجزية التي وضعها على اهل ايلة ثلاثمائة دينار كل سنة ٢ .

وهذا نص كتاب رسول الله لأهل اذرح :

(هذا كتاب من محمد لأهل اذرح انهم آمنون بأمان الله ومحمد وان عليهم مائة دينار في كل رجب وافية طيبة . والله كفيل عليهم بالنصح والاحسان للمسلمين ومن لجأ اليهم من المسلمين من الخافة والتغير إذا خشوا على المسلمين . وهم آمنون حتى يحدث اليهم محمد قبل خروجه) ٣ .

وهذا نص كتابه لأهل مقنا (انهم آمنون بأمان الله وامان محمد وان عليهم ربع غزوهم وربع ثأرهم) ٤

وقدمت على النبي وهو في تبوك وفود عديدة من قبائل مشارف الشام من بلي وعدوة وبهراء وجذام وكلب وبني رقاش فلم تجده فلحقت به الى المدينة واعلنت اسلامها وولاءها .

وبعد قليل من عودة النبي عليه السلام من تبوك اخذت الوفود تتدفق عليه من كل ناحية من انحاء جزيرة العرب وتدخل في دين الله وتعاهد رسوله على ما شرحناه قبل . وليس من شك في ان هذا كان نتيجة لفتح مكة والتغلب على هوازن ثم حملة تبوك العظمى حيث صارت حركات النبي وانتصاراته على كل لسان في كل مكان .

وهكذا يصح ان يقال انه كان لهذه الحملة نتائج عظيمة المدى حيث تم بها الدعوة الإسلامية

(١) ابن سعد ج ٢ ص ٥٥

(٢) ص ٥٦

(٣) و(٤) ص ٥٦ وفي البلاذري نص اطول لاهل مقنا ذكر في سياقه ان بعض اهل مصر أخبره انه رأى كتابهم بعينه في جلد احر دارس الخط ففسخه واملأ عليه نسخته انظر فتوح البلدان ص ٦٧

الاحاطة بجميع جزيرة العرب الى تخوم الشام ودخول كل ذلك تحت راية الاسلام وسلطان النبي وحكمه وارهاب سكان مشارف الشام الذين تكررت انباء تجمعهم وتضامنهم مع الروم وحوادث اعتدائهم ، وكانت الى ذلك تمهيداً للخطوات التاريخية الحادثة التي خطاها خلفاء النبي وتم فيها ما تم من فتح باهر وسلطان عزيز واعلام منشورة في ربوع الأرض المختلفة .

ولقد نزل الشطر الاكبر من سورة التوبة في صدد غزوة تبوك . منه ما نزل قبل السفر ومنه ما نزل في اثنائه ومنه ما نزل بعده . وفي كل منه صور عن هذه الغزوة اوضحت الروايات معالمها .

وتبدأ الآيات التي نزلت في صدها بالآية (٢٩) التي تأمر المسلمين بقتال الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ، حيث يبدو في ذلك براعة استهلال او تبرير بين يدي الحملة .

وقد سميت احدى الآيات الغزوة بساعة العسرة . واحتوت بعض الآيات اشارة الى انها كانت في موسم الصيف . وذكرت الروايات ان السنة كانت عسيرة على الناس وجدباء^١ وعرفت في الاصطلاح التاريخي الاسلامي بيوم العسرة^٢ حيث يدل هذا على ان النبي عليه السلام لم ير من الحكمة تأخيرها او ان الظروف كانت تقضي بالاسراع . وقد طلب النبي من المسلمين ان يتبرعوا بما يستطيعون من مال ومؤن وجهاز ودواب لأن كثيراً من الراغبين في الجهاد فقراء لا يجدون ما ينفقون .

وقد استجاب المخلصون وتبرع كل منهم بما استطاع^٣ ومنهم من تبرع بمبالغ تعد طائلة في ذلك اليوم من جملتهم عثمان بن عفان رضي الله عنه الذي أنفق الف دينار فقال النبي اللهم ارض عن عثمان فاني راض عنه^٤ .

وتناقل المنافقون في الاستجابة الى النفرة للجهاد لطول المسافة والحر وسارع اولو الطول منهم الى استئذان النبي بالتخلف واخذوا يشيطون المهم ويقولون لا تنفروا في الحر^٥ .

(١) انظر آيات التوبة ٣٨-٤٢ (٢) ابن هشام ص ١٦٩ ج ٤

(٣) انظر آية التوبة ٧٩ وابن هشام ج ٤ ص ١٧٢

(٤) نفس المصدر والصحيفة (٥) انظر آية التوبة ٨١

ومع ان فريقاً منهم اشتركوا في الرحلة فانهم لم يتورعوا من الكيد للنبي والمسلمين والدس عليهم والسخرية بهم في اثناها^١ . وقد حملت الآيات من اجل ذلك عليهم حملات قارعة فضحت نياتهم ومواقفهم النفاقية السابقة واللاحقة وقررت كفرهم وخلودهم في النار^٢ . وامرت احداها النبي بأن لا يسمح لهم بالاشتراك معه في اي غزوة اذا طلبوا وبأن لا يصلي على احد منهم مات ابداً وقررت ان الله لن يغفر لهم مهما استغفروا واستغفر لهم الرسول . وقد اعتذر فريق من الاعراب من اولي الطول كذلك بأعذار كاذبة^٣ . غير ان كثيراً منهم اشتركوا في الرحلة . ووصلت الرغبة في الجهاد في بعضهم الى انهم حينما اعتذر النبي لبعض فقرائهم بأن ليس عنده ما يحملهم عليه تولوا واعينهم تقيض من الدمع ألا يجدوا ما ينفقون مما فيه صورة جهادية وإيمانية رائعة^٤ .

ولم يتخلف من المخلصين القادرين بدون عذر وإذن إلا ثلاثة اشارت اليهم هذه الآية التي انطوت كذلك على صورة جهادية وإيمانية رائعة

(وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ١١٨)

وقد روي انهم سمعوا شديد التقريع واللوم من اخوانهم العائدين وقوطعوا حتى من قبل نساءهم واقاربهم الا الذين فضاقت بهم الأرض حتى انهم ربطوا انفسهم بسواري المسجد خمسين يوماً يبكون ويتضرعون إلى الله ولم يكن يفك رباطهم إلا للصلاة والطعام والحاجة الى أن اوحى الله بالآية^٥ .

ولقد حاول كياتاني وغيره من المستشرقين ان يهونوا من شأن حملة تبوك ونتائجها وان يشككوا في العمدة الكبير الذي حشد النبي لها . ولقد وصفت بعض

(١) انظر آيات التوبة ٦٤-٦٥ وابن هشام ج ٤ ص ١٧٧-١٧٨ و ١٨٠

(٢) انظر آيات التوبة ٤٤-٤٥ و ٧٣ و ٨٩

(٣) آيات التوبة ٩٠-٩٨

(٤) آيات التوبة ٩٢ (٥) ظنوا هنا بمعنى يقنوا

(٦) انظر ابن هشام ج ٤ ص ١٨٦-١٩٢

الروايات^١ ان عسكر المنافقين لم يكن اقل العسكرين وانهم انسحبوا في اللحظة الاخيرة فتسكوا بهذه الرواية ليثبتوا المبالغة في العدد الذي روي انه استترك في الحملة بعد انسحاب المنافقين .

ولقد ورد في سورة التوبة آيات شديدة ضد المتخلفين والمستذنين عن حملة تبوك من المنافقين والاعراب^٢ ففسروا هذا بكثرة هؤلاء لتأييد رأيهم .

ورداً على ذلك نقول ان المنافقين قد وصلوا من الضعف والنفلة في ظروف حملة تبوك الى درجة وصفهم آيات في سورة التوبة بهذا الوصف

(يَخْلِفُونَ بِاللّٰهِ اِنْهُمْ يَلِيْنَكُمْ وَمَا هُمْ بِكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَّفْرُقُونَ . لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَاً اَوْ مَغَارَاتٍ اَوْ مَدَّحَلًا لَّوَلَّوْا۟ اِلَيْهِ وَهُمْ يَّجْمَحُونَ ٥٦-٥٧)

وفي آيات سورة التوبة اشارات الى ما كان من اعتذارهم واستئذانهم وتلقهم للنبي والمسلمين في ظروف هذه الحملة وقبل سفرها وبعده^٣ . فليس من المنطق ان يكون هذا لو كان عددهم يقارب عدد المسلمين وكان عسكرهم ليس بأقل العسكرين . ولقد ذكرت الروايات^٤ ان المتخلفين من المنافقين كانوا ثمانين شخصاً وهذا هو المعقول بالنسبة لما وصلوا اليه . وتقيد آيات التوبة^٥ ان الذين استأذنوا النبي بالتخلف او تخلفوا من المنافقين هم الاغنياء اولو الطول وهذا مؤيد لرواية الثمانين شخصاً لأن الاغنياء هم قلة في كل مجتمع . والى هذا فان بعض الآيات والروايات معاً تفيد ان من المنافقين من استترك في الحملة ايضاً^٦ . واما غيرهم ممن في المدينة فالذين تخلفوا فيها من المخلصين قليلون وقد تخلفوا باعذارهم ومنهم علي بن ابي طالب رضي الله عنه . ولم يتخلف بدون عذر منهم إلا ثلاثة اشخاص كما هو ثابت بالنص القرآني الذي اوردناه قبل حيث يسوغ القول ان معظم القادرين على السفر والقتال من اهل المدينة قد اشتركوا في

(١) روى الرواية ابن سعد ج ٣ ص ٢١٩ وابن هشام ايضاً ج ٤ ص ١٧٣ وبإشارة ابن هشام تفيد عدم التصديق بهذا الزعم .

(٢) اشير الى الآيات قبل قليل (٣) آيات التوبة ٤٢ و ٧٤ و ٨٩-٩١

(٤) ابن هشام ج ٤ ص ١٨٩ (٥) الآيات ٨٦ و ٩٤ (٦) اشيراً الى مصدر ذلك قبل قليل

الحملة . وقد كان كثر توافد المسلمين بعد فتح مكة اليها حتى تضاعف عدد سكانها . ولم يكن الاعراب المتخلفون كثرة كبيرة على الأرجح بدليل ان آيات التوبة قد وصفت المعتذرين للنبي منهم بأولي الطول . وكان عامتهم يتسابقون الى الاشتراك في الحملة والذين لا يجدون ما ينفقون ولا يجد النبي ما يساعدهم على الاشتراك فيها من وسائل يجزون اشد الحزن على ما جاء في القرآن ومربانه . وفي سورة التوبة آية قد تكون نزلت بعد العودة من تبوك وفيها تأييد لشدة رغبة المسلمين في الجهاد وتسابقهم إليه حيث احتوت تخفيفاً للمعب وتوزيعاً للعمل والمناوبة في الجهاد ١ .

ففي كل هذا رد حاسم على المستشرقين وكشف عن اغراضهم فيما يعلقون ودليل على ان العدد الذي ذكرته الروايات ليس مبالغاً فيه . وكل ما يمكن أن يكون انه كان تقديرياً وليس احصائياً .

جيش اسامه

هذا ويظهر ان النبي عليه السلام لم ير أن حملة تبوك قد اجزت عن ثأر مؤتة واغراض حملة زيد بن حارثة لأنه هياً بعد عودته من تبوك بمدة ما حملة جديدة لتذهب الى البلقاء ثانية فتأثر للحملة السابقة وتقوم بأغراضها . وجعل قيادتها الى اسامة بن زيد وامره ان يطاء بجنيه البلقاء او ارض فلسطين على اختلاف الروايات ٢ . وضم الى هذه الحملة عدداً من كبار اصحابه . وعسكرت الحملة خارج المدينة لاتمام جهازها . ومرض النبي ﷺ في اثناء ذلك المرض الذي توفي فيه فلم ترحل في حياته وسيورها ابو بكر رضي الله عنه خليفة رسول الله عقب توليه الخلافة على ما سوف يأتي شرحه بعد .

وفي هذا تأكيد لما قلناه من عادة رسول الله في ملاحقة ثأر المسلمين والانتقام من المعتدين عليهم ثم من تطلّعهم الى ما وراء جزيرة العرب لنشر رسالة ربه في اقطار الارض الاخرى .

(١) الآيات ٨٩ و ٩٣ (٢) ابن هشام ج ٤ ص ٢٧٨

حج ابي بكر بالناس في العام التاسع

ونزول الشطر الاول من سورة التوبة

وما فيه من صور



بعد عودة النبي الى تبوك عين ابا بكر اميراً على الحج ليقم للناس حجهم فخرج ومعه جمع كبير من المسلمين . وحج بالناس حجا رسمياً . وكان فريق من المشركين يؤذون في الوقت نفسه مناسك الحج حسب تقاليد الجاهلية^١ .

ولقد ذكرت الروايات ان الشطر الاول من سورة التوبة الذي يأمر الله فيه النبي بان يؤذن في الناس يوم الحج الاكبر بأن الله ورسوله بريئان من المشركين وبانهم مهلون لنهاية الاشهر الحرم وبان يقاتلهم بعدها بدون هوادة حتى يتوبوا الى الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة . ومن كان بينهم وبين المسلمين عهد موقوف فهو الى تمام مدته اذا لم ينقضوه ويظاهروا اعداء المسلمين عليهم . ومن عاهدوهم عند المسجد الحرام فعليه ان يستقيموا لهم ما استقاموا على عهدهم قد نزل بعد سفر ابي بكر فقيل للنبي ابعث بها الى ابي بكر فقال لا يؤدي عني إلا رجل من اهل بيتي ثم دعا علياً بن أبي طالب فقال له أخرج بهذه الآيات فأذن في الناس يوم النحر اذا اجتمعوا بتي بأنه لا يدخل الجنة كافر ولا يحج بعد العام عريان ومن كان له عند رسول الله عهد فهو له الى موته . فخرج ، ولما رآه أبو بكر قادماً ولم يصل بعد الى مكة سأله أمير أم مأمور قال مأمور . فلما كان يوم النحر قام علي فأذن بالناس بما امره به رسول الله واجل الناس اربعة اشهر ليجمع كل الى مأمنه ثم لا عهد لمشرك ولا ذمة .

ومع هذه الرواية التي رواها ابن هشام وابن سعد معا فان الاخير روى حديثاً عن ابي هريرة جاء فيه ان أبا بكر بعث بالذات في الحجة التي امره رسول الله عليها في رهط من المسلمين ليؤذنوا بالناس يوم النحر ألا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان .

(١) انظر ابن سعد ج ٣ ص ٢٢١ - ٢٢٢ وابن هشام ج ٤ ص ٢٠١ وبهذا

حيث تشير هذه الرواية الشبهة في الرواية الأولى أو في جملة (لا يبلغ عني إلا رجل من أهل بيتي) وتحمل على الظن أنها من مصنوعات الشيعة . فالنبي أرسل رسلا عديدين إلى الملوك والأمراء والعلماء والقبائل ليبلغوا عنه رسالة ربه . وليس في آيات سورة التوبة ما يخص النبي شخصياً أو أسروياً . وحاشا للنبي ثم حاشاه أن يكون اعتبر النبوة أسروية . وكل ما نراه محتملاً أن الآيات نزلت بعد سفر أبي بكر فأرسلها النبي مع علي ليلفها له حتى ينادي بها في الناس يوم الحج الأكبر وهذا ما يتسق مع حديث أبي هريرة .

على أن في الرواية نقطة عجيبة . فالشرط الأول من سورة براءة ليس فيه أمر بمنع المشركين من الحج وطوافهم في حالة العري . وليس فيه إلا الأمر بإعلان البراءة إلى الذين عاهدتهم المسلمون من المشركين وإلى المشركين عامة وأمهاتهم الأشهر الحرم وقتلهم بعدها إلى أن يتوبوا مع الوفاء لمن بينهم وبين المسلمين عهد إذا وفوا واستقاموا عليه .

وهناك في سورة براءة آية^١ تعلن خطر دخول المشركين المسجد الحرام غير أنها متأخرة وجاء قبلها آيات كثيرة فيها شؤون متنوعة أخرى إلا إذا فرضنا أنها نزلت والآيات التي قبلها إلى أول السورة دفعة واحدة . وهو فرض ليس له ما يبرره في مضمون الآيات في رأينا . وفي الشرط الأول من سورة براءة أو التوبة نقاط يحسن تسجيلها لأن فيها صورة لما صار عليه الأمر في أواخر عهد النبي عليه السلام .

فأمر الله إيدان الناس يوم الحج الأكبر بأنه ورسوله بريئان من المشركين قد يعني أن السلطان الإسلامي تحت راية النبي عليه السلام قد استتب في جميع أرجاء الجزيرة وأن المشركين غدوا قلة ضئيلة لا يقام لها وزن ولا يخشى لها جانب . وإحدى الآيات تقول : (وإن أحداً من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون ٦) حيث يفيد النص بأن المشركين الذين ليس بينهم وبين المسلمين عهد لم يعودوا يستطيعون السير إلى لقاء النبي إلا بجواره وذمته مما فيه تأكيد لما نقول . وقد روي أن المشركين إنما صاروا يعمدون إلى ذلك بعد اذاعة البراءة يوم الحج الأكبر .

وفي الآية (٢٨) من السورة تقرير رباني بأن المشركين نجس فلا ينبغي لهم أن يقربوا المسجد الحرام بعد هذا العام (أي العام التاسع) حيث انطوى فيها تدعيم آخر لما قلناه من.

استتباب السلطان الاسلامي وهوان شأن المشركين .

وقد تجاوز لناقد ان يقول ان في هذا نقضاً لحربة التدين التي قررتها آيات القرآن لأن فيها منعاً للمشركين من ممارسة تقاليد حجهم التي اعتادوها ، وان فيها في الوقت نفسه نقضاً لحزمة الأشهر الحرم التي تمنح الناس الأمن وحرية الحل والتوكل . ولست أرى محلاً لهذا النقد بعد أن صار الايمان بالله وحده وعبادته وحده هو الدين الغالب وبعد أن طهرت الكتبة من الأوثان وجردت تقاليد الحج من شوائب الشرك ، حيث يكون ذلك بمثابة لاخلال بنظام عام ديني واجتماعي موطن .

وفي الشطر الاول من السورة آيتان ^١ تدلان على انه كان بين المسلمين وبين فريق ممن احتفظ بشركه من العرب عهود منها ما هو موقوف ومنها ما ليس كذلك حيث احتوت إحدى الآيتين أمراً بالتمام مدة ما هو موقوف منها لمن أوفوا بها ولم ينقصوا منها شيئاً ولم يظاهروا عدواً وحيث احتوت الثانية أمراً بالاستقامة على العهود التي بينهم وبين المعاهدين عند المسجد الحرام ما استقاموا عليها دون ذكر مدة ما . والمتبادر ان هؤلاء بعض قبائل كانت تنزل في منطقة مكة ؛ وان اولئك كانوا في منطقة أخرى .

والآيتان الأولى والثانية من السورة احتوتا اعلاناً بالبراءة الى الذين عاهدهم المسلمون من المشركين وامهالا لهم اربعة اشهر يسبحون فيها في الأرض والآية الخامسة تأمر المسلمين بقتال المشركين بعد انسلاخ الأشهر الحرم دون ما هوادة الى ان يتوبوا ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة .

وقد توهم الآيات انها تضمنت أمراً بنقض العهد مع المشركين وقتالهم حتى يسلموا . وفي ذلك نقض للمبدأ القرآني الذي يقول لا إكراه في الدين . غير ان الآيتين الرابعة والسابعة اللتين تستثنيان المعاهدين وتأمران بالوفاء لهم ما داموا أوفياء لعهودهم تزيلان ذلك الوهم وتسوغان القول ان اعلان البراءة انما كان للمعاهدين الذين بدر منهم نقض بشكل ما او في موقف ما . والمرجح ان هؤلاء كانوا أعداء فعاهدهم النبي فلم يكونوا أمناء لعهودهم ووقفوا فيها غدر أو خيانة أو مظاهرة للعداء . فليس من الشذوذ في شيء ان يؤمر المسلمون بقتالهم الى ان يستسلموا وليس في ذلك معنى الاكراه على الاسلام بالقوة قصداً أو

هدفاً أو مبدءاً كما هو واضح . ولقد وصف هؤلاء في الآيات الثامنة والتاسعة والعاشره بوصف يدل على ما كانوا يبيتونه للمسلمين من غدر وعدوان وعلى انهم لا يرقبون فيهم ان سنحت لهم فرصة وظهروا عليهم إلا ولا ذممة . وفي هذا ما فيه من المبررات الكافية

ويظهر انه كان ولا يزال لبعض المسلمين اقارب مشركون فاقتضت حكمة الله ان توطد الوحدة الاسلامية بقوة أشد نجاء فيما جاء من آيات سورة التوبة الأولى هاتان الآيتان الرائعتان اللتان احتوتا تلقيناً جليلاً مستمر المدى

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ . قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ آلِهِ وَرُسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ٢٣-٢٤)

والآية (٣٧) من السورة تلغي النسيء في الأشهر الحرم . ولقد شرحنا هذا التقليد في الجزء السابق ورجعنا ان العرب كانوا يعدون اليه لياقي موسم الحج دائماً في الحريف حتى يتيسر للناس السفر بدون ارهاق . وقد بورت الآية الالغاء لأن في النسيء تغييراً وتبديلاً في الاشهر الحرم المعينة بالاسماء ، فقد كانوا يعلنون مثلاً ان شوالا اول الاشهر الحرم في العام القابل مع انه ليس منها في الاصل فيكون يوم الحج الاكبر اي يوم الوقوف في عرفة في التاسع من ذي القعدة بدلاً من ذي الحجة ويفرج الحرم من الاشهر الحرم . وقد ذكرت بعض الروايات ^١ ان الأمر كان كذلك حينما حج أبو بكر بالناس بأمر النبي في السنة التاسعة كما ذكرت ^٢ ان الناس كانوا يطلبون التقديم والتأخير في الاشهر الحرم لمتابعة حروب لهم توقفت بسبب الاشهر الحرم ، حيث يفيد هذا ان النسيء قد أسيء استعماله ويسوغ القول انه من اسباب الغائه المباشرة فضلاً عن ما ينطوي في الالغاء من حكمة اخرى وهي سد الباب امام الجرأة على انتقاص الحرمات والتلاعب بها والاحتيال عليها .

(٢٠١) انظر تاريخ العرب قبل الاسلام جواد علي ج ٥ ص ٢٣٩ و٢٤٢

حجة الوداع

وفي السنة العاشرة حج النبي بالمسلمين الحجة التي عرفت بحجة الوداع لأنه توفي بعدها بقليل . وكانت حجة حافلة احتشد فيها المسلمون من كل صوب . وعلم الناس فيها مناسك الحج ووصاهم بوصايا متنوعة في مواقف متعددة . وخطب فيهم خطبة عامة رائدة .

وبما اثر من ذلك^١ انه هتف بالناس لأن يسمعوا منه فانه قد لا يلقاهم في عامهم القابل ثم نوه بما اتم الله على لسانه ويده ورسالته الخالدة التي كان القرآن في الدرجة الاولى وسنته القولية والفعلية في الدرجة الثانية الضابط لها والمبين لحدودها ومداهها وقال انه تارك في المسلمين ما ان اعتصموا به فلن يضلوا أبداً كتاب الله وسنة نبيه^٢ . واحتوت الخطبة فيما احتوته

(١) انظر خطب وافوال وتعاليم ومواقف النبي في حجة الوداع في ابن هشام ج ٤ ، ص ٢٧٥ - ٢٧٦ وابن سعد ج ٣ ، ص ٢٢٥ - ٢٤٠ والعقد الفريد ج ٢ ، ص ٣٥٧ - ٣٥٨

(٢) جلة (وسنة نبيه) في رواية ابن هشام . والحديث لم يرد في ابن سعد . وورد في رواية العقد الفريد جلة (واهل بيتي) محل (وسنة نبيه) ورواية العقد الفريد غريبة نخشى بل نرجح ان تكون من غرائب مرويات الشيعة او مصنوعاتهم . ورواية ابن هشام هي المتسقة دونها مع نصوص القرآن ولا سيما آية سورة النساء هذه (يا ايها الذين آمنوا اطيعوا الله والرسول واولي الامر منكم فان تنازعتم في شئ فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير واحسن تأويلا ٥٩)

والقرآن يمثل الله عز وجل وسنة الرسول تمثل الرسول بعده . والموقف موقف امير المؤمنين على مدى الاجيال بالتمسك بما لا يضلون من بعده إذا تمسكوا به . والي لا يمكن ان يفوته انه قد يكون من اهل بيته في جيل من الاجيال منحرف او شاذ ، ولا يمكن ان يظن ان الثبوت اسرورية وانما هي فضل الله الذي يعلم حيث يحيل رسالته .

نعم هناك حديث رواه مسلم والترمذي عن النبي صدر منه عند ماء (خاء) بين مكة والمدينة جاء فيه : (اني تارك فيكم ما ان تمسكتم به لن تضلوا بعدي احدهما اعظم من الآخر كتاب الله حبل ممدود من السماء الى الارض وعترتي اهل بيتي ولن يتفرقا حتى يردا على الحوض فانظروا كيف تخلفوني فيها) (التاج ج ٣ ص ٣٠٩) وقد روى اليعقوبي (ج ٢ ص ٩٣) هذا بصيغة مباينة حيث ذكر ان النبي حينما عاد من مكة بعد حجة الوداع وقف عند غدير خم وامسك بيد علي ثم قال للناس السلت اولي المؤمنين من انفسهم قالوا بلى فقال من كنت مولاه فعلي مولاه . اللهم وال من والاه . وعاد من عاداه . ثم قال ايها الناس اني فرطكم واتم واردون على الحوض واني ماثلكم عن الثقلين فانظروا كيف تخلفوني فيها قالوا وما الثقلان يا رسول الله قال الثقل الاكبر كتاب الله سبب طرفه بيد الله وطرفه بأيديكم فاستمسكوا به ولا تضلوا ولا تبدلوا وعترتي اهل بيتي . وعلى غرابة هذا ونحفظنا ازاءه بناء على ماقلناه آنفاً فان مناسبة صدوره ومقاصده غير المناسبة والمغاصد في خطبة الوداع . وهذا مع اجلالنا للمرة النبوية التي شرفها الله بتاسيها لرسوله الاعظم .

ما يصح أن يسمى إعلاناً لفدائية حقوق الناس وتساوئهم وحررياتهم ودمائهم وأموالهم وأعراضهم
 فكلمهم من آدم وادم من تواب . وان أكرمهم عند الله أتقاهم . ولا فضل لعربي على أعجمي
 إلا بالتقوى ووصى بالنساء خيراً وقال ان لمن على الرجال حقاً وفسر ما يعني بحق الرجال
 وهو الأمانة والصيانة والطاعة الزوجية . ونهى عن الغلو في الدين . ووصى بالأرقاء .
 وأكد حرمة الأشهر الحرام باعيانها ثلاث متواليات ذو القعدة وذو الحجة والمحرم وواحد
 منفرد هو رجب . وأكد حرمة البلد الحرام . ووصى بطاعة الأمير إذا ما قام بكتاب الله
 ولو كان عبداً حبشياً نجداً . وأعلن سقوط الربا . فليس للعربي إلا رأس ماله وطبق ذلك
 على أمرته فأعلن سقوط ربا عنه العباس . وأعلن سقوط كل دم ودعوى جاهلية وطبق ذلك
 على أمرته فأعلن سقوط دم عامر بن ربيعة بن الحرث بن عبد المطلب . وأعلن سقوط ما أثر
 الجاهلية غير سدانة البيت وسقاية الحاج ثم هتف اللهم هل بلغت . ألا لا ترجعن بعدي ضلالاً
 يضرب بعضكم رقاب بعض . وليبلغ الشاهد منكم الغائب فلعل بعض من يبلغه أوعى له من
 بعض من سمعه . ألا هل بلغت . فأجابه الناس اللهم نعم فهتف اللهم فاشهد .

مرض النبي عليه السلام ووفاته

وظهور مسيامة وطلحة والاسود العنسي

قيل وفاته

وقد مرض النبي عليه السلام بعد عودته من الحج بقليل المرض الذي توفي فيه ^١.

وطارت أخبار مرضه فكان نتيجة لذلك أن وثب كل من الأسود العنسي في اليمن وطلحة الأسدي في نجد ومسيمة الحنفي في البصرة فادعوا النبرة وأخذوا يدعون قومهم إلى نصرتهم وتأيدهم فالتقوا بعض الاستجابة بتأثير النبرة القلبية . وأخذوا يتحركون في سبيل بسط سلطانهم وإسقاط سلطان النبي عن بلادهم . وكان أنشطهم العنسي الذي جمع الجموع وأخذ يتصاول مع عمال النبي ومن ناصرهم من المؤمنين واستطاع أن يبسط سلطانه على مساحة واسعة من اليمن . ولم يمنع المرض رسول الله من الاهتمام للأمر فأرسل رسله وكتبه إلى زعماء المؤمنين المخلصين في اليمن ونجد والبصرة . واستطاع هؤلاء ومن انضم إليهم من عامة المؤمنين المخلصين أن يقاتلوا على الأسود ويقتلوه وجاء خبر ذلك إلى النبي وهو مريض . وظلت حركة مسيمة وطلحة نتيجة لذلك ضيقة في حياة النبي ثم تفاقمت بعده على ما سوف يأتي شرحه ^٢.

ولقد استبطن النبي سير جيش أسامة نحو غايته وبلغه أن الناس قالوا أمر غلاماً حدثاً على جلة المهاجرين والأنصار فخرج النبي من بيت أم المؤمنين عائشة حيث قضى فيه أيام مرضه عاصباً رأسه حتى جلس على المنبر فقال أيها الناس انقذوا بعث أسامة . فلعمري لئن قلم في أمارته لقد قلم في أماره أبيه من قبله . وأنه لحليق بالامارة . وإن أباه كان خليقاً لها ^٣ . فتحرك جيش أسامة وضرب عسكره خارج المدينة وثقل المرض على النبي فلم يتحمل .

ولم يمض إلا قليل حتى توفاه الله ليلة الاثنين لاثنتي عشرة ليلة هضت من ربيع الأول من السنة الحادية عشرة . وتمت بذلك على هجرته عشر سنين وعشرة ثلاث وستون سنة على

(١) انظر خبر مرض النبي ووفاته في ابن هشام ج ٤ ص ٣١٩-٣٢١ و٣٣٦-٣٤٣ والطبري ج ٢

ص ٤٢٨-٤٤٤

(٢) انظر الطبري ج ٢ ص ٤٠٠ و٤٣٠ و٤٣٢ و٤٦٣-٤٧٣

(٣) ابن هشام ج ٤ ص ٣٢٨

أشهر الروايات^١ بعد أن أقر الله عينه بانتشار الاسلام وتوطد سلطانه في مختلف ربوع جزيرة العرب وتردد جده قوياً فيما وراءها تاركاً لحلفائه وقومه وأتباعه اتمام عمله العظيم وحمل مشعل هدايته الواج الى مختلف أقطار الأرض وتحقيق وعيد الله لهم بالتمكين والاستخلاف في الأرض وظهور الاسلام على الدين كله .

ولقد ذهل المسلمون لوفاة النبي ومنهم من لم يصدقها وقد روي عن عمر بن الخطاب قوله في ذهول (ان رجلاً من المنافقين يزعمون ان رسول الله قد توفي . وانه والله ما مات ولكنه ذهب الى ربه كما ذهب موسى عن قومه . والله ليرجعن كما رجع موسى فليقطعن ايدي رجال وأرجلهم زعموا انه مات) وجاء أبو بكر فقصد الى بيت عائشة فدخله فالتقى النبي مسجى في ناحية من البيت عليه برد جرة فأقبل حتى كشف عن وجهه ثم أقبل عليه يقبله ويقول (ما أطيبك حياً وما أطيبك ميتاً) ثم خرج وعمر تأثر النفس يهدد ويتوعد فقال له على رسلك ثم حمد الله وأثنى عليه وقال (أيها الناس : من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات . ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت . ثم تلا قول الله : وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على اعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزى الله الشاكرين . ١٤٤ سورة آل عمران^٢ . فثاب الناس الى رشدهم وصاروا الى يقين من موت رسولهم العظيم .

وبما رواه هيكمل في كتابه حياة محمد^٣ ان النبي عليه السلام طلب حين اشتد عليه المرض أن يأتيه بدواة وصحيفة ليكتب لهم كتاباً لا يضلون بعده أبداً فحال عمر دون ذلك وقال ان رسول الله قد غلب عليه الوجع وعندكم القرآن وهو حسبننا . ولم نر هذا في ابن هشام . وقد روى الطبري شيئاً من ذلك حيث روى ان النبي طلب ان يكتب لهم كتاباً لا يضلون بعده أبداً فتنازعوا وقال بعضهم ان رسول الله يهجر (أي يهذي من الوجع) ثم عادوا يستفهمونه فقال دعوني فما انا فيه خير مما تدعونني اليه . ويزعم الشيعة ان النبي اراد ان يعبد فيما يكتبه بالخلافة من بعده لعلي . ويحقدون على عمر وغيره من المسلمين بسبب ذلك . ونحن نشك في الرواية أصلاً ونرجح انها من مصنوعات الشيعة .

وبما روي ان العباس قال لعلي اني عرفت الموت في وجه النبي فانطلق بنا اليه فان كان

(١) الطبري ج ٢ ص ٤٥٤-٤٥٥ والمعمودي ج ٢ ص ١٧٦

(٢) طبعة ثانية ص ٤٨٥ (٣) ج ٢ ص ٤٣٦

(٤) ابن هشام ج ٤ ص ٣٣٢-٣٣٣

هذا الأمر فينا عرفناه وان كان في غيره امرناه فوصى بنا الناس فقال له علي اني والله لا افعل
والله لئن منعناه لا يؤتينا احد بعده ^١ .

وبما روي ان النبي اثناء مرضه قال (مروا ابا بكر فليصل بالناس) فقالت عائشة يا نبي
الله ان ابا بكر رجل رقيق ضعيف الصوت كثير البكاء اذا قرأ القرآن فقال ثانية (مروه
فليصل بالناس) فعادت عائشة الى كلامها فقال (انكن صواحب يوسف فمروه فليصل بالناس ^٢)
وبما روي ان بلالا دعا النبي للصلاة في مبادئ مرضه (فقال مروا من يصلي بالناس)
فوجدوا عمر فصلى بالناس . فلما سمع النبي صوته قال (فابن ابو بكر . يا بني الله ذلك
والمسلمون . يا بني الله ذلك والمسلمون) ^٣ واهل السنة يستندون الى ذلك فيما يستندون اليه
ليدلوا على ان رسول الله قد اراد به ان يكون خليفة له في المسلمين من بعده .

وبما روي ان النبي خرج يوماً عاصباً رأسه فجلس على المنبر بعد الصلاة فقال ان عبداً من
عباد الله خيره الله بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عنده . فأدرك ابو بكر ان النبي ينهى
نفسه فبكى وقال بل نقديك بانفسنا وابنائنا فقال علي رسلك يا ابا بكر . انظروا هذه
الأبواب الشوارع اللافظة في المسجد فسدوها الا ما كان من بيت ابي بكر فإني لا أعلم احداً
كان افضل عندي في الصفة بدأ منه ولو كنت متخذاً من العباد خليلاً لانتخذت ابا بكر
ولكن صفة واخاء ايمان حتى يجمع الله بيننا عنده فان امن الناس علي في صحبته وماله ابو
بكر . ألا لا تبق خوخة في المسجد الا خوخة ابي بكر . وقد روى البخاري ومسلم
والترمذي اكثر هذه الرواية في مساندهم التي سجل فيها ما عد من صحاح احاديث رسول الله
ولقد تواترت الروايات عن ما كان من صدق ايمان ابي بكر وصحبته وملازمته وتأييده
وتصديقه للرسول في كل موقف وعن ما أنفق من اموال في سبيل الله بما قد يكون فيه
تفسير لما روي عن رسول الله ^٣ .

ولقد روى رواية الشيعة ان النبي انا وصى بسد الأبواب الا باب علي . وقد روى علماء الحديث
ان الحديث موضوع . وان الشيعة قد وضعت الرد على ما روي من طرق اوثق في شان باب

(٢٠١) ابن هشام ج ٤ ص ٣٣٤-٣٣٥

(٣) انظر الطبري ج ٢ ص ٤٣٤-٤٣٥ والناج الجامع لاصول احاديث الرسول ج ٣ ص ٢٧٢ وابن
هشام ج ٤ ص ٣٢٧ وانظر كتاب سيرة ابي بكر الصديق، لملي الطنطاوي

اني يكر^١.

وما روي ان النبي شعر بشيء من التحسن فخرج من بيته والمسلمون في صلاتهم وراءه اني يكر فكادوا يقتنون فرحاً وتفرجوا فاسار عليهم بالثبات وأحس أبو بكر بالامر فاراد أن يتخطى عن مكانه فدفعه النبي في ظهره وقال له حمل بالناس ثم جلس الى يمينه فجلس قاعداً فلما فرغ أقبل على الناس رافعاً صوته فقال (ايها الناس سمعت النار . واقبلت الفتن كقطع الليل المظلم . واني والله ما تمسكون علي شيء . اني والله لم احل الا ما احل القرآن ولم أحرم الا ما احرم القرآن^٢ .

وما روي ان النبي خرج يوماً عاصباً رأسه متكئاً على ابن عمه الفضل حتى جلس على المنبر ثم امر بدعوة الناس فسارعوا اليه فقال بعد حمد الله : ألا ان الشقاء ليست من طبعي ولا من شأني . الا من كان جلده له ظهراً فهذا ظهري فليستقد منه . ومن كنت شئت له عرضاً فهذا عرضي فليستقد منه . وان احبكم الي من اخذ مني حقاً ان كان له او حقتي فلقيت الله وانا طيب النفس ثم رجع في يوم ثان الى مقالته . فقال رجل يا رسول الله ان لي عندك ثلاثة دراهم قال اعطه يا فضل . ثم قال ايها الناس من كان عنده شيء فليؤده ولا يقل فضوح الدنيا ألا وان فضوح الدنيا ايسر من فضوح الآخرة . فقام رجل فقال يا رسول الله عندي ثلاثة دراهم غللتها في سبيل الله قال ولم غللتها قال كنت محتاجاً اليها قال خذها منه يا فضل . ثم قال ايها الناس من خشي من نفسه شيئاً فليقم ادع له . فقام رجل فقال يا رسول الله اني لكذاب اني لفاحش اني لنؤوم فقال اللهم ارزقه صدقاً وإيماناً وأذهب عنه النوم اذا أراد . فقام رجل آخر فقال والله يا رسول الله اني لكذاب واني لمناق ومأثمى الا قد جنبته فقال رسول الله اللهم ارزقه صدقاً وإيماناً وصبراً امره الى خير^٣ .

وما روي ان النبي صلى بالناس في مبادئ مرضه ثم استغفر لأصحاب أحد ثم قال (يا معشر المهاجرين استوصوا بالانصار خيراً فان الناس يزيدون وان الانصار على هيتها

(١) انظر المتن من منهاج السنة ص ٣١١ وجمع الزوائد ج ٩ ص ١١٤

(٢) ان هناك ج ٤ ص ٣٣١-٣٣٢

(٣) الطبري ج ٢ ص ٤٣٢-٤٣٤

لا تريد وانهم كانوا عتبي التي اوتت اليها فاحسنوا الى محسنهم وتجاوزوا عن مسيئتهم^١ .

ومما روي عن النبي في اواخر حياته ما روته عائشة انه حينما اشتد به الوجع قال (قاتل الله فوما اتخذوا قبور انبيائهم مساجد^٢) وما روته عائشة ايضا ان آخر ما عهد رسول الله ﷺ به ان قال (لا يترك بجزيرة العرب دينان)^٣ وفي هذين الحديثين روعة وحكمة بالفتان . وفي الثاني بخاصة تحصين للبلاد التي جعلها الله مهبط وحيه ومنبت دينه الذي وعده باظهاره على الدين كله :

ولقد دفن رسول الله في بيت عائشة ام المؤمنين حيث توفي لأن ابا بكر قال سمعت رسول الله يقول (ما قبض نبي الا دفن حيث يقبض) فكان قبره الشريف وما يزال فيه^٤ . وتأخر دفنه يومين بسبب اضطراب الناس وانقسامهم في أمر من يخلفه في المسلمين على ما سوف نشرحه بعد^٥ . وحلى عليه الناس ارمالا . الرجال اولا ثم النساء ثم الصبيان^٦ وتولى دفنه علي بن ابي طالب والفضل بن عباس وقثم بن عباس^٧ . وكفن في ثوبين صحاريين — نسبة الى صحارى احدى بلاد اليمن — وادرج في برد حبرة ادراجا^٨ .

بعض خصوصيات رسول الله ﷺ



بالاضافة الى ما ذكرناه من خصوصيات رسول الله واخلاقه ونشأته قبل البعثة ففي الآيات القرآنية اشارات اوضحت الروايات معالمها الى بعض خصوصياته نذكرها كما يلي :

(٤) ابن هشام ج ٤ ص ٣٢٨ وفي العقد الفريد لابن عبد ربه وهو من الكتب القديمة رواية تذكر مبيلا لذلك حيث روي عن انعمان بن بشير الانصاري قال لما ثقل النبي في مرضه تكلم الناس في من يقوم بالامر بعده فقال قوم (ابوبكر) وقال قوم (ابي بن كعب) فأثبت ايا فذكرت له ما سمعت فقال عندي من هذا الامر من رسول الله شيء ما انا بذاكره حتى يقبضه الله ثم دخلت انا وهو على رسول الله بعد الصبح فأقبل على ابي فقال هذا ما قلت لك قال له فأومس بنا فخرج يخط برجليه حتى صار على المنبر فأومس بالانصار بما يقرب ما رواه ابن هشام ولقد استمر صاحب العقد الفريد في سياقه فقال انه لما مات النبي وتطلع الانصار الى الامر قال ابي بن كعب انه للمهاجرين دون الانصار وان اذا ما سمع من رسول الله (انظر العقد الفريد نشر المكتبة التجارية الكبرى على ١٣٥٣-١٩٣٥ ج ٣ ص ٦٣-٦٤

(٢) ابن هشام ج ٤ ص ٣٤٥

(٣) نفس المصدر وروى هذا البلاذري ص ٧٣ والطبري ج ٢ ص ٥٣٤-٥٣٥

(٤) وه ٦٥٧ و ٨٧٠ ابن هشام ج ٤ ص ٣٤٢-٣٤٥

١ - أزواج النبي ﷺ

تزوج النبي بعد خديجة بنت خويلد الأسدية رضي الله عنها تسع زوجات دخل بهن فعلاً وعقد على اثنتين آخرين ولكنه طلقها قبل الدخول . وتسرى بأمّتين هما مارية القبطية وربحانة القرظية .

وكانت أولى زوجاته بعد موت خديجة سودة بنت زمعة . وكانت زوجة أحد مهاجري الحبشة تنصر زوجها في الحبشة ومات فيها . وقد تزوجها قبيل الهجرة إلى المدينة . ثم عاتشة بنت أبي بكر التي تختلف الروايات في سنّها حينما تزوجها وفي وقت زواجها منه ، والأسهر انه خطبها في مكة وعمرها تسع سنين وبنى عليها بعد هجرته . وهي البكر الوحيد من زوجاته وأحبهن إليه واعلمهن وأشهرهن وأكثرهن حديثاً عنه واقواهن شخصية . ثم حفصة بنت عمر بن الخطاب وكانت زوجة خنيس بن حذافة أحد شهداء بدر . ثم أم سلمة زوجة أبي سلمة الأسدي بعد ان استشهد زوجها في وقعة احد . ثم جويرية بنت الحارث زعيم بني المصطلق وكانت متزوجة فوقت سبية في يد المسلمين فدفع النبي ثمنها واعتقها وتزوجها وآمن قومها نتيجة لذلك . ثم أم حبيبة وملة بنت أبي سفيان وكانت زوجة عبيد الله بن جحش أسلمت مع زوجها وهاجرت معه إلى الحبشة وتنصر ومات فيها فخطبها النبي وهي في الحبشة وعادت رأساً إلى المدينة حيث تزوجها . ثم زينب بنت جحش الأسدية ، وكانت زوجة زيد بن حارثة ابن النبي بالتبني فطلقها حارثة فتزوجها . ثم صفية بنت حيي بن اخطب اليهودية بعد أن أسلمت وكانت زوجة لأحد زعماء يهود خيبر . ثم ميمونة بنت الحارث من بني عامر بن صعصعة وكانت زوجة لأحد المسلمين واسمه ابو رهم مات فعرضت نفسها على النبي فتزوجها وهي التي يقال انها التي ذكرها القرآن في إحدى آيات الاحزاب في جملة (وامرأة مؤمنة ان وهبت نفسها للنبي إن أراد النبي أن يستنكحها ٥٠) .

أما الزوجتان اللتان طلقها قبل الدخول فهما اسماء بنت النعمان الكندية حيث وجد النبي بها بياضاً - اي برصاً فردها إلى أهلها . وعمرة الكلابية حيث كانت حديثة عهد بالكفر فاستعادت من رسول الله فقال لها منيع عائد الله وردّها الى أهلها . وبعض الروايات تخالف بين الاثنتين فتذكر حالة الاولى للثانية والثانية للاولى ١ .

وقد اجتمعت تحت نكاح النبي تسع زوجات مدخول بهن قبل نزول آية سورة النساء

(١) انظر ابن هشام ج٤ ص٣٢١-٣٢٧ ومروج الذهب للمسعودي ج٢ ص١٧٨ والطبري ج٢ ص١٠٤ و١٧٤

الثالثة التي اعتبرت تحديداً لعدد الزوجات التي يصح للمسلم ان يجمعهن تحت نكاحه في وقت واحد وهو اربع^١ ، وقد طلق من كان في نكاحه اكثر من اربع زوجات من المسلمين ما زاد عن هذا العدد . وأذن الله للنبي في احدى آيات الأحزاب^٢ بصورة خاصة بأن يحتفظ بهن جميعاً وحرم عليه في آية اخرى^٣ الزواج من جديد ولو واحدة بدل اخرى وحرم على المسلمين في آية ثالثة ان ينكحوا ازواجه من بعده^٤ .

ولقد ابدأ بعض المستشرقين واعادوا في زيجات النبي وقالوا انه سن لنفسه قانوناً ينقض القانون الذي سنه لسائر الناس كما تناولوا عليه بسبب عدد النساء اللاتي تزوج بهن وجمعهن في عصيته^٥ .

ولقد رد كتاب المسلمين على هذا وذاك ردوداً متنوعة وجيهة . منها ان النبي في تعدد زوجاته لم يكن شاذاً عن بيئته او عن الطبيعة البشرية . وان لجل زيجاته ظروفاً غير دواعي الرغبة الجنسية إذ توخى في بعضها تكريم صاحبيه ووزيريه ابي بكر وعمر بابنتيه عائشة وحفصة ، وفي بعضها توثيق الرابطة بين الاسلام وبعض القبائل كزيجته بجويرية التي كان من نتائجها اسلام جميع قبيلتها بني المصطلق وفي بعضها تكريم الزوجات اللاتي استشهد ازواجهن في الجهاد مثل ام حبيبة وام سلمة وحفصة وسودة . وان نصف زوجاته كن من المتقدمات في السن وامهات اولاد كبار ممن ثقل الرغبة الجنسية فيهن عادة . وجوهر ومدى الردود صحيحان كل الصحة .

ونقول من سبيل المساجلة ان النبي لا يعقل ان يرى نفسه في حاجة الى تشريع خاص به مناقض للتشريع العام لو لم يكن هناك ظروف قاهرة . وكان بإمكانه ان يستغني عن المتقدمات في السن وذوات الأولاد وغير الجميلات لو كانت دواعي المسألة هي الرغبة الجنسية فحسب فلا يضطر الى تشريع خاص لنفسه . ومع ذلك فان في سورة الاحزاب آية جاءت

(١) هذا هو نص الآية (وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة او ما ملكت أيمانكم ذلك ادنى أن لا تعولوا) وتمولوا هنا بمعنى تجوروا .

(٢) الآية ٥٠

(٣) الآية ٥٢

(٤) الآية ٥٣

(٥) انظر حياة محمد لهيكل طبعة ثانية ص ٣٠٣-٣١٧ وتاريخ الاسلام السياسي حسن ابراهيم ج ١

ص ١٣٥ - ١٣٦

عقب آية إقرار النبي بالاحتفاظ بزوجاته^١ تكاد توجي بأنها تتضمن تعليماً للنبي بأن لا يتصل اتصالاً جنسياً في وقت واحد إلا بأربع من زوجاته ونحوه بأن يبدل ويغير في هذا الاتصال فيرجى، أي يؤجل مؤقتاً من يشاء ثم يعود إلى من يبتغي من عزل وأجل منهم لتقر أعين زوجاته جميعهن ولا يحزن ويرضين بما آتاهن كلهن . وقد يلهم نص الآية ان نساء النبي خفن ان يكون مصير المتقدمات في السن وذوات الأولاد الطلاق ليقف النبي شأنه مع العدد الذي حددته آية سورة النساء فيفقدن بذلك كرامة الزوجية النبوية وكرامة أمومة المؤمنين التي كرمهن الله بها في آية سورة الأحزاب هذه (النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم ٦) ولا سيما ان الآية (٥٣) قد حرمت على المسلمين التزوج بهن من بعد النبي في حين ظل التزوج بالمطلقات الاخريات مباحا . ولقد حظرت الآية (٥٢) على النبي كما قلنا ان يتزوج بزوجة جديدة حتى ولو بطريق استبدال واحدة بأخرى . وقد يكون في هذا تأكيد لما تقدم . ولقد روى المفسرون^٢ في سياق تفسير آيات الأحزاب المذكورة ان النبي اشترط على أزواجه حين اسففن من الطلاق وحزن ان تكون له الحرية في المعاشرة فوافقن على ذلك وان النبي لم يعاشر إلا أربعاً هن عائشة وحفصة وزينب وام سلمة .

وفي هذا الشرح المقتنع للمنفقين في قضية زيجات النبي التي يثيرها المستشرقون عدداً وتشرعاً فيما نعتقد .

ولقد استغل المستشرقون كذلك بعض الروايات عن جمال زينب بنت جحش ومشاهدة النبي لها في حالة اغراء وميل قلبه لها ، وانها لما علمت بذلك اخذت تعنت في سلوكها مع زوجها زيد بن حارثة ابن النبي بالتبني وتكبر عليه لترغمه على طلاقها وتيسر اسباب زواجها من النبي ، وان زيدا شعر بذلك فاضطر في النهاية الى تطليقها فسارع النبي الى التزوج بها .

وهذه الروايات لم ترد في طبقات ابن سعد ولا في سيرة ابن هشام ولا في تاريخ الطبري وهؤلاء هم اقدم من وصلت اليها كتبهم . وقد كتبوها نقلاً عن مدونات قديمة او تسجيلاً لروايات سمعوها معنونة من راو الى راو حتى عهد النبي عليه السلام وإنما وردت في كتب متأخرة^٣

(١) هذا نصها (ترجى من تشاء منهم ونؤوي اليك من تشاء ومن ابغيت من عذرت فلا جناح عليك ذلك اول ان تقر أعينهن ولا يحزن ويرضين بما آتتهن كلن والله يعلم مالي فلو بكم وكان الله عليا حلياً) .

(٢) انظر تفسير ابن كثير والطبرسي والكشاف والخازن

(٣) انظر حياة محمد لمبكل طبعة ثانية ص ٣٠٧ - ٣١٠

على ان في القرآن رداً حامياً فيه جلاء للامر ووضع له في نصابه الحق وهو أن هذا الزواج كان لا بطلان لتقليد حرمة زواج الرجل بزوجة ابنه بالتبني بعد موته عنها أو تطليقه لها . فقد أبطلت إحدى آيات سورة الاحزاب ١ تقليد كون الابن بالتبني هو كالابن من الصلب فألهم الله نبيه بأن يقوم بابطال إحدى نتائج ذلك التقليد وهو عدم حل زوجة الابن بالتبني للاب المتبني بنفسه في زينب . والروايات تذكر ٢ ان زينب وانهاها كرها زواج زينب من زيد لأنه في اصله مملوك معتق . ولعله قد انبثق في نفسها شيء من التكبر عليه واحست معنى من معاني عدم التكافؤ بينها وبينه . وشعر زيد بذلك فكان الأمر مزعجاً له ومبعثاً لشكواه وداعياً للتفكير في طلاقها فأمره النبي بالصبر والتحمل ، مع ما قام في نفسه بالهام الله من الزواج بها إذا طلقها ليبطل بنفسه هذه العادة الجاهلية الراسخة ويكون قدوة لغيره . وعاد زيد فأصر على تطليق زينب وصحت عزيمة النبي على تنفيذ إلهام الله فكان الطلاق والزواج . وكل هذا قد تضمنته آيات الأحزاب هذه (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبيناً . وإذا تقول للذي انعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله احق أن تخشاه فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكمها لكي لا يكون على المؤمنين حرج أزواج ادعيائهم ٣ إذا قضاوا منهم وطراً وكان امر الله مفعولاً . ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له سنة الله في الذين خلوا من قبل وكان امر الله قدراً مقدوراً . الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون احداً إلا الله وكفى بالله حسيباً . ما كان محمد أباً احداً من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليماً ٣٦ - ٤٠) وقد تضمنت الآيات وبخاصة جملة (كي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج ادعيائهم إذا قضاوا منهم وطراً) مفتاح الحادث . والظاهر ان العادة كانت قوية الرسوخ فلم يجزأ احد على نقضها فاقتضت حكمة الله ان يقدم الرسول على ذلك بذاته . والعتاب الرباني في الآيات مصبوب على تردد النبي في الاقدام على تنفيذ ما ألهم الله خشية انتقاد الناس وحياء منهم . وقد تضمنت توضيح الامر . فليس عليه حرج من تنفيذ ما ألهمه الله إياه . وهذه سنة الله في انبيائه اذا اختارهم لتبليغ رسالاته وجعل لهم ابطال والغاء

(١) الآيات ٤ - ٥

(٢) انظر آيات سورة الاحزاب ٣٦ - ٤٠ في تفسير ابن كثير والبغوي وغيرهما

(٣) كناية عن الابناء بالتبني حيث كانوا يدعون باسماء آبائهم .

وتعديل واثبات بما اقتضت حكمته من عادات وتقاليد . ووجب عليهم الاقدام وعدم خشية احد غيره في ذلك . ولعل مفهوم الآية الأولى يدل على ان نقض هذه العادة لم يصعب على النبي وحده بل صعب على زينب ايضا إذ كانت تعد نفسها كأنها زوجة ابنه . والناس يعدونها كذلك . فاحتوت الآيات ما احتوته من عبارات قوية بسبيل الحض على الرضاء بما امر الله ورسوله وعدم عصيانها . وزينب وزيد رضي الله عنهما كانا يعرفان بطبيعة الحال ان التقليد لا يسمح بتزوج النبي منها . وهذه نقطة هامة من شأنها ان تهدم ركنًا من اركان الرواية وما دار حولها هدمًا ساحقًا . وان تجعل الجزم سائقًا بأن زيداً انما اراد تطليقها لأسباب غير اسباب تيسير تزوج النبي بها ولسبب ما بدا من زينب من سلوك مزعج له .

وفوق ما قلناه نقرر استيفاء لمقتضيات الجدل ان اثبات الحادث في القرآن مع ما فيه من عتاب شديد اكبر برهان على انه لم يكن في سياقه شيء ما يمس كرامة النبي ونزاهته وتصرفه . وكل الامر هو ما كان من تروده في تنفيذ الهام رباني فيه إبطال تقليد جاهلي . ويظهر ان الناس لغطوا في الامر فرد عليهم القرآن في الآية (٤٠) ردًا حاسمًا . فما كان محمد ابنا احد من الناس حتى يحرم عليه نكاح مطلقة ابنه بالتبني وحتى يسبب ذلك قبلا وقالا فوق ما في اقدام النبي من رفع للحرج عن المؤمنين في ازواج ادعيائهم اذا قضوا منهم وطراً .

وفي سورة الاحزاب الآيات التالية ايضا (يا ايها النبي قل لأزواجك ان كنتم تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين امتنعن واسرحكن سراحا جميلا . وان كنتم تردن الله ورسوله والدار الآخرة فان الله اعد للمحسنات منكن اجرا عظيما ٢٨-٢٩)

وهذه الآيات جاءت بعد آيتين ذكر فيها ما كان من نصر الله للنبي والمسلمين على الذين ظاهروا المشركين من اهل الكتاب وتوريتهم لهم ارضهم وديارهم واموالهم . وهم بنو قريظة من اليهود بما شرحنا قصتهم في مبحث سابق ، حيث يمكن ان تدل الآيات (٢٨ - ٢٩) على ان معيشة النبي في بيوته كانت ضنكا على ما ابدته الروايات الكثيرة وكان نساؤه يتحملن ذلك فلما رأين ان الله قد افاء عليه اموال بني قريظة طالبنه بالتوسعة فغظم ذلك عليه وانزعج لأنه رأى ان رغبة نسائه في الاستمتاع بمباهج الدنيا وزينتها بما لا يتناسب مع مهنة العظمى وبما قد يعوقه عن حملها او التفرغ لها فأوحى الله بالآيات ليخبرهن فيها بين البقاء في عصته والرضاء بحالتهن وبين الانفصال عنه . والظرف الذي نزل فيه الآيات يسوغ القول بأن العيشة الضنك التي كان يعيشها النبي لم تكن لقة ذات اليد والعجز عن التوسعة مطلقا

بدليل انها ظلت كذلك طيلة حياته وإلى ما بعد ان امتلأ بيت مال المسلمين بالفيء والغنائم حتى لقد كان ينام على حصير فتعلم فتترك اثرها في جنباته وكان يركب على حمار عربي ليس عليه شيء .

والروايات تذكر^١ ان النبي عليه السلام اخبر نساء بما اوحى اليه به وخبرهن وطلب منهن ان يستأمرن آباءهن ، وان جميعهن اخترن صحة رسول الله والرضا بحالتهن .

ولقد جاء بعد الآيتين خمس آيات اخرى وهي (يا نساء النبي من بات منكن فاحشة مينة يضاعف لها العذاب ضعفين وكان ذلك على الله يسيراً . ومن تقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحاً نؤتها اجرها مرتين واعتدنا لها رزقاً كريماً . يا نساء النبي لستن كأحد من النساء ان اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه غرض وقلن قولا معروفا . وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الاولى واقمن الصلاة وآتين الزكاة واطعن الله ورسوله انما يريد الله ليزهد عنكم الرجز اهل البيت ويطهركم تطهيراً . واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة ان الله كان لطيفاً خبيراً ٣٠-٣٤)

والمبادر ان هذه الآيات جاءت استطرادية لتنبية نساء النبي الى مركزهن وواجباتهن ومسؤولياتهن الكبيرة بسبب ما نلتهن من شرف الزوجية النبوية . كما انما اريد بها تنبيههن الى ما يجب عليهن فهمه وادراكه من مهام سامية من شأنها ان تغنيهن وتشغلن عن متع الحياة الدنيا وزينتها .

وقد احتوت الآيات تنبيها لهن وتنوحيات لهن ، فقد جعلهن شرف الزوجية النبوية في مستوى خاص بهن بحيث يترتب على ذلك ان يكون عقاب ذنوبهن وثوابها مضاعفا لأنهن صرن قدوة للناس وعليهن واجبات اخلاقية وسلوكية وتعليمية كبيرة متصلة باهداف المهمة النبوية . وقد خصصن بالعناية الربانية في رفعة القدر والتشريف وقصد الابعاد عن الرجز والتطهير لأنهن صرن اهل بيت رسول الله ﷺ . وقد غدون مرجعا من مراجع الناس في امور الدين لأنهن ألصق الناس بمن ينزل عليه آيات الله وحكمته واكثرهم فرصة وقربا لسماعها وتلقيها وفهمها فعليه ان يذكرن كل ذلك وان يؤدبن واجباتهن ازاءه وان يقررن في بيوتهن ولا يتبرجن تبرج الجاهلية لأنهن لسن كأحد من النساء .

(١) انظر تفسير الآيات في كتب تفسير ابن كثير والطبرسي والطبري والبغوي

والآيات جليلة المدى في تنبيهها وتنويعها. ولقد احتوت كتب الحديث شيئاً كثيراً عنهن وخاصة عن اللاتي عمرن طويلاً بعد وفاة النبي في صدد سنن النبي وسيرته وما كان من تحليهن بالاخلاق النبوية ورواياتهن للسنن النبوية القولية والفعلية تبصيراً للمؤمنين في امور الدين والدنيا كأثر من آثار هذه التلقينات والواجبات التي قررتها الآيات .

ونقول استطراداً ان عبارة الآية (٣٣) لا تدع مجالاً لتردد ما في انها قد قصد بها نساء النبي اللاتي هن اهل بيته . وفي توسيع مداها الى ابعد من ذلك شيء غير يسير من التجوز كما ان في صرفها عن نساء النبي هو في منتهى التناقض والغرابة . وهذا وذلك مما يقع فيه الشيعة . ومن غرائب ما يروى في هذا الصدد ان الآية المذكورة نزلت في بيت ام سلمة زوجة النبي فقالت يا رسول الله أأنت من اهل البيت فقال انك الى خير انت من ازواج النبي قالت وفي البيت رسول الله وعلي وفاطمة والحسن والحسين^١ . ومن ذلك عن ام سلمة ايضاً (ان النبي جمع علياً وفاطمة والحسن والحسين ثم ادخلهم تحت ثوبه ثم جأر الى الله وقال هؤلاء اهل بيتي . قالت ام سلمة فقلت يا رسول الله ادخلني معهم قال انت من اهلي^٢) .

ويمكن ان يلحق بهذا الباب ومناسبته تفسير مفسري الشيعة الغريب الجملة (ونساءنا ونساءكم) في آية سورة آل عمران (فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع ابناءنا وابناءكم ونساءنا ونساءكم وانفسنا وانفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين ٦١)^٣ . وقولهم ان المقصود بذلك فاطمة وروايتهم ان النبي قد احضرها هي فقط من النساء مع علي والحسن والحسين حينما استعد لمباهلة وفد نصارى اليمن بناء على هذه الآية !

ومن ذلك ما روي عن عائشة انها رأت النبي قد جمع علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً بثوب ثم قال اللهم هؤلاء اهل بيتي وحامتي فاذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً فقالت يا رسول الله انا من اهلك قال تنحي فانك الى خير^٤ . وهناك روايات اخرى من هذا الباب فاكتفينا بما تقدم . وما زلنا نراه ونرى ما في بابه غريباً كل الغرابة لأن جملة (انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ويظهركم تطهيراً) وقد وردت في سياق الخطاب لنساء

(٢٠١) انظر تفسير الآيات في تفسير ابن كثير والطبرسي والمفسر الثاني شعبي معتدل والمفسر الاول عدت

(٢) انظر المنتقى من مناهج السنة من ٣٧ ؛

(٣) انظر المصادر السابقة

النبي وحسب وامتمر ذلك السياق بعد الآية التي وردت فيها الجملة . على ان الطبرسي يروي قولاً عن عكرمة وهو من كبار التابعين او تابعيهم ومن علماء القرآن ومفسريه انه اريد بالجملة ازواج النبي لأن اول الآية متوجه اليهن . وهذا هو الحق والصواب فيما نعتقد وما عداه يبعث الشك في انسه من آثار التشاد الحزبي بين السنة والشيعة بعد عهد الخلفاء الراشدين .

وفي سورة النور آيات^١ يجمع المفسرون على انها نزلت في مناسبة حديث الافك الذي قذفت به ام المؤمنين عائشة حينما استصحبها رسول الله معه الى غزوة المريسيع . وكان من قصة ذلك^٢ ان الجيش في عودته نزل منزلاً فضاخ لأم المؤمنين فيه عقد فذهبت لتبحث عنه فلم تجده . وكان هودجها امام خيمتها مغطى فلما نادى المنادي بالارتحال جاء الموكل به فبعدها ووضعها على الجمل وسار به . ولم تكن قد رجعت بعد . فلما رجعت وجدت الجيش قد رحل . فتلفت يجلبها وقعدت اعتقاداً منها انهم لم يلبثوا ان يفتقدوها . وكانت احد المجاهدين واسمه صفوان قد تخلف فرأى سوادها فأقبل عليها وعرفها فأركبها بعيره . واخذ بالزمام حتى لحق بالمسلمين . فاستغل بعض المنافقين الحادث فأشاعوا عنها الفاحشة وهي ما عرف في تاريخ السيرة باسم (حديث الافك) واندمج في ذلك بعض المخلصين . وكانت أزمة حادة مرت برسول الله وام المؤمنين والمسلمين عامة . فالتاس يفيضون في الحديث والتي حائر يهتف بالتاس (لا تؤذوني في اهلي . والله ما علمت عنهم الا خيراً . وما علمت عن صفوان الا خيراً) كل هذا وعائشة لم تعلم . وقد مرضت في هذه الاثناء فرأت من النبي شيئاً من الجفاء لم تعهده فاستأذنت بالانتقال الى بيت اهلها فأذن لها . وهناك دوت فعظم الأمر عليها وكلمها النبي وطلب منها ان تقول شيئاً وان تستغفر الله وتتوب ان كانت قد اقترفت ذنباً فبكت ثم قالت والله لا اتوب الى الله بما ذكرت ابداً . والله اني لأعلم لئن اقررت بما يقول الناس لأقولن ما لم يكن . ولئن انكرته لا يصدقوني ولكني اقول ما قال ابو يوسف (صبر جميل والله المستعان على ما تصفون) ولم يمض إلا قليل حتى اوحى الله للنبي بآيات سورة النور (١١-٢٦) التي احتوت دلالة على ما كان للحادث وظروفه من آثار مزعجة ومؤذية ومستوجبة للتنديد . لا سيما ما كان من غفلة المسلمين عما فيه افك ظاهر وكيد بين كان يجب ان يدركوا بداهة حينما سمعوه . لأن الذين قيل في حقهم ارفع واظهر من

(١) الآيات ١١-٢٦

(٢) الشرح مقتبس من ابن هشام ج ٣ ص ٣٤١ - ٣٥٥

ان يتورطوا فيه . وما كان في سلوكهم من بواغث الالم النفساني في النبي وعائشة وذويها .
وفيهما كذلك نقد وعتب على من يتصل الحادث بهم شخصيا بسبب سكونهم او حيرتهم او
اختلاج نفوسهم باحتمال صحته . اذ كان يجب ان يدركوا لأول وهلة ما فيه من كذب وهتان
وان يعلنوا هذا في الحال . والى هذا الذي تضمنته الآيات فانها تضمنت وعيدا شديدا لمن
يجب ان تشيع الفاحشة في المسلمين وتقريرا باستحقاق الذين اشتركوا في حديث الافك
بصراحة وتولوا كبره لعذاب العظيم . وقد امر النبي عليه السلام بجلد من ثبت عليه
القذف فجلدوا .

ومن الغريب ان لا تكون روح الآيات وما فيها من قوة وحجة مقنعة لكل ذي عقل
ببرائة عائشة وتنزهها وان يكابر احد في ذلك . حيث ظل الحديث يساق والروايات تذكر
بشيء من التحويل والتضخيم بعد النبي عليه السلام . وحيث استغل ذلك بعض ذوي الهوى
من الفرق الاسلامية في صدر الاسلام ثم من اعداء الاسلام كما استغله بعض المنافقين ومرضى
القلوب وقت حدوثه .

ونعتقد ان ذلك كان من نتائج الفتنة الموجهة التي نجمت عن استشهاد عثمان بن عفان
رضي الله عنه . اذ قالت الشيعة ان عائشة خرجت على علي بن ابي طالب رضي الله عنها وكانت
الواقعة المعروفة في تاريخ الاسلام بواقعة الجمل والتي سوف يأتي حديثها بعد لأنها كانت
حاقدة عليه بسبب ما روي من انه وقف من الحادث موقفا غير ملائم^١ . فكان ذلك من
اسباب حقد الشيعة على عائشة وترديدهم الروايات وتضخيمها بل وقذف بعضهم فيها متعمدين
إغفال ما في الآيات من تنديد ووعيد للذين جاؤوا بالافك وافاضوا في حديثه بغير علم
وبينة وتبرئة وتنزيه لأم المؤمنين .

وقد تكون رواية وقوف علي رضي الله عنه موقفا غير ملائم موضوعة في اصلها لتبرير
دعوى حقد عائشة عليه لاسباب شخصية . وقد وضعوا احاديث عديدة منها حديث الخوَاب
الذي جاء فيه ان النبي قال لنسائه (ايكن ذات الجمل الاديب تخرج على الناس فتنبحها
كلاب الخوَاب)^٢

وتحريض من جاء في اسباب خروج عائشة والحوادث التي اعقبته او نجمت عنه يثير الشك

(١) انظر ابن هشام ج ٣ ص ٣٤٦

(٢) انظر التواصم من التواصم لابن العربي طبعة ثانية ج ٤٧-٤٨

في صحة دعوى كونها خرجت لقتال علي حقداً عليه ويثير الشك كذلك في دعوى كونها خرجت للقتال بل وكذب الدعويين كما يثبت ان القتال وقع بغير اذنها وبتحريض من اناس مشبهين^١.

وفي سورة الاحزاب هذه الآيات (يا ايها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي الا ان يؤذن لكم الى طعام غير ناظرين اناه فإذا دعيتهم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين بالحديث ان ذلكم كان يؤذي النبي فيستحي منكم والله لا يستحي من الحق واذا سالتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب ذلك اطهر لقلوبكم وقلوبهن وما كان لكم ان تؤذوا رسول الله ولا ان تنكحوا ازواجه من بعده ابداً ان ذلكم كان عند الله عظيماً ٥٣) و (لا جناح عليهن في آباطهن ولا ابناهن ولا اخواتهن ولا اخوانهن ولا ابناؤ اخواتهن ولا نسائهن ولا ما ملكت ايماهن واتقين الله ان الله كان على كل شيء شهيداً ٥٥)

ويستدل منها على ان المسلمين كانوا يدخلون بيوت النبي باذن وبدون اذن وبدعوة وبدون دعوة وينتظرون نضج الطعام فيها اذا كانوا مدعويين الى طعام ويقضون الوقت في السمر والحديث وان نساء النبي كن يحضرن مجالسهم . وكان هذا يؤذي النبي ويضايقه ولكنه كان يستحي ان يجيبهم بالمنع . والراجح ان هذا كان شأن المسلمين عامة فيما بينهم ايضاً جرياً على ما لوف العرب في ذلك العصر وقبله . مع احتمال انهم كانوا يكثر من ذلك بالنسبة لبيوت النبي لأنه صار هاديهم ومرشدهم وزعيمهم ومعلمهم وقاضيهم ومفتيهم وصارت بيوته مثابتهم لأنها بيوت الامة عامة . ولعل النبي كان في الوقت نفسه يكثر من دعوة المسلمين الى الطعام في بيته . وقد استفاضت الروايات بأنه كان كثيراً ما يدعو الذين يعتكفون في مسجده من فقراء المسلمين وغربائهم ووفود العرب الى الطعام او يخرج اليهم طعاماً من بيوته .

والذي تلهه روح الآيات ونصوصها ان ما كان يؤذي النبي هو اطالة المكث في بيوته والدخول اليها بلا اذن وفي غير الاوقات المناسبة^٢ لا سيما ان البيوت لم تكن فيما نرجح

(١) انظر نفس المصدر ص ١٤٨-١٥٥ وانظر المتنقي من منهاج الاعتدال وهو مختصر منهاج السنة للامام ابن تيمية ص ٢٢٢ وبعدها

(٢) روي ان الآيات نزلت في الليلة التي عقد فيها نكاحه على زينب حيث اولم للمسلمين فأكلوا واستمروا مستأنسين بالحديث فخرج ونجول ثم عاد فوجد على حالهم واستمروا عليه فخرج ثانية ونجول ثم عاد فوجد بعضهم قد انصرف واستمر الباقي فخرج لثالث مرة ونجول فشعروا بضيقه فانصرفوا (انظر تفسيرها في كتب تفسير الطبري وابن كثير والبغوي وغيرهم

تحتوي على مراقق تساعد زوجات النبي على التمتع بمراتبهم. والآيات هي بسبيل تنظيم الامر مع استثناء محارم زوجات النبي الاذنين وملك اليمين والنساء من حظر الدخول عليهن بدون اذن . وليس في الآيات نص صريح يحظر دخول المسلمين الى بيوت النبي بعد الاستئذان والاذن والحاجة غير تناول الطعام . وليس في الآيات كذلك نص صريح يحظر اجتماع المسلمين من غير المحارم بنساء النبي على الطعام او غيره وفي بيوته بعد الاستئذان والاذن والدعوة او في خارجها ولو لحاجة غير تناول الطعام . وهكذا يبدو في الآيات صورة لما كان عليه الامر وما صار اليه من حياة النبي البيئية وصلة المسلمين بها .

وفي سورة التحريم الآيات التالية (يا ايها النبي لم تحرم ما احل الله لك تبغني مرضاة ازواجك والله غفور رحيم . قد فرض الله لكم تحلة ايمانكم والله مولاكم وهو العليم الحكيم واذا اسر النبي الى بعض ازواجه حديثاً فلما نبات به واظهره الله عليه عرف بعضه واعرض عن بعض فلما نباتها به قالت من أنبأك هذا قال نبأني العليم الخبير . ان تتوبا الى الله فقد صدقت قلوبكما وان تظاهرا عليه فان الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير . عسى ربه ان يطلقكن ان يبدهن ازواجهن خيراً مما كنتم مؤمنات فانتات عابدات ساجدات ثبات وابكارا ١ - ٥)

وقد روى المفسرون بمناسبة نزولها روايات فيها صور عن حالة النبي البيئية ومكايده نساؤه لبعضهن ومراجعات بعضهن له . من ذلك ان النبي كان يطيل المكث عند زينب ويشرب عسلاً او انه اطال المكث عند حفصة وشرب عسلاً فتواطأت عائشة مع حفصة على زينب او عائشة وسودة بنت زمعة واتفقتا على ان تقولوا للنبي ان راحته رائحة مغاير . وهو صفع ذو رائحة كريهة تجنيه النحل من شجر العرطف ففعلتا فقال بل سقتي زينب او حفصة عسلاً فقالتا لعل النحل جنى صفع المغاير فقال لهما او لاحداهما لن اعود الى شربه عندها ثم وصاها بكنتم ما قال ولكنهم لم تكتبه فأخبرت به زميلتها وفشا الحديث فغضب رسول الله واعتزل جميع نساؤه وحلف ان لا يقربهن واخذ ينام في مكان آخر في المسجد حتى شاع ان النبي قد طلق نساؤه واستولى الحزن والبكاء على نساؤه .

وامتأذن عمر على النبي في مكان عزله الذي سمته الرواية المشربة والح بالاستئذان حتى دخل عليه وهو متكئ على عصير . ثم اثرت في جنبه فقال له يا رسول الله كنا معشر قريش قوماً تغلب النساء فلما قدمنا المدينة وجدنا قوما تغلبهم نساؤهم فتعلم نساؤنا منهم وقد

راجعتني امرأتني فأنكرت عليها ان تراجعني فقال ما تنكر ان اراجعك فوالله ان ازواج النبي ليراجعنه وتهجره احداهن اليوم الى الليل فقلت قد خاب من فعل ذلك منهن فتبسم رسول الله فقال له ما يشق عليك من نسائك . فإن كنت طلقتهن فإن الله معك وملائكته وجبريل وميكال وأنا وأبو بكر والمؤمنون فهل طلقتهن قال لا فقام على باب المسجد ونادى بأعلى صوته ان النبي لم يطلق نساءه . ثم نزلت الآيات فكفر النبي عن يمينه وعاد الصلح والوئام بينه وبين زوجاته ^١ .

وننبه الى ان تحريم النبي ﷺ ما أحل الله له - وهو ما جاء في أولى آيات سورة التحريم - ليس بمعنى جعل الحلال حراما وإنما بمعنى حرمان نفسه بما هو حل له . وليس هذا غريباً في الحياة البشرية .

٢ - اولاد النبي ﷺ

رزق النبي أولاداً ذكورا وإناثا من ام المؤمنين خديجة وهم القاسم والطيب والظاهر وزينب ورقية وام كلثوم وفاطمة ^٢ . ورزق من مارية صبيها هو ابراهيم . وقد مات القاسم طفلا قبل البعثة ومات اخواه الطيب والظاهر طفلين أيضاً بعد البعثة بقليل فنعته احد زعماء قريش العاص بن وائل السهبي عن ما رواه السعدي ^٣ بالأبتر اي المقطوع النسل لأنهم كانوا يعتبرون الذكور فقط نسلا للرجل فحز ذلك في نفسه فأنزل الله سورة الكوثر تهدئة لحزنه وبشارة له وتديدا بناعته . وتزوجت زينب قبل البعثة بأبي العاص بن الربيع ^٤ . وظلت في عصمته رغم كفره طيلة العهد المكي لأنه لم يكن قد نزل تحريم المسلمات على الكفار او العكس . وقد اشترك في وقعة بدر مع الكفار ووقع اسيرا في ايدي المسلمين فبعثت زينب بقلادتها لفدائه فأطلقه النبي بدون فداء بشرط ان يخلي سبيل زينب اليه ففعل ^٥ . وقبيل الفتح خرج في تجارة للشام فاستولت سرية للمسلمين على القافلة فجاء الربيع الى المدينة ودخل سراً على زينب واستجار بها من اجل ماله فهتفت : لقد اجرت ابا العاص فقال النبي اجرنا من اجرت ثم قال لها اكرمي مثواه ولا يخلصن اليك فانك لا تحلين له . لأنه كان نزل قرآن في ذلك . واستشفع النبي المسلمين فيه قائلاً ان تحسنوا وتردوا عليه ماله فانا نجب

(١) انظر تفسير الآيات في كتب تفسير ابن كثير والبغوي والطبرسي والحازن

(٢) مروج الذهب للسعدي ج ٢ ص ١٨٥ وابن سعد ج ١ ص ١١٥

(٣) مروج الذهب ج ٢ ص ١٦٦ (٤) ١٨٥

(٥) ابن هشام ج ٢ ص ٢٩٦-٢٩٧

ذلك وان ابنتهم فهو فيء الله الذي افاء عليكم وانتم احق به . فقالوا يا رسول الله بل نرده اليه فردوه فعاد به الى مكة ورد لكل ذي حق حقه ثم اعلن اسلامه وقال ما منعني من الاسلام عند النبي الا تخوفي ان تظنوا انما اردت ان آكل اموالكم وكان معروفاً بالامانة والشرف ثم هاجر الى المدينة مسلماً^١ . وقد اثنى النبي عليه في سياق حادث اعتزام علي بن ابي طالب التزوج من فاطمة على ما سوف نشير اليه بعد فقال عنه (حدثني فصدقني . ووعدني فوفى لي)^٢ . وقد ولدت زينب له بنتاً اسمها امامة كان النبي يدلها كثيراً . وقد تزوجها علي ابن ابي طالب بعد موت زوجته - خالتها - فاطمة . ولا تذكر الروايات نسلاً لها^٣ .

وتزوجت او خطبت على اختلاف الروايات رقية وام كلثوم عتبة وعتيبة ابني ابي لهب قبل البعثة^٤ فطلقهما بتأثير ابيه وامه اللذين وقفا موقفا مناوئاً وعدائياً من النبي ودعوته على ما مئرجحناه في الفصل الاول . وقد تزوج عثمان بن عفان رقية فماتت فتزوج اختها ام كلثوم^٥ . وبذلك عرف بذى النورين . ولم تذكر الروايات خلفاً لهما . وتزوجت فاطمة في السنة الاولى او الثانية علياً بن ابي طالب فولدت له في السنة الثانية او الثالثة الحسن ثم الحسين ولقد روي ان علياً اراد ان يتزوج على فاطمة وجاء بنو المغيرة القرشيون الى النبي فاستأذنه في ذلك فأبى ان يأذن وقام في الناس خطيباً فقال (ان بني المغيرة استأذنوني ان يزوجوا بنتهم علياً بن أبي طالب . واني لا آذن . لا آذن إلا أن يريد ابن ابي طالب ان يطلق ابنتي ويتزوج ابنتهم . انما فاطمة بضعة مني يربيني ما يربيهها ويؤذيها ما يؤذيها فكف علي عمن مشروعه^٦ .

ولقد ماتت بنات النبي في حياته إلا فاطمة التي توفيت بعده بستة أشهر . وقد ولد ابراهيم في السنة الثامنة بعد الهجرة ففرح فرحاً عظيماً وولع به ولعاً شديداً ولكنه لم يلبث ان مات طفلاً فكان حزنه عليه شديداً وقال قوله الشهيرة (ان العين تدمع والقلب يحزن ولا نقول ان شاء الله إلا خيراً وإنا عليك يا ابراهيم لمحزونون)^٧ وراجع بعض اصحابه فقال (انما هذا

(١) ابن هشام ج ٢ ص ٣٠٢-٣٠٤

(٢) المسمى للذهبي ص ٢٠١

(٣) مروج الذهب ج ٢ ص ١٨٥ والصنعة المذكورة من المتفق ايضاً

(٤) انظر مروج الذهب للسعودي ج ٢ ص ١٨٥

(٥) نفس المصدر

(٦) المتفق من منهاج السنة ص ٢٠١

(٧) ابن سعد ج ١ ص ١١٦-١٢٣

رحمة ومن لا يرحم . انما نهيت عن النياحة وان يندب الميت بما ليس فيه وان تخمش الوجوه
وتشق الجيوب عليه)^١ ولقد روي ان الشمس كسفت يوم توفي فقال رسول الله (إن
الشمس والقمر آيتان من آيات الله عز وجل ولا ينكسفان لموت احد فإذا رأيتوهما فعليكم
بالدعاء حتى ينكشفا)^٢

ولقد تبنى النبي زيد بن حارثة بن شرجيل بن كعب . وكان يملوكاً لأُم المؤمنين خديجة
فاستوهم منها وأعتقه وتبناه^٣ . ومن المحتمل ان يكون فعلاً ذلك بعد موت ابنه القاسم او
بعد موت ابنه الطيب والظاهر بعد القاسم في أوائل البعثة . وقد تضمنت إحدى آيات
الاحزاب إشارة إليه وذكرته باسمه ونعتته بأنه دعي النبي أي الذي يدعى إليه . وقد شرحنا
ما كان من زواج النبي بزَيْنَب بعد تطليق زيد إياها . ولقد ظل النبي يحبه ويعتبره كابنه او
من اخص اخصائه بعد ابطال تقليد التبني ونتائجه . وقد أرسله مرات عديدة وأكثر من
غيره على رأس سراياه . ولما استشهد في مؤتة هياً جيشاً لأخذ ثأره وعين ابنه اسامة قائداً له
وبلغة تقول الناس عن قيادته وهو ما يزال شاباً حدثاً وكان في جيشه جلة من اصحاب رسول
الله الأولين منهم أبو بكر وعمر فخطب المسلمين وكان ذلك أثناء مرضه فقال لهم لئن قُلتُم في
امارته لقد قُلتُم في اماره ابيه . وانه خلِّق بالامارة وان اباه كان خليقاً بها^٤ .

ولقد روى البخاري ومسلم والترمذي في مساندهم نصاً آخر مروياً عن ابن عمر ان
بعض الناس لما طعنوا في اماره اسامة قال النبي عليه السلام ان تطعنوا في امارته فقد كنتم
تطعنون في اماره ابيه من قبل وأيم الله ان كان خليقاً للامارة وان كان لمن احب الناس إلي
وان هذا لمن احب الناس الي بعده^٥ .

ولقد روى الترمذي ان عمر بن الخطاب فرض لأسامة بن زيد في العطاء ثلاثة آلاف
 وخمسمئة وفرض لابنه عبد الله ثلاثة آلاف فقال ابن عمر لأبيه لم فضلت أسامة علي فوالله ما
سبقي الي مشهد فقال لأن زيدا كان احب الي رسول الله من ابيك وكان اسامة احب إلي رسول

(٢١) ابن سعد ج ١ ص ١١٦—١٢٣

(٣) ابن هشام ج ١ ص ٢٦٥

(٣) ابن هشام ج ٤ ص ٣٢٨

(٤) التاج الجامع لاصول احاديث الرسول ج ٣ ص ٣٣٠

الله منك فأثرت حب رسول الله على حيي^١ . وروى الترمذي أيضا عن اسامة انه كان جالسا عند النبي فاستأذن عليه العباس وعلي فلما دخلا قالا يا رسول الله جئنا نسألك أي اهلك أحب اليك قال فاطمة بنت محمد . قالا ما جئنا نسألك عن اهلك . قال أحب اعلي الي من قد انعم الله عليه وانعمت عليه اسامة بن زيد قالا ثم من قال علي بن ابي طالب . قال العباس جعلت عمك آخرهم يا رسول الله قال لأن علياً قد سبقك بالهجرة^٢ .

٣ - بيوت النبي ﷺ

حينما اشترى النبي المربد وأحاطه بسور خصص بجانبه منه لسكنه وبني فيه بيتا لزمعة التي كان تزوجها في اواخر عهده في مكة ثم بيتا لعائشة التي تزوجها عقب هجرته . وصار كلما تزوج زوجة او تسرى بأمة يبني لها بيتا ملاصقا للبيوت السابقة . وكانت هذه البيوت من اللبن مسقوفة بالجريد وعلي ابوابها مسوح الشعر^٣ . وقد اطلق القرآن عليها اسم (الحجرات) علي ما جاء في آية سورة الحجرات وهي (ان الذين ينادونك من وراء الحجرات اكثرهم لا يعقلون)^٤ وقد سميت كذلك ببيوت النبي في آية سورة الاحزاب هذه (يا ايها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا ان يؤذن لكم) .

٤ - صفة رسول الله ﷺ

لقد روى ابن سعد روايات كثيرة معزوة لبعض اصحاب رسول الله ومنهم من كان من اخصائه مثل علي بن أبي طالب ومنهم من كان من الملازمين له مثل ابي هريرة وانس بن مالك وغيرهم فيها وصف لهيئة رسول الله^٥ . منها ما فيه وصف شامل ومنها ما فيه بعض الاوصاف . وكلها او جلها متفقة الخطوط بحيث يمكن ان يقال انها اوصاف رسول الله الحقيقية . وهذا وصف شامل روي عن علي بن ابي طالب (كان رسول الله ابيض اللون مشربا حمرة . ادعج^٥ العين ، سبط الشعر ، كث اللحية ، سهل الخد ، ذا وفرة^٦ ، دقيق المسربة^٧ . كأن عنقه ابريق فضة . له شعر من لبتة إلى سترته تجري كالقضيب ، ليس في

(٢٠١) انظر التاج الجامع لاصول احاديث الرسول ج ٣ ص ٣٢١ وجلة من انعم الله عليه وانعمت عليه في اصلها زيذاً والد اسامة على ما جاء في آية سورة الاحزاب ٣٧

(٣) ابن سعد ج ٢ ص ٣٣

(٤) ج ٢ ص ١٧١ - ١٨٧ وكل ما في هذه النبهة مقتبس من هذه الصحف

(٥) شديد مواد العين وياضها (٦) وفرة شعر الرأس اذا وصل الى شعبة الاذن

(٧) ما دق من شعر الصدر مائلا الى الجوف

بطنه ولا صدره شعر غيره. شثن الكف والقدم^١. إذا مشى كأنما ينحدر من صيب^٢، وإذا مشى كأنما ينقلع من صخر^٣. وإذا التفت التفت جميعاً. كان عرقه في وجهه كاللؤلؤ. ولريح عرقه أطيب من المسك الأزفر. ليس بالقصير ولا بالطويل ولا بالعاجز ولا اللثيم. لم أر قبله ولا بعده مثله.

وهذا وصف شامل عن هند بن أبي هالة التميمي من أصحاب رسول الله وكانت وصافاً (كان رسول الله فخمًا مفخمًا. يتلأأ وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر. أطول من المربع. وأقصر من المشذب^٤. عظيم الهامة. ورجل الشعر انفرقت عقيصته فرق وإلا فلا. يجاور شعره شحمة أذنيه إذا هو وفرة. أزهر اللون. واسع الجبين. أزج الحواجب سوابغ من غير قرن، بينها عرق يديره الغضب. اقنى العينين^٥. له نور تلوّه يحسبه من لم يتأمله أشم. كث اللحية. ضليع الفم. مقلج الأسنان. دقيق المسربة. كأن عنقه جيد دمية^٦. في صفاء الفضة. معتدل الخلق. بادن متماسك. سواء البطن والصدر. عريض الصدر. بعيد ما بين المنكبين. ضخيم الكراديس^٧. موصول ما بين اللبة^٨ والسرة بشعر يجري كالخط. عاري الثديين والبطن مما سوى ذلك. أشعر الذراعين والمنكبين وأعلى الصدر. طويل الزندين. رحب الراحة. سبط القصب. شثن الكفين والقدمين. سائل الأطراف. خصان الأخصين مسيح القدمين^٩ ينبو عنها الماء. إذا زال زال قللاً^{١٠}. يخطو تكفوًا ويمشي هونًا. ذريع المشية. إذا مشى كأنما ينحط من صيب. وإذا التفت التفت جميعاً. خافض الطرف. نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء. يعني جل نظره الملاحظة. يسبق أصحابه. يدر من لقي بالسلام. وكان متواصلًا للأحزان. دائم الفكرة. ليست له راحة. لا يتكلم في غير حاجة. طويل السكت. يفتتح الكلام ويختمه بأشداقه. ويتكلم بمجوامع الكلام. فضل لا فضول ولا تقصير. دمثًا ليس بالجافي ولا المهين. يعظم النعمة وإن دقت لا يذم منها شيئًا. لا يذم ذواقًا ولا يدحه. لا تغضبه الدنيا وما كان لها فإذا توطى الحق لم يعرفه أحد. ولم يقم لغضبه شيء حتى ينتصر له. لا يغضب لنفسه

(١) غليظها (٢) المكان المرتفع المنحدر

(٣) كناية عن قوة المشي كأنه يرفع رجله من الأرض رفعًا قويًا.

(٤) طويل الجسم مع نحافة

(٥) طويل الأنف مع رقة الأرتبة وحذب في وسطه

(٦) الصورة البالغة في صنعها وتحسينها

(٧) عظام المرافق والركب أو رؤوس العظام (٨) المنعر

(٩) مساوان (١٠) أي كان يثبت في مشيته

ولا يتنصر لها . إذا اشار اشار بكفه كلها وإذا تعجب قلبها . وإذا تحدث اتصل بها . يضرب براحته اليمنى باطن ابهامه اليسرى . وإذا غضب اعرض واساح . وإذا فرح غص طرفه جل وضعه التبرسم . ويفترغن مثل حب الغمام .

٥ - وما روي عن مجلسه انه كان لا يجلس ولا يقوم إلا على ذكر ولا يوطن الاماكن وينهى عن ايطانها وإذا انتهى الى قوم جلس حيث انتهى به المجلس ، يعطي كل جلسائه بنصيبه . لا يحسب جلسيه ان احداً اكرم عليه منه . من جالسه او قاومه في حاجة صابره حتى يكون هو المنصرف . ومن سأله حاجة لم يرده إلا بها او بميسور القول . مجلسه مجلس علم وحياء وصبر وامانة . لا ترفع فيه الأصوات ولا تؤبن^١ فيه الحرم ولا تنشى فلتاته^٢ . وكان دائم البشر . سهل الخلق . لين الجانب . ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب ولا فعاش ولا عياب . يتغافل عما لا يشتهي ، ولا يدنس منه ولا يجنب فيه . لا يذم احداً ولا يغيره . ولا يطلب عورته ولا يتكلم إلا فيما رجا ثوابه . إذا تكلم اطرق جلساؤه كأنما على رؤوسهم الطير .

٦ - ولقد تعددت الروايات عن علامة بين كتفيه سميت بخاتم النبوة . وقد وصفها جابر ابن سمرة من اصحاب رسول الله قال رأيت خاتمه عند كتفيه مثل بيضة الحمامة تشبه جسده . وقد روي حديث عن صحابي اسمه ابو رمثة ان النبي عليه السلام قال له ادن مني امسح ظهري ، فدنوت فمسحت ظهره ثم وضعت اصابعي على الخاتم ففمزنتها فقال له السامعون وما الخاتم قال شعر يجتمع عند كتفيه .

وروي عن صحابي اسمه عاصم قال اتيت رسول الله وهو جالس في اصحابه فدبرت من خلفه فعرف الذي اريدته فألقى الرداء عن ظهره فنظرت الى الخاتم على بعض الكتف مثل الجمع^٣ حوله خيلان^٤ كأنها النأليل^٥ .

(١) اي لا تذكر في مجلسه عورات الناس

(٢) يخلو مجلسه من فلتات اللسان

(٣) جمع الكف مع الاصابع

(٤) جمع خال وهو الشامه

(٥) جمع تؤلول وهي الحبة التي تظهر في الجلد كالحمصة فما دونها

وروي عن ابي رثة ايضاً انه انطلق مع ابيه الى رسول الله فنظر ابي الى مثل السلعة بين كتفيه فقال يا رسول الله اني كأطرب الرجال الا اعالجها لك . فقال : (لا . طيبها الذي خلقها) .

٧ - ويستفاد من الروايات التي رواها ابن سعد ان شعر رأس رسول الله كان يضرب منكيه او الى شعبة اذنيه ليس بالسبط ولا بالجعد وكان يصفه احياناً اربع خفائر او غداثر وكان كثير شعر اللحية وانه لم يشب من شعره الا قليل لم يكد يتجاوز العشرين او الثلاثين شعرة . وكان يجضب بالحناء حيناً والكتم حيناً . وانه كان يجفي شاربته ١ .

٨ - وانه اخذ بسمن قليلا في اواخر حياته .

٩ - وكان يحب الابيض من الثياب . ويقول انها اطيب واظهر . وكان يلبس قميصاً قصير الطول قصير الكمين من فوقه ثوب واحياناً من فوق الثوب بردة او حلة او جبة او شملة فضفاضة بلون احمر او اخضر وكان احياناً يلبس بردين معاً . وكان له برد احمر يلبسه في ايام الجمع والاعياد . وكثيراً ما كان يتعمم بعمة سوداء . وقد تعمم بعمة معللة ايضاً وكانت ثيابه من القطن واحياناً كان يلبس ثياباً من الصوف .

وقد روي انه اهدي اليه قباء من حرير فلبسه ثم صلى فيه ثم انصرف فنزعه نزاعاً شديداً كالكاره له ثم قال لا ينبغي هذا للمتقين .

وقد روي انه اهدي اليه خميصة شامية فشهد فيها اسلاة فلما انصرف قال ردوا هذه الخميصة على ابي جهم - وهو الذي اهداها له - فاني نظرت الى علمها في الصلاة فكاد يفتني . وكان يصنع ثيابه وعمته بالزعفران والورس . وكان يحب الطيب كثيراً ٢ .

١٠ - وكان ينتعل . وقد لبس خفين ساذجين اهداهما اليه صاحب الجبشة ومسح عليها ٣ .

١١ - وكان يكثر من استعمال السواك ليلاً ونهاراً وحينما يستيقظ وقبل ان يتوضأ ٤ .

١٢ - وكان له مشط من عاج ومرآة ينظر فيها الى وجهه . وكان يستعمل الاغمد

(١) ج ٢ ص ١٩٠-٢١١ و٢٠٠

(٢) ابن سعد ج ٢ ص ٢١٢-٢٢١

(٣) ابن سعد ج ٣ ص ١٥ (٤) ١٦

كحلا ويمدحه وكان له مكحلة وكان يكثر من دهن رأسه ١ .
١٣ - وكان عنده عدة أسياف أشهرها المسمى بذي الفقار . وكان له سيف قبيحته وحلقته من فضة ٢ .

١٤ - وكان له درعان واحدة يقال لها السعدية وأخرى يقال لها فضة أو الفضول . ولها حلقات من فضة وهما يانبتان رقيقتان ٣ .

١٥ - وكان له ترس فيه تمثال . وكان له أرماع وثلاثة قسي واحدة اسمها الروحاء وثانية البيضاء وثالثة الصفراء ٤ .

١٦ - وكانت له فرس اسمها الساكب غراء محجلة طلقة اليمين وأخرى اسمها سيجة وثلثة اسمها لزاز أهداها له المقوقس ٥ .

١٧ - وكان له بغلة شهباء اسمها دلدل أهداها له المقوقس وحمار اسمه عفير أو يعفور هدية من المقوقس كذلك ٦ .

١٨ - وكان له ثلاث هجن واحدة اسمها القصواء وثانية الجدعاء وثالثة العضاء ٧ .

١٩ - وكان ينام على ادم محشوليفاً أو عباءة مثنية أو حصير بدون فرش . وعلى الأرض حيناً وعلى سرير من سعف النخل حيناً . وقد رآه عمر بن الخطاب مرة وأثر الحصير في جنبه فبكى فقال له مالي وللدنيا يا عمر . ولو أشاء أن تسير الجبال ذهباً لسارت ولو أن الدنيا تعدل عند الله جناح ذباب ما أعطى كافراً منها شيئاً . ودخلت انصارية على عائشة فوجدت فراش النبي عباءة مثنية فذهبت فبعثت بفراش حشوه صوفاً فأمر رسول الله عائشة برده إلى صاحبته وقال لأحاجة لي فيه ٨ .

٢٠ - واتخذ خاتماً من ذهب أولاً وجعل فيه في بطن كفه فصنع الناس خواتيم من ذهب فجلس على المنبر يوماً فمزعه وقال إني كنت البس هذا الخاتم واجعل فيه من باطن كفي والله لا البسه أبداً وبذره فبذ الناس خواتيمهم . وقيل له لما أراد أن يكتب إلى قيصر أنهم لا يقرأون الكتاب إلا إذا كان مختوماً فاتخذ خاتماً من فضة لو نقش عليه (محمد رسول الله) وقال للناس قد صنعت خاتماً فلا ينقش أحد على نقشه . ولما مات استعمله أبو بكر ثم استعمله عمر من بعده ثم عثمان . وسقط من يد عثمان في بئر فاتخذ خاتماً آخر نقش عليه نفس النقش ٩ .

(١) ١٨-١٧ (٢) ١٩-٢٠ (٣) ٢٠-٢١ (٤) ٢٢ (٥) ٢٣-٢٤ (٦) ٢٤ (٧) ٢٦

(٨) ابن سعد ج ٢ ص ٢٢٦-٢٣٠ (٩) ابن سعد ج ٣ ص ٣-١١ والبلاذري ص ٤٦٧

٢١ - وقد عرف من اسماء الذين كتبوا الوحي والعهود والرسائل للنبي ﷺ علي بن ابي طالب وعثمان بن عفان وعمر بن العاص ومعاوية بن ابي سفيان وشرحبيل بن حسنة وعبد الله بن سعد بن ابي سرح والمغيرة بن شعبة ومعاذ بن جبل وزيد بن ثابت وحنظلة بن الربيع وابي بن كعب وجهيم بن الصلت والحسين النعماني .

٢٢ - وكان يعجبه الحلو والعسل والدباء (القرع) وكان احب الطعام اليه الثريد من الخبز والثريد من التمر . وكان يجمع بين الرطب والطبيخ . وقاما كان ينال ما يحبه ويعجبه الا ان يهدي اليه . وكان اكثر طعامه وطعام اهله اللبن يحلب لهم من لقاح من الابل ومنايح من الغنم خاصة به وكان خبزه الشعير . ولقد اهدي اليه صحيفة من نقي اي من دقيق ابيض فقال ما هذا الطعام ما رأيت . ووجه اليه بسويق لوز فقال اخروه عني هذا شراب المترفين . ولقد روي عن عائشة ام المؤمنين انه كان يأتي علي رسول الله اربعة اشهر لا يشبع بها من خبز بر بل روي عنها قولها ما شبع آل محمد غداء وعشاء من خبز الشعير ثلاثة ايام متتابعات حتى لحق بالله . وكان يمر بآل رسول الله هلال ثم هلال ثم هلال لا يوقد في بيوته نار لا لخبز ولا لطبيخ ويعيشون على التمر والماء ولقد سئلت حفصة ام المؤمنين عن ارفع طعام ناله رسول الله عندها فقالت خبزنا خبزة شعير فصبنا عليها وهي حارة اسفل عكة فجعلناها هشة دسمة فأكل منها وتطعم . وسئلت اي مبسط كان يبسطه عندك اوطأ قالت كساء لنا نخبين كنا نربعه في الصيف فنجعل له تحتنا فإذا كان الشتاء بسطنا نصفه وتدنرنا بنصفه وكان يعاف من الثوم والبصل ولا ينهى عنها ويقول اني اناجي من لا تناجون ٢ صلوات الله وسلامه عليه .

(١) تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ٦٤ (٢) ابن سعد ج ٢ ص ١٥٥-١٧٠ واشهر مشاهير الاسلام

ص ٤٢٦-٤٢٧

خاتمة في الرسالة المحمدية

كان من مظاهر رحمة الله بالعالمين ان اوحى الله الى رسوله وألمه قبل وفاته كل ما اقتضته حكمته من قرآن وسنن قولية وفعلية كمل بها دين الاسلام الذي رشح ليكون دين الانسانية جمعاء ويظهره على الدين كله فامتلاً بها الفراغ العظيم بفقد الرسول الاعظم .

ولقد كان النبي ﷺ يتوقع ان ينتقل الى الرفيق الاعلى بدون تأخير فنبه الى ذلك في خطبة حجة الوداع وهتف بالمسلمين (اني تارك فيكم ما ان تمسكتم به لن تضلوا بعدي ابدأ كتاب الله وسنتي) وتلا قول الله (اليوم اكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً) .

ولقد احتوى كتاب الله من التنظيم والتوجيه والتشريع والتلقين والتخطيط الاخلاقي والاجتماعي والقضائي والجهادي والتبشيري والاقتصادي والسياسي والمعاشي واحتوت سنة النبي القولية والفعلية من الشرح والايضاح والتفسير والتخطيط والتوجيه والتلقين في تلك النواحي كذلك ما فيه حقا ضمان قيام المجتمع الانساني الاسلامي على اقوى الاسس وانما واعد لها وضمان عدم ضلال المسلمين ابدأ اذا ما تمسكوا بها برغم ما يعيده المغرضون والاغيار ويبدونه من اقوال ومزاعم لا تصمد امام النور الوهاج ولا تلبث ان يبدو عوارها وغرضها ومجانبتها للحق وعدم الفهم الصحيح او سوء الفهم والتأويل حيناً يدق المصنف في فصول كتاب الله والصحيح من سنة رسول الله مما هو في متناول الناس جميعا تدقيقاً مجرداً من المكابرة والعناد وسوء النية مندفعاً بالرغبة في الحق والحقيقة وتحقيق مصلحة الانسانية في مختلف مقاصدها .

ولقد كان القرآن مظهر وعد الله ومعجزته في قوله (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ٩ سورة الحجر) حيث كان بدون حين نزوله ثم يرتب بأمر النبي وارشاده . وكان النبي وكثير من اصحابه يحفظونه غيباً ويتلونه بنفس الاداء الذي سمعوه من النبي وكثير منهم اتخذوا لأنفسهم مصاحف . وسارع ابو بكر خليفة النبي بعد توليه الامر بمدة قليلة بالتعاون مع كبار اصحاب رسول الله وعلماء القرآن وكتاب الوحي منهم الى تحرير نسخة مضبوطة وحفظها عنده لتكون الامام والمرجع الرسمي لنصوص القرآن وسوره . ولما مات انتقل المصحف الذي سمي بالربعة الى عهدة الخليفة الثاني عمر بن الخطاب . ولما تولى عثمان بن

عنان بعده وتفرق اصحاب رسول الله والمسلمون في الاقطار وصاروا ينسخون مصاحفهم عن بعضهم بأهجية متنوعة اخذوا يختلفون في القراءة والاداء فأمر عثمان بنسوخ نسخ عديدة من الربعة التي كانت في عهدة ام المؤمنين حفصة بنت عمر بن الخطاب باملاء واحد لتوحيد قراءة القرآن وكتابته وارسلها الى العواصم الاسلامية وأمر المسلمين بنسخ مصاحفهم عنها وإبادة ما عداها وبذلك حفظ القرآن سليماً كما تلاه النبي ودون ورتب من عهد النبي . فكان وظل وسيبقى الى الابد المورد الصافي الفياض الذي يستطيع ان يرد اليه كل ذي عقل وقلب واذعان مجرد عن الهوى والمكابرة من اي نخلة كان ليجد فيه امس ذلك التنظيم الباهر المتنوع المجالات الضامن لكل انواع السعادة والخير والهدى للانسانية في كل ظرف ومكان وفي الدنيا والآخرة معا .

ولقد قيض الله عدداً كبيراً من رجال العلم المؤمنين المخلصين فبذلوا جهودهم العظيمة المبرورة في تمحيص ما روي عن النبي ﷺ من سنن قولية وفعلية وتثبت كثير منها بالرواية الصادقين المعدلين يبدو خلالها من النور النبوي ما يشهد بصحتها كل الصحة وما يجد فيها المتمعن من الحكمة والهداية والتشريع والتوجيه والتلقين في شؤون الدنيا والآخرة ما يغدو بدوره مورداً صافياً من موارد الشريعة الاسلامية من غير تعارض ولا تناقض في حال ، مع نصوص القرآن وتلقيحاته وتوجيهاته وخطوطه العامة

ولقد زعم المستشرقون فيما زعموا ان الجانب الاخلاقي والروحي من الرسالة الاسلامية قد اهل بعد الهجرة وان النبي ﷺ انقلب الى حاكم سياسي وحربي . وان المادية والغنية كانت العامل الاقوى فيما وفق النبي الى اقامته من بنيان وسلطان . وقد املى هذا الزعم الغرض ومجانبة الحق او عدم الفهم الصحيح للقرآن لأنه لا يلبث ان ينهار حينما يدقق في القرآن حيث يبدو ان جل ما كان في المدينة من اعمال وتشريع وتنظيم قد احتوى القرآن المكي نواه وان التشريع المدني انما اصبغ عليه صيغة التنفيذ والاجراء بما هو طبيعي ومتسق مع تطور السيرة النبوية . وان الاسلام لم يكن ديناً روحياً وتعبدياً وعقائدياً فحسب وانما كان ديناً ونظاماً ودولة في الوقت نفسه وان نوى هذا كما قلنا قد جاء في القرآن المكي . وان مزاعم دافع الغنية والمادية وتأثيرهما تنهار حينما يدقق في آيات القرآن واحاديث النبي وسيرته بما مر منه امثلة كثيرة في مناسبات عديدة سابقة .

ولقد احاط كتاب الله وسنة رسوله الدولة الاسلامية التي كان الرسول الاعظم اول رئيس لها بكل ما من شأنه تحقيق العدل والكرامة والمصلحة والحرية والشورى والكفاية

الحلقة والاجتماعية كما احاطها المجتمع الاسلامي بكل ما من شأنه تحقيق التضامن والتعاون والتكافل في كل ما فيه خير وحق وبر ورحمة ومعروف ومصلحة وضد كل ما فيه شر وفساد ويغني وضرر ، ورسمها للانسان المسلم من الحدود والرسوم كل ما من شأنه ان يجعله الانسان المثالي السعيد في اخلاقه وسلوكه الشخصي والاجتماعي كما رسمها للدعوة الاسلامية من الخطط وجهازها من عناصر الاستجابة بكل ما من شأنه ضمان انتشارها حرية طليقة سحاء فكان من كل ذلك ما شهدته الدهر من مظاهر وآثار مثالية للدولة والمجتمع والفرد والكرامة والقوة والقوة والانتشار والحق والعدل والتكافل والتعاون في زمن النبي وبعده الى امد غير قصير .

وبرغم ما طرأ على الاسلام والمسلمين من طوارئ مؤلمة متنوعة المظاهر لا تمت في حقيقتها الى منابع الاسلام الصافية فإن من شأن ما رسمته هذه المنابع للدولة والمجتمع والفرد والدعوة ان يعيد ذلك سيرته المثالية الاولى اذا ما عاد المسلمون فتمسكوا به كما نبه على ذلك رسولهم العظيم ﷺ .

وتصديقا لذلك رأينا ان نختم هذا الجزء بالقواعد المستخلصة من كتاب الله في شؤون الحياة الدنيا المختلفة والتي سميناهم الدستور القرآني ^١ .

(١) اقتصرنا على ما هو مستخلص من القرآن من قواعد لان القرآن لم يشب بأي شائبة وهو محدود بين دفتي المصحف الثابت اليقين عن النبي صلى الله عليه وسلم في حين ان الاحاديث المروية عن النبي قد شابها شوائب كثيرة وليست معدودة ولا محصورة . والصحيح الثابت منها منفق مع مبادئ القرآن وتلقياته وقواعده ورسومه وحدوده . والزيادة التي قد تكون فيها هي بمثابة شرح للقرآن وتفسير وتحديد .

المستور القرآني

فصل تمهيدي

في نظرة القرآن الى الحياة الدنيا ١

١ - ان الاسلام دين دنيا وسياسة واجتماع واخلاق وانسانية بقدر ما هو دين إيمان وعقيدة وآخرة .

٢ - ان حياة الانسان الدنيوية واعماله واخلاقه الشخصية والاجتماعية هي موضوع جوهرى من مواضيع القرآن .

٣ - إن صلاح الانسان في أخلاقه الشخصية والاجتماعية والثقافية وصلاح المجتمع البشري وتوجيه الفرد والمجتمع الى ناحية الخير والحق والكمال في الحياة الدنيا هو هدف رئيسي من اهداف القرآن .

٤ - ان ما احتواه القرآن من آيات وفصول كثيرة جداً وبمتنوع الاساليب في صدد حياة الانسان المتنوعة الوجاهات ومعالجة الشؤون الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والأسروية والاخلاقية والشخصية تشريعاً وتلقيناً وتقريراً ينطوي على دلالة حاسمة على اهتمام القرآن لشؤون الحياة الدنيا اهتماماً بالفاً واعتباره إياها موضوعاً جوهرياً .

٥ - ان الحياة الاخرية وما فيها من ثواب وعقاب وما جاء في القرآن في صدها من وعد ووعد وترغيب وترهيب بالاضافة الى ما فيها من الحقيقة الايمانية والحكمة الربانية قد جاءت لتكون أيضاً وازعا في سير الانسان في الحياة الدنيا وادعا يردعه عن الاثم والشر وحافزاً يدفعه الى الخير والعدل والحق والتعاون والصلاح والاصلاح والسلام في الحياة الدنيا .

٦ - ان المبادئ الايمانية والتكاليف التعبدية بالاضافة الى ما فيها من واجبات نحو الله

(١) انظر كتابنا الدستور القرآني في شؤون الحياة ص ١٧ - ٨ : ففيها الآيات التي استندنا اليها في استخلاص هذه القواعد وشرحها .

قد انطوت ايضا على مقاصد اصلاحية للانسان في حياته الدنيا من اخلاقية واجتماعية ونفسية
ومحرورية .

٧ - لم يهدف القرآن قط الى منع المسلمين من الاستمتاع بطيبات الحياة الدنيا وخيراتها
وزينتها وقوى الكون الظاهرة والخفية والانتفاع بها ولا الى نقض أيديهم بما خلق الله فيها
ولا الى تعطيل مواهبهم عن الانتفاع من سننه فيها بل حث على ذلك واستنكر تحريمه
والانكماش منه وانما جعله في نطاق الطيب الحلال والحق والقصد والاعتدال .

٨ - ان ما جاء في القرآن من آيات احتوت تهوينا لشأن الحياة الدنيا ومتاعها انما جاء في
سياق او بنصوص تدل على انها استهدفت مقاصد سامية اخرى لا تمت الى قصد حمل المسلمين
على عدم اخذهم بنصيبهم من الدنيا واستمتاعهم بطيباتها وزينتها وانتفاعهم بما في الكون وبما في
أنفسهم من قوى الله وسننه من مثل مكافحة الظلم والبغي ومقابلة الاعتداء بمثله والدفاع عن
حرية الدعوة والانتفاع في سبيل الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ونصر دين الله وعدم
خشية احد او شيء والاهتمام به في سبيل ذلك .

٩ - ان الله قد وعد المسلمين الصالحين بتبويئهم الدنيا وغكينهم في الأرض واستغلافهم
عليها ليعبدوا الله وحده ويأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر .

١٠ - ان المسلمين مدعوون الى الاهتمام بالحياة الدنيا والانتفاع بخيراتها وطيباتها ونوااميسها
وأعمال مواهبهم وعقولهم فيها . واعداد انفسهم لذلك بكل وسيلة من وسائل العلم والمعرفة .
والملازمة بين الايمان والعمل الصالح الذي من اهمه العمل على اعلاء كلمة الله وشرائعه والتزام
العدل والبر والخير والحق . واجتناب الاثم والشر والباطل والبغي . والتعاون مع البر
والتقوى والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ليضمنوا لانفسهم كأفراد وللمجتمعهم ككيان
القوة والعزة والكرامة والهيبة والسعادة والتضامن والتسكن والطمانينة والعدل والحق والرفاه
في الحياة الدنيا .

١١ - ان من واجب المسلمين الصالحين ان يتعاونوا على اشاعة تعاليم القرآن على وجهها
الحق ومكافحة ما تركته عصور الجور والجهل في سواد المسلمين الاعظم من آثار جعلتهم
يسئرون فهم تلك التعاليم .

الباب الاول

في النظام السياسي

الفصل الاول^١

في

نظام الدولة

١٢ - ان القرآن قد أقر قيام دولة للمسلمين يتولاها الصالحون الاكفاء منهم . وواجب على المسلمين اطاعتهم والنصيحة لهم وعدم خيانتهم . وهو صريح الدلالة على ان المسلم غير مكلف دينيا بالخضوع والطاعة لغير المسلم .

١٣ - ان هناك صفات وشروطا ينبغي ان تتوفر في من يتولى امر المسلمين كالرفق واللين وحسن المعاملة والبعد عن الغلظة والفظاظة والاعنات والحرص على مصلحة المسلمين والشعور معهم في سرائرهم وضرائرهم والاعضاء عن اخطائهم والعفو عن جاهليهم والرحمة والرافة بضعفائهم وفقرائهم والاستعداد لمشاورتهم في شؤون الدولة .

١٤ - يشترط في الطاعة الواجبة على المسلمين لأولي الأمر منهم ان تكون في المعروف . اي فيما كان صالحا نافعا فيه خير وبر واحسان ومصلحة وحياة وعدل وقوة وكرامة وعزة للمسلمين وما كان متعارفا انه كذلك بين العارفين وفي نطاق امر به القرآن واحله ونوه بنجوه وصلاحه وما امر به النبي عليه السلام ودعا اليه وحبذه فيما هو صحيح ثابت من قوله وفعله .

١٥ - ان ما يحق لأولي الأمر ان يدعوا اليه المسلمين ويطلبوا منهم الطاعة فيه والنصر عليه والتضامن والتعاون معهم فيه هو ما كان للمسلمين فيه مصلحة وفائدة وحياة .

١٦ - ما دام انه يشترط في اولي الأمر ان لا يدعوا المسلمين ان لا إلى ما فيه حياتهم ومصلحتهم

(١) انظر كتابنا الدستور القرآني ص ٥٠ - ١٢٦ ففيها الآيات التي استندت اليها في استخلاص هذه للتواعد وشرحها .

وما دام ان واجب الطاعة والتلبية والنصر والتضامن على المسلمين مشروط بما لا يكون فيه منكر ومعصية وضرر وبما يكون فيه مصلحة وفائدة وبرفان هذا لا يتم فيما ليس فيه صريح قرآن وسنة إلا برأى ناضج يصدر عن مشورة اولي الحل والعقد والعلم من المسلمين فوجب عليهم ان يشاوروهم في ما يلزم من امور ويعزمون عليه من عزائم .

- ١٧ - ان اشتراط طاعة المسلمين لأولي الأمر منهم بأن تكون في معروف وان لا تكون في معصية لا يعني ان لا يكون لكل فرد حق في الاجتهاد فيما هو المعروف وما هو المنكر وما هو الموافق وما هو المخالف وما هو النافع وما هو الضار وأن يجعل كل فرد نفسه في حل من اطاعة اي امر يتراءى له انه غير معروف وغير صالح او انه مخالف ومعصية وضرر اذا لم يكن هناك نصوص صريحة وصحيحة . فان ما ليس فيه ذلك يكون الرأي فيه لأولي الامر بمشورة اهل الرأي والعلم والبصيرة . وعلى سائر الناس الطاعة . وخلاف هذا هو خروج عن سبيل المسلمين وجماعتهم يستحق فاعله العقاب والتنكيل في الدنيا والآخرة .
- ١٨ - ان القرآن والسنة النبوية القولية والفعلية هما مرجع المسلمين في امورهم سواء في ذلك افرادهم ام اولو الامر منهم .

١٩ - في القرآن والسنة تشريعات محددة كما فيها مبادئ وتلقينات وتوجيهات وخطوط عامة . ومرتجعاتها تشمل هذه كما تشمل تلك . فما لم يكن فيه نصوص واحكام صريحة ومحددة في القرآن والسنة يسار فيه في نطاق المبادئ والتلقينات والتوجيهات والخطوط العامة فيها وبعد التدبر والتشاور في الامر من قبل اهل الحل والعقد والعلم . وليس فيها ما يمنع المسلمين من السير فيما يجمع عليه خاصتهم واولو العلم والحل منهم فيما فيه مصلحة ومحاسن ولا من الاقتباس من الغير والسير على السوابق والمثل الصالحة والقياس على ما هو معروف من احداث ونصوص فيما ليس فيه نصوص صريحة معينة من كتاب وسنة وفي نطاق تلك المبادئ والتلقينات والتوجيهات والخطوط العامة . مع وجوب ملاحظة هامة وهي ان في القرآن آيات محكمات وأخر متشابهات للتقريب والتشيل وان الاحكام والاعمال والخطط يجب ان تستند في الدرجة الاولى الى الآيات المحكمة .

٢٠ - ان جميع السلطات في الدولة هي بيد رئيسها . والسلطة في الدولة الاسلامية واحدة . وليس هناك سلطة ورئاسة مدنية مدنية لحدة ودينية لحدة . لأن رئيس المسلمين هو بمثابة خليفة النبي فيهم والنبي كان يمارس الرئاسة الدينية والمدنية معا على اعتبار الاسلام

ديننا ونظاما .

٢١ - ان رئيس الدولة هو صاحب العزيمة والأمر المنفذ لما يتم عليه وأي عمل الحل والعقد والشأن الذين يجب عليه استشارتهم .

٢٢ - ان الدولة ليست كيانا منفصلا عن المسلمين او ان مصلحتها غير مصلحتهم . ولذلك وجب على المسلمين ان يتضامنا مع اولي الامر في قمع الفتن واتقاها ويتعاونوا معهم على البر والتقوى والامر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة الى الخير ويقوموا بواجبهم نحوها من الطاعة بالمعروف واداء الزكاة والجهاد في سبيل الله بالمال والنفس ويعتبروا انفسهم جزءاً غير متجزئ من كيان الدولة ويرعوا مصالحها ولا يخونوها ويحافظوا على وحدة صفوفهم ولا يتنازعوا ولا يتفرقوا .

٢٣ - ان بنیان الدولة يقوم على الرجل والمرأة معا . وهما متساويان فيها في الحقوق والواجبات إلا ما ورد فيه نص صريح من الشؤون الخاصة بطبيعة كل منها الجنسية .

٢٤ - ان للعرب شأناً متميزاً في الاسلام وبالتالي في نظام دولته السياسي . وان على العرب ان يدركوا ذلك ويعتبروه شرفاً يوجب عليهم خطير الواجبات نحو الاسلام والمسلمين لا يجوز ان يقصروا فيها ولا يهملوها او يسيئوا فهمها واسفتلها .

٢٥ - ان القرآن لم يحدد شكل رئاسة الدولة . والنبي لم يفعل ذلك . وهذا يلهم انه ترك الشكل لأهل الحل والعقد والعلم والشأن وظروف المسلمين . غير ان عدم قيام وارث نسبي للنبي في رئاسة المسلمين السياسية بعده وقيام الخلافة الراشدية التي هي جمهورية طول الحياة غير متسلسلة في اسرة يلهان ان هذا الشكل هو افضل اشكال رئاسة الدولة في الاسلام .

٢٦ - ان القرآن لم يحدد كيفية الشورى في الدولة ولا تشكيلات الدولة . وهذا يلهم ان ذلك قد ترك لأولي الامر والحل والعقد والعلم وان من الجائز ان يتبدل ويتعدل ويتطور وفقاً لمقتضيات الظروف والمصلحة مع لزومها في اي حال واعتبارها صفة وخصيصة من صفات وخصائص المسلمين .

٢٧ - ليس في القرآن نص صريح بوحدة الدولة في الاسلام . غير ان وحدة الدولة في حياة النبي والخلفاء الراشدين تلهم وجود كونها واحدة شاملة . ومن الامثلة الثابتة من عهد

الذي وخلفائه الراشدين يستدل على ان الدولة الواحدة كانت على اساس الاستقلال المحلي او اللامر كزري . بحيث يصح ان يقال ان هذا النوع من الحكم هو اصلح الاشكال لبلاد العرب والاسلام تحت راية دولة واحدة . على ان هناك بعض قرائن قرآنية قد تجعل تعدد الدول في الاسلام مائتفا . وعلى كل حال إذا لم يكن بد من التعدد فواجب المسلمين ودولهم على ما نص القرآن وألمه ان يقيموا الصلات فيما بينهم على اساس الحق والاخوة والتضامن وتبادل المنفعة والثقة واصلاح البين بين المتنازعين منهم وردع الباغي والاجتماع على قتاله حتى يفيء الى امر الله والحق .

٢٨ - لأعمال المسلمين وتصرفاتهم ضابطان : الابتعاد عن كل منكر واثم وفاحشة وباطل ورجس وظلم وبغي وامراف . والتزام كل ما هو معروف وحق وخير وطيب وعدل واعتدال وهم في نطاق هذين الضابطين الرجال والنساء على السواء متمتعون بكامل حرياتهم في كل عمل وتصرف شخصيا كان ام اجتماعيا ام سياسيا ام فكريا ام ثقافيا ام مهنيا ام اقتصاديا . وليس للدولة ان تحد شيئا او تنتقص شيئا من ذلك ما دام في نطاق هذين الضابطين .

٢٩ - للمسلمين الرجال والنساء على السواء على الدولة حق الصيانة والحماية من العدوان والتسلط والأذى والضرر في اموالهم واعراضهم وممتلكاتهم ودمائهم وسلامتهم وحرية تصرفاتهم الشخصية والاجتماعية والسياسية والفكرية والمهنية والاقتصادية ما دامت في نطاق الضابطين المذكورين آنفا .

٣٠ - ان التلقينات القرآنية تخول الدولة وضع الانظمة الزاجرة ضد كل خبيث وشر وفسق واثم وضرر والميسرة لأسباب كل ما هو صالح ونافع وعدل وخير وحق .

٣١ - وهي تخول الدولة منع حق الاقوياء والاغنياء والزعماء من ظلم الضعفاء والفقراء والسواد او الاجحاف بهم او الانتقاص من حقوقهم وحررياتهم .

٣٢ - وهي تقتضيها التسوية بين جميع الناس في كل موقف ومطلب بقطع النظر عن تفاوت الدرجات وفي حدود القدرة والطاقة .

٣٣ - وهي تمنعها من تكليف احد بشيء لا يطيقه وتأمرها بالعفو عن تبعة ما يصدر من الناس بسائق الخطأ والسيان والاكره باستثناء ما فيه ضرر للغير بقدر بقدره من دم او مال وفقا للاحكام القرآنية والنبوية وصالح المسلمين .

٣٤ - وهي توجب عليها ضمان حق العمال والصناع والزراع قبل اصحاب الاعمال الى حد يكفل لهم الحياة المعقولة الكريمة . لأن هذا من مقتضيات العدل الاجتماعي والعدل في مختلف اشكاله من واجبات الدولة ومقاصدها .

٣٥ - وهي توجب عليها تيسير اسباب العمل للقادرين عليه ومساعدة العاجزين لأن ذلك من مقتضيات العدل الاجتماعي كذلك .

٣٦ - وهي تقرر حق الحيازة والملكية الفردية وتوجب على الدولة حمايته .

٣٧ - وهي تقرر حق توريث اصحاب المال للمستحقين من ذوي قرباهم بعد اداء ما عليهم من دين وما وصوا به من وصايا وتوجب على الدولة حماية هذا الحق .

٣٨ - وهي تخولها الحد من التبذير والاسراف وحمل الناس على القصد والاعتدال بمختلف الاساليب .

٣٩ - وهي تخولها اخذ ما تقتضيه مصالح المسلمين وبغير المسلمين والشؤون العامة من الأموال من القادرين بمختلف الاساليب .

٤٠ - وهي تخولها الحيولة دون استعطاب الثروة في جانب واحد بمختلف الاساليب .

٤١ - ان صلات الدولة الاسلامية والمسلمين بغير المسلمين تكون على اربع حالات :

الاولى - حالة العداء . وهي الحالة التي يبدوهم فيها الغير بالأذى والعدوان مما يدخل فيه الطعن في دينهم وعرقلة الدعوة اليه ومظاهرة اعدائهم عليهم بالقول والفعل واضطهاد افرادهم وقتلتهم عن دينهم والتآمر عليهم .

وواجب المسلمين هو مجاهدة المعتدي الباغي دون هوادة ولا ضعف ما أمكنهم ذلك . وبكل ما يملكون من وسائل وفي كل ظرف . الى ان ينتهي عن موقفه بمهد او توبة او خضوع . وبعبارة ثانية بما يرى فيه اولو الامر أمنا وطأئينة .

الثانية - حالة العهد : وهي الحالة التي ارتبط بها المسلمون بغيرهم بعهد بدءاً او بعد حرب . وقامت بينهم حالة سلم وأمن . فواجب المسلمين هو احترام العهد والوفاء به ما احترمته الغير ووفي به ولم يبد منه نقص او نكث او خيانة او سوء نية او مظاهرة عدو او طعن في الاسلام وصد عنه فلماذا بدا منه شيء من ذلك او انتهت مدة العهد ولم تتجدد انقلب

الموقف الى حالة عداة . وعلى المسلمين اعلان نقض العهد لمن يبدو منه شيء من ذلك او لم يجدد عهده المنتهي حتى يكون على بينة من امره .

الثالثة - حالة المسالمة : وهي حالة الفريق الذي كفيده ولسانه عن الاسلام والمسلمين ولم يقاتلهم ولم يتحرش بهم ولم يظهر عليهم عدواً ولم يطعن في دينهم ولم يصد عنه فواجب المسلمين مقابلته بمثل موقفه والبر به والاقساط اليه .

الرابعة - حالة الخضوع : وهي حالة الفريق الذي خضع لسلطان المسلمين وأدى اليهم الجزية بدءاً او بعد حرب . فواجب المسلمين ان يوفوا له بما شرطوه من حماية وذمة وان يعتبروه مسالماً من جهة ومعاهداً من جهة ما دام محافظاً على حالته وشروطه .

٤٢ - وبناء على ما تقدم وبناء على النصوص القرآنية الصريحة والضمنية فليس للمسلمين ان يقاتلوا احداً ولا يتحرشوا بأحد بدءاً . وكل ما يسمح لهم به بدءاً ان يدعوا الناس الى الاسلام بالحكمة والموعظة الحسنة وان يجادلهم بالتي هي احسن فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ولا اكراه في الدين .

٤٣ - لا يجوز للمسلمين ودولتهم ان يتبادلوا النصر والولاء والمودة مع اعدائهم بأي عذر كان ومهما تكن الظروف . كما لا يجوز لهم ان يخلطوا فيهم من ظهرت منه بوادر المكر والكيد والبغض لهم من غيرهم ولا يتخذونه بطانة لهم . وعالمهم ان يكونوا منه على حذر .

٤٤ - للمسلمين ودولتهم ان يسايروا ظروفهم بحيث يجوز لهم ان يتقوا غيرهم ويدافعوه بالتي هي احسن ان كان في ذلك مصلحة لهم او دفع ضرر عنهم . على ان لا يكون ذلك خضوعاً ولا ولاء .

٤٥ - ان القرآن قد اولى المواثيق والعهود عناية عظيمة . فيجب على المسلمين ودولتهم بأن يلتزموا بها ما دام الآخر ملتزماً بها وعليهم اذا شعروا منه نية غدر او خيانة ان يعلنوه بشعورهم وعزمهم على الوقوف منه نفس الموقف وان لا يأخذوه على غرة .

٤٦ - ان القرآن قد كرر اوامره ببذل النصح للاعداء ودعوتهم الى الحق والتوبة واسأارهم بأن الباب مفتوح لهم دوماً . وبالجئوح الى السلم معهم حال يجنحون اليها . فعلى المسلمين ودولتهم التزام هذه الاوامر .

٤٧ - ان لغير المسلمين من رعايا الدولة الاسلامية والعرب والمستعربين منهم من باب أولى ما للمسلمين فيها من الحقوق والحريات المتنوعة المشروعة . وعليهم ما عليهم من الطاعة والاخلاص والأمانة والتضامن والتكليف .

٤٨ - ان القرآن يقرر ان اليهود من اشد الناس عداوة للمسلمين وان النصرى أقربهم مودة اليهم . وعلى المسلمين ان يستلهموا هذا في نطاق مصالحهم وأمنهم وطبائنتهم وكرامتهم .

الفصل الثاني

النظام المالي^١



٤٩ - ان القرآن قد ذكر أربعة موارد مالية للدولة . وهي الزكاة وخمس الغنائم والفيء والجزية . وفرض الجهاد بالمال بالاضافة إلى الجهاد بالنفس . وفوض للنبي بأن يأخذ من الأغنياء صدقات تبرعية . وذكر مصارف الموارد الثلاثة الاولى . وبذلك يكون قد احتوى نصاً للنظام المالي للدولة الاسلامية .

٥٠ - ان الموارد المذكورة في القرآن لم ترد على سبيل الحصر . وليس فيه ما يمنع الدولة من تدبير موارد اخرى لبيت المال اذا ما اقتضت مصلحة المسلمين وحياتهم ذلك وكان ذلك ممكناً^٢ .

٥١ - ان في القرآن ما يلهم عدم تحبيذ انحصار تداول الثروة في أيدي الاغنياء . وليس فيه ما يمنع من فرض ضرائب على الاغنياء بنسبة ثرواتهم وأرباحهم اذا ما اقتضت مصلحة المسلمين وحياتهم ذلك .

(١) انظر كتابنا الدستور القرآني ص ١٣٤ - ١٥٤ ففيها الآيات القرآنية الواردة في هذا الشأن ونوضحها

(٢) في السنن النبوية والراشدية امثلة . حيث فرض لبيت المال حصة من الكوازي المعادن الخبوءة في^٣ ومن صيد البحر كما جبي من التجار مكوس عن بضائعهم التي يأتون بها من البلاد الاجنبية .

٥٢ - ان القرآن اقر للفرد في الدولة بحق الحياة والتملك فعلى الدولة احترام هذا الحق .

٥٣ - ان القرآن قد فرض الزكاة على مختلف اجناس الثروة . يؤديها صاحب المال من المسلمين والمسلمات . وقد أتمت السنة تشريعها فحددت النصاب لكل نوع ونسبة الزكاة وتدرجها فيه ١ .

٥٤ - ان القرآن يلهم ان الدولة هي التي تتولى جباية الزكاة عن جميع الاموال من الذين حققت عليهم وانفاقها وان لها ارغامهم على اداؤها .

٥٥ - ويلهم ان الدولة هي التي تتولى قبض وصرف خمس الغنائم التي تغنم في حرب فعلية يتكلف المجاهدون فيها بجهاز انفسهم وركائبهم وسلاحهم ومؤونتهم . وكانت الاخماس الاربعة توزع على المجاهدين بناء على ذلك ٢ .

ويذهب المذهب الشيعي استناداً الى اخلاق القرآن الى ان الغنائم تشمل غنائم الحرب ومكاسب السلم معاً ويوجب على جميعها الخمس للمصارف المعينة لها .

٥٦ - ويلهم ان الدولة هي التي تتولى قبض جميع الفياء وصرفه وهو الغنائم التي تيسر للدولة بدون حرب يتكلف فيها المجاهدون بجهاز انفسهم وركائبهم وسلاحهم ومؤونتهم ٣ .

(١) من شروط امتحاق الزكاة ان يحول الحول على ما يفيض عن نفقات صاحب المال اثناء الحول من ثروته ربحاً كان ام رأس مال . ووجب اداؤها عن النقود والعروض التجارية وثمرات الزرع والماشية . وجعل الحد الادنى في النقود والعروض ما قيمته عشرون ديناراً ذهباً او مئتا درهم فضة . وجعلت نسبة الزكاة بمعدل اثنين ونصف في المائة . وجعلت نسبة زكاة الزروع التي تسقى بماء المطر عشراً وبماء الري نصف العشر والحد الادنى لما يجب من غل الارض ما مقداره خمسة اوسق - ووزن الوسق ٣٢٠ رطلا اي نحو (١٥٠) كيلو . والحد الادنى للابل غير التجارية خمس حيث يجب عليها شاة ثم تزداد حسب الزيادة بنسبة معينة . والحد الادنى للقر غير التجارية ثلاثين حيث يجب عليها ببيع اي عجل عمره سنة ثم تزداد . والحد الادنى للغنم اربعين حيث يجب عليها شاة . وهناك آثار مروية ان الابل والبقر والغنم التجارية تكون في مثابة نقود وعروض وفي حكمها . وهناك آثار مروية اخرى في صدد زكاة الزروع والثمار والمواشي والحلى والعروض والسلع لم تضرورية لاستقصائها .

(٣٢) قد يلهم هذا ان غنائم الحرب التي تتكلف الدولة جميع نفقات المجاهدين فيها ويكون لهم مرتبات ثابتة تعود جميعها للدولة . لان جميع الفياء يعود للدولة لسبب ان المجاهدين لم يوجفوا في سبيله بخيل ولا ركاب كما جاء في آيات سورة الحشر التي احتوت تشريع الفياء هي (وما اداء الله على رسوله منهم فإا اوجبتم عليه من

٥٧ - ويلهم ان الدولة هي التي تتولى قبض الجزية من الخاضعين لها من غير المسلمين نتيجة لحرب او هبة منها وصرفها ١ .

٥٨ - لم يحدد القرآن والسنة مقادير الجهاد بالمال ولا الصدقات التبرعية . وقد ترك هذا لأولي الأمر يأخذون من القادرين ما تمس اليه الحاجة .

٥٩ - ان القرآن حدد مصارف الزكاة والفيء وخمس الغنائم . وهذه المصارف صنفات رئيسيان اولها مصالح الدولة والكيان الاسلامي ومصالح المسلمين العامة . وثانيها الطبقات المعوزة والعاجزة . وقياساً على ذلك فالموارد والضرائب الاخرى التي يمكن ان تيسر للدولة من الجزية وفريضة الجهاد بالمال والمكوس وغير ذلك تصرف للصنفين الرئيسيين المذكورين ايضاً .

٦٠ - ان للدولة تنظيم مساعدة الطبقات المعوزة والعاجزة المفروضة على بيت المال على الوجه المجدي الذي يضمن لأفرادها الكفاية .

٦١ - ان القرآن قد ضرب المثل الاعلى لسد حاجة الطبقة المعوزة والعاجزة في جعل مساعدتهم من نظام الدولة المالي . والدولة الاسلامية مدعوة دينا الى تحقيق هذا المثل فعلا على احسن وجه واشمله . وليس في القرآن ما يمنعها من تكثير مواردها وفرض الضرائب على القادرين بسبيل هذا الواجب القرآني .

خيل ولا كتاب ولكن الله يسلط رسله على من يشاء والله على كل شيء قدير . ١٠ انا الله على رسوله من اهل القرى فنه ولرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كي لا يكون دولة بين الاغنياء منكم ٦٠٠-٧)

(١) ليس في القرآن تجديده لنا ولم يثبت ذلك في السنة حيث يلهم هذا ان ذلك ترك لتقدير اولي الامر وظروف الاحداث . وكانت مقاديرها متفاوتة حين ما فتح الله بلاد الشام ومصر والعراق وفارس وشمال افريقية على المسلمين . والسنة جرت على انه من الجائز مصالحة الكتائبين وغيرهم كالمجوس عليها .

الفصل الثالث

النظام القضائي^١

أولاً - مبادئ العدل والحق والانصاف بصورة عامة

٦٢ - ان فكرة العدل والحق والانصاف هي التي يجب ان تكون ضابط المسلمين ورائداهم في تعاملهم مع الناس مسلمين كانوا ام غير مسلمين .

٦٣ - ان التزام العدل والحق والانصاف واجب لا يجوز ان يتأثر بكرهية وبغضاء ولا بعاطفة غضب او لمة قربى ونسب ولا بعصية دين ومذهب وجنس .

٦٤ - ان الواجبين المذكورين يتربان على المسلمين عامة وحكامهم وقضاة خاصة .

٦٥ - ان على حكام المسلمين وقضاة الحذر والتنبه تجاه ما يعمد اليه المتقاضون احياناً من كيد ومكر وتدليس واغراء وذلافة . كما ان عليهم ان لا يتأثروا بالمظاهر الزائفة والأيمان الكاذبة . وان يكون مهمهم تحري الحق والعدل والانصاف والحكم به مجرداً عن كل شائبة واعتبار .

٦٦ - ان على المسلم ان يعتقد ان مخالفته لمقتضيات الحق والعدل والانصاف اثم ديني يعاقبه الله عليه . وان الله رقيب عليه ولو استطاع اخفاء اثمه عن الناس . وان عليه ان يجتنب الاثم والبغي والعدوان على مال اي انسان ودمه وعرضه ومائتة حقوقه . ولا يظهر غيره على ذلك مهما كانت الرابطة التي تربطه به ومهما كان بينه وبينه بغضاء وكرهية وخلاف في الجنس والمذهب والدين . وان عليه اذا بدر منه شيء من ذلك ان يسرع الى التوبة والاصلاح ورد الحق الى صاحبه .

٦٧ - ان قلب الحق باطلاً وباطل حقاً والصاق الاثم والتهمة بالابرياء من الجرائم الدينية الكبرى التي يستحق مقترفها سخط الله وغضبه وعذابه .

ثانياً - الاجراءات القضائية

٦٨ - لا يجوز للمسلم ان يتهرب من التقاضي امام القضاء الاسلامي او يفضل غيره عليه

(١) انظر كتابنا الدستور القرآني ص ١٦٠-٢١٦ ففيها الآيات الواردة في هذا الباب وشرحها

وعليه ان يدعن له سواء اكان الحكم له ام عليه .

٦٩ - ان القضاء الاسلامي يستمد احكامه واساليبه من القرآن والسنة وتلقياتها وملهااتها وخطوطها العامة . وليس ما يمنع من الاقتباس والسير على السوابق الصالحة فيما ليس فيه نصوص صريحة وفي نطاق تلقيينات القرآن والسنة وخطوطها العامة .

٧٠ - يجب على المسلمين ان يوثقوا اعمالهم المالية والتجارية وبخاصة ديونهم بوثائق وسندات ودفاتر منعاً للشك والنزاع وعلى الكتاب ان يؤدوا مهمتهم بكل امانة وصدق وعدل .

٧١ - يجب على الذي عليه الحق ان يتقي الله فيعترف بما عليه بتمامه ويسجله ويوقع عليه ويجب على الذين يقومون مقام غيرهم وكالة او ولاية او وصاية ان يفعلوا ذلك ايضاً .

٧٢ - يجب توثيق المعاملات والوقائع والقضايا بشهود عدول . ويجب على الشهود ان يلبوا الدعوة للشهادة وان يؤدوا شهادتهم بكل امانة وصدق .

٧٣ - ان للكتاب والشاهد حق الحماية والصيانة والحرمة . فلا يجوز مضارعتها في أي حال وعلى القضاء ردع من يضارهما او يحل بواجب صدق الامانة والصدق منها .

ثالثاً - مرجعية القضاء الاسلامي في القضايا المدنية

٧٤ - ان القضاء الاسلامي مرجع حل وتنظيم الشؤون والمشاكل والخلافات المدنية من ديون ووصايا وهبات وحجر واثبات رشد ونكاح وطلاق وارث وما شاكلها .

رابعاً - القضاء لغير المسلمين في الدولة الاسلامية

٧٥ - ليس للقضاء الاسلامي ان يجبر الكتابيين على التقاضي امامه في امورهم الخاصة . واذا رغبوا في التقاضي امامه فالقضاء يكون وفقاً للشرع الاسلامي . وما جاء في المادة (٦٩) .

٧٦ - للكتابيين في الدولة الاسلامية ان يتقاضوا في امورهم الخاصة امام اربابهم واربائهم وقضاتهم على شرط ان يكون قضاؤهم مستمداً من التوراة والانجيل .

خامساً - القضايا الجزائية

٧٧ - ان ما استنكره الله ورسوله وندد به ونها عنه وانذرا مقتوفه بعذاب الله وغضبه

ونقمته من الافعال الشخصية والاجتماعية ولم يعين له في القرآن والسنة حدود وعقوبات يمكن ان يعد من الجرائم التي يحق للدولة ترتيب وايقاع العقوبات على مقترفيها بطريق القضاء بما يتناسب مع اثرها وخطورتها ومداهها ويكون فيه الصيانة للافراد والمجتمع . وفي نطاق المادة ٦٩ السابقة .

٧٧ - ان ما يمكن ان يتعارف على انه منكر واثم بأعيانه او بخطوطه وأوصافه لدى الرأي العام من افعال شخصية واجتماعية يدخل في مفهوم المادة السابقة ونطاقها .

٧٨ - ان القرآن قد حرم قتل النفس بغير حق اطلاقاً . وفي الاطلاق القرآني ما يسوع القول ان القصاص اي قتل القاتل العمد يوقع على القاتل بقطع النظر عن صفة القاتل الجنسية والدينية . غير ان هناك قرينة قرآنية تسوغ القول ان القصاص لا يوقع على القاتل إذا كان القاتل عدواً .

٧٩ - انه يلهم بأن لأهل القتل العمد او بعضهم ان يعفوا عن الدم . وحينئذ تجب على القاتل دية المثل حسب المتعارف عليه .

٨٠ - إذا قتل مسلم مسلماً خطأ تجب دية المثل وكفارة توبة تعبدية هي عتق رقبة عبد مسلم او صيام شهرين متتابعين في حال عدم إمكان الاولى . ويحق لأهل القتل ان يعفوا عن جميع الدية أو بعضها . واذا كان اهل القتل غير مسلمين وبينهم وبين المسلمين ميثاق فالدية واجبة الاداء والكفارة واجبة الفعل . اما اذا كان اهل اعداء وهو مسلم فلا تجب الدية وتجب الكفارة . وروح القرآن تسوغ قياس المسالم والحاضع من غير المسلمين على المعاهد في هذه القضية .

٨١ - ان القرآن حدد حد جريمة السرقة قطع اليد سواء أكلت السارق رجلاً ام امرأة .

٨٢ - ان في القرآن ما يلهم ان السارق إذا تاب ورد المسروق او عوض عنه قبل القدرة عليه سقط عنه الحد ١ .

٨٣ - ان جريمة الزنى من اشد الجرائم فظاعة وتحريماً . وقوة إنكار القرآن لها وتحريمها واحدة بالنسبة للاحرار من الرجال والنساء على السواء .

(١) حددت السنة الحد الادنى للسرقة التي يجب فيها الحد . وهناك آثار بأن السارق لسد جوعه يعفى من الحد .

٨٤ - لا تثبت جريمة الزنى إلا بشهادة أربعة شهود^١ . أو بالاقرار وعدم رد التهمة التي يوجهها زوج الى زوجته بدون شهود .

٨٥ - إذا ثبتت جريمة الزنى بجلد الزاني والزانية مائة جلدة وهناك آثار يستند اليها جمهور العلماء تشدد عقوبة الزناة المتزوجين حيث توجب جلد مئة جلدة ورجعهم حتى الموت . وليس في القرآن نص في هذا . كما ان روح الآيات القرآنية تجعل هذا موضع نظر وتساؤل^٢ .

٨٦ - اذا اتهم زوج زوجته بالزنى ولم يكن معه شهود واشهد الله على صدقه أربع مرات ورضي بلعنة الله عليه إذا كان كاذباً تكلف الزوجة بالرد على شهادته بشهادة أربع شهادات بالله إنه كاذب . وبغضب الله عليها ان كان صادقاً . فان فعلت سقط عنها الحد وان لم تفعل اعتبر ذلك إقراراً وأقيم عليها الحد . وواضح من هذا انه في حالة وجود شهود لا يبقى محل للشهادة المتقابلة^٣ .

٨٧ - ان القرآن جعل عقوبة الاماء الزانيات نصف عقوبة الحرائر^٤ .

٨٨ - انه يلهم ان تزويج الزاني والتزوج بالزانية الذين تثبت عليهم جريمة الزنا ويقام عليهم الحد مكروه أشد الكره .

٨٩ - انه اوجب على من يتهم غيره بالزنا اثبات التهمة بأربعة شهود . فإن لم يفعل عد قاذفاً وحق عليه الحد وهو ثمانون جلدة وسقطت عدالته إلا إذا تاب واصلح بعد ذلك . ولا يشترط في جريمة القذف ان تكون في حضور المذدوف فيه ولا أن تكون بكلمات صريحة . فإنها تتحقق في الغياب والحضور وفي معرض الشبهة والاخبار والرواية وبكلمات ضمنية على

(١) هناك آثار ان العلامة الفاطمة كالحل بدون زوج مما يثبت التهمة .

(٢) محصنا هذا الامر في كتابنا الدستور القرآني ص ١٩٣-١٩٥

(٣) من السنن النبوية ان يفرق بين الزوجين اذا شهدا كما نص القرآن . وتعرف هذه الشهادة المتقابلة بين الزوجين باللعان . وليس في القرآن ولا في السنة اشارة الى حالة رؤية الزوجة زوجها بزني في حالة الجرم المشهود او في معرفتها ذلك . والمتبادران هذا بسبب الفرق الذي لا ينكر بين حالتي الزوج والزوجة والذي يترتب عليه نتائج مختلفة ، كما ان المتبادران للزوجة رفع امر زوجها الزاني الى القضاء وأثبات الجريمة عليه وحينئذ يقام عليه الحد .

(٤) الذين يوجبون الرجم على الزناة المتزوجين لا يوجبونه على الامه المتزوجة . ويوجبون عليها تخمين جلدة . ويقولون ان الموت لا ينصف ويأخذون بالاخف .

شرط ان لا تتحمل غير معنى الزنى . وانزوج الذي يتهم زوجته بالزنى ولم يؤيد تهمة بالشهادات المنصوص عليها يمكن ان يعد قاذفاً بالنسبة لزوجته وكذلك الزوجة بالنسبة لزوجها كما هو المتبادر .

٩٠ - يجب على من يعرف حادثة زنى ان لا يتسرع في الشهادة ونقل الخبر قبل ان يكون معه ثلاثة شهود آخرين . فإذا تقدم واحد او اثنان او ثلاثة للشهادة ولم يؤيدهم شهود يكمل العدد بهم اربعة عدوا قاذفين على ما تلهمه روح القرآن وتزيد الآثار النبوية المروية ١ .

٩١ - ان ما جاء في القرآن من ان العين بالعين والانف بالانف والاذن بالاذن والسن بالسن والجروح قصاص قد جاء بصيغة الحكاية عن الشريعة التوراتية . والمملهات القرآنية لا تؤيد ان ذلك تشريع يجب على القضاء الاسلامي الاخذ به ولا تؤيد نظرية (شرع ما قبلنا شرع لنا) .

٩٢ - ليس في القرآن طريقة معينة لاثبات الجرائم عدا جريمة الزنى . وفي القرآن طريقة لاثبات المعاملات المدنية مثل الدين والوصية . وهي شهادة شاهدين عدلين . وليس ما يمنع ان يتبع هذا في اثبات الجرائم . والمأثور من السنن النبوية يؤيد ذلك . وليس ما يمنع الاخذ بطرق واساليب اخرى لأجل اثباتها أيضاً في نطاق مبادئ الحق والعدل العامة والتلقينات القرآنية والنبوية .

٩٣ - ان القضاء في الدولة هو المرجع في الجرائم الاربعة الرئيسية المذكورة وفي الجرائم الثانوية الاخرى .

سادساً - جرائم الفساد

٩٤ - ان التأمر مع الاعداء وموالاتهم والتجسس لهم وخيانة الدولة والمجتمع الاسلامي وإفلاق أمنه وطمانينته وإشاعة الفاحشة فيه والعيث في الأرض فساداً من افطع الجرائم

(١) ان حكمة ذلك وحكمة توقف ثبوت تهمة الزنا على اربعة شهود ظاهرة لان في ذلك ردعاً عن التهور والتسرع في تذف اعراس الناس وإشاعة فالة السوء عنهم لما في ذلك من افلاق أمن المجتمع والحياة الاسرورية ومن ضرر في هذه الحياة اديا وماديا فاذا ما ورد اربعة شهود صار الاستهتار والمظنية او شبهها من مظاهر الحادث وانتفى الضرر الاجتماعي من شيعه او خف وصار ايقاع الحد على مقترفي الجريمة من مصلحة المجتمع حتى يكون زاجراً ورادعاً .

المنكرة في القرآن ، أشد ضرراً وتستوجب العقوبات الدنيوية الشديدة فضلاً عن عذاب الله الاخروي .

٩٥ - ان استغلال الفرص لتأمين المنافع الخاصة على حساب المجتمع وضرره أو ضرر الغير وعدم التضامن مع المسلمين في الأزمات والشدائد والنضال ، واللعب على الجبين مع الدولة الاسلامية واعدائها وقبض اليد عن البذل في سبيل الله والتثبيط عن الجهاد في سبيل الله بالمال والنفس والتبطيء عنه وبث الدعايات المقلقة والاشاعات الضارة ، والتهويش على القائلين بالمصالح العامة من الجرائم المنكرة التي تستحق العقوبة الدنيوية فضلاً عن عذاب الله الاخروي .

٩٦ - ان اخافة المسلمين واغلاق امنهم والعدوان جبهة على اموالهم ودمائهم وقوافلهم والتمرد على اوامر الله ورسوله وتعطيلها من الجرائم المنكرة التي تستحق العقوبة الدنيوية فضلاً عن عذاب الله الاخروي :

٩٧ - ان على الدولة واجب التنبيه الشديد لمرتكبي هذه الجرائم والمندمجين فيها عن علم والوقوف منهم موقف الشدة ووقاية المجتمع من شرهم .

٩٨ - ان العقوبات التي يمكن ان توقع على من حارب الله ورسوله وسعى في الارض فساداً هي القتل والصلب وقطع الايدي والارجل والنفي . وللدولة تقدير العقوبات الواجبة حسب اثر الجرم وخطورته ولها ان تتصرف مع المجرمين في نطاق المصلحة فتوقع عليهم العقوبة بدون هوادة او تنذرهم وترهبهم وتعظمهم إذا رأت في ذلك خيراً^١ .

(١) هناك مأثورات نبوية وراشدية تذكر ان النبي وخلفاءه الراشدين كانوا يأمرون بقتل بعض الذين يترفون بجرائم الفساد المذكورة وضربهم ونفيهم وجسيم وتعزيرهم حسب مقتضى مما فيه خطه وتلقين .

الفصل الرابع

النظام الجهادي^١

أولاً - المبادئ والقواعد الاجرائية

٩٩ - ان الجهاد فرض على القادرين من المسلمين كلما دعت اليه الحاجة . وفرضيته تشمل الجهاد بالنفس والمال معاً . واذا كفى ان يقوم بعضهم فلا بأس . وإذا دعت الحاجة اليه فتعاس عنه المسلمون او لم يكف ان يقوم به من قام به منهم اثم القاعدون عنه .

١٠٠ - ان الجهاد استهدف غايتين : الاولى دفع الظلم والبغي والاضطهاد عن المسلمين والانتقام ممن باداهم بالعدوان والاذى ومقابلته بالمثل . والثانية تأمين حرية الدعوة حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله .

١٠١ - ان الحيانة والغدر ونكث العهد وفتنة المسلمين عن دينهم والصد عن سبيل الله والحيولة دون حرية الدعوة اليه والطعن في الدين الاسلامي ومظاهرة اعداء المسلمين عليهم وخيانتهم والكيد لهم من موجبات الجهاد .

١٠٢ - ليس الجهاد لاجبار الناس على الاسلام . لأن الدعوة الى الاسلام قامت على الحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي احسن . ولأن القرآن قرأ ان لا اكراه في الدين .

١٠٣ - في البلاد التي استقر كيانها وتوطد السلطان الاسلامي فيها يكون الجهاد بدعوة من أولي الأمر حين يرون ذلك ضروريا . اما البلاد التي لا سلطان للمسلمين فيها ولا كيان مستقر لها والتي تسلط عليها غير المسلمين وساموا مسلميها الحسف والظلم فالجهاد واجب على هؤلاء دون ما حاجة الى دعوة من سلطان . حيث يتقدم اولو العزم والشأن فيهم ويدعون اخوانهم اليه فينفرون افراداً وجماعات ويتوسلون الى ارغام الظالمين وتقويض سلطانهم بكل وسيلة فلان تقاعسوا اثموا .

(١) من كتابنا الدستور القرآني ص ٢٢٤-٢٨٥ الآيات الواردة في هذا الباب وشرحها .

١٠٤ - على المتمتعين بالأمن والسلطان من المسلمين ان لا يتوانوا في الجهاد في سبيل نصرة وانقاذ من يقع من اخوانهم تحت تسلط الأعداء وبغيهم وظلمهم . وان يتوسلوا الى ذلك بكل وسيلة فإذا قصرُوا أتموا .

١٠٥ - يجب على المسلمين قبل مباشرة القتال مع اعدائهم ان يبذلوا جهدهم في النصيحة والدعوة الى الكف عن البغي والظلم والغدر والعداء ولا يباشروا القتال إلا إذا أخفقت دعوتهم ونصيحتهم .

١٠٦ - ليس القتال للابادة . وانما هو لدفع الاذى والبغي وتأمين حرية الدعوة وحقوق المسلمين وأمنهم وحريتهم . ولا يجوز ان يتجاوز الانتقام والمقابلة الحد المعقول المماثل . ويجب ترك الباب مفتوحاً دائماً لمن ينتهي عن موقفه الباغى ويمنح الى السلم او يلقي السلاح ويعلم خضوعه . فإذا وقع هذا وجب الكف عن القتال إذا أمنت الحياة والغدر وسوء النية .

١٠٧ - ليست الغنائم هدفاً من اهداف الجهاد . ولا يجوز ان تجعل كذلك كما لا يجوز التشدد مع الناس لهذا القصد . ويجب قبول ظواهرهم إذا جنحوا للخضوع او السلم او اظهروا الاسلام والتوبة وأمنت الحياة والغدر وسوء النية .

١٠٨ - ليس الجهاد هو الحرب والقتال فقط . فكل جهد يؤدي الى ارباب العدو ودفع أذاه واحباط كيده وحفظ هيبة المسلمين وحريتهم وحرية الدعوة الى الاسلام وتعاليمها واعداد القوة المرباطة هو جهاد فإذا تقاعس المسلمون عن ذلك أتموا فضلاء عن تعريضهم أنفسهم وأمنهم ودعوتهم للخطر وبلادهم للدمار .

١٠٩ - ان امر الأسرى الذين يقعون في يد المسلمين في حروبهم مع اعدائهم بعد خضد شوكتهم منوط بما يراه أولو الأمر من المصلحة ١ .

١١٠ - ليس للمسلمين ان يبدأوا غيرهم بقتال وانما عليهم قتال من قاتلهم او اعتدى عليهم او اذاهم بصورة ما وبالقدر الذي فيه خضد شوكة العدو وارغامه واخضاعه .

(١) خطة القرآن المحكمة في الاسرى اطلاق سراحهم بعد ان يضع الحرب اوزارها اما بقاء واماناً بدون فداء . والمأثور من السنة جواز استرقاق الذين لا يدفعون فدية ولا يئن عليهم بدون فدية . وإذا أسلم الأسير قبل أن يحكم عليه بالاسترقاق يطلق بدون فداء ولا يسترق .

١١١ - ليس للأفراد أن يتدنوا في سياسة الجهاد العليا أو يتناولوها بالجدل والاذاعة .
وعليهم رفع ما يتصل بهم منها لأولي الأمر والطاعة لهؤلاء فيما يصدر عنه من أوامر ويرونه
من تدابير . ويجب عليهم اجتناب النزاع والخلاف وخاصة في ظروف الجهاد .

١١٢ - إذا رغب الطرف الثاني أو بعض أفرادها في استماع كلام الله ومعرفته شروط
السلم أو الاسلام أو تبليغ بعض الأمور وطلب الأمان فعلى أولي الأمر منحه ما طلب
وعليهم حمايته الى أن يعود الى مأمنه .

١١٣ - للمسلمين ان يتوسلوا بكل وسيلة . ويقتنوا كل فرصة لتقهر اعدائهم وان
يقاتلهم في كل ظرف . وان لا يتخرجوا من مقابلتهم بالمثل عملاً وظرفاً . وعليهم ان لا
ينوا في طلبهم والاستعداد لهم والحذر منهم والاحتفاظ بنظامهم وقواهم المعنوية مهما طرأ
عليهم من الطوارئ حتى ولو دارت عليهم الدائرة في بعض مواقفهم وقتل قائدهم
الأعلى .

١١٤ - ان التقصير في واجب الجهاد بالمال والنفس والاستعداد والمراقبة وارهاب العدو
عدا انه اغلال بواجب ديني مستوجب لغضب الله فهو مؤد إلى التهلكة والفساد والذل
واختلال نظام الاسلام والمسلمين . ومبرر لوقوف أولي الأمر من يبدو منهم ذلك موقف
التأديب والتنكيل .

١١٥ - ان التثييط والتعويق والتخلف والتعاض عن الجهاد بالمال والنفس . والسعي في
الفساد واثارة الفتنة والتمرد في ظروف الجهاد بنوع خاص عدا انه جريمة دينية تستحق عقوبة
الله وغضبه وسخطه فهي جريمة سياسية تبرر لأولي الأمر ان يقفوا من اصحابها موقف
التأديب والتنكيل كذلك .

١١٦ - ان لأولي الأمر ان ينظموا طريقة النفرة الى الجهاد بالمال والنفس ومباشرة
واعداد العدة له والاستعداد له على الوجه الذي يرونه صالحاً وكفيلاً بالقصد . ولهم بسبيل
ذلك انتداب من يرونه قادراً على الجهاد ونافعاً في مختلف المجالات واخذ ما تمس الحاجة اليه
من مال وعروض من القادرين .

١١٧ - ان لأولي الأمر ان يفرغوا فريقاً للجهاد والمراقبة بصورة دائمة كما ان لجماعات
المسلمين ان يفعلوا ذلك حينما تمس الحاجة وتقضي المصلحة . وعليهم أن يكفلوا لهم نفقاتهم
ويكفؤهم مؤونة التكسب .

١١٨ - ليس بين المسلمين قتال . فإذا وقع فهو بغى . ويجب على الفريق الذي ليس طرفاً في النزاع ان ينصر الفريق المبغي عليه بالسلاح الى ان يذعن الباغي للحق . وتبعاً لهذا فليس بين المسلمين أمرى حرب واسترقاق ومن وفداء .

ثانياً - المبادئ الايمانية الجهادية

١١٩ - ان المسلم باسلامه يكون قد عقد عقداً مع الله باع به نفسه له للجهاد في سبيله بالمال والنفس واشترى الله منه ذلك بالجنة . فيجب عليه كعقيدة دينية ان يوفي بما عاهد الله عليه وينفر الى الجهاد كلما دعا الداعي اليه وان يعتقد ان الله موف له بوعده الحق .

١٢٠ - يجب على المسلم ان يعتقد ان الله قد كتب على نفسه نصره المؤمنين . وانه ناصر من ينصره حقاً في ما يباشره من جهاد في سبيله بماله ونفسه من اجل الدفاع عن الحق وكفاح الظلم وضمان الحرية للدعوة الى سبيل الله .

١٢١ - يجب على المسلم ان يعتقد انه فائز ورابح في جهاده على كل حال . فإن بقي حياً فتكون له حسنات الجهاد وثوابه وكرامته . وان قتل فتكون له حسنات الشهادة . وان كتب النصر للمسلمين فيكون الفتح والعزة لهم بالاضافة الى تلك الحسينين . وان لم يكتب لهم النصر فيكون ابتلاء واختباراً ربانياً يثاب الصابرون عليها .

١٢٢ - يجب على المسلم ان يعتقد ان ايمانه وصدقه وصبره تحت الاختبار . وان الله قد يتليه بالخوف والجوع والنقص بالأموال والأنفس والثمرات في سبيل الله . وان عليه ان يقابل ذلك بالصبر والصمود وتحمل المكاره وان لا يضعف في طلب العدو وارغامه وان لا يهن في جهاده . وان يعتقد انه لا يصيبه ظمأ ولا نصب ولا جوع ولا يظأ موطنأً يغيظ به العدو ولا ينفق شيئاً من المال قليلاً او كثيراً إلا كتبه الله له عملاً صالحاً واثابه عليه بأحسن الثواب .

١٢٣ - يجب على المسلم ان يعتقد ان شهداء الجهاد هم احياء مكرمون عند ربهم .

١٢٤ - يجب على المسلم ان يعتقد ان الاجل لا يتقدم لحظة ولا يتأخر لحظة عما هو مقرر في علم الله . وانه حينما يدركه اجله يموت : سواء اكان في بيته ام عمله ام ساحة القتال ام في حصن حصين . وان الجهاد لا يقدم من اجله وان تجنبه لا يؤخر منه .

١٢٥ - ان المسلم لا يكون مسلماً حقاً صادق الايمان إلا اذا كان الله ورسوله والجهاد

بالمال والنفس في سبيل الله احب اليه من كل شيء حتى من ابيه وابنه واخيه وزوجته وعشيرته
وتجارته وامواله وبلده . وإلا إذا جاهد بماله ونفسه وبرضاه وطيب نفس واقدام .

١٢٦ - ان الذي يسارع الى تلبية داعي الجهاد في اوقات الشدة والحرج اعظم درجة ممن
يجاهد في اوقات السعة وتبشير النصر .

١٢٧ - ان الذي يفر من امام العدو لغير غاية حربية يكون قد ارتكب جريمة
دينية عظيمة .

١٢٨ - ان المسلم حينما ينزل الى ميدان الجهاد يكون امام الله وامام عدوه وعدو الله
ويكون قد وضع نفسه في ميزان الاختبار بالحشية من عدوه ار من الله . ومن الواجب
عليه دينا ان يختار الحشية من الله والاستماتة في سبيله .

١٢٩ - يجب على المسلم ان يعتقد ان جهاده في سبيل الله والحق وان الله وليه وناصره .
وان عدوه مسير بالهوى ووسوسة الشيطان والباطل وان الله خاذله ومنكسه . وان له التفوق
على عدوه بالمدد الرباني وانه مستطيع بهذا ان يغلب عدداً أكثر من عدده إذا صدق في
جهاده واخلص في نيته .

١٣٠ - ان التثييط عن الجهاد بالمال والنفس والتخلف عنه عند الدعوة إليه والتقصير فيه
الجزع منه والتراجع عنه وعرقلة سيره ووسائله واشاعة الوساوس والدماسيس والاضطراب
الموهنة في ظروفه ووضع العقبات في طريقه جرائم دينية عظيمة يستحق مقترفوها والمندمجون
فيها مقت الله وغضبه وعقوبته .

الفصل الخامس

الدعوة الى سبيل الله

او

النظام التبشيري^١



١٣١ - ان سبيل الله هي تعاليم الله والنبي وبعبارة ثانية هي الدعوة الاسلامية .

١٣٢ - ان الدعوة الى الاسلام ونشر تعاليمه الالمانية والاخلاقية والاجتماعية والانسانية بين المسلمين وغيرهم مما يجب على الدولة والمسلمين عامة . والتقشير في ذلك هو تقشير في واجب ديني خطير .

١٣٣ - ان خطة الدعوة الى سبيل الله هي الحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي احسن من دون اكراه ولا عنف .

١٣٤ - ان من حق الدولة الاسلامية والمسلمين ان يقفوا من الذين يشذون في الجدل ويتجاوزون الحسنى فيه الى البغي والظلم موقف المثل .

١٣٥ - ان على الدولة واجب الانفاق على نشر الدعوة الاسلامية ومبادئها وصيانتها واعلاء شأنها ورد البغاة عنها والطاغين فيها والصادق عنها مما يدخل في بيت المال من موارد .

١٣٦ - ان على الدولة الاسلامية تنظيم الدعوة الى الاسلام ونشر مبادئها تنظيمًا بضمن لها النجاح .

١٣٧ - ان الواجب المذكور واجب على عامة المسلمين وخاصتهم كل في حدود امكانه وقدرته . وعلى المسلمين بالاضافة الى ما يؤدونه لبيت المال ان يتبرعوا في كل وقت ومناسبة بما تسعه قدرتهم للانفاق على الدعوة ونشر مبادئها وتنظيمها وحمايتها وكفالة حريتها . والتقشير في ذلك هو تقشير في واجب ديني خطير .

١٣٨ - ان من اهم اركان الدعوة الى سبيل الله عموم الرسالة المحمدية .

(١) انظر الآيات القرآنية في هذا الباب وشرحها في كتابنا الدستور القرآني من ٢٩٢-٣٦٢

١٣٩ - ان عناية القرآن باليهودية والنصرانية واصحابها تنطوي على تقرير كون ذلك من الأركان المهمة للدعوة الى سبيل الله لاتحاد الاسلام مع الديانتين في المصدر والأسس ولما يترتب على اتحاد اصحاب الديانات الثلاث تحت راية القرآن آخر كتب الله المنزل ورسالة محمد خاتم رسل الله من نجاح الدعوة الى سبيل الله واكتساحها غيرها .

١٤٠ - ان عناية القرآن بالعقل ودعوته المحاطين والسامعين إلى التفكير والتدبر وحسن الاختيار تنطوي على تقرير كونها ركناً مهماً من أركان الدعوة الى سبيل الله .

١٤١ - ان اسلوب القرآن في دعوة الناس إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن والبرهان والاشفاق وتوجيه الخطاب إلى العقل والقلب معاً ينطوي على تقرير كونه ركناً من أركان الدعوة الى سبيل الله .

١٤٢ - ان بساطة الدعوة الاسلامية وصفاءها وخلوها من التعقيد وعدم وجود ما ينافي فطرة الله التي فطر الناس عليها واستمرارها اشرف المثل واغوى الحوافز للخير والحق والعدل والبر والكرامة والانطلاق واستهدافها اقامة اخاء انساني عام يقوم على الحرية والمساواة وبنیان اجتماعي عام يقوم على التعاون والتضامن وكيان سياسي عام يقوم على المصلحة العامة على ما قرره القرآن بما يؤهلها للظهور على الدين كله وغدوها دين الانسانية العام .

١٤٣ - ان القرآن هتف بالمسلمين بأن يدخلوا في السلم كافة حيث ينطوي في هذا توجيه رباني بأن يكون السلام والمسالمة والمحاسنة واملام النفس لله وحده هو ما يجب ان تكون دعوة الاسلام وخطة المسلمين . وهذا عنصر هام من عناصر الدعوة لأنه يفسح المجال بسهولة لانضواء الناس اليها على اختلاف الاقطار والاجناس والألوان والنحل .

١٤٤ - ان قدسية اللغة العربية باعتبارها لغة القرآن والسنة والعبادات بما يؤهلها للانتشار بين المسلمين على اختلاف الاقطار والاجناس وغدوها لغة المسلمين العامة ووسيلة من وسائل توطيد الوحدة والاخوة بينهم .

١٤٥ - ان التنظيم والجد الذين يترتبان على الدولة كفيلا بتحقيق ما وعد القرآن به من اظهار الاسلام على الدين كله .

١٤٦ - ان الدعوة الى سبيل الله لا تقتصر على نشر الاسلام بين غير المسلمين . بل تشمل

نشر حقائق الاسلام ومبادئه بين المسلمين حتى يؤمنوا بحق الايمان ويفهموا حقائق الاسلام حتى
الفهم ويعملوا الاعمال الصالحة التي تشمل كل ما فيه قوة وحير وصلاح وير وتعاون وعدل
واحسان ويتجنبوا الاعمال السيئة التي تشمل كل ما يصاد ذلك وبذلك يتحقق وعد الله لهم
بالقوة والتسكين والبركات ١ .

(١) يضاف الى هذه المواد المكتسبة من القرآن هذه المواد المكتسبة من التاريخ الاسلامي :

١ - ان سير التاريخ والحوادث في عهد النبي عليه السلام وبهده مما يؤيد نجاح الدعوة الى سبيل الله في
مختلف الاقطار وبين مختلف الاجناس والالوان والنحل .

٢ - ان الحروب النبوية والفتوحات الاسلامية لم تستهدف فرض الدعوة وانما استهدفت رد العدوان
والاذى وضمان حرية الدعوة . وان بقاء جماعات من اصحاب الاديان الاخرى على مدى الاحقاب وفي
ظروف قوة السلطان الاسلامي العربي العظمى على اديانهم ومعاييدهم وتقاليدهم دليل حاسم على ان الدعوة
كانت ضمن الحطة القرآنية المثلى وهي الحكمة والوعظة الحسنة والجدال بالتي هي احسن وترك المسلمين
والحياديين والمذاهبين والخاضعين وشأنهم إذا ارادوا الاحتفاظ بدينهم مع البرهم والاقساط اليهم وإذا كان
التاريخ سجل شذوذاً فإنه لا يمت بسبب إلى هدى القرآن والسنة النبوية .

٣ - إن الدعوة الاسلامية لم تنشر في ظروف قوة السلطان العربي الاسلامي فحسب بل انتشرت وكسبت
مئات الملايين في مختلف انحاء الارض في ظروف ضعفه ايضاً مما ينطوي فيه دليل حاسم على قوة عناصر
الدعوة وعظمتها لذاتها .

٤ - ان حالة المسلمين الحاضرة من ضعف وجبل وفتور وامتنعاه لا يمكن ان تمت الى هدى القرآن
والسنة النبوية الذي ينطوي على كل اسباب القوة والمعرفة والحق والكرامة والنشاط والحيوية والسؤدد
والرفي والحرية . وإنما هي راجعة إلى اسباب وعوامل طارئة ومتنوعة اخرى . ومنها او من اشدها سوء
فهم ذلك الهدى وسوء تأويله والانحراف عنه .

الباب الثاني
النظام الاجتماعي
الفصل الاول^(١)
في التضامن الاجتماعي

١٤٧ - ان على المسلمين كافة افراد وجماعات كل فريق في نطاق قدرته وامكانه ان يقوم بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتضامن فيه بالاضافة الى واجب الدولة والقائمين بأمرها من ذلك .

١٤٨ - ان القرآن يقرر ان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب لازب وعنوان ملازم للمسلم الصادق يمارسه حينما يمكنه الله في الارض وان المسلمين الصادقين من اجل ذلك كانوا خير امة اخرجت للناس .

١٤٩ - ان التقصير في هذا الواجب وفي التضامن فيه اثم ديني يستحق سخط الله فضلا عن انه مؤد الى افعال المعروف واستثراء المنكر مما فيه ضرر كلي للمجتمع ونقض لصفة المسلم الصادق .

١٥٠ - ان كلمتي المعروف والمنكر عامتان واسعتان . يمكن ان تشمل اولاهما كل ما عرف انه من فاضل الأخلاق والصفات والعادات والأعمال الشخصية والاجتماعية والانسانية ونافعها وحسنها ومستحبها . وثانيتهما كل ما عرف انه من رذيل الأخلاق والصفات والعادات والأعمال الشخصية والاجتماعية والانسانية وضارها وقبيحها ومكروهها . والمقياس في ذلك كتاب الله وسنة رسوله وما تعارف عليه اهل الحل والعقد والعلم والرأي العام في ظرف وعصر انه من هذا او ذاك مما لم يرد فيه قرآن وسنة .

١٥١ - ليس في القرآن تحديد لكيفية القيام بهذا الواجب بما يلهم انه ترك للمسلمين

(١) انظر آيات هذا الفصل وشرحها في كتابنا الدستور القرآني ص ٣٦٨-٣٩٩

ليقوموا به حسب المصلحة والحكمة والظروف . والمتبادر ان قيام الجماعات به على شكل جمعيات متعددة ومتنوعة الاهداف من سلبية وايجابية كمكافحة المسكر والميسر والبغاء والظلم والبغي والباطل والذائل الأخرى وكمساعدة الفقراء والعاجزين وانشاء الملاجئ والمشافي ومنظمات الدعوة الى سبيل الله ومكارم الاخلاق والاصلاح بين الناس هو الأجدى والأضمن للنجاح في هذا الواجب القرآني العظيم .

١٥٢ - ان ما يحتاج إلى الهيئنة والتنفيذ وبذل القوة من الامر بالمعروف والنهي عن المنكر يتوجب على الدولة وما له صلاحية بحياة المجتمع ولا يكفل النجاح فيه إلا بالتضامن وحسن الاضطلاع والتقدير بما لا يحتاج الى بذل القوة يتوجب على الجماعات وما لا يخفى وجه الصواب فيه ولا ينجم عن القيام به فوضى ولا مفسدة هو مجال الأفراد .

١٥٣ - في حالة ما إذا لم يكن للمسلمين دولة عادلة ووقعوا تحت سلطة الاغيار والمتغلبين البغاة فإن هذا الواجب يتوجب على جماعاتهم وافرادهم بلزوم اشد .

١٥٤ - ان على المسلمين كل في نطاق امكانه ومجال نشاطه ان يدعوا الى الخير ويفعلوه ويتضامنوا فيه .

١٥٥ - ان الخير هو كل عمل فيه مكرمة وبر بالآخرين ونفع ومساعدة لهم .

١٥٦ - ان المسلم المقصر في فعل الخير والادعاء اليه والتضامن فيه يعد مقصراً في واجب ديني .

١٥٧ - ان تقصير مجتمع من المجتمعات الاسلامية في الدعوة الى الخير اثم يشمل جميع افراده ويستحق سخط الله فضلاً عن ايرائه الوهن والضعف في البنيان الاجتماعي .

١٥٨ - ليس في القرآن ولا في السنة تحديد للكيفية والاساليب في فعل الخير والدعوة اليه مما يلهم انه ترك للمسلمين حسب ما يرون فيه المصلحة والحكمة . على ان قيام الجماعات به بشكل جمعيات ومنظمات هو الاجدى والأضمن للنجاح .

١٥٩ - ان القرآن قد استهدف قيام مجتمع اسلامي قوي عزيز متضامن في كل ما فيه الخير والمصلحة وضد كل ما فيه الشر والضرر وواجب على المسلمين تحقيق هذا الهدف .

١٦٠ - ان من صفات المسلمين وواجبهم التعاون على كل ما فيه مكرمة ونفع وبر وخير وطاعة الله ورضوانه والتضامن ضد كل ما فيه اثم وشر وضرر ومعصية .

١٦١ - ان من صفات المسلمين وواجبهم ان يتواصوا بالحق والصبر والمرحمة وان يبشوا ذلك فيما بينهم وان يتضامنوا فيه .

١٦٢ - ان الانحراف عن هذه الصفات والتقصير بهذا الواجب بخلاف بصفة الاسلام وصدقه ومستوجبان لسخط الله ومقته فضلا عن انها مؤديان الى وهن المجتمع الاسلامي .

١٦٣ - ان موالاة الاعداء وموادتهم بأي شكل وسبب محظورة على المسلمين ومنافية للاخلاص والواجب للمجتمع الاسلامي ودالة على عدم الصدق في الاسلام ومستوجة لسخط الله ومقته .

١٦٤ - ان على المسلمين واجب تبادل الولاء والاخلاص فيما بينهم في أي حال وظرف .

١٦٥ - ان التنازع والخلاف والفرقة والقتال فيما بين المسلمين مؤد إلى وهن الكيان الاسلامي وتشتت شمل المسلمين وهو محظور عليهم واثم ديني مستوجب لسخط الله . وعليهم واجب التضامن في منع ذلك واصلاح ما بين المتنازعين منهم بالحق والعدل ورد الباغي منهم وارغامه الى الحق .

١٦٦ - ان اثاره الفتنة والفساد والكيد بين المسلمين من أشد الآثام الدينية المستوجة لسخط الله ومؤدية إلى توهين الكيان الاسلامي .

١٦٧ - ان على المسلمين واجب التضامن في الوقوف موقف الشدة والحزم تجاه الفئات المفسدة الحبيثة المثيرة للفتن وقمع شرورها دون اي تساهل أو تأثر برحم أو مصلحة خاصة . وهو مقياس لاخلاص المسلم لدينه . والتقصير فيه مستوجب لسخط الله .

١٦٨ - ان البر بالفقراء والمساكين والمحتاجين والتصدق عليهم ومنع الأذى عنهم والاخذ بيدهم في كل ظرف واجب على المسلمين بقطع النظر عن اي اعتبار . ومؤد الى قوة بنانهم والتقصير في هذا الواجب اثم ديني مستوجب لسخط الله .

١٦٩ - لا يجوز للمسلم ان يقصر في هذا الواجب بسبب ما قد يبدو من الفقير والضعيف من افعال او مواقف مثيرة او بسبب خلاف في الدين والنحلة والمذهب .

١٧٠ - لا يجوز للمسلم ان يمن على الذين يتصدق عليهم ويحميهم يأخذ بيدهم . ولا ان يؤذيهم بالكلام ويجرح عواطفهم كما لا يجوز له ان يتصدق برديء ما عنده . وفاعل هذا وذاك آثم مستوجب لسخط الله .

الفصل الثاني

الحرية والاخاء والمساواة في الاسلام^١

١٧١ - ان القرآن قد توحى ان يتمتع المسلمون كافة بالحرية والمساواة والاخوة بصورة عامة ضمن نطاق الحق والعدل والقصد .

١٧٢ - ليس لحرية المسلم حدود إلا المحرمات والواجبات الدينية التي تتناول أولاهها الجبائث والفواحش والمنكرات والبغي وسيء العادات والاعمال والاخلاق ومكروهاها ، وثانيها القيام بأركان الاسلام والدعوة الى الله وطاعة أوامر الله ورسوله وأولي الأمر بما فيه المصلحة والحياة والمعروف والتزام الحق والعدل والبر وصالح العادات والاعمال والأخلاق ومستحباتها ضمن وسع النفس وطاقتها .

١٧٣ - ان القرآن قد وطد الاخوة بين المسلمين بكل قوة دون فرق ولا اعتبار جنسي ولوني وحسبي ومالي . وجعلها من صفات الاسلام وملازماته الطبيعية . ووجب الاصلاح بين المتنازعين منهم منعاً لكل تصدع . والاجتماع على رد الباغي على غيره دفعاً لكل ظلم يتنافى مع هذه الاخوة . وتلقينات القرآن قد أثرت تأثيراً ايجابياً قوياً ومستمراً بحيث يصح ان يقرر ان عاطفة الاخوة بين المسلمين هي اقوى منها في غيرهم .

١٧٤ - ان القرآن قد وطد المساواة التامة في الحقوق والتكاليف والمباحات والمحظورات والثواب والعقاب بين جميع المسلمين ذكورهم وإناثهم دون تمييز احد على احد . وقضى على كل تمايز بسبب الجنس واللون والحسب والمال والمركز الاجتماعي .

١٧٥ - ان ما منحه القرآن للرجل من منح قليلة دون المرأة كمضاعفة الارث وحق القوامة وواجب الانفاق وجعل شهادتها في بعض الامور دون شهادته هي خصوصيات متصلة بطبيعة كل منها وواجباته . والقوامة خاصة هي في نطاق الحياة الزوجية . وليس من شأن ذلك ان ينقص او يخل في مساواتها التامة معه في التكاليف والحقوق والمباحات والمحظورات والثواب والعقاب والحدود مما اقره القرآن بكل قوة وصراحة .

(١) انظر الآيات القرآنية في هذا الباب وشرحها في كتابنا الدستور القرآني ص ٤٠٣-٤٢٢

١٧٦ - ان ما جاء في القرآن من الاشارة الى رفع بعض الناس على بعض هي بسبيل تقرير الواقع القائم . وليست ايجاباً ونظماً مستمر الزوم كما ان تفاوت الناس في الرزق وبسطة العيش ليس بما ينبغي ان يتأثر به حقوق الناس وواجباتهم ومساواتهم الاجتماعية والسياسية والفردية من حيث المبدأ . وليس في القرآن ما يجعل هذا التفاوت نظاماً مستمراً . وإذا ما سارت الدولة وفق تلقينات القرآن وحالت دون استقطاب الثروة في فئة محدودة ونظمت تداولها بين مختلف الفئات تزعزع الركن الأساسي لهذا التفاوت وخف كثيراً حتى يزول .

١٧٧ - ان القرآن في اقراره الرق انما اقر واقعاً كان شائعاً في الدنيا ولم يقصد الى اقراره كنظام واجب الاستمرار او ايجاب التمايز الطبقي به . ولا فرق في الاسلام بين الحر والعبد في الواجبات الدينية ونتائجها الدنيوية والاخرية .

وقد احتوى القرآن تلقينات وتوجيهات وتشريعات تؤدي الى الغائه . سواء في شأن أسرى الحرب او في عتق الرقيق . ووجب على مالية الدولة المساهمة في تحرير الرقاب . وليس في القرآن ولا في السنة تسويغ لاسترقاق المحايدين والمسلمين والمعاهدين من غير المسلمين ولا ايجاب استرقاق المحاربين من غير المسلمين . كما ان استرقاق الحر المسلم ممنوع البتة .

الفصل الثاني

في نظام الاسرة والآداب السلوكية^١

أولاً - في الحياة الزوجية :

١٧٨ - ان القرآن قد حض المسلمين عامة على التزواج وأمر بالتساهل فيه والمساعدة عليه بالنسبة للطبقات الفقيرة خاصة .

١٧٩ - انه اسهدف من الزواج انشاء كيان للأسرة يقوم على المودة والرحمة والوفاق والاستقرار والاستمرار والواجبات والحقوق المتقابلة . وندد بالزواج الذي لا يهدف الا الى اشباع الشهوة ولا يكفل الاستقرار والاستمرار .

(١) انظر الآيات الواردة في هذا الباب وشرحها في كتابنا الدمنور القرآني ص ٤٢٤-٤٨٠

١٨٠ - انه عظم من شأن الرابطة الزوجية تعظيماً كبيراً . وحث على الوفاق والصلح وتقادي النزاع بكل وسيلة .

١٨١ - انه اوجب على الزوج حسن المعاشرة وكظم الغيظ وعدم الاستجابة الى عاطفة الكراهية والنزوات العابرة . ووجب على الزوجة الاخلاص والطاعة والامانة وعدم الانحراف والنشوز . وحفظ الزوج في ماله وعرضه وكرامته في حالتي الغيبة والحضور .

١٨٢ - انه اوجب على الزوج مهراً للزوجة . كما اوجب عليه نفقتها بالمعروف وحسب قدرته سعة وضيقاً . وجعل له مقابل ذلك ومقابل ما امتاز به الرجل من ميزات حق القوامة عليها وتاديبها في حالة شذوذها وانحرافها ونشوزها واختلالها بالواجبات التي اوجبت عليها مستهدفاً بذلك ضمان اصلاحها وارعائها وتقادي الطلاق والكوارث الاخرى . وجعل لها عليه حقوقاً . وشدد في رعاية هذه الحقوق وفي عدم مضارتها وابتزاز اموالها .

١٨٣ - ان نصوص القرآن صريحة بأن قوامة الرجل على المرأة منحصرة في الحياة الزوجية . ولا قوامة له عليها في شؤونها المدنية . فهي تستمع بكامل حريتها في ذلك دون حاجة الى اذن منه

١٨٤ - ان القرآن اباح للرجل جمع اربع زوجات في عصمته بشرط العدل . وامر بالاعتصار على واحدة في حالة احتمال عدم العدل مع تقريره عدم الاستطاعة فيه ولو حرص المرء عليه بما ينطوي في هذا وحده الزوجية ووجوب قصر رخصة التعدد على الظروف الضرورية التي تنطوي فيها حكمة الاباحة .

١٨٥ - انه اباح الطلاق الذي يقصد به الفراق بعد ان تحقق الجهود الواجب بذلها في سبيل التوفيق . ويصبح الفراق لا ندحة عنه لمصلحة وحياة كل من الزوجين . وقد رسم للطلاق خطة حكيمه متسقة مع هدف الابقاء على الرابطة الزوجية ما أمكن ذلك .

١٨٦ - انه قرر مبدءاً اساسياً لدوام الحياة الزوجية وهو الامساك بالمعروف والحسن فان لم يمكن فالفراق والتسريح بالمعروف والحسن كذلك . ونهى عن امساك الزوج زوجته بنية ضررها وابتزاز اموالها ، وهى اهل الزوجة عن منعها عن العودة الى زوجها في حالة الطلاق اذا تراضى الزوجان . والتلقين القرآني ينحول القضاء الاسلامي التدخل في حال مخالفة الزوج لهذا المبدأ امساكاً او تسريحاً . ولا يسيغ اكرام المرأة على معاشرته زوجها بالقوة بما يسمى ببيت الطاعة .

١٨٧ - انه اوجب للمطلقات عامة تعويضا مناسبا حسب المتعارف فضلا عن المهر ونفقة العدة .

١٨٨ - ليس في القرآن طلاق لم يقصد به الفراق . ولا طلاق بات مرة واحدة للزوجة المدخول بها .

١٨٩ - انه اجاز تطليق الزوجة التي لم يدخل بها زوجها . ومثل هذا الطلاق يعد باثنا بحيث يجوز استئناف الزواج بعقد ومهر جديدين . وليس على الزوجة عدة فيه ، واوجب لها نصف المهر المسمى .

١٩٠ - انه ندد باليمين على هجر الزوجة الطويل . وحدد اربعة اشهر بحيث تطلق منه اذا حلف على هجرها وامتد الهجر اكثر من ذلك

١٩١ - انه ندد بالزوج الذي يحرم زوجته على نفسه بالمظاهرة كما يحرم امه . واوجب عليه ان يكفر عن قوله بالكفارة الشديدة قبل المعاشرة .

١٩٢ - انه حظر التزواج بين المسلمين وغير الكتابيين واباح زواج المسلم من الكتابية دون زواج المسلمة من الكتابي .

١٩٣ - ليس فيما حرم القرآن من الانكحة حرج على المسلمين في حال . وما حرمه هو ما جرى العرف البشري على تحريمه او فيه فاحشة سيئة .

١٩٤ - ان اهل المذهب الشيعي يتاولون في اجازة نكاح المتعة الذي يكون لمدة معينة . اما جمهور اهل السنة فهم في بجانب تحريمه .

١٩٥ - ان القرآن حث على تزويج العبيد والاماء الصالحين للزواج ومساعدتهم على ذلك . واباح لمالك الاماء استفراس من شاء منهن بدون عقد ولا مهر . واباح زواج الحر بالامة باذن مالِكها . وليس في القرآن ما يمنع زواج الحر بالعبدة . وليس في القرآن اي اختصاص وتفریق في حالات الزوجية ونتائجها بالنسبة للرقيق والاحرار باستثناء جعل عقوبة الزنى على الامة المتزوجة نصف عقوبته على الحر .

(١) لاجل ان يكون استفراس الامة صحيحا يقتضي ان يكون رقا صحيحا . والرق الصحيح اما من التسلسل من اسرة مسترفة قبل الاسلام او نتيجة سبي واسر في قتال شرعي بين المسلمين وغير المسلمين . وعلى هذا فان شراء الاناث غير المسلمات من اهلن او جلبن من بلادهن خطفا ويبيعن ليس رقا صحيحا .

١٩٦ - انه اعتبر المرأة في حالات الزواج ونتائج طرفا ثانيا نافذ الاجراء . فلا تزوج الا برضاها وموافقتها وهي تقبض مهرها وتتصرف فيه كما تشاء^١ .

١٩٧ - ان نصوص القرآن وروحه تلهم ان الزواج وحالاته ونتائجها هي ذات طابع مدني ولا تتوقف على مراسم دينية كهنوتية كما هو الشأن في الأديان الاخرى .

ثانياً - المواريث والوصية :

١٩٨ - ان القرآن وطد حق الرجال والنساء على السواء في الارث . ومنع الجلولة دون استيفاء اي منهم حقه فيه . وعين النسب المستحقة لكل فئة في الحالات الرئيسية . وأكملت السنة ما سكت عنه من الحالات الثانوية .

١٩٩ - انه قرر كبداً عام ان نصيب الذكر ضعف نصيب الانثى . وحكمة ذلك واضحة لأنه اوجب على الزوج الاتفاق على زوجته واسرته .

٢٠٠ - انه قرر ان الارث الواجب توزيعه هو ما فضل عن التركة بعد اداء دين المورث وتنفيذ وصيته . وحظر عدم قصد الاضرار والجنف في الدين والوصية^٢ .

٢٠١ - انه حث على الوصية كما حث الورثة على البر بالايتام والمساكين وذوي القربى المعوزين حين قسمة التركة . وفي هذا تلقين باستحباب الوصية للايتمام والمساكين ووجوه البربالاضافة إلى الاقارب غير الوارثين .

٢٠٢ - ان في القرآن نصوصا وعبارات تلهم ان القضاء في الدولة هو مرجع لمختلف الشؤون الشخصية من نكاح وطلاق وعدة وارضاع ومهر وتعويض ونفقة وارث ووصية واصلاح وتوفيق وحل مشاكلها وتنظيمها .

٢٠٣ - ان هذه الشؤون جاءت في القرآن فريدة من حيث التحديد والتفصيل لأنها متصلة بحياة ومشاكل كل فرد . وكانت قبل الاسلام فوضى ومائعة . وليس في ما حدده ما يمكن

(١) قيدت السنة زواج البكر بموافقة وليها مع ايجاب موافقتها على كل حال واجازت موافقة الاب على عقد نكاح ابنته القاصرة .

(٢) اتمت السنة تشريع ذلك فنمت الوصية للوارث وكرهت الوصية بأكثر من ثلث المال تفاديا للحيث بالورثة . ربيهم للفاقة والموز . ويلو لنا ان الوقف القدي يمد اليه بعضهم لحرمان النساء او بعض الورثة مما يجب منه لان فيه قصد الضرر ومنع حق منحه الله .

ان يتناقض مع مصلحة البشر وتطورهم مع ذلك .

ثالثاً - توطيد اواصر الاسرة :

٢٠٤ - ان القرآن اسبغ على كيان الاسرة حقاوته واستهدف تقويته بتقوية الاواصر بين افراده .

٢٠٥ - انه اوجب البر بالوالدين والاقارب ومساعدتهم في كل حال . غير انه قيد هذا الواجب بمقتضى الحق والعدل ودين الله ومصلحة المسلمين العامة .

رابعاً - الآداب السلوكية :

٢٠٦ - ان القرآن اوجب على المسلمين الاستئناس والاستئذان والاذن قبل دخولهم بيوت غيرهم . والكلام في ذلك مطلق يسوغ القول انه عام للرجال والنساء والاقارب والاباعد .

٢٠٧ - ليس فيه ما يمنع دخول الرجال على النساء والنساء على الرجال بعد الاستئناس والاستئذان والاذن مع توخي حسن النية وطهارة القصد والادب والاحتشام باللباس وستر المفاتن بالنسبة للمرأة .

٢٠٨ - انه حظر دخول الخدم والاطفال لمخادغ الأزواج بدون اذن في اوقات التبذل وهي قبل صلاة الفجر وبعد صلاة العشاء ووقت الظهيرة .

٢٠٩ - انه اوجب على المسلمين والمسلمات على السواء غض الأبصار والعفة .

٢١٠ - انه اوجب على المسلمة ان تحتشم في لباسها وتستر مفاتها وزينتها عن غير محارمها .

٢١١ - ليس في القرآن نص صريح يحظر على المرأة كشف وجهها ويديها بل وفيه ما يلهم استثناءها من الستر والحجب . وليس على المسلمة والحالة هذه اذا ما احتشمت في لباسها وسترت مفاتها بأس اذا هي سفرت عن وجهها ويديها ومارست شؤونها المشروعة التي اباحها لها القرآن اسوة بالرجل . في حدود المعروف والبعد عن المنكر ودواعي الفتنة ومواطن الريب والاماكن العامة غير البريئة .

٢١٣ - ليس على النساء اللاتي لسن اهلا للنكاح بسبب السن وغيره بأس في التخفف وعدم التشدد في التستر مع واجب الحشمة والبعد عن التبذل .

٢١٤ - ليس في القرآن قيود واشكال خاصة لتناول الطعام وبجالبه الا واجب حسن المعاشرة وتبادل التحيات . وليس فيه ما يمنع مشاركة الرجال والنساء في مائدة واحدة سواء اكلوا اقارب أم اباعد .

٢١٥ - ان القرآن اوجب الرفق بالضعفاء من مرضى وعمي وعرج وتطبيب خاطرهم ونفوسهم وعدم التشدد معهم فيما هو واجب على الاصحاء من آداب السلوك .

٢١٦ - ان ما قصد يلهمه القرآن تحييد السكن المتفرق بحيث يكون للآباء مساكن وللبناء مساكن فضلا عن الاخوان والاعمام والاخوان .

الفصل الرابع

مبادئ اجتماعية عامة ١



٢١٧ - ان القرآن يقرر ان صلاح اي مجتمع وفساده منوطان بالدرجة الاولى بما تكون عليه اخلاق افراده ونفوسهم من صلاح وفساد .

٢١٨ - انه يقرر ان فساد المجتمعات كثيراً ما ينشأ من فساد اكبره وزعمائه الذين هم القدوة لأفراد المجتمع ويحملهم مسؤولية هذا الفساد .

٢١٩ - انه يقرر ان التمكن في الارض تبسطا وسلطانا واستمئاعا وقوة ورفاهاً ونجاحاً هو من حظ المجتمع الذي يكون غالب افراده من عباد الله الصالحين المتعطين بمكارم الاخلاق وفاضل العادات وحسن الاستعداد والتزام الحق والعدل ، ويدعو الى التحلي بذلك .

(١) انظر الآيات الواردة في هذا الباب وشرحها من كتابنا الدستور القرآني ص ٤٨٩-٥٠٨ .

٢٢٠ - انه يقرر على لسان ملكة سبأ أن الغزاة الاجانب يفسدون اخلاق البلاد التي يتغلبون عليها ويوهنون من قوتها ويدلون أعزتها . ويفصمون وروابطها وان الخير كل الخير والواجب كل الواجب هو الحيلولة دون وقوع نكبة الغزو بكل وسيلة ممكنة .

٢٢١ - انه يقرر ان الباطل مهما لمع فانه لن يلبث ان يزهد ويضمحل . وان الثبات والنفع هما للحق وحسب . وان من واجب الناس ومصلحتهم تأييد الحق ونبذ الباطل .

٢٢٢ - انه يحظر على المجتمع وافراده ان يتمسكوا بقديم لقدمه أو يناوؤا عن جديد جديده . والضابط الذي يوجب ان يستلهمه الناس في عاداتهم وتقاليدهم وعقائدهم وأعمالهم وخططهم هو الحق والخير والعدل والمصلحة بقطع النظر عن الجدة والتقدم .

٢٢٣ - انه يوجب على الناس التروي والالانة في رواية الأنباء واستماعها لاحتمال القصد السيئ والنية الحبيثة والرعونة فيها . ولما يترتب على التهور والتسرع في نقلها وتصديقها من المفساد والأضرار العامة والخاصة .

٢٢٤ - انه يحظر تتبع عورات الناس والتدخل فيما لا يعني واساءة الظن بدون مبرر والتجسس والغيبة والنميمة لما يترتب على ذلك من مفساد واضرار عامة وخاصة .

٢٢٥ - انه يوجب على المسلمين ان يترووا في ظروف الفتن وشوائع السوء لما يترتب على الاندماج فيها ولو بحسن نية من مفساد وأضرار لا يقتصر ضررها على منيرها . ويوجب عليهم ان يقفوا موقف الشدة من مثيري الفتن وشوائع السوء ويتضامنوا في قمعها وتقادها .

٢٢٦ - انه يشجب التفرق في الدين شيعاً واحزاباً اندفاعاً وراء الهوى والمطامع لما يؤدي اليه من مفساد اجتماعية عظيمة من نزال وقتال وتعصب اعمى وخلاف وحقد وبغضاء وانحلال روابط . ويقرر عظم مسؤولية رجال الدين في هذا الشأن سلباً وإيجاباً .

٢٢٧ - ان التلقينات القرآنية توجب على جماعات المسلمين وذوي الشأن فيهم بذل الجهد والتوسل بكل وسيلة للقضاء على الانقسامات الطائفية والخلافات والفوارق المذهبية .

الباب الثالث

النظام الشخصي

الفصل الاول

في

الاخلاق والصفات الشخصية^١



٢٢٨ - ان القرآن قد حفل اعظم الاحتفال بأخلاق المسلم وتقويمها وتربيتها . بحيث لم يتروك صغيرة ولا كبيرة مما يتصل بالاخلاق الصالحة والسينة إلا نبه عليها موجباً التزام الاولى متوخياً تقويتها محذراً من الأخرى مثيراً لمقتها . اذفاً بذلك الى ان يكون المسلم في اخلاقه نموذجاً للكمال الانساني وان يكون الانساق تاماً بين التربية القرآنية الاخلاقية الشخصية والتلقينات القرآنية السياسية والاجتماعية .

٢٢٩ - انه خاطب العقل والقلب معاً في ما توخاه من هذه الحفاوة فوعده واعد من ناحية وبين ما للاخلاق من آثار في حياة الانسان صلاحاً وفساداً من ناحية ثانية .

٢٣٠ - انه احتوى مجموعات رائعة جاء بعضها بأسلوب الأمر والتنويه وبعضها بأسلوب النهي والتنديد ويصح ان يكون كل منها دستوراً اخلاقياً خالداً نافذاً إلى اعماق القلوب والعقول .

٢٣١ - انه اهتم لبيان كون الاخلاق الحسنة فضيلة بذاتها ودعا الى الاهتمام للجوهر أكثر من العرض ولذاتية الفضائل أكثر من الأشكال والمظاهر .

٢٣٢ - انه استند في الجملة على الظلم - أي الجور والبغي والطغيان - ودعا الى الوقوف منه موقف المنكر المقاوم .

(١) انظر الآيات الواردة في هذا الباب ومشرحها في كتابنا الدستور القرآني من ٥١٣ - ٥٤٩

٢٣٣ - انه اشتد في الحملة على الكذب والكاذبين . كما حفل بالصدق والصادقين وهدف الى بث مقت الكذب واجتنابه وحب الصدق والتزامه في نفس المسلم .

٢٣٤ - انه احتفى كثيراً بفضيلة الصبر في الشدائد والخطوب وعدم الجزع . وهدف الى تربية المسلم على هذه الفضيلة . وليس فيما جاء في هذا الصدد ما يفيد تسويق الصبر على الذل والظلم .

٢٣٥ - انه اكثر من الدعوة الى تقوى الله في مختلف الاعمال والتصرفات هادفاً بذلك الى جعل المسلم رقيقاً على نفسه ومراقباً لله في ما يفعل ويقول متوخياً تنبيه الضمير وتقوية الوازع الداخلي فيه .

٢٣٦ - انه نهى عن اتباع الهوى . وندد بالذين يتبعون أهواءهم ويقفون من الحق موقف المكابر . متوخياً بذلك النأي بالمسلم عن هذا الخلق وبث روح الحق والحقيقة واحترامها في نفسه .

٢٣٧ - انه انفرد في تحذير الربا والخمر والميسر وتقرير ما انطوى فيها من أضرار وشرو متوخياً بذلك إبعاد المسلم عن هذين الشرين الضارين بكرامته وصحته وماله ودينه .

٢٣٨ - انه انفرد في تحذير الربا واشتد في الحملة على المرابين واكل الربا اضعافاً مضاعفة واستغلال عسر الناس وعوزهم ودعا الى التساهل والتسامح مع المعسرين والمعوذين .

٢٣٩ - انه اشتد في التنديد بالمكبرين والمختالين ونهى عن السخرية بالناس ونبذهم بالألقاب وغمزهم ولزمهم . وعن تتبع شؤون الناس والتدخل فيها والتجسس على الناس وغيبتهم وأكل أموالهم بالباطل والتحايل عليهم واستغلال الضعفاء والفقراء والمحتاجين والاحجاف بمقوقهم ومناصرة الأقارب بالباطل هادفاً بذلك النأي بالمسلم عن هذه الاخلاق والاعمال المكروهة وبث احترام الناس وحقوقهم وكراماتهم في نفسه .

٢٤٠ - انه اشتد في التنديد بالمنافقين اقوالهم بأفعالهم والمخادعين في مظاهرهم وحقائقهم والذين يفضبون من النصيحة ويأمرون الناس بالبر وينسون انفسهم والذين يتخذون اسم الله واليبين به ذريعة الى الامتناع عن الخير والبر والمعروف متوخياً بذلك تحلي المسلم بالصدق والحق في سريره وعلمه وجعله يفعل الخير والمعروف مع الناس بقطع النظر عن اي اعتبار .

٢٤١ - انه جعل الاحسان والصدق والعدل والانصاف والحسن والبر بالضعفاء ودور الحسنة بالسبئية

و كظم الغيظ والعفو والتسامح ضوابط وقواعد لتعامل المسلمين فيما بينهم .

٢٤٢ - انه توحى فيما توحاه من لفت النظر الى نعم الله وما أودعه في الكون من منافع ونواميس الاقبال على الانتفاع بذلك والجد والدأب والسعي للرزق الحلال . وجعل ذلك من حق جميع الناس دون ما تميز ولا تفاضل . هادفاً بذلك تحلي المسلم بالشكر الاخفاف والسعي في سبيل الكسب الحلال وعدم البقاء عالة على غيره كلاً على مجتمعه .

٢٤٣ - انه استهدف فيما احتواه من وعد ووعد اخر وبين بالاضافة الى ما فيها من حقيقة ايمانية تنبيه ضمير المسلم ليتوخى الحق والعدل وصالح العمل ويتحلى بفاضل الاخلاق في حياته وتصرفاته مع الناس .

٢٤٤ - انه استهدف فيما اوجبه من تكاليف تعبدية كالصلاة والصوم بالاضافة الى اداء حق الله الواجب جعل المسلم ذا كرامة دائماً فيقبل على ما حض عليه من مفاعيل الأعمال ويتبعد عما نهى عنه من الفحشاء والمنكر .

٢٤٥ - انه استهدف فيما احتواه من بيان ما للسنن والحسنات من آثار ونتائج في الحياة جعل المسلم يدرك بالعقل والامثال ان اجتناب الاولى والتزام الثانية من مصلحته .

٢٤٦ - انه احتوى تنويهاً متكرراً بوجوب التدبر واعمال الفكر والعقل والنظر بما يسوغ القول ان القرآن يقرر ان القراءة والكتابة والعلم والتعلم واعمال الفكر والعقل من الصفات الصالحة التي يجب ان يتصف بها المسلمون وان لهم ان يتوسلوا بكل وسيلة الى ذلك بما في ذلك الاقتباس من الغير ليتسكنوا من القيام بواجباتهم المتنوعة وممارسة ما اوجده الله فيهم من قوى والانتفاع بها في مختلف المجالات . وليس في القرآن ولا في السنة تحديد لمجال العلم والفكر والاقتباس الا واجب التزام العقائد الصحيحة وما تقتضيه مبادئ القرآن والسنة وتلقيناتها السامية من الآداب والاخلاق الصالحة .

٢٤٧ - ليس في ما كل ما ورد في القرآن من اوامر ونواه وتنويهاً وتنديدات اخلاقية بما في ذلك الحث على العلم والتعلم واعمال الفكر والعقل والتكسب تخصيص الرجل دون المرأة . وكل ما ورد من خطاب قرآني في هذا الشأن شامل للمسلم والمسلمة على السواء تبعاً لمساواتها في التكاليف المتنوعة ونتيجة لتساويها في الاهلية والمواهب .

الفصل الثاني

اصلاح المسلم ومعالجته روحياً^١

٢٤٨ - ان القرآن احتوى تلقينات متنوعة توخى بها اصلاح المسلم ومعالجته خلقياً وروحياً .

٢٤٩ - انه توخى بصورة عامه التوسعة وعدم الاحراج سواء اكان ذلك في تكاليف العبادة أم التعامل والمعاش وشؤون الحياة .

٢٥٠ - انه نهى عن حرمان النفس من الاستمتاع بطيبات الرزق وزينة الحياة واستنكر التقشف والتزمت . ولم يقيد المسلمين إلا بالطيب الحلال والقصد والاعتدال والبعد عما هو خبيث وفسق ورجس .

٢٥١ - انه سمح للمضطر بفعل المحظور عليه ضمن نطاق الضرورة وظروفها .

٢٥٢ - انه رفع عنه الحرج والمسؤولية عما يصدر منه بسائق النسيان والخطأ والاكراه من اعمال محظورة بشرط توفر حسن النية وطهارة القصد وباستثناء ما يسبب ضرراً بليغاً حيث اوجب التعويض مع حصر المتضرر على العفو .

٢٥٣ - انه نهى عن جعل اليمين وسيلة لعدم البر والاصلاح والتقوى ومساعدة المحتاجين والحرمان من الطيب الحلال . ورفع حرج اليمين اللغو التي لا نية للضرر فيها . كما امر بالكفارة عن اليمين التي فيها تحريم لما احل الله او اذى وضرر ومجانبة للبر والتقوى والاصلاح .

٢٥٤ - انه قرر عدم تكليف المرء بما لا يطبق سواء فيما يتصل بالعبادات او الشؤون الدنيوية الاخرى . وينطوي في هذا عدم مسؤولية عما لا يطبق .

٢٥٥ - انه قرر عدم مؤاخذة المرء بما يأكل ويشرب . ولم يقيد به باسم وقيود خاصة عدا حدود الحلال الطيب وحسن النية واللطف في المعاشرة .

(١) انظر الآيات الواردة في هذا الباب وشرحها في كتابنا الدستور القرآني ص ٥٥٣ - ٥٨٨

٢٥٦ - انه انكر التحليل والتحریم بغير علم وسند

٢٥٧ - انه دعا إلى الاهتمام بجمهور الأعمال والفضائل وذاتيتها أكثر من أشكالها ومظاهرها .

٢٥٨ - انه طمأن الذين يمتنعون كبائر الاثم والفواحش بأن الله يتجاوز عما يلمون به من المفورات والذنوب الصغيرة .

٢٥٩ - انه قرر ان الرسالة النبوية استهدفت تحليل الطيبات وتحريم الجبائث وتخفيف التكاليف الشديدة السابقة .

٢٦٠ - انه دعا إلى التوبة . وقد شملت هذه الدعوة جميع ما يصدر من الانسان بصورة عامة والمسلم بصورة خاصة من مواقف واعمال وآثام .

٢٦١ - ان الدعوة القرآنية إلى التوبة قد انطوت على مقاصد اصلاحية وتربوية جليلة للانسان بصورة عامة والمسلم بصورة خاصة بحيث تهیء للآثم المخطئ مجالا لاستئناف حياة جديدة صالحة مملوءة بالرجاء .

٢٦٢ - انه شرط في التوبة أن يرافقها عزيمة صادقة على رجوع التائب إلى الله والحق والصواب والصلاح وتلافي ما كان منه من ضرر وفساد . وأن تقع في متسع من العمر والعافية والقوة ليتحقق بذلك المقصد الاصلاحی .

٢٦٣ - انه نهى عن القنوط واعتبره من تقاضى الايمان . وبث الرجاء والامل واعتبرهما من مظاهر الايمان .

٢٦٤ - انه يلهم ان الامل والرجاء بما يبعث القوة والروح والنشاط في الانسان في حين ان القنوط يفقده ذلك .

٢٦٥ - انه توخى تثبيت قلب المسلم وتشجيعه على التضحية والاقدام وتحمل الشدائد والمشاق والمكروه بنفس راضية مطمئنة .

٢٦٦ - ان ما ورد فيه من آيات تضمنت وصف مصائر الناس الاخرية قد انطوت على وسيلة إلى تعويد المسلم الامل والرجاء في المستقبل وجعله يواجه متنوع الاحداث والخطوط بدون تدمير ولا اضطراب بالاضافة الى ما انطوت عليه من الحقيقة الايمانية .

٢٦٧ - ان ما ورد فيه من آيات تعد المؤمن باليسر والأمن والنصر قد انطوت على وسيلة لتنمية الجلد والصبر والمقاومة في المسلم وخاصة في الظروف الصعبة والمواقف الحرجة .

٢٦٨ - انه حث على تحمل ما يشق على النفس مما فيه خير آجل . وانطوى في ذلك وسيلة لبث الطمأنينة والهدوء في نفس المسلم وتنمية نوازع الحق والبر والأمل فيه .

٢٦٩ - ان ما ورد من آيات تحض على التقوى وتعد بالفرج واليسر قد انطوت على وسيلة لبث الأمل في المسلم وعدم الاستسلام لليأس والقنوط أمام النوازل والخطوب .

٢٧٠ - ان القرآن قد دعا الى التوكل على الله . وانطوى في هذه الدعوة وسيلة لتطمين نفس المسلم وجعله اقرب على مواجهة الخطوب والأخطار .

٢٧١ - ليس في تلقينات القرآن ما يوحى بالاستسلام للكروه والبغي والخطر والحرمان والشظف والظلم والرضاء بذلك وما يبدو من هذا في سواد المسلمين هو أثر من آثار سوء فهم القرآن والغفلة والانحطاط الذي عاشوا فيه دهرًا طويلا .

الفصل الثالث

مسؤولية المسلم عن عمله



٢٧٢ - ان القرآن يقرر أن الله قد جعل في الانسان قابلية الخير والشر والتقوى والفجور وكلف العاقل الراشد وأوجب عليه مسؤولية أعماله وحمله نتائجها وجعل له إرادة واختياراً يباشر أعماله وتصرفاته بها .

٢٧٣ - ان الذهنية الراسخة في سواد المسلمين بكون الانسان مسير غير مخير وبعدم تأثير إرادته واختباره وكون ما يفعله من افعال هو بما قدر عليه في الازل ولا مناص له عنه لا تتفق مع التعليمات والتلقينات والتقريرات القرآنية والحكمة المنطوية فيها . وانما هي طارئة على المسلمين نتيجة لما قام في العصور الاسلامية الاولى من فتن سياسية وجدلية .

٢٧٤ - لا يجوز للمسلم أن يظن أن في القرآن تعارضاً . فإذا قصر فهمه عن شيء وبدأ

له فيه تعارض فعليه أن يأخذ بالصريح المحكم المتفق مع الحكمة الالهية وأن لا يورط نفسه في الجدل ويمطل قواه ومواجهه التي أودعها الله فيه .

٢٧٥ - إن تقرير القرآن لمسؤولية الانسان عن عمله وقابليته للكسب والتصرف حراً مريداً خيراً وشرأً وصلاًحاً وفساداً قد تضمن حفز المسلم على التفكير والتبصر والامعان والتدبر في أعماله وتصرفاته وعزائمه ونواياه لمباشرة ما يضمن له السعادة والمناة والنجاح والنجاة في الدنيا والآخرة ولاجتناب الهوى والتقصير والاهمال والطيش والشذوذ عن جادة الحق والعدل والخير والنجاح والنجاة والإصلاح نفسه وتلافي تقصيره^١ .

(١) مرجع هذا الفصل آيات سورة البقرة ٣٨ و٣٩ و٨١ و١٧٧ و٢٨٦ وآل عمران ٣٠ و ٩٥ والنساء ٢٧ و ٢٨ و ٦٦ و ١١٦ و ١٢٣ و ١٢٤ و ١٣٠ و ١٣٤ والمائدة ٩٠ - ٩١ والأنعام ٣٢ و ٣٣ و يونس ١٠٨ و ٥٢ والحجر ٩٢ و ٩٣ والنحل ١١١ و ١١٢ والاسراء ١٥ و ١٩ والكهف ٢٩ و ٣٠ والنمل ٨٩ و ٩٣ والزمر ٧ والنجم ٣٣ و ٤١ والبلد ٢٠ و ٢٨ والشمس ٧ و ١٠ والليل ٥ و ١٠

الفهرس المفصل لمحتوى الجزء

من ص الى ص	
٤	١٤ المقدمة مع بحث مصادر تاريخ دور العروبة الصريحة في الاسلام
	تمهيدات
١٦	٢٠ ١- الظروف الخطيرة التي انبثق فيها الاسلام
٢١	٢- حكمة اختصاص الحجاز ببعثة النبي محمد ﷺ
٢١	٢٣ ٣- محتوى واهداف الرسالة المحمدية
٢٣	٢٧ ٤- شأن الجنس العربي ومسؤوليته في الرسالة المحمدية
٢٧	٣٥ ٥- اهتمام القرآن لليهودية والنصرانية واهلها وصلة ذلك بالرسالة المحمدية
٣٨	٥٩ الفصل الاول
٣٨	٣٩ نشأة النبي وحياته قبل البعثة
٣٩	٤٣ استطراد وتعليق على تشكيك بعض المستشرقين في عروبة النبي وفرسيته واسمه
٤٣	٤٦ طفولته
٤٦	٤٨ اخلاقه
٤٩	٥٩ شبابه وزواجه واعتكافاته وبعض احداث من سيرته
٦٢	١٣٦ الفصل الثاني
٦٣	٦٣ بعثة النبي وسيرته في مكة بعد البعثة
٦٣	٦٥ علنية الدعوة منذ البدء
٦٥	٦٧ موقف ابي لهب وباعثه وأثره
٦٧	٦٨ فتور الوحي على النبي
٦٨	٦٩ انذار النبي لعشيرته الأقربين
٦٩	٧٤ الجدل حول القرآن بين النبي وزعماء الكفار
٧٤	٧٦ استطراد الى تهمة المفرضين من المبشرين والمستشرقين للنبي بالجنون والافتراء
٧٦	٨٢ عروض زعماء الكفار ومفاوضاتهم مع النبي
٨٢	٨٣ حجاج المشركين ولجاجهم في صدد الحياة الاخروية

من ص الى ص	
٨٤	٩١ تحدي المشركين للنبي بالمعجزات
٩١	٩٤ الاسراء والمعراج
٩٥	٩٨ اضطهاد زعماء المشركين للمستضعفين من المؤمنين
٩٩	٩٩ مقابلة بعض المؤمنين الأذى بثله ونهى الله عن ذلك وحكمته
٩٩	١٠١ استطراد إلى تعليل موقف الزعماء
١٠١	١٠٣ كان المؤمنون الاولون في مكة رمزاً رائعاً للبشر جميعهم
١٠٣	١٠٤ ركن الزكاة وحكمة التبكيير في فرضه
١٠٥	١١٠ الهجرة الى الحبشة
١١١	١١٣ صور اخرى من الضغط والأذى
١١٣	١١٦ ما تعرض له النبي وعشيرته من الأذى والضغط
١١٦	١١٨ اسلام حمزة وعمر رضي الله عنها
١١٨	١١٩ المقاطعة التي اعلنها زعماء قريش ضد عشيرة النبي
١١٩	١٢٠ تفكيير النبي بالهجرة الى الحبشة
١٢١	١٢٣ جراءة قريش على أذى النبي بعدموت ابي طالب وذهابه الى الطائف وعرضه نفسه على القبائل
١٢٣	١٢٧ اتصال النبي بجماعة من الخزرج والانس وتلاحق الاتصالات والبيعة ومندوب النبي في المدينة
١٢٧	١٢٨ هجرة المؤمنين إلى المدينة
١٢٨	١٣١ استشعار قريش بالخطر وتأميرهم على النبي وهجرته إلى المدينة
١٣١	١٣٦ الكتابيون في العهد المكي وموقفهم من البعثة النبوية
١٣٦	١٣٦ تعليل لكثرة الآيات المكية في تثبيت النبي وتسليته
١٣٨	الفصل الثالث
١٣٨	السيرة النبوية في المدينة
١٣٨	١٣٩ مسجد النبي ومساكنه
١٣٩	الأذان
١٣٩	١٤٠ المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار
١٤٠	١٤٢ الدستور الذي وضعه النبي لأهل المدينة ومداه وهو كتاب المواعدة

من ص الى ص	
١٤٢	١٧٢ حركة المعارضة والنفاق
١٧٣	١٧٨ الحركات الجهادية ضد اعداء الاسلام تمهيد
١٧٨	١٩١ الوقائع الحربية بين المسلمين واهل مكة
١٩١	١٩٦ صلح الحديبية ومداه
١٩٦	١٩٧ زيارة النبي للكعبة
١٩٧	٢٠١ استطراد وبحت فيما اذا كان المسلمون أدوا فرض الحج قبل فتح مكة
٢٠١	٢٠٤ فتح مكة ومداه
٢٠٥	٢١٦ الوقائع الحربية مع القبائل العربية
٢١٧	٢٢٨ نشاط النبي عليه السلام في نشر الدعوة بين العرب ورسله ورسائله الى ملوكهم وزعمائهم والنجاح العظيم في ذلك
٢٢٩	٢٣٤ استدراك وتعليق على بيان المجتمع الاسلامي الذي وطده رسول الله
٢٣٤	٢٤٤ رسل النبي وكتبه الى الملوك والامراء خارج الجزيرة
٢٤٤	٢٤٩ موقف اليهود في العهد المدني
٢٤٩	٢٦٠ التنكيل باليهود في المدينة
٢٦٠	٢٦٤ التنكيل باليهود خارج المدينة
٢٦٤	٢٦٨ النصراني في العهد المدني
٢٦٨	٢٧٨ الاصطدام والحرب بين المسلمين والنصارى
٢٧٩	٢٨٢ حج أبي بكر بالناس في العام التاسع
٢٨٣	٢٨٤ حجة الوداع
٢٨٥	٢٨٩ مرض النبي ووفاته وظهور الأنبياء الكذابين في أثناء ذلك والمآثرات الاخيرة عنه
٢٨٩	٣٠٩ بعض خصوصيات رسول الله بعد بعثته : نساؤه - اولاده - بيوتته - صفته - مجالسه - خاتم النبوة - لباسه - طعامه - زينته - سلاحه - شعره - خيله - هجنه
٣١٠	٣١٢ خاتمة في الرسالة المحمدية
٣١٣	الدستور القرآني في شؤون الحياة

من ص الى ص	
٣١٣	٣١٤ فصل تمهيدي في نظرة القرآن الى الحياة الدنيا

الباب الاول : في النظام السيامي

٣١٥	٣٢١ نظام الدولة
٣٢١	٣٢٣ النظام المالي
٣٢٤	٣٢٩ النظام القضائي
٣٣٠	٣٣٤ النظام الجهادي
٣٣٥	٣٣٧ النظام التبشيري

الباب الثاني : في النظام الاجتماعي

٣٣٨	٣٤٠ التضامن الاجتماعي
٣٤١	٣٤٢ الحرية والاخاء والمساواة
٣٤٥	٣٤٧ الأسرة والآداب السلوكية
٣٤٧	٣٤٩ مبادئ اجتماعية عامة

الباب الثالث : في النظام الشخصي

٣٤٩	٣٥٢ الاخلاق والصفات الشخصية
٣٥٢	٣٥٢ إصلاح المسلم ومعالجته روحياً
٣٥٤	٣٥٥ مسؤولية المسلم عن عمله واثرها في سلوكه